

# منهج القرآن في تربية المجتمع

دكتور

عبد الفتاح عاشور

أستاذ التفسير وعلوم القرآن - المساعد  
بجامعة الأزهر والجامعة الإسلامية  
والمعهد العالي للدعوة الإسلامية  
بالمدينة المنورة

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

الناشر

مكتبة الخانجي بمصر

في غرة رجب ١٣٩٢ هـ الموافق ١٠ أغسطس ١٩٧٢ م  
نال المؤلف بهذا البحث درجة العالمية (الدكتوراه) في التفسير وعلوم  
القرآن من كلية أصول الدين - جامعة الأزهر .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ  
تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ  
مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \*  
صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى  
اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » .

( صدق الله العظيم )

( سورة الشورى ٤٣/٥٢ ، ٥٣ )



## تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين  
وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم وسار على نهجهم الى يوم  
الدين ..

« أما بعد »

ففي ظلال العلم وتحت لوائه تمر الانسانية - في عصرنا هذا -  
بمرحلة خطيرة لم تحدث في تاريخها كله .. وذلك أن العلم الذي  
تستظل به هو علم المادة والسيطرة على مظاهر الطبيعة وتسخيرها لخدمة  
الانسان .. وكان يمكن أن يكون هذا التقدم العظيم في مجال الكشف  
والاختراع وسيلة لاسعاد البشر لو أنه أشرق من أفق السوحى الالهى  
والتشريع الربانى وسار على هدى الله وتوجيهه .. لكن الظروف التى  
تطور فيها البحث العلمى أدت الى انفصاله عن دين الله وهديه بل والعداء  
لدين الله وهديه ..

وذلك أن أوربا التى استيقظت على البعث الاسلامى وجدت أمامها  
الكنيسة ورجالها تفرض سلطانها وجهلها باسم الدين ، وتشرد وتعذب  
وتقتل كل من رفع صوته بخلاف ما تؤمن به ، وظن الناس أن ذلك دين  
الله فثاروا عليه وعلى رجاله ، وانطلقوا فى طريقهم يرفضون كل دين ..

ومن سوء الحظ أن الأمة الاسلامية التى بثت الحياة فى الدول  
الأوربية كانت قد راحت فى سبات عميق وسيطر الجهل والفقر والتأخر  
على مجتمعات الاسلام فى الوقت الذى انطلق فيه عملاق العلم يحطم كل  
فيد وفى مقدمة ذلك قيد هذا الدين ورجال الدين وقفوا عقبة فى سبيل

التقدم .. ورغم أن الاسلام لا يعرف هذا العداء ولم يثبت في أرضه  
 - فالاسلام صانع العلم والعلماء ورائد النهضة والمدنية - الا أن هذا  
 الوباء : وباء الانفصال بين العلم والدين أصاب العالم كله فانحرف باسم  
 العلم عن طريق الاله العظيم وأصبح كالمجنون أعطيته سلاحا فضرب به  
 نفسه وقتل به غيره .. وهدد العلم حياة الناس وأذهب أمنهم  
 وراحتهم .. وصار القوى بما يمتلك من وسائل القوة يفرض سلطانه  
 وجبروته وظلمه على الضعفاء ... وعاد الأمر همجية ووحشية ..  
 وشاعت النظريات الفاسدة والأفكار المنحلة فحطمت ما تبقى من مبادئ  
 وها هو ذا العالم اليوم يعاني التمزق والضياع ولا يدري من أين يأتيه  
 التمزق والضياع !! يحاول أن يلم شعثه ويستجمع نفسه فيعب من كأس  
 الملذات والشهوات !! وأن يداوى جروحه بما يسره لنفسه من وسائل  
 الترفيه والترويح فلا يزيده ذلك كله الا تمزقا وضياعا !! ..

وما أحوج العالم المجهد المتعب الى أن يرى نور القرآن الذى  
 أضاء الدنيا يوم أن لفها الظلام وخيم عليها البؤس والشقاء فبدد ظلامها  
 ومحا بؤسها وشقاءها بما أتاحه لها من الأمان وما رسمه لها من منهج  
 للحياة .. هذا المنهج الذى تقدم به محمد بن عبد الله - صلى الله عليه  
 وسلم - الى البشرية فحاربته وحاربها وجاهدته وجاهدها حتى وضعه  
 بين يديها وسلمه لها فاذا فيه القوة والسيادة وفيه السعادة والطمأنينة  
 والهدوء النفسى .. واذا بها ترى فيه منهجا لا كمناهج البشر انما هو  
 تخطيط يفوق قدرة البشر .. يحيط بحاجات الفرد ويلبى آمال المجتمع  
 وتطلعاته ويمزج بين الحاجات والآمال والتطلعات فى رفق ورحمة ومودة:  
 فلا ترى اعتداء الفرد على حق مجتمعه ، ولا تتألم من ظلم المجتمع للفرد ،  
 انما هو الانسجام الكامل ، والوحدة التى تحيطها النفحات والبركات ،  
 مما حاولت كل بحوث الفلاسفة والمفكرين الى يومنا هذا أن تصل الى  
 شئ منه فما استطاعت وما يمكن لها أن تستطيع فذلك أفق عال وتربية

ربانية سماوية وهذه أفكار البشر موصومة - دائما - بالعجز  
والقصور ..

ولقد أزعجني وأثارني من زمن بعيد .. من يوم أن عرفت الحياة  
واستمتعت بإشراق كتاب الله يملأ على حصى ووجداني ويستولى على  
مشاعري وكياني .. أزعجني علو الباطل وارتفاعه وتكبر ادعاء العلم  
من مفكرى الشرق والغرب الذين ظنوا أن ما عندهم حق وما عداه زور  
وبهتان وعلى أساس من فلسفتهم أقيمت مجتمعات يسرت لها الظروف  
أسباب القوة المادية في غفلة من حملة الرسالة الالهية الخالدة مما أتاح  
لهذه المجتمعات وتلك النظم الفاسدة أن تعيش هذه الفترة من الزمن .

وكثيرا ما كنت أسائل نفسي : ماذا يمكن لنا أن نقدم للانسانية  
الحائرة الضالة ؟ .

هل تقدم لها جديدا في النظريات الفلسفية البشرية أو في مجال  
الصناعة والزراعة والتقدم العلمى ؟ هل نقدم لها اضافات في عالم الفن  
والأدب ؟؟ لقد شبت من كل ذلك .. بل وشقيت بكل ذلك .. !!

وأنظر فأرى في تاريخ الاسلام الاجابة : اذ كان يجاور الجزيرة  
العربية دولتان عظيمتان هما دولة الفرس والروم .. وصلتا الى مستوى  
من الحضارة المادية والرقى الاجتماعى يقارب حضارة اليوم ويزيد ..  
وحين انطلق المسلمون من جزيرتهم الى هذه البلاد فاتحين لم يحملوا لها  
زيادة في الرقى المادى ولا فنا في الصناعة والتجارة انما حملوا لها أعظم  
هدية وأرقى مدنية تليق بهذا الانسان الذى استخلفه الله فى الأرض ..  
حملوا رسالة القرآن ومنهجه فى صنع المجتمعات وأخذوا بهذا المنهج  
يربون الأمم فأنقذوها مما تعانیه من ضيق النفس وظلم الحكام وتعاسة  
الأيام وأعادوا لها حياة الاستقرار والكرامة والعزة .

وقلت : لنا في رسول الله أسوة ، وفي أصحابه قدوة .. واننا لن نستطيع أن نقدم سوى ما قدم هذا الرسول وأصحابه الأطهار فننقذ مستقبل البشرية ونحميها من الدمار والهلاك .

والأمر بالنسبة لنا جد خطير : لأن ما بين أيدينا من كتاب الله دواء للأمراض المجتمعات وهو علينا ميثاق وعهد : ان فرطنا فيه تقضنا الميثاق وخنا عهد الله ..

لذلك بادرت بهذه الدراسة الشاملة لمنهج القرآن في تربية المجتمع بعد أن شغلني هذا الموضوع فترة طويلة من الزمن وأنا أقول : هل يمكن لروح القرآن التي بثت الحياة في أمة العرب أولا وفي الدنيا كلها ثانيا أن تدب من جديد في عالمنا فتعيد له الحياة النابضة بالسلام والمحبة والايان ؟ وهل ما زالت أنواره التي هدت قافلة الانسانية تشع سنا يضيء دياجير الشك ويمحو شبهاة الظلام .

وكان لابد لارواء النفس وتهديتها من الالتجاء الى البحث والتنقيب حتى تصل الى ما تبتغى وتريد .

ولقد اتجهت الدراسات القرآنية الى جوانب خاصة من منهج القرآن فسلطت عليها الأضواء وكشفت عن أصالتها وأهميتها لكن العالم في حاجة الى تقديم هذا المنهج متكاملا شاملا لكل حاجات المجتمعات . وهذا ما حاولت أن أصل اليه بهذا العمل المتواضع .. ولقد أردت أن يكون ذلك برهانا ساطعا على دقة منهج القرآن وعظمته وسموه واحاطته بكل جانب من جوانب حياة الأفراد والمجتمعات : فكان التمهيد لهذا بيان ما وصل اليه المجتمع العربي والعالمي قبيل نزول القرآن من فساد وضياح وذلك بدراسة أحوال المجتمع العربي الاجتماعية والسياسية

والاقتصادية ، والمؤهلات العربية لحمل الرسالة ، ودراسة المجتمع العالمي ممثلاً في بنى اسرائيل والمسيحية والامبراطورية الرومانية وبلاد فارس والهند والصين وباقي دول العالم المعروف آنذاك . ثم استنتاج تبين منه حاجة العالم كله لرسالة القرآن ..

وبعد هذا التمهيد ، الباب الأول : في القرآن والعقيدة نرى فيه دلائل وجود الله ودلائل وحدانيته وكيف هدى القرآن المشركين والملحدين الى طريق الله .. كما نرى في هذا الباب سر الثلاثة عشر عاما التي قضاه رسول الله في مكة لا يدعو لشيء من تفصيلات منهج القرآن انما يدعو الى عبادة الله وحده لا شريك له ..

وفي الباب الثاني : القرآن والتربية الأخلاقية .. نجد ارتباط الأخلاق بالعقيدة وكيف كانت العبادات أسلوباً من أساليب التربية الأخلاقية ونلمس دقة هذا المنهج وهو يغرس الأخلاق الفاضلة في النفوس وكيف نجح في ذلك ..

ثم الباب الثالث : القرآن والبناء الاجتماعي : ندرس فيه نظام الأسرة والتكافل الاجتماعي والمعاملات المالية وبناء المجتمع على الحرية والمساواة ثم نظام الحكم الاسلامي واقامته على دعائم العدل والشورى ورعاية شريعة الله يحميها الحاكم والمحكوم وكيف وصل نظام الحكم بذلك الى مستوى رفيع لم تعلم به المجتمعات أبداً ..

وفي الباب الرابع : تنظيم القرآن لعلاقة المجتمع الاسلامي بالمجتمعات الأخرى فنسعرض فيه للعلاقات الدولية في القرآن وموقف القرآن من أهل الكتاب وموقفه من أهل الشرك .. وأخيراً : خاتمة نبين فيها - بعد المقارنة تفوق منهج القرآن في تربية المجتمع على أرقى ما وصل اليه

العالم في العصر الحديث من مناهج لبناء المجتمعات وتربيتها وكيف لم  
تفلح التربية الرأسمالية أو الشيوعية في خلق المجتمع الصالح والانسان  
الصالح ..

ورغم وعورة الطريق ومشقاته التي تحتم على الباحث في مثل هذا  
الموضوع أن يحيط بكل ما كتب في الدراسات الاسلامية عامة والقرآنية  
خاصة وما أكثرها ، وتفرض عليه أن يقف طويلا متأنيا فاحصا ليستخلص  
منها شيئا .. رغم ذلك فقد غمرتني سعادة لا تعادلها سعادة وأنا أتابع  
مراحل هذا المنهج الرباني كما رسمها القرآن الكريم فأراه منهجا فريدا  
فذا يحمل العزة والكرامة والأمان لبنى الانسان ، وقد آن للمؤمنين بهذا  
المنهج الالهى أن يحملوه ويحملوا معه أرواحهم على أكفهم وينطلقوا به الى  
بلاد الله كما انطلق الرعيل الأول فينقذوا عباد الله من هوة الضلالة  
والشقاء ..

وأهمية هذا البحث في حياتنا المعاصرة تبدو عظيمة ضخمة بعد  
أن جرب الانسان كثيرا من مناهجه وأفكاره وخرافاته فقادته الى هلاكه  
وضياعه .. وأهمية الجهاد في سبيل اقراره في واقع الحياة وترجمته عمليا  
أعظم وأضخم ، مما يحتم على حملة رسالة القرآن أن يهبوا لانقاذ  
المستقبل الانساني وأن يردوا الانسانية الشاردة الى حياض القرآن  
ترتوى من نبعه المصفى وتعيش له وبه حياة الرحمة والأمان ..

وأبادر فأقول : أنا واثق من نفاسة ما أومن به أعترز به وأفأخر  
أعرضه أمام العالمين : فليأت كل قوم بما عندهم ومنهجنا القرآنى هو  
الأعلى - دائما - سوف تخز له السخرة سجدا لأنه وحى الله ومنهج الله  
وما أعظم أن تعنو له الجباه وتخضع في محرابه القلوب وأن يرفض البشر



ما اخترعوه من خرافات وأباطيل ليتوافدوا على المنهج القرآنى يترهبون  
 فى رحابه ويجعلونه لهم رائدا ودليلا وهاديا وقمرا منيرا يكشف لهم  
 عثرات الطريق •

« قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي : أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ . . . عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا  
 وَمَنِ اتَّبَعْنِي ، وَسُبِّحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ <sup>(١)</sup> » .

« وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ <sup>(٢)</sup> » ..

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

عبد الفتاح عاشور

(١) سورة يوسف ١٢/١٠٨ .

(٢) سورة هود ١١/٨٨ .



# تمهيد

## دراسة - موجزة - للمجتمع العربى والعالمى قبيل نزول القرآن

الحاجة الى التغير :

أولا - المجتمع العربى :

- ( أ ) أحواله الاجتماعية
- ( ب ) الوضع السياسى
- ( ج ) الوضع الاقتصادى
- ( د ) حالتهم الدينية والفكرية
- ( هـ ) مؤهلات العرب لحمل الرسالة

ثانيا - المجتمع العالمى :

- ( أ ) بنو اسرائيل
- ( ب ) المسيحية والامبراطورية الرومانية
- ( ج ) بلاد فارس
- ( د ) الهند
- ( هـ ) الصين
- ( و ) نظرة عامة

ثالثا - استنتاج :



## الحاجة الى التغيير

— المجتمع العربي الذي بدأ فيه القرآن نداه أولاً ..

والمجتمع العالمي الذي هو حقل الرسالة .. ثانياً

الانسان في أى أرض يعيش عليها .. هل كان في حاجة الى رسالة القرآن ?? المجتمع العربي : ما هى عاداته وتقاليده ودينه وسياسته .. هل كان ذلك في حاجة الى تدخل السماء وتعهدها لرجل تربيته وترعاه لتحمله أمانة الدعوة يبلغها في صدق الى من عاشوا في الجزيرة العربية أولاً والعالم المعروف آنذاك ثانياً ؟

وهذا العالم : ما هى أفكاره وعقائده وعاداته وأخلاقه ؟

هل ما وصل اليه الفكر الانساني قبيل نزول القرآن أدى الى اسعاد الانسان ووضع قدميه على طريق الحق والأمان .. أو أن السبل به قد التوت ، والطرق به قد ضلت فعاش موزع الاحساس مطموس الفطرة شقى القلب حائر الفكر .. فقد انسانيته ففقد معها كرامته وعزته؟ فهو في حاجة الى رحمة تشر عليه رداءها وهو في شوق الى مرفأ يحس عنده بالراحة والطمأنينة ??

المجتمع العربي والمجتمع العالمي كلاهما — اذن — يحتاج الى دراسة موسعة في أحواله الاجتماعية — والسياسية والاقتصادية والدينية .. لكن ليس هنا موضع تلك الدراسة العميقة المطولة .. ويكفى أن نشير — في اجمال — الى كل ذلك لتبين — فحسب — حاجته الى التغيير وأن تلك النظم كلها وصلت الى مرحلة خطيرة من الخبث والتعفن .. ويكفيها — أيضاً — أن نبين — في ايجاز — استعداد العالم كله للتغيير الذي جاء به — كتاب الله ، وتلك المؤهلات التي أودعها الله في البيئة العربية فكان العرب

بها أهلا لحمل هذه الرسالة الى الجنس البشرى واستطاعوا أن ينشروا  
في ربوع الدنيا مبادئ سامية أضاء بها هذا القرآن في كل بقعة غمرتها  
أنواره وشع فيها سناه ..

## أولا - المجتمع العربى :

### ( ١ ) أحواله الاجتماعية :

انقسم العرب في الجزيرة العربية الى قسمين ، بدو وحضر ، والبدو  
هو القسم الغالب :

« فأما البدو فكانوا ، ولا يزالون - يحتقرون الصناعة والتجارة انما  
يعيشون على ما تنتجه ماشيتهم : يأكلون لحومها بعد علاج بسيط  
ويشربون ألبانها ويلبسون أصوافها ويتخذون منها مساكنهم .. وإذا  
اشتد بهم الضيق أكلوا الضب واليربوع .. وهم يعتمدون في تغذية  
ماشيتهم على الطبيعة يخرجون بها في مواسم المطر الى منابت الكلا لترعى  
فاذا انتهى الموسم عادوا الى مواطنهم ينتظرون أن يحول الحول وينزل  
الغيث وإذا احتاجوا الى غير ما تنتجه ماشيتهم تعاملوا عن طريق البدل  
فكانوا يستبدلون بالماشية وتناجها ما يتطلبون من تمر ولباس ..

ونوع آخر اتخذوه وسيلة من وسائل العيش وهو الغارة والسلب:  
يغيرون على قبيلة معادية - وكثيرا ما تكون المعادة - فيأخذون جمالهم  
ويسبون نساءهم وأولادهم ، وتتربص بهم القبيلة الأخرى فتفعل ما فعلوا  
بل هم : اذا لم يجدوا عدوا من غيرهم قاتلوا أنفسهم .. ولعل خير  
ما يمثل ذلك قول القطامي :

فمن تكن الحضارة أعجبتة      فأى رجال بادية ترانا  
ومن ربط الجحاش فان فينا      قنا صلبا وأفراسا حسانا

وكنا اذا أغرن على قبيل فأعوزهن نهب حيث كانا  
 أغرن من الضباب على حلال وضبة .. انه من حان حانا  
 وأحيانا على بكر أخينا اذا ما لم نجد الا أخانا

أما الحضرة : فهم أرقى من ذلك كثيرا : يسكنون المدن ويقرون  
 فيها ويعيشون على التجارة أو الزراعة وقد أسسوا قبل الاسلام ممالك  
 ذات مدنية كاليمن والفساسنة في الشام واللخمين في العراق (١) » .

ولا يتوهم أن العرب في حضرة بدو عن عادات البدو كثيرا أو  
 أنهم في حالة من الرقى الاجتماعي تغنيهم عن رسالة رائدة .

كلا فالعرب : بدو وحضر .. وصلوا الى مرحلة خطيرة من الفساد  
 الاجتماعي ، وكل ما هنالك من فروق بين بدوهم وحضرهم انما هو  
 الاستقرار المادي والرقى الذي يواكب كل مجتمع تنظم حياته الاقتصادية  
 وان كان تحت هذا المظهر البراق ذلك الضعف المهين والتأخر الذي سلب  
 الانسان حرته وكرامته وأمنه ..

والمجتمع العربي مجتمع طبقي تفصل بين طبقاته حدود واضحة ،  
 تتحكم روابط الدم والقراية في تحديد طبقات هذا المجتمع : فكان فيه  
 طبقة الأحرار : وهم أبناء القبيلة الصرحاء الذين يجمع بينهم الدم الواحد  
 والنسب المشترك ..

وطبقة الموالي : وهم من انضموا الى القبيلة من العرب الأحرار من  
 غير أبناءها عن طريق الجوار أو الحلف أو العتقاء من الأرقاء فيها ..

وطبقة الأرقاء : وهم المجلوبون عن طريق الشراء أو أسرى الحرب •  
ولكل من هذه الطبقات واجب لا يتعداه فرضه عليه نظام المجتمع •  
« فالفرد جزء من قبيلة يعيش لها ويدور في فلكها •• وخير ما يصور  
ذلك قول دريد بن الصمة :

وهل أنا إلا من غزية ان غوت  
غويت وان ترشد غزية أرشد ؟ (٢) »

فاذا شذ الفرد عن قواعد المجتمع وتصرف تصرفا يسيء الى سمعة  
القبيلة نبذته القبيلة وغضبت عليه وأعلنت خلعه وأهدرت كل حق له  
عليها فلا يجد أمامه الا أحد طريقين :

اما أن يلجأ الى قبيلة أخرى يحتوى بحماها ويصبح مولى من مواليها  
أو أن يخرج الى الصحراء يلوذ بها ويعتمد على قوته في فرض نفسه على  
مجتمع قطع كل صلة بينه وبينه فيصبح النهب والسلب وقطع الطريق  
وسيلته للحياة وأسباب الرزق ••

وأهم الواجبات التي تقع على أفراد القبيلة الأخذ بالثأر ممن سولت  
له نفسه من القبائل الأخرى ان يعتدى على أحد ابنائها مهما كلفهم ذلك  
من جهد ومال ودماء ••

« ولقد كان العرف يجعل الثائر يلتزم باتخاذ شارات خاصة : فهو  
يتعد عن كل ملذات الحياة : فلا يقرب النساء ولا يتطيب أو  
يتدهن (٣) » •

(٢) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، لأحمد ابراهيم الشريف



« ولا يشرب الخمر ولا يقول الشعر الا في هجاء أو رثاء ويظل على هذه الحال أياما وشهورا وأحيانا أعواما — فاذا أخذ بثأره حل له ما حرم على نفسه (٤) » الا أن العربي حين ذابت شخصيته في كيان قبيلته وجبت عليها الحماية له والدفاع عنه « بل ومعاوته في كل أمر : خير أو شر ويعبر عن ذلك قولهم : انصر أخاك ظالما أو مظلوما .. ويصوره شاعرهم :

قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم      طاروا اليه زرافات ووحدانا  
لا يسألون أخاهم حين يندبهم      في النائبات على ما قال برهانا (٤)

أما **طبقة العبيد** : فهم ليسوا من العرب الصرحاء وقد كانوا في وضع اجتماعي سيئ : فقد سلبتهم الأوضاع الاجتماعية الطبقة جميع الحقوق الانسانية التي هي من حق الانسان .. وعاشت هذه الطبقة حياة الذلة والانكسار .. ليس لها ملكية ، ولا يسمع لهم شكوى ولا يجوز للعبد أن يتزوج الا بأمر سيده على أن يتزوج رقيقا مثله .. بل ان العربي الصميم قسم الأعمال الى شريفة خسيصة : فرعى الماشية وخدمة المنزل والحلاقة والحجامة والنجارة والحدادة وأمثال ذلك مما يستتفك العربي القيام بها كانت طبقة العبيد تقوم بها ..

أما **الولي** : فهو الجار أو الحليف أو المعتق : والجوار يتم بالطلب الصريح والاجابة أو باتيان عمل يفهم منه قيام هذه الرابطة •

« وحقوق الجار المترتبة على قيام الجوار تلخص في قول هانيء ابن مسعود سيد بنى شيان حين أجار النعمان بن المنذر : « قد لزمني زمامك وأنا مانعك مما أمنع منه نفسي وأهلي وولدي ما بقى من عشيرتي الأذنين رجل (٥) » •

(٤) محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية ، للشيخ الخضرى ، ص ٢١ .

(٥) الأغاني ، ١٢٦/٢ .

والحليف : هو جار بصفة لازمة : وقد كان الرجلان يشهدان على أنفسهما ويعقدان الحلف بالمواثيق والأيمان والعهود .. وقد أورد الطبرى فى تفسيره مأثورا عن الميثاق الذى يشهد عليه الملا بين الملتحق والملتحق به :

« دمی دمک و تآرى تآرك و حربى حربک و سلمى سلمک ترثنى و آرتک و تطلب بنى و أطلب بك و تعقل عنى و أعقل عنک .. » (٦)

وفى هذا المجتمع الطبقي كانت حمية الجاهلية تتحكم فى تصرفاته • ويرى العربى أن ما تواضع عليه مجتمعه دينا يجب التزامه قال تعالى :  
« وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا : وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ  
أَمَرَنَا بِهَا .. » (٧)

وقال :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ .. قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ  
شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ .. » (٨)

وبقى هذا التفاوت الطبقي رغم الاحساس بالقرابة ووجود علاقات الحلف والجوار وأصبح أمرا مقروا ومؤثرا من تمايز الناس ووجود طبقات عليا وطبقات سفلى وطبقات أشرف وطبقات سوقة وعوام ..

(٦) جامع البيان ، للطبرى ، ج ٨ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦

(٧) سورة الاعراف ٢٨/٧ .

(٨) سورة البقرة ١٧٠/٢ .

أما صلة الرجل بالمرأة : فكانت صلة السيد المتحكم قمين لا أمر لهم ولا قدرة عندهم ، هذه صلة النكاح وهى الرباط الذى يتم به تكوين أسرة .. تروى لنا السيدة عائشة رضى الله عنها صورة عن هذه الصلة فتقول :

« ان النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : منها نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل الى الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها ، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته اذا طهرت من طمثها أرسلنى الى فلان فاستبضعى منه فاذا تبين حملها أصابها زوجها اذا أحب ، وانما يفعل ذلك رغبة فى نجاة الولد .. فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . ونكاح آخر : يجتمع الزهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فاذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهذا ابنك يا فلان : تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل .. والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهن البغايا : كن ينصبن على أهواهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن فاذا حملت احداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا القافة (\*) ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطه (\*\*) ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك (٩) » .

ومع هذه الصورة المزعجة التى قدمتها لنا السيدة عائشة فهناك من يحاول أن يعلى من قدر الأمة العربية تعصبا وحمية لها : فيدعى أن

(\*) القافة : جمع قائف ، وهو الذى يعرف شبه الولد بالوالد بالآثار الخفية .

(\*\*) التاطة : الحق به ، وأصل اللوط [ بفتح اللام ] اللصوق .

(٩) البخارى ، كتاب النكاح ، باب من قال لا نكاح الا بولى .

النوع الأول هو ما عليه جمهورهم « وما عداه فمقصود على ذوى الدعارة من الشبان الذين لا يخلو منهم زمان أو مكان ولم يكونوا يطلقون عليه إلا السفاح واتخاذ الأخدان ولم يكن ذلك أمرا مستحسنا عند جمهورهم » ويؤكد ذلك بقوله : « اذ المعروف عن العربى من غيرته على أهله ومحافظة على شرفه يبعد ذلك (١٠) » •

ولكن مجتمعا لا تحكمه شريعة هادية ولا يقوده دين صحيح ولا توجهه نداءات السماء لا يستبعد أن تكون فيه تلك المهازل الخلقية والضة والمهانة مما لا يصلح معه دفاع الشيخ الخضرى تكريما لأمة جاهلة وبيانا لفضل جماعات من الناس تحكمهم الشهوة ويسيطر عليهم حب الغلب ويشهد عليهم شاهد منهم هو جعفر بن أبى طالب فيقول للنجاشى :

« أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوى منا الضعيف •• إلى آخر ما قال (١١) » •

ولقد كانت المرأة فى وضع اجتماعى سيء تحملت ألوانا كثيرة من الظلم فقد كان من عادات هذا المجتمع أن يطلق الواحد منهم امرأته فإذا قارب موعد انتهاء عدتها راجعها لا عن حاجة ولا لمجة ولكن لقصد تطويل العدة وتوسيع مدة الانتظار ضرارا ، وكان الرجل يطلق امرأته ويقول : كنت لاعبا ، كما كانوا يمنعون النساء أن يتزوجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عدتهن حمية الجاهلية ، بل انهم كانوا اذا مات الرجل أصبح أولياؤه أحق بامرأته وكأنها متاع يورث فان شاءوا

(١٠) محاضرات فى تاريخ الامم الاسلامية ، للشيخ الخضرى ، ج ١

ص ٢٠ •

(١١) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٦٢ •

تزوجها واحد منهم أو زوجها من أرادوا أو منعوها من الزواج أما هي فليس لها رأى ولا حيلة •

ولعل التعاسة والشقاء والأوهام التى تبدأ بها المرأة أول خطوة في طريق الحياة المستقرة تعطى دليلا واضحا لما كانت عليه المرأة في الجاهلية: فبرغم ما فرضه عليها المجتمع من قيود سلبت ارادتها طعنها في أعز ما تملك ووجه اليها سهمي قاتلا في أقوى عاطفة لديها انها عاطفة الأمومة : وذلك أنها اذا حملت سيطر على وجدانها خوف أذهب من حياتها السعادة والاستقرار لأن مصير طفلتها الوأد : « وكانت مذاهبهم مختلفة في الوأد وقتل الأولاد : فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحق العار بهم من أجلهن وهم بنو تميم وكندة وقبائل آخرون (١٢) » • ومنهم من كان يئد البنات لغير تلك الأسباب •

وكيفية الوأد والطريقة التى يؤدى بها بشعة مجافية للرحمة والانسانية فانهم كانوا اذا بلغت البنت ست سنوات يأمرؤن أمها بتطبيها وتزيينها ويذهب الواحد منهم بابنته هذه الى الصحراء وهناك يكون قد حفر لها بئرا فيقول لها انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالأرض •

وصورة أخرى يرويها ابن عباس فيقول : « كانت الحامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة فاذا ولدت بنتا رمت بها في الحفرة واذا ولدت ولدا حبسته (١٣) » •

والوآد المحقق للبنت المشوهة الخلقة : تشاؤما من هذا التشويه •

(١٢) العرب وأطوارهم ، محمد عبد الجواد الأصمعى ، ج ١ ص ٢٥٢

(١٣) المرجع السابق ، ج ١ ، ٢٥٣ •

واذن فقد وصلت المرأة العربية الى حالة بائسة فى الوضع الاجتماعى وعاشت شبه أمة مستعبدة لا ملك لها ولا مشورة وما ورد فى شعرهم من التغنى بجمالها واثبات أهميتها انما كان خيال شعراء وارضاء لمتعة يقضيها رجل .

والواقع غير الخيال فلنسأل هذا الواقع ينبئنا النبأ اليقين ويشهد أن المرأة العربية عاشت على هامش المجتمع لا أثر لها ولا اقتدار لديها .

### ( ب ) الوضع السياسى :

فاذا ما تركنا صلات الرجل بأهله وجيرانه ووضع الفرد فى المجتمع العربى لنلقى نظرة سريعة على الوضع السياسى الذى كانت تحياه الجزيرة العربية قبيل نزول القرآن فاننا نجد أن العرب كانوا جماعات غير منظمة تحيا حياة قبلية ويحكمها عرف القبيلة وسلطانها وهو لم يكن سلطانا يسيطر فيه الحاكم على المحكوم ، ولهذا الحاكم نواب وقادة ، وقضاة ، وجيش منظم ، وحكومة تضرب على أيدي المعتدى ، وانما كان قوة اجتماعية رأت الجماعة العربية فيها حفظا لكيانها وتيسيرا لمصالحها ومع ذلك فهم قوم أحرار لا يملكهم أحد : يثار المعتدى عليه لنفسه ممن اعتدى عليه وعلى قبيلته أن تشد أزره . يقول ابن حزم : « وكانت العرب بلا خلاف قوما لقاحا لا يملكهم أحد كربيعة ومضر وأياد وقضاة ، أو ملوكا فى بلادهم يتوارثون الملك كابرا عن كابر .. » (١٤) .

ويوضح هذا الوضع السياسى سير توماس أرنولد فيقول « لم يكن هناك اطلاقا أى منهج منظم للإدارة أو القضاء كالذى نعرفه عن فكرة الحكومة فى العصر الحديث .. وكانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف

جماعة منفصلة مستقلة تمام الاستقلال وينسحب هذا الاستقلال أيضا على أفراد القبيلة : فكل فرد منهم لا يعتبر زعامة شيخ القبيلة أو سلطته الا رمزا لفكرة عامة شاءت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب بل كان مطلق الحرية في أن يرفض ما اجتمع عليه رأى الأغلبية من أبناء قبيلته .. وأبعد من هذا : أنه لم يكن هناك نظام لنقل سلطة الرئيس ، اذ كان يختار لها — غالبا — أكبر أفراد القبيلة سنا ، وأكثرهم مالا ، وأعظمهم نفوذا ، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصى ، واذا ما تضخمت قبيلته تشعبت فروعها كثيرة يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل ولا تتحد الا في ظروف غير عادية اشتراكا في الدفاع عن القبيلة أو قياما بغارات بالغة الخطورة .. (١٥) » .

ولكننا لا ننسى أن تصرف الفرد الشخصى الذى يتحدث عنه «أرنولد» ليس مطلقا تماما : فانه حر في أن يرفض ما اجتمع عليه أبناء القبيلة أو أن يأخذ به لكن جزاء هذا الرفض خطير لأنه يعرض صاحبه الى الطرد والابعاد والخلع وحينئذ لا يجد له سبيلا الا الالتجاء الى قبيلة أخرى يحتسى بها ويصبح مولى من موالىها أو يعمد الى الصحراء يتخذ من السلب والنهب وقطع الطريق وسيلة للحياة وطريقا يمر به عما يحس به من حرمان وطرد .

وكيف يعرف النظام السياسى طريقه الى قوم انعدمت بينهم روح الاجتماع وتحكمت فيهم عصبية الجاهلية ووقفت كل قبيلة لأختها بالمرصاد تنتهز فرصة للاقتضاض عليها والاستيلاء على مواردها وليس لذلك من سبب الا حياتهم المجذبة الفقيرة وتنافسهم فى الاستحواذ على مواطن الكلا والعشب .. ؟ ..

ويزيد نيران العداوة اشتعالا : كبر مسيطر على النفوس وحب في اشباع غريزة السيطرة والاستعلاء .. ترى ذلك في وضوح اذا مات أكبر الاخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فيتنازع أعمامه رئاسة العشيرة ولا يسلم أحد منهم للآخر فيورثهم ذلك تباغضا تزيده الأيام شدة .. وتبقى احن في الصدور وعداوات في القلوب تدفع الى حروب طاحنة تؤدي الى تيتيم الأطفال وتأليم النساء : « لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب والمنازعات قلما يخلو منها زمان أو مكان واذا رجعت الى أسبابها المباشرة وجدتها في بعض الأحيان تافهة كما كان في حروب الفجار .. وفي البعض الآخر تراها أمورا يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب ولكن الأسباب الحقيقية سابقة على ذلك وهي النفور المتأصل في القلوب .. (١٦) » .

أمة مزقتها الحروب وأنهكت قواها الأحقاد والثارات فلا غرو أن تسقط ممالكها الشهيرة تحت أيدي المحتل الغاصب « فاليمن فقدت استقلالها منذ نهاية الربع الأول من القرن السادس وسقطت تحت حكم الأحباش ثم حكم الفرس .. (١٧) » وبعد أن كانت تتحكم في التجارة بين الشرق والغرب سادها الاضطراب وفقدت منزلتها التجارية العظيمة ..

« والحيرة » أضحت امارة فارسية يحكمها أمير فارسي ولم تعد لها مكائنها في حماية حدود الجزيرة العربية ..

ومملكة « الغساسنة » ضاعت هيبتها بعد أن غير الروم سياستهم نحوها وأصبح أمرها فوضى ..

(١٦) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ الخضري ، ص ٢٤ .

(١٧) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، ج ١ ، ص ٢٥٣ ،



ولم يبق متمتعاً بالاستقلال سوى « مكة » فقد كانت هي البلد الآمن الذي لم يخضع لحاكم أجنبي قط والذي اشتهر بقدرته على حماية العائدين بيت الله الحرام وانزال السكينة والسلام عليهم .. وفي ذلك يقول الله ممثناً على أهل مكة :

« أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ؟ » (١٨).

ويقول :

« فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ .. » (١٩).

وأصبحت « مكة » تمثل القلب النابض للجزيرة العربية يتمتع أهلها بنوع من السلطة والتنظيم الاجتماعي فقد اقتسمت عائلات « مكة » المناصب الكبرى فيها : فاخص الهاشميون بالسقاية ، وبنو عبد الدار بالسدانة والحجابة واللواء والندوة ، وبنو سهم جباية الأموال ، وبنو عدى : السفارة ، وبنو مخزوم السقية ، وبنو أمية : العقاب ، وبنو تيم : الديات ، وبنو نوفل : الرقادة ..

ومثلت « دار الندوة » صورة للحكم النيابي ، ووضع التنظيم الاجتماعي لها شروطاً معينة فلم يكن يقبل في عضويتها من لم يبلغ سن الأربعين من غير قريش إلا أن يكون قد امتاز بميزة خاصة لذلك كان الشيوخ الطاعنون في السن وكبار التجار والشعراء يمثلون معظم أعضائها

(١٨) سورة العنكبوت ، ٦٧/٢٩ .

(١٩) سورة قريش ، ١٠٦/٣ ، ٤ .

« وقد كان الأفخاذ من رؤساء الأسر يجلسون على التوالى طبقا لمقام أفخاذهم وكانوا لا يرمون أمرا الا بعد بحثه وتمحيصه في برلمانهم الأهلى » « دار الندوة » وكانت قراراتهم محترمة عند الجميع ونافذة على الجميع (٢٠) » •

واذا كان هذا هو حال « مكة » وحدها فان مدينة « يثرب قد انقسمت انقساما خطيرا ووقف فيها أبناء العمومة من الأوس والخزرج يتربص كل فريق بالآخر ولعبت يد « اليهود » دورها محركة الفتن ، غارسة للعدوات ، ليكون اليهود في مأمن من تجمع هؤلاء العرب ولتقوى شوكتهم وتمتلىء جيوبهم بالمال حين يتفرق هؤلاء ، ولا يتفرغ واحد منهم لمنافسة اليهود في ميدان التجارة والثراء .. ومثلت موقعة « بعاث » صورة لهذه الفوضى وتلك الحروب ولم يعد أحد يأمن على نفسه الخروج من حيه لأنه يعرض نفسه للخطر .. وسادت « المدينة » حال من قلة الأمن جعلت الحياة فيها غير ممكنة فكانت الحاجة ماسة الى رجل يدخل في الفجوة المفتوحة بين الفريقين ويقضى على الفوضى لكن كان لابد أن يكون رجلا محايدا لا تشوبه شائبة التورط في المنافسات الداخلية بين القبيلتين .. (٢١) » •

اليمن ، ومملكتا الحيرة والغساسنة طمع فيها العدو .. و « يثرب » ممزقة الأوصال ، وباقي الجزيرة صحراء تنتشر فيها القبائل العربية هنا وهناك وبعض بلادهم المستقرة كالطائف لا أثر لها يذكر وليس هناك سوى « مكة » تتمتع بثقة غالية من كل أنحاء الجزيرة لوجود بيت الله الحرام الذى تعظمه سائر العرب ..

(٢٠) نشأة الدولة الاسلامية د. أمين سعيد ، ص ٤ .

(٢١) تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية للمستشرق الالماني يوليوس فلهوزن ، ترجمة د. عبد الهادى أبو ريده ، ص ٧ .

قوم هذا وضعهم السياسى ماذا يصنعون أمام من كانوا يطلقون عليهم : الأسدين ??

وماذا تكون قوتهم أمام أكبر امبراطوريتين فى العالم آنذاك ؟

دولتى الفرس والروم .. ؟

هل من رباط يضم شتات تلك القبائل المتناحرة ويضمد جراح مسالكهم الضائعة حتى يستطيع العرب الوقوف فى وجه الخطر الذى يجثم على صدورهم فى الشرق والغرب ??

لقد حنوا الى هذا التجمع فانتشرت المحالفات بصورة واسعة فى النصف الثانى من القرن السادس بين القبائل تعبيراً عن احساس القبيلة بأنها لا تستطيع أن تعيش فى مجالها الضيق وأنها محتاجة الى غيرها من القبائل تتحالف معها وتؤاخيها وتربط مصيرها بمصيرها ..

وأحيوا ما درس من حرمة الأشهر ومنعوا فيها القتال حتى يتوافروا فيها لاصلاح أنفسهم كما عظموا « الكعبة » فكانت ملجأ للخائف والعائد وهذا كله يبين مدى احساس العرب بأنهم فى حاجة الى يد حانية تجمعهم ودولة توجههم ، فقد سئموا الحروب وملوا التفرق وكرهوا ما هم عليه من انقسام وفوضى ، لكن هذا الاحساس ما كان يغنى شيئاً وما كان ليغير من واقعهم شيئاً ، وليس هناك من يأخذ بأيديهم الى طريق الوحدة ويهديهم سواء السبيل ، بل ما كان هذا الاحساس لينقذهم مما هم فيه وباقي جوانب المجتمع الاجتماعية والاقتصادية والدينية والفكرية فى حال من الاضطراب الذى يحتاج الى صيحة قوية توقظ المشاعر وتحمل المشاعر وتبتاد الطريق ..

### ( ج ) الوضع الاقتصادى :

نعم ما كان شعورهم بالحاجة الماسة الى الأمان والرحمة والاستقرار ليرفعهم الى مرتبة هذا التصور وقد بلغت حالتهم الاقتصادية حدا خطيرا من الانتهازية والاستغلال فأثرى القوى على حساب الضعيف وأصبح التفاوت بين الأغنياء والفقراء يهدد المجتمع بالانهيار والدمار •

هذا - مثلا - عبد الله بن جدعان التميمي يشرب في كأس من الذهب حتى سمي «حاسى الذهب» ، وآخر « كعبد المطلب بن هاشم يكفن في حل قيمتها ألف مثقال من الذهب وطرح عليه المسك حتى ستره، كما اشتهر بنو مخزوم بالثروة والمال حتى كان أحدهم وهو عبد الله بن أبى ربيعة يلقب بعذل قريش وقد كان رجلا موسرا وكان متجره الى اليمن •• (٢٢) » ••

وهذا أبو أحيحة بن سعيد بن العاص بن أمية يشترك في القافلة التى كان يقودها أبو سفيان بن حرب والتي كانت السبب في موقعة « بدر » يشترك بثلاثين ألف دينار •• وهذا المبلغ يمثل الثراء الذى كان عليه هؤلاء في تلك الأيام ••

وبجانب هؤلاء آلاف من الرقيق والموالى ومن لا يمتلكون شيئا • يطحنهم الفقر ويهدم الاحتياج المر الى القوات فامتلات صدورهم بالعداوة والحقد •• وفي مرتفعات الصحراء وعلى جنبات قوافل التجارة لهؤلاء الموسرين تألفت جماعات خطيرة من مخلوعى القبائل وشذاذ الآفاق ومن قست عليهم تلك الأوضاع الاقتصادية الجائرة ، وقد ربط بين أفراد هذه الجماعات الاحساس بالحرمان والظلم فاتخذت لنفسها طريق

السلب والنهب وسيلة للحياة في مجتمع يؤمن بأن الحق للقوة وأن الغاية تبرر الوسيلة .. وما كان لهذه الجماعات من قطاع الطرق أن تبدو ظاهرة اجتماعية لولا ما وصل اليه الوضع الاقتصادي من تعسف واستغلال لم يخفف منه عطف ذوى القلوب الرحيمة ولا كرم أهل المروءة والنخوة ممن لا يخلو منهم زمان أو مكان ..

ولقد كان التعامل « بالربا » يمثل المظهر الاقتصادي والتجاري وكان مصدر ربح ووسيلة لتنمية الثروة معترفا به .. وكان يبلغ أحيانا أضعاف القرض دون مारحة أو شفقة فتضيع بذلك أموال المدين ويحيا حياة الفقر والحرمان ..

وبجانب الربا كانت المساومات وبيع البضائع المتوهمة التي لم تصل بعد .. كما باعوا المحاصيل قبل حلول يوم الحصاد بوقت طويل مما أدى الى اقلاس بيوت واثراء أخرى ..

« ولم تكن هناك رقابة على ضبط المكايل وتنظيم البيع والشراء وحماية السذج من البدو من الوقوع في يد المحتالين والغشاشين .. ومع أن الكيل والوزن كان موجودا إلا أن البيع والشراء مجازفة كان أمرا نائدا .. كما كان من وسائلهم المناجشة في البيع وهي : أن يزيد شخص في السلعة أكثر من ثمنها لا ليشتريها ولكن ليغري غيره فيقع فيها .. كما كان الغش والمخادعة أمرا جاريا في الأسواق فكانوا يبلون الحنطة والشعير ليكثر كيلها أو يخفون الرديء داخل الطيب ويخطون التمر الرديء بالجيد ويحفلون « يصرون » الابل والغنم والبقر فلا يجلبونها أياما حتى تبدو كثيرة اللبن ثم يبيعونها (٢٣) .. »

وشاع بينهم البيع بالنسيئة « تأجيل الثمن » ومثلت الرهون الفاسدة نوعا سيئا للاستغلال فقد كان انتفاع الدائن بالرهون والاستيلاء عليه ان عجز المدين أمرا شائعا ، ومع هذا الفساد الاقتصادي تسخير العقائد الفاسدة في ابتزاز الأموال والاكتار من جمعها فقد قال أهل مكة : « لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجا أو عمارا ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم الا في ثياب « الحمس »<sup>(٢٤)</sup> . فان لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة فان تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب « الحمس » فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها اذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسه هو ولا أحد غيره أبدا وكانت العرب تسمى تلك الثياب « اللقى »<sup>(٢٥)</sup> .

الا أن التاريخ يبين لنا أن الطواف مع العرى كان مبالغة في التقديس والتطهر ولكن قريشا استغلت تلك العادة القديمة لصالحها وفرضت ثيابها وطعامها على العرب . وما زال حق « الحمس » يتطور حتى صار ديننا متبعا ..

أرأيت هذا الفساد الذي عم المجتمع ؟ وكيف سيطر حب المال على كل خلق وكل فضيلة فخرج الأثرياء بتجارتهن في الصيف والشتاء الى البلاد والممالك المجاورة يربحون ويتمتعون .. وبقي أهل الفاقة والضعفاء يلحقون جراح فاقتهن وضعفهم ويحملون بين جوانبهم ثورة عارمة على تلك الأوضاع الفاسدة الشاذة التي ظهرت بوادرها في هؤلاء الذين اتشروا

(٢٤) الحمس : لقب قريش سميت بذلك لتحمسها وتشدها في

دينها .

(٢٥) ابن هشام ، ج ١ ص ١٣٣ .

عبر الصحراء يغيرون وينهبون ويقتلون ويفرضون حياتهم على مجتمع تقطعت بينه وبينهم وسائل العيش النظيف والحياة الآمنة المستقرة؟؟ ..

#### ( د ) حالتهم الدينية والفكرية :

وفساد تلك النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية يرجع أول ما يرجع الى أنه لا دين يصلح ولا شريعة تحكم ، ولا قانون يفرض سلطانه على النفوس ويوجه القلوب ، انما هى بقايا دين ضاعت معالمه ولم يبق منه الا ما أضافه الجهل وسطره الهوى والشهوة من الأوهام والخرافات وليس له من دليل .. وليس لأصحابه عليه من حجة ولا برهان وتوزعت الجزيرة العربية أديان مختلفة الا أنها جميعها لم تعط صورة واضحة للاله الحق .. اذ بعد أن رفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل وعرف العرب الهمم الواحد الأحد لم يستطيعوا مواصلة مسيرة التوحيد ، ولم تستطع عقولهم أن تتصور حقيقة الألوهية كما أوضحها الأنبياء والمرسلون ، ولم يدركوا الا أشياء محسوسة لديهم ، يرونها بعيونهم ويلبسونها بأيديهم ، وانقلب تعظيمهم لله الى تعظيم للحجارة وغيرها والتقرب بذلك الى الله .

يقول الخضرى : « ان العرب لما كثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار فى أرجاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئاً من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون معهم أثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها الى المعبود الأعظم (٢٦) »

وأول من نقل بعض الأوثان من بلاد الشام الى الكعبة هو عمرو بن لحي فوجد استعداداً عند العرب من تعظيمها لأحجار الكعبة فعبدها ..

(٢٦) محاضرات فى تاريخ الامم الاسلامية للشيخ الخضرى ، ص ٤٤ .

روى ابن الكلبي : أن عمرو بن لحي مرض مرضاً شديداً فقبل له  
ان بالبقاء من الشام حمة اذا أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرأ ووجد  
أهلها يعبدون الأصنام فقال : ما هذا : فقالوا : نستسقي بها المطر ونستنصر  
بها على العدو .. فسألهم أن يعطوه منها .. فنقلها وقدم بها مكة ونصبها  
حول الكعبة .. (٢٧) » .

وهناك سبب آخر لعبادة الأصنام يرويه ابن الكلبي أيضاً وهو  
تقديس الأفراد وتعظيمهم فهذا « اساف ونائلة من جرهم » وكان  
« اساف » يعشق « نائلة » ثم قدما للحج فدخلوا الكعبة فوجدا غفلة من  
الناس وخلوة في البيت فواقعها فمسخا حجرتين فوضعا عند الكعبة ليتعظ  
بهما الناس فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها .. (٢٨) » .

الا أنهم مع عبادتهم للأصنام لم يكونوا ينكرون وجود الله  
— سبحانه — فاذا ما سئلوا عن خلق السموات والأرض قالوا :  
« خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » (٢٩) .

انما عبادتهم للأصنام — كما حكى الله عنهم اذ قالوا :  
« مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » (٣٠) .

وبقيت للعرب آثار من نداءات اسماعيل عليه السلام « فقد كان كما قال  
ربنا : « صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ  
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » (٣١) » .

(٢٧) الأصنام لابن الكلبي ص ٨ .

(٢٨) الأصنام لابن الكلبي ، ص ٩ ، ٢٩ .

(٢٩) سورة الزخرف ٩/٤٣ .

(٣٠) سورة الزمر ٣/٣٩ .

(٣١) سورة مريم ١٩/٥٤ ، ٥٥ .



لذلك « ما من كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف عند عرب الجاهلية بلفظها وجملة معناها كالصلاة والصيام والزكاة والطهارة ، ومناطها كلها أنها حسنة عند رب البيت أو عند الله • وجاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن الصامت أن أبا ذر الغفاري قال له : يا ابن أخي : صليت مرتين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فسأله : فأين كنت تتوجه ؟ قال : حيث وجهني الله •• وجاء في البخاري : أنهم كانوا يصومون يوم عاشوراء •• (٣٢) •

على أن عبادتهم للأصنام كانت سطحية لا تعمق فيها ولا نظر •• وهذا بعض ما ذكره ابن الكلبي مما يدل على ذلك : « كان لكتانة صنم يقال له « سعد » بساحل « جدة » فأقبل رجل بابل له ليوقفها عليه يتبرك بذلك ، فلما أدناها منه وكان عليه أثر دماء نفرت الابل وذهبت في كل وجه وتفرقت فأسف صاحبها لذلك وغضب على « سعد » وتناول حجرا ورماه به وقال : لا بارك الله فيك الها •• أنفرت على ابلي •• ثم خرج في طلبها حتى جمعها وانصرف وهو يقول :

أتينا الى سعد ليجمع شملنا      فشتتنا سعد فلا نحن من سعد  
وهل سعد الا صخرة لا قوى لها      ترجى فلا تدعى لفى ولا رشد؟

وكان « لمزينة » صنم يقال له « نهم » وكان له سادن يسمى « خزاعي بن عبد نهم » فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم ثار على الصنم فكسره وأنشأ يقول :

ذهبت الى « نهم » لأذبح عنده      غنيزة نسك كالتى كنت أفعل  
فقلت لنفسى حين راجعت عقلها      أهذا اله ؟ أبكم ليس يعقل  
أبيت •• فدينى اليوم دين محمد      اله السناء الماجد المتفضل (٣٣)

(٣٢) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، ص ١٦٩ .  
(٣٣) الأصنام لابن الكلبي ، ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ .

كما يوضح ذلك « دوزى » فيقول :

« وكانوا يغضبون من الآلهة ويجهونها بحقيقة ما يعتقدون كما كانوا يتحدونها ، وكانوا يطرحون الأزام في غضب وازدراء اذا كانت مشورتها على غير ما تهوى نفوسهم ويسبون الأصنام ويرجمونها بالحجارة اذا عاكسهم القدر فظنوه من غضب تلك الآلهة ويسقطون آلهتهم عن عروشها ويشبعونها سبا لأقل سبب (٣٤) .. »

أرأيت صورة مشوهة صنعتها الأيدي من الحجر أو الخشب كيف تسيغ العقول عبادتها والتقرب لها الا أن يكون ذلك هزلا لا جد فيه ?? ..

وهل رأيت الها يصنعه أهله من الحلوى ، فاذا جاعوا أكلوه .. ؟  
ألا ان ذلك كله لهو الضلال المبين .

نعم كانوا يحتقرون تلك الآلهة المصطنعة ومع ذلك فقد تعصبوا لها ورأوا فيها مجد الآباء والأجداد ومثلت أهم عناصر النظم الاجتماعية بل ادعوا أن عبادتهم لهذه الآلهة من مشيئة الله كما أن تحليلهم وتحريمهم دون الرجوع الى شريعة هادية من مشيئة الله أيضا ..

قال تعالى :

« وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .. ؟ » (٣٥) .

(٣٤) تاريخ الاسلام السياسى ، د. حسن ابراهيم ، ص ١٥٢ .  
(٣٥) سورة النحل ٣٥/١٦ .

وقال :

« سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا  
وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ  
قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ  
فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ » (٣٦)

ووقف بهم تفكيرهم عند هذا الحد من التعصب ولم يكلفوا أنفسهم  
البحث والنظر وأصبحت عبادة الأصنام هي الدين الشائع في الجزيرة  
العربية ..

وبجانب الوثنية كان للعرب نحل وديانات أخرى : منها الصابئة :  
ويعبد أتباعها النجوم والكواكب وقد انتشرت في بلاد اليمن وحران  
وأعلى بلاد العراق .. والقرآن يذكر عبدة الكواكب في مملكة سبأ حين  
يتحدث عن ملك سليمان وما أعطاه الله له من جزيل النعم .. ومع علم  
سليمان الواسع ففوق كل ذي علم عليم : يأتيه الهدهد من مكان بعيد  
يقول له معتذرا عن تأخيره : ما تقرأه في سورة النمل من قول الله تعالى  
على لسان الهدهد .

« أَحَاطَ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ \*  
إِنِّي وَجَدْتُ أُمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا  
عَرْشٌ عَظِيمٌ \* وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ

اللَّهُ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . » (٣٧)

وابراهيم ، عليه السلام - يجارى قومه فى عبادتهم ليأخذ بيدهم الى الاله الحق قال تعالى :

« فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ \* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ \* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ \* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (٣٨)

تلك عبادة الكواكب التى « كانت تقوم على ثالوث مكون من الاله الأب وهو : القمر - والالهة الأم وهى : الشمس .. أما الاله الابن فقد كان نجم الزهراء .. » (٣٩) .

• (٣٧) سورة النمل ٢٢/٢٧ - ٢٤ .

• (٣٨) سورة الانعام ٧٦/٦ - ٧٩ .

• (٣٩) دراسات فى تاريخ الشرق القديم لآحمد فخرى ص ١٣٣ .

وأمام هذه الآلهة المدعاة قدمت القرابين وأريق دم الانسان في سبيل  
وهم فاسد ودين باطل .. هذا عبد المطلب بن هاشم ينذر اذا بلغ بنوه  
عشرة أن يذبح واحدا منهم قربانا لآلهته فلما تحقق رجاؤه جاء بابنه  
عبد الله ليذبحه لولا أن أشير عليه بضرب القداح بينه وبين الفداء من  
الابل حتى ترضى الآلهة وما زال يضرب القداح حتى وصلت الابل مائة  
فذبحها فداء لابنه ..

قال تعالى :

« وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ  
شُرَكَاءُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ  
مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » (٤٠).

« وهذا هو المنذر بن ماء السماء ( ٥٠٥ - ٥٥٤ م ) في الحيرة  
يقدم كثيرا من أسرى المسيحيين تكريما للسيار « فينوس » ( الزهرة )  
كما كان عرب شبه جزيرة سيناء يقدمون القرابين البشرية لنفس هذا  
السيار .. ( ٤١ ) ..

كما انتشرت عبادة النار في الأماكن التي خضعت لحكم الفرس زمنا ،  
والنار تمثل العنصر الشفاف الذي يرمز الى الخير الذي لا بد أن ينتصر  
على قوة الشر كما جاء بالديانة المصطنعة التي اخترعها « زرادشت » في  
بلاد فارس .

(٤٠) سورة الأنعام ١٣٧/٦ ، وانظر ابن هشام ج ١ ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٤١) تاريخ الاسلام السياسي ص ٧١ .

أما الأديان السماوية فقد دخلت الجزيرة العربية منذ وقت مبكر :  
فالنصرانية دخلت بلاد العرب بفضل جهود الدولة الرومانية الشرقية في  
القرن الرابع الميلادي ، ولما كانت العلاقات وثيقة بين العرب والبيزنطيين،  
فقد تأثر العرب بالمسيحية الى حد ما .. فانتشرت في الجنوب عن طريق  
الحبشة وفي الشمال عن طريق سورية وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديرة  
والصوامع .. وقد انقسمت النصرانية في ذلك الوقت الى عدة فرق ،  
تسرب منها الى جزيرة العرب فرقتان : فكانت النسطورية منتشرة في  
الحيرة ، واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام (٤٢) » ..

أما اليهودية : فانها جاءت من الشمال « ومن المرجح أن يكون أول  
مهاجرينهم جاءوا في القرن الأول قبل الميلاد وقد استقرت جاليات كثيرة  
منهم على طريق القوافل وبخاصة المدن التي كانت حولها أرض  
زراعية » (٤٣) .

« واشتهر بها ( أى ببلاد العرب ) دين اليهودية فان السريانيين  
واليونان طردوا اليهود من بلادهم فقابلهم بنو اسماعيل بالترحيب وتهود  
منهم كثير لما رأوه في كتب اليهود القديمة من التعظيم للاله الذي اهتدى  
الخليل عليه السلام الى عبادته سبحانه واشتهر الدين بالجهات : الحجاز  
وفواحيها : خيبر والمدينة بين قبائل قريظة والنضير ذات الشوكة المتأصلة  
هناك من زمن مديد كما اشتهر بجزء عظيم من قبائل اليمن بعد أن نقله  
التبابعة الى ممالكهم في سني ٢٥٥ ، ٣٠١ ، ٤٩٥ بعد الميلاد .. » (٤٤) .

على أن فريقا آخر من المؤرخين يرى أن « يهود هذه الجزيرة نزحوا  
اليها من فلسطين على أثر الحروب التي شنها الرومان ضد اليهود بسوريا

(٤٢) تاريخ الاسلام السياسي ص ٧١ .

(٤٣) دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١٣٢ .

(٤٤) خلاصة تاريخ العرب : لسديو ص ٣٨ .

والتي انتهت بطردهم منها وتشتتهم في أنحاء متفرقة فهاجر منهم بنو  
النضير وبنو قريظة الى شمال شبه جزيرة العرب وأقاموا بها الى أن نزع  
اليهم من بلاد اليمن قبائل الأوس والخزرج الوثنية بسبب سيل العرم  
الذي خرب بلادهم .. (٤٥) ..

والرأى الأخير هو ما نميل اليه ويؤيده الواقع التاريخي .. وكل  
ما يعيننا في موضوعنا أن نبين ما انتشر في الجزيرة العربية من ديانات  
سماوية وغير سماوية لا أن نستقصي أصل كل قوم وكيف وفدوا على  
تلك البلاد .. ويكفى أن نعرف أن تعاليم التوراة من بعث وثواب وعقاب  
شاعت في الجزيرة بسبب وجود اليهود وخاصة في الأماكن التي اختلطوا  
فيها بأهلها ..

وبين اليهودية والمسيحية كان التنافس على أشده وكانت العداوات  
كلما قوى فريق صب جام سخطه على الآخر .. ولعل ما فعله ذو نواس  
الحميري بنصارى نجدان خير دليل على ذلك .. فقد حفر لهم أخدودا  
ملاء نارا وألقى فيه من لم يرجع عن دينه ولم ينته الا بعد أن تدخل  
البيزنطيون وطلبوا من نجاشي الحبشة أن يهب لانتقاذ اخوانه في الدين ..  
وفي ذلك يقول القرآن :

« قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ \* النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ  
عَلَيْهَا قُعُودٌ \* وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا  
مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ \* الَّذِي لَهُ مُلْكُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ \* إِنَّ الَّذِينَ  
فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ  
جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ» (٤٦) .

ولم تتمكن اليهودية أو المسيحية من فرض نفسها على الجزيرة  
العربية ولم تنتشر بما يلائم ما بذل في سبيل الدعوة لكل منها من مجهودات  
ولم يدخل فيهما الا عدد قليل من العرب وما ذلك الا لأن بنى اسرائيل  
جعلوا دينهم مقصورا عليهم وادعوا أنهم شعب الله المختار ، الأمر الذى  
لا يحقق المساواة بين اليهود وغيرهم ..

والمسيحية تعددت فرقها ومذاهبها ، وامتلاّت بالتعقيدات ، ولم  
يستطع الذهن العربى أن يستسيغ مثل هذه الديانات المعقدة .. كما أن  
العربى كان يرى أن اليهودية والمسيحية شىء دخيل في حياته لا يمثل ماكان  
عليه العرب من حب الفخر والاعتزاز بالنسب والقبيلة فكانوا يتطلعون الى  
دين يعبر عنهم ويحملون أمانة رسالته ويستطيعون به الوقوف في وجه  
الأسدين : فارس والروم .. يقول القرآن :

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ  
لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إْحْدَى الْأُتُمِ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا  
زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا \* أَسْتَكَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ  
وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» (٤٧) .

(٤٦) سورة البروج ٤/٨٥ - ١٠ .

(٤٧) سورة فاطر ٤٢/٣٥ - ٤٣ .



وهكذا لم يكتب لليهودية أو النصرانية أو الزرادشتية النجاح والانتشار وبقيت عبادة الأصنام دينا شائعا في كل مكان : يمثل السذاجة في التفكير والجهل والانحراف عن طريق الحق ..

كما أن قلة من العرب وقفت بها عقولها عند الظاهر الملموس فأفكرت ما وراء الغيب ووجدت الاله الحق ، وعاشت في حيز ما ترى وما تشاهد ، وقال قائلهم ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر .. ان هي الا أرحام تدفع وأرض تبلع .. وليس لهؤلاء من دليل على هذا الانكار ان هي الا أوهام وظنون . وفيهم يقول القرآن الكريم :

« وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » (٤٨)

ولم يتنبه لهذه الحالة وما وصلت اليه من سوء الا قلة مستتيرة واعية نظرت في دين قومها فوجدته ضلالا وبهتاناً : اذ كيف يصنع الانسان الهه من حجر ثم يخسر له ساجداً ؟؟

وعبادة النار : جهل أى جهل ، واليهودية والمسيحية ملئت بالخرافات والتعقيدات .

والدهريون أبعد الناس في الانحراف عن الطريق الواضح المستقيم

ولهذا بحث هؤلاء عن دين جديد يخلط الطهر والعفة والاعتقاد الصحيح فدعوا الى توحيد الله ونبد عبادة الأوثان ، كما دعوا قومهم الى الاقلاع عن سييء العادات : كوأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر ، واهتدوا الى أن الناس لم تخلق هكذا هملا انما لابد من بعث أمام اله واحد يحاسب الناس ويجازيهم عما قدموا من خير وشر ..

وهذه النزعة التي كانت قبيل الاسلام يطلق عليها « التحنف » وعلى أصحابها « الحنفاء » أو « التائبون » ، لأنهم كانوا يقولون : نحن على دين ابراهيم .. والقرآن يقول في ابراهيم :

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (٤٩) .

ويقول :

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (٥٠) .

ولكن هذه النزعة لم تنتشر بشكل واسع انما بقى العرب في اضطراب فكري .. « وأصبح أهل الجاهلية لا يعرفون لم يصلون ولا الى من يتوسلون !! يذبح أحدهم للصنم ويدعو الى الله ، وفيهم عبدة النار وعبدة الأصنام وفيهم الموحدون والمشركون وغير ذلك من أنواع العبادات المتضاربة وظهر في أثناء ذلك الاضطراب من حرم الخمر ورفض الأصنام، وأصبح الناس يتوقعون الفرج من باب النبوة وكان ذلك حديث الناس

(٤٩) سورة آل عمران ٦٧/٣ .

(٥٠) سورة النحل ١٢٠/١٦ .

في مجالسهم ، فادعى النبوة غير واحد من قبائل مختلفة وهم بعضهم بادعائها مما يدل على تنبه الأذهان الى امر الدين والتفكير في عواقب الأعمال .. (٥١) »

وزاد الأمر سوءاً أن الخرافات والأوهام أصبحت جزءاً من عقيدتهم ومكوناً أساسياً يوجه فكرهم وحياتهم: فالغيلان والهامة والأرواح الشريرة وغير ذلك لها أو في نصيب عندهم .. يقول المسعودي : « كانت العرب قبل الاسلام تزعم أن الغيلان توقد بالليل النيران للعبث والتحيل واختلال السابلة .. قال أبو المطراب :

فلله در الغول أى رفيقة      لصاحب قفر حائف وهو معبر  
أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت      حوالى نيرانا تلوح وتزهر

والعرب قبل الاسلام تقول : ان من الجن من هو على صورة نصف الانسان وانه كان يظهر لها في أسفارها في حين خلواتها وتسميه «شقا» (٥٢) « ومن معتقداتهم الفاسدة :

أن من خرج في سفر والتفت وراءه لم يتم سفره فان التفت تطيروا له .. وأن من علق عليه كعب أرنب لم تصبه عين ولا سحر يزعمون أن الجن تهرب من الأرنب لكونها تحيض .. وأن المرأة اذا أحبت رجلاً وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد جبهما وأن الرجل اذا قدم قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباءها ، وأن الرجل اذا ضل وقلب ثيابه اهتدى ، وأن الناقة اذا نفرت وذكر اسم أمها فانها تسكن ..

(٥١) تاريخ التمدن الاسلامى لجرى زيدان ج ١ ص ٤٧ .

(٥٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ج ٢ ص ١٥٧ ،

ومن المعتقدات الفاسدة : الرتم والرقيمة والتعمية والتفقتة والعز  
وضرب الثيران عن البقر وتثنية الضربة والهامة والصفر ..

فأما الرتم : فكان أحدهم اذا أراد سفرا في الجاهلية عمد الى شجرة  
فيفقد غصنا منها فاذا عاد من سفره فوجده قد انحل قال : خانتني امرأتى  
وان وجده على حالته قال : لم تخنى ..

والرقيمة : ناقة كانت العرب اذا مات واحد منهم عقلوا ناقة عند  
قبره وسدوا عينيها حتى تموت يزعمون أنه اذا بعث من قبره ركبها ..  
والتفقتة والتعمية ، كان الرجل منهم اذا بلغت ابله ألفا قلع عين  
الفحل يزعمون أن ذلك يدفع عنها العين فاذا زادت عن الألف فقأ عينه  
الأخرى ..

والعر : داء يشبه الجرب يصيب الابل فكانوا في الجاهلية يكوون  
الابل السليمة ويزعمون أن ذلك يبرىء السقيمة من هذا الداء ..

وكانت البقر : اذا امتنعت عن الشرب يضربون الثيران ويزعمون  
أن الجن يركبون الثيران فيصدون البقر عن الشرب ..

ويزعمون أن الانسان اذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه  
ظائر كالبومة يسمى « بالهامة » ولا يزال يصيح على قبره ويقول :  
اسقوني الى أن يؤخذ بثأره ويقولون أيضا انها تخبره بما يكون بعده ..  
قال بعضهم ..

هامتى تخبرنى بما تستشعروا فتجنّبوا الشنعاء والمكروه

ويزعمون أن الصفرة حية تكون في الباطن فإذا جاع الانسان عضت شرسوفه (٥٣) فيقولون : عضت شرسوفه الصفر حتى جاء الاسلام والعرب ترى صحة الهامة والصفر فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا هامة ولا صفر .. (٥٤) »

ومن أقبح العوائد : « عادة استسقائهم بالكيفيات القبيحة الخارجة عن الآداب الانسانية وهى استمطارهم بالعشر وذلك أنهم كانوا يخرجون في أوقات الجذب واحتباس المطر لطلب السقيا فيجمعون حزم النباتات المسمى بالعشر والسلع » ويربطونها في أذناى البقر ثم يشعلونها بالنيران ويصعدون البقر على هذه الحال الى الجبال والربوات المرتفعة مفرقين بينها وبين أولادها مستسقين بهذه المناظر الشنيعة .. (٥٥)

#### (هـ) مؤهلات العرب لحمل الرسالة :

نعم وصلت الجزيرة العربية قبيل نزول القرآن الى حالة من القوضى الفكرية والاضطراب الدينى . والأوهام المسيطرة ، والعادات السيئة التى لا حد لها .. تعثرت القافلة وغاب عن القوم من يدلهم على الطريق وخبا هذا الضوء الوهاج الذى أثاره ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل حول بيت الله المحرم .

نعم عاش العرب فى هذا الضلال وذلك الفساد .. فلماذا اختارهم الله ليكونوا حملة الرسالة العامة وشرحهم للدفاع عن دينه : هل لديهم من المؤهلات ما يجعلهم أهلا لهذا الشرف وذلك الفضل ??

(٥٣) الشرسوف : كعصفور : غشوف معلق بكل ضلع أو سقط الضلع وهو الطرف المشرف على البطن . ( القاموس المحيط ج ٣ ص ١٧٥ ) .

(٥٤) النفخة الملوكية فى أحوال الامة العربية الجاهلية للسيد / نور الدين القلوصنى الأزهرى ص ١٤٤ ، ١٨٥ .

(٥٥) اجمال الكلام فى العرب والاسلام لمصطفى الدمياطى ص ٣٤ .

لقد كان للبيئة العربية بصحراواتها الواسعة وانطلاق أهلها دون قيود من نظام مفروض أو سلطان مهمين ما غرس فيهم حب الحرية وعشقها ونفى عنهم بلادة الطبع التي تجعل صاحبها يألف سماع ما يهين شرفه فلا يثور ولا يغضب ، وأصبحت الحرية عنوان المجتمع العربي .. والحر : شجاع يدفع حياته فداء لشرفه وكرامته .. وهكذا كان العربي شجاعا لا يخاف الموت ، مقاتلا لا يبالي من يقاتل ، يدافع عن قبيلته بكل ما يملك يضحي بدمه رخيصة حماية لمن احتسب به ورضى بجواره ويثور لأحقر شيء وتدفعه حميته القومية حماية الجاهلية إلى الاندفاع في وجه من يجرح كبرياه ويعتدي على حرته •

« ويكفى لاستنزاف القوم أن ينادى مستغيث : يالفلان أو : واذلاه فما هو إلا أن يطيروا إليه ذرافات ووحدانا حتى كان يصل بهم ذلك إلى رعونة لا تمهل صاحبها ريثما يفكر في العواقب .. يقول سعد بن ناشب المازني مفتخرا بنفسه :

إذا هم ألقى بين عينيه همه      ونكب عن ذكر العواقب جانبا  
ولم يستشر في أمره غير نفسه      ولم يرض الاقائم السيف صاحباً<sup>(٥٦)</sup>

يقول سديو :

« فكانوا سريعي الغضب أقوياء الجراءة ، سفاكين للدماء ، معتقدين الأوهام الكاذبة كثيры المشاجرة كراهية في مطلق التحكم عليهم لما جبلوا عليه من حب الاستقلال الذي يظنونه الخير الوحيد من بين مامتعوا به مع ما هم عليه من كثرة السعى والجهد في الضراوة المعاشية المصحوبة بصعوبة المعاملة وقوة الغلب وشدة الحرص على الانتقام إل أنهم كانوا ذوي حرية وعزة نفس<sup>(٥٧)</sup> » ..

(٥٦) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ص ٤٤ .

(٥٧) خلاصة تاريخ العرب لسديو ص ١٨ .

الا أن هذه الحرية كالهواء والشمس حق مشاع ليس هناك من ينتزعه لأن الدواعي اليه لم تكن موجودة فكان يتمتع به الناس لأنه شيء زهيد لا قيمة له ، لا يغير .. من ظلم السادة ولا يظلم من كبرياء الأقوياء ولا يخضع أهل القوة والجبروت .. وكانت حمية الجاهلية وعصبيتها مصدر التعاسة والشقاء لهذا المجتمع .. فتجد فيه النعمان بن المنذر يجعل يوما للغضب لا يدخل أحد عليه فيه الا قتله ويوما للعفو لا يلقي أحدا فيه الا عفا عنه وأغدق عليه العطاء .. كما ترى كليب وائل الذى كان يرمى الكلب حيث يعجبه الصيد فلا يجرؤ أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه ولهذا سمي « كليب » وقيل « لا حر بوادى عوف » لأنه من عزته كان لا يأوى بواديه من يملك حرته في جواره فكلهم أحرار في حكم العبيد ..

« ولو لم يكن هذا دأب الملوك في معهود العرب الأولين لما قالت إحدى الملكات فيما رواه القرآن الكريم على لسانها :  
 « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » (٥٨) .

الا أن هذه الحرية وما استلزمته من عصبية وأنفة وكبرياء كانت من المؤهلات النفسية القوية التى أهلت العرب للانطلاق ، وما هو الا أن شحذها القرآن وهذبها حتى آتت أكلها باذن ربها واعتدلت في الطريق دون تعسف أو كبر أو التواء .

وهذه البيئة التى صنعت هذه الحرية كانت أحد الأسباب فى صفاء الذهن العربى وتكوين العقلية وطلاقة فكرهم وألستهم فنطقوا بالحكمة بديهية وارتجالا .. يقول جرجى زيدان فى العرب :

---

(٥٨) حقائق الاسلام وأباطيل خصومة للعقاد ص ١٤٣ والآية من سورة النمل ٢٧/٣٤ .

«يظهر مما وصل إلينا أنهم كانوا كبار العقول .. أهل ذكاء ونباهة واختبار وحسكة وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم .. وهى تدل على صفاء أذهانهم وصدق نظرهم فى الطبيعة وأحوال الانسان مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة ، فان قول زهير بن أبى سلمى فى معلقته : رأيت المنايا خيط عشواء .. الى قوله :

وان خالها تخفى على الناس تعلم .. لا يقل شيئا عن أحكام أكابر الفلاسفة (٥٩) . ولقد تميز المجتمع العربى بصفات جميلة كان من أهمها الكرم : يوقد كرماءهم نارا حول خيامهم يستدل بها ابن السبيل .. فاذا قدم الضيف وليس عند العربى الا ناقتة التى هى حياته وحياة ولده قام الى ناقتة فذبها لضيفه خشية أن ينطق لسانه فيه قال قائلهم :

واعلم بأن الضيف يوما سوف يحمد أو يذم ..

ولقد دعاهم الكرم الى لعب الميسر فقد كانوا يطعمون المساكين ماربحوه ولكن هذه المنفعة لا تعدل ما يوقعه لعب الميسر بين اللاعبين من العداوة والبغضاء ..

كما دعاهم الى شرب الخمر الذى يجبر الى المهالك وربما أدى بصاحبه الى الخزى والخسران .

فهذا أبو غبشان المالكى حينما كانت له سداثة الكعبة يوم كانت فى خزاعة أداه شغفه بالخمر وجهه لها الى بيع سداثة الكعبة ومفاتيحها الى قصى بن كلاب القرشى بزق خمر حتى ضرب به المثل فى الخسران فيقال : اخسر من أبى غبشان .. وفى ذلك يقول القائل :



باعت خراعة بيت الله اذ سكرت      بزق خمر فبئست صفقة البادى  
باعت ساداتها بالنزر وانصرفت      على المقام وظل البيت والنادى (٦٠)

كذلك كان الوفاء بالعهد عندهم ذمة ودينا « يتمسكون به  
ويستهنون في سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب ديارهم .. ومن  
تتأج هذا الخلق أنهم كانوا يغفلون في الوفاء للجار والحليف حتى يكون  
عندهم مقدما على الآباء والاخوان » (٦١) .. الحرية والعزة القومية والكرم  
والوفاء بالعهد والشجاعة واللسان الطلق الفصيح والذهن المتقد الذكى  
معالم واضحة في حياة الجزيرة العربية وجدها الاسلام فكانت موانع  
ودوافع .. موانع : وقفت في طريق القرآن وجعلت الكثيرين يأفنون  
الدخول تحت لواء الاسلام والانطواء لتعاليم جاء بها محمد بن  
عبد الله كبرا وعنادا .

قال تعالى :

« فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ  
يَجْحَدُونَ » (٦٢) .

ودوافع : جعلت أهل الوفاء والشجاعة يحمون رسول الله وما أتى  
به من وحى الله بأموالهم وأنفسهم وأولادهم حين آمنوا برسالة القرآن  
وتذوقوا طعم الايمان بل انها أحد الأسباب التى دفعت القبائل لحماية من  
آمن منها بمحمد كما هو واضح حين انحاز بنو هاشم الى شعب أبى طالب  
وفيهم المسلم وغير المسلم حمية وتعصبا لرسول الله ..

(٦٠) اجمال الكلام في العرب والاسلام لمصطفى الدمياطى ص ٣١ ، ٣٢

(٦١) فجر الاسلام - احمد امين ص ١١ .

(٦٢) سورة الانعام ٣٣/٦ .

وما من أمة من الأمم خلصت للشر كله فلا بد أن يشيع فيها بصيص  
من ضياء الحق وان كان يتوارى خلف حجب الظلام الحالك ..

وهكذا كانت الأمة العربية قبيل نزول القرآن : انتشر فيها وباء  
الجاهلية ، وخيم عليها ظلام الكفر ، وعاشت في ضلال الباطل ولم تبق  
ناحية من نواحيها : اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية وخلقية الا  
وامتدت اليها يد الموت الذى يلحق الأمم .. ولحق بها داء العمى فتاهت  
بها الطرق وضلت سواء السبيل .. الا أن هذا الميت كان يستعد للبعث  
ويتطلع الى الحياة .. وأودع الله فيه من الصفات ما أهله لحمل هذه  
الرسالة الخالدة وان كانت هذه المؤهلات الخطيرة قد انحرفت عن غايتها  
فأصبحت الشجاعة للاعتداء .. والحرية للكبرياء والكرم للتفاخر  
والتظاهر .. والوفاء بالعهد وسيلة لحروب طاحنة تضيع فيها دماء  
الأبرياء فلا غرو أن أمسك القرآن بزمامها وقادها لنصرة الحق ورفعته  
دين الله ..

ولعل خير ما يصور حال العرب قبيل الاسلام هو ما قاله جعفر بن  
أبى طالب رضى الله عنه للنجاشى ملك الحبشة ..

« أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى  
الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف  
فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ،  
وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد  
نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ،  
وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم  
والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف  
المحسسة .. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشارك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة ،

والزكاة ، والصيام ، فصدقناه وآمننا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا • فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث (٦٣) •

### ثانياً - المجتمع العالى :

واذا كان المجتمع العربى قبيل نزول القرآن على هذا الحال من الانحراف والضلال ، فان العالم كله من حوله كان يموج بالاستعباد ، والظلم ، والجاهلية ، والتدين الباطل ، والمذاهب الفاسدة ، والأفكار الشاذة ، والعادات المفقوتة ، والبؤس ، والشقاء ، والحرمان •• كل ذلك خيم على ربوع الأرض مما جعل الدنيا كلها تتطلع الى باب تنفذ منه الى كنف الرحمة وتستريح وراءه من هذا العناء ، وتلتقط بعده أنفاسها اللاهثة ، وتستقر فى جوار الأمان والسلام •

الامبراطورية الرومانية والفارسية وبلاد الهند والصين والعالم المعروف آنذاك شاعت فى ارجائه مفساد وابطيل ، قتلت فيه روح الانسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض •• والأديان السماوية من اليهودية والمسيحية لم تعد صالحة لهداية الانسانية وحمايتها من الاضطراب والتشتت والضياع ••

\*\*\*

### (١) بنو اسرائيل :

بنو اسرائيل •• أبناء يعقوب •• وفرع النبوة من ابراهيم الخليل ، صبروا فى مجال الدعوة الى الله فأعطاهم قيادة الانسانية ، وجعلهم حملة المشاعل • ودعاة الايمان :

قال تعالى :

« يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ  
وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ <sup>(٦٤)</sup> » .

• وهذا الفضل مرده الى رسوخ قدمهم في ميدان الحق •

كما قال سبحانه :

« وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا  
وَكَانُوا بَيَّاتِنَا يُوقِنُونَ <sup>(٦٥)</sup> » .

الا أنهم جحدوا نعمة الله وتعالوا في كبرياء ونظروا الى الانسانية  
في زراية واحتقار ، وادعوا أنهم شعب الله المختار ، وأنهم السادة  
وغيرهم عبيد ، فلم يبالوا ما يصنعون بالبشرية ولم يجدوا غضاضة في  
ظلم أو استغلال ينزل بأى انسان ..

قال تعالى :

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ <sup>(٦٦)</sup> » .

وأقبلت عليهم الدنيا فأحبوها .. واستولى حب المال على مشاعرهم  
وقلوبهم فباعوا - في سبيله - دينهم وحرفوا ما أنزل الله طمعا في الكسب  
الرخيص والعرض الزائل •

• (٦٤) سورة البقرة ٤٧/٢

• (٦٥) سورة السجدة ٤٢/٣٢

• (٦٦) سورة آل عمران ٧٥/٣

يقول الله :

« فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ <sup>(٦٧)</sup> » .

ويقول :

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُشِّسَ مَا يَشْتَرُونَ <sup>(٦٨)</sup> » .

ويقول :

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ <sup>(٦٩)</sup> »

وما استجاب بنو اسرائيل لداعى الله وما اهتموا الى الطريق المستقيم انما اعتدوا على مصادر الرحمة واطفأوا مصابيح الهداية الربانية وعاشوا في الظلام الحالكة ، وأصموا آذانهم عن النداء الالهى ، فاستحقوا غضب الله ومقته ولعنته وطرده . .

(٦٧) سورة البقرة ٢/٧٩ .

(٦٨) سورة آل عمران ٣/١٨٧ .

(٦٩) سورة آل عمران ٣/٧٨ .

يقول الله سبحانه :

« فِيمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمْ  
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا  
بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا \* وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى  
مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا \* وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ  
مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ <sup>(٧٠)</sup> » .

ويقول :

« ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ  
اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ  
الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ  
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ <sup>(٧١)</sup> » .

وتاريخهم ملئ بالانحراف من بدايته لنهايته ، ولم يشرق في أفقه  
غير فترة قصيرة من الزمن صبروا فيها فاستحقوا تقدير الله لهم وتفضيله  
إياهم أما بعد ذلك فقد عثوا في الأرض فسادا وبدأ ذلك في وقت مبكر ..  
اذ لم يكن للمعجزات الباهرة التي أجراها الله على يد موسى عليه السلام  
أثر ظاهر في تغيير ساو كههم : فهذه عصا موسى التي أرعبت فرعون وملأه  
وأخذت بقلوب السحرة فخروا لها ساجدين ، وعصا موسى التي ضرب بها

(٧٠) سورة النساء ١٥٥/٤ - ١٥٧ .

(٧١) سورة آل عمران ١١٢/٣ .

البحر فانطلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وعصا موسى التي ضرب بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا .. الآيات التي تترى لهم تلقى قبولاً عندهم فما كادوا يسيرون على قوم يعكفون على أصنام لهم حتى أهابوا بنبيهم ..

« يَمْوَسَّىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ \* إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مَتَّبِعُونَ مَا هُم بِفَاعِلُونَ \* كَانُوا يَعْمَلُونَ » (٧٢)

ويذهب موسى ليتلقى الألواح من ربه وفيها لهم هدى ونور فينسى بنو إسرائيل ربهم الحق حين رأوا عجل السامري الذي صنعه لهم ويتوجهون له بالعبادة والطاعة من دون الله ..

قال تعالى :

« وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا . لَهُ خُورٌ أَلَمَ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ . »

وقال :

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ » (٧٣)

(٧٢) سورة الأعراف ١٣٨/٧ ، ١٣٩ .

(٧٣) سورة الأعراف ١٤٨/٧ ، ١٥٢ .

ولم يردهم عن غيهم نصح هارون حين قال :  
 « يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي  
 وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ \* قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ  
 إِلَيْنَا مُوسَىٰ »<sup>(٧٤)</sup> .

فلما أصر على نصحهم هموا به ليقتلوه .. انظر اليه وهو يعتذر  
 لأخيه موسى فيقول ما حكى القرآن عنه :

« أَبْنَا أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي  
 فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »<sup>(٧٥)</sup>

واذا كانوا قد هموا بهارون ليقتلوه ، فقد قتلوا من بعده كثيرا من  
 أنبياء الله :

قال تعالى :

« أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ  
 اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ \* وَقَالُوا قُلُوبُنَا  
 غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ »<sup>(٧٦)</sup> .

(٧٤) سورة طه ٩٠/٢ ، ٩١ .

(٧٥) سورة الاعراف ١٥٠/٧ .

(٧٦) سورة البقرة ٨٧/٢ ، ٨٨ .



لقد عتوا عن الحق واستكبروا على هدايات السماء ، فمسخهم الله ،  
وغير قلوبهم وحقت عليهم كلمته وأذاقهم جزاء ما صنعوا :

« فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً  
خَاسِيْنَ \* وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ  
مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ  
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » (٧٧)

جنس طرده الله وأبعده عن رحمته وضرب عليه الذلة والمسكنة هل  
يصلح للحياة ؟ وهل يصلح أن يكون خليفة في الأرض فضلا عن أن يكون  
حامل رسالة وصاحب دعوة ومرشدا الى طريق رب العالمين ??

ان التاريخ ليشهد .. وان الحقائق لتتطق بأن بني اسرائيل كانوا  
— وما زالوا — في حاجة ماسة الى من يأخذ بيدهم وينقذهم من وهدة  
الضلالة ، ويضع أيديهم على مصادر الرحمة والأمان ، لأنهم ضاعوا في  
مناهات الباطل ، وعموا عن الحق الواضح الصريح ..

#### (ب) المسيحية .. والامبراطورية الرومانية :

أرسل الله المسيح عيسى بن مريم عليه السلام داعيا الى المحبة  
والسلام مكملًا لرسالة موسى ومصدقًا لما بين يديه من التوراة وخلت  
دعوته من الأحكام والتشريعات الا ما كان من قبيل التخفيف عن قومه  
فأحل لهم بعض ما حرم عليهم ، واقتصرت رسالته على مكارم الأخلاق  
من الصفح والعفو والاخلاص والتجرد لله والترفع عن حب الدنيا والعطف

على الفقير والاحساس بحاجة البائس وتحمل الأذى الى غير ذلك من الأخلاق العالية •

ولنستمع اليه وهو يقول : « سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر •• بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين <sup>(٧٨)</sup> » ••

ويقول : « لا تقدرون أن تخدموا الله والمال لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وما تشربون ولا لأجسامكم بما تلبسون <sup>(٧٩)</sup> »

ويقول : « ما أعسر دخول ذوى الأموال ملكوت السموات •• وأقول لكم : بأن مرور جمل في ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى ملكوت الله •• <sup>(٨٠)</sup> » ••

الا أن هذا النداء الرحيم وجد قلوبا صما قاسية كالحجارة أو أشد قسوة •• رأت في هذا النداء خطرا يهدد شهواتها ومطامعها ، فثارت عليه وكادت له وأجمعت على قتله ••

وأخذ بنو اسرائيل يبحثون عن عيسى عليه السلام — في كل مكان — ولم يستريحوا الا بعد أن زال هذا الخطر ، وتأكدوا أنهم قضوا عليه •• ولكن غناية الله كانت له حافظة ومن كيدهم له حامية مانعة :

(٧٨) انجيل متى ، الاصحاح الخامس — الفقرات ٣٨ — ٤٠ ••

(٧٩) انجيل متى ، الاصحاح السادس الفقرة ٢٥ ••

(٨٠) انجيل متى ، الاصحاح التاسع عشر الفقرة ٢٣ ، وانجيل لوقا ، الاصحاح الثامن عشر الفقرة ٢٥ ، ٢٦ ••

« وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ  
 اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ  
 الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا \* بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ  
 عَزِيزًا حَكِيمًا <sup>(٨١)</sup> » .

وبقى حواريو عيسى وتلامذته المخلصون حاملين مشاعل الانجيل  
 من بعده ، ولكنهم تفرقوا في البلاد وانتشروا في الأرض تحت وطأة  
 الاضطهاد اليهودي وقسوته .. وهنا كان قد برز الى الوجود عملاق  
 كبير هو الدولة الرومانية وريثة الأمة اليونانية ، وفتوحات الاسكندر  
 الأكبر : اذ قد استولى الرومان على مقدونيا ومدن اليونان وآسيا  
 الصغرى وسوريا ومصر وامتدت امبراطوريتهم من نهري الرين والبطنة  
 شمالا الى الصحراء الكبرى جنوبا ومن المحيط الأطلسي غربا الى نهر  
 الفرات شرقا ولم يبق خارجا عن ملكهم الا بلاد العراق وشبه الجزيرة  
 العربية ، ومرت السنوات وأتباع عيسى يلقون العنت والارهاق والظلم في  
 دولة الروم .. وكان من الطبيعي ألا يبقى الانجيل الذي أنزله الله على  
 عيسى بعد أن تفرق حملته ونزل بهم من العذاب والتشريد والتسكيل  
 والقتل ما أنقص عددهم ولم يبق من هذا الانجيل الا قصص ينقصها صحة  
 السند ، وعدالة الرواة تنسب كل مجموعة من هذه القصص الى راو من  
 الرواة وتسمى في مجموعها الأناجيل •

وجاء « قسطنطين » فوجد الفرس الساسانيين يهددون دولته عند  
 حدودها الشرقية فنقل عاصمة ملكه من روما الى بيزنطة سنة ٣٣٣م  
 وسماها القسطنطينية نسبة لاسمه كما اعترف بالديانة المسيحية كدين

من الأديان الرسمية في دولته وعطف على المسيحيين عامة حتى ضمن ولاءهم ووحدة بلاده وقوتها أمام خطر الفرس الساسانيين على الحدود الشرقية واطار غيرهم من القبائل الجرمانية المتبربرة الرابضة على الحدود الشرقية •

ولم تلبث المسيحية أن أصبحت الدين الرسمي للدولة الرومانية القديمة بعد عصر قسطنطين في أواخر القرن الرابع الميلادي ولكن الأفكار المسيحية على مر هذه القرون تأثرت بالوثنية اليونانية والفلسفة الاغريقية فانقلبت الى عبادة صور ودين وثنية •• يقول - « سل » العالم الانجليزى عن نصارى القرن السادس الميلادي : « أسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية وجد خلاف عن طبيعة المسيح وما اذا كانت مزدوجة أو الهية تلاشت فيها طبيعة المسيح كما تتلاشى قطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له (٨٢) » ••

وصدق الله اذ يقول :

« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ  
وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرُوهُ إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا  
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٨٣) » .

وتعددت المذاهب ، وكثرت الفرق ، واضمحلت عظمة الامبراطورية الرومانية ، وضاع منها جزءها الغربى حين سقطت روما سنة ٤٧٦ تحت

(٨٢) المجتمع الاسلامى د. احمد شلبى ص ٢٩ .

(٨٣) سورة التوبة ٣١/٩ .

عنف الغارات الشديدة التي وجهتها لها القبائل المتبربرة ، التي تسكن الأراضي الواقعة شمالى نهر الطونة وشرقى الراين « ولم يبق من امبراطورية الرومان سوى قسمها الشرقى المعروف باسم الدولة الرومانية الشرقية التي كانت تشمل بلاد اليونان ، ومقدونيا ، وتراقيا ، وآسيا الصغرى وتضم جزءا كبيرا من الوطن العربى • يشمل سوريا ، وفلسطين ، ومصر ودب النزاع والشقاق بين أصحاب المذاهب المتنازعة ودخلت السلطات الحاكمة حلبة هذا الخلاف فأضافت بذلك بلاء الى بلاء ، .. » فكان الامبراطور وأهل دولته يقولون : ان للمسيح طبيعتين ومشيتين وأما رعيته فى مصر والشام فكان أكثرهم يقولون بطبيعة واحدة ومشية واحدة وهم اليعاقبة وفى زمن هرقل سعى البطريك اثناسيوس بطريك اليعاقبة فى منبج فى التوفيق بين الطائفتين فخطب الامبراطور فى ذلك وذهب مذهبا متوسطا بين القولين وهو : أن للمسيح طبيعتين ومشية واحدة فوافقهم الامبراطور واستمهلهم ريثما يخاطب البطريك القسطنطينى « بيروس » وهو سورى الأصل .. وكان اثناسيوس قد اتفق معه على ذلك قبل مخاطبة الامبراطور فشر الامبراطور بهذا المعتقد منشورا قبل به أكثر الأساقفة الشرقيين الا « صفرونيوس » البطريك الأورشليمى وبعض الأساقفة وفى مقدمتهم أسقف عمان وسائر أهل الكنيسة الملكية فشق ذلك على الامبراطور فعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا بمنشوره وفيهم جانب عظيم من الروم فأصبح الانقسام مزدوجا : الامبراطور والبطريك القسطنطينى والاسكندرى والانطاكى حزب يقول بطبيعتين ومشية واحدة ، واليعاقبة ومنهم الأقباط وأهل موران وسائر داخلية سوريا ومصر حزب آخر والنساطرة وهم أهل العراق والجزيرة حزب آخر فضلا عن طوائف أخرى غير هذه منهم الخياليون والأكيثاليون واليعاقبة كانوا أقساما مما يطول شرحه .. (٨٤) .. »

وقالوا : ان الله هو المسيح بن مريم وقالوا : ان الله ثالث ثلاثة ..  
وغاب عنهم أن عيسى عبد الله ورسوله وأنه كلمة الله وآية قدرته حين نفخ  
في مريم من روحه فكان هذا النبی الكريم ..

وشاعت في أرجاء الامبراطورية الرومانية فلسفة الأغريق وخرافاتهم  
فأخذوا منها ما يوافق أهواءهم ولا يتعارض مع شهواتهم .. ومثلت  
الأبيقورية وزعيمها الفيلسوف اليوناني « أبيقور » ٣٤ ق م .. قمة  
الانحراف الخلقى والعقائدي : وذلك أن أشهر نظرياته هي :  
نظرية السعادة وسواء كان النقل عنه صحيحا أو خطأ فإن ما عرف عنه أنه  
كان يرى السعادة في اللذة « ويعلن أبيقور سخطه على الذين يجرون  
على انكار أمر معترف به من جميع المشاعر بين جميع الأحياء ولا فرق  
في ذلك بين العجاوات والانسان .. كذلك من الواضح البين أن اللذة  
المقصودة هنا هي لذة الجسد سواء كان ذلك في الرضا الذي ينتج عن  
اشباع المعدة أو في هذه المتعة الأكثر رقة التي تبعثها اللمسات الخفيفة  
من الأيدي الناعمة .. (٨٥) .. »

وهو ينصح بالآتي : ١ - أطلب اللذائذ التي لا يكون وراءها ألما

وهو ينصح بالآتي ، ١ - اطلب اللذائذ التي لا يكون وراءها ألما

٣ - اياك واللذة التي تحرمك من لذة أكبر

منها أو تكون عاقبتها ألما أكبر منها ..

٤ - احتمل الألم الذي ينجيك من ألم أكبر

منه أو الذي يكون من وراءه لذة كبرى

---

(٨٥) الفلسفة اليونانية : أصولها وتطوراتها : للبريفو أستاذ  
الفلسفة بجامعة باريس ترجمة د. عبد الحليم محمود ، د. أبو بكر ذكرى  
ص ١٩٣ .

وبرغم أن أبيقور أوصى بثلاثة أصول أخرى هي : التبصر ، والحزم ، والعدل ، وأن مذهبه في اللذة هو الحكم على الحواس لا الخضوع لها ، فإن الجانب الرخيص والسهل في فلسفته هو الذى عرف منه واشتهر به يقول البيريفو « كان الأمل في اللذة الغريزية داعيا لأن يجمع فى أقرب وقت في حدائق المدرسة صفوفًا مترامية من « قطع أبيقور » رجالا ونساء لم يكونوا أهلا لأن يعمروها وأن ينتسبوا إليها <sup>(٨٦)</sup> » وكان لمذهبه في الآله وحقيقة الألوهية خطر أيما خطر فهو يرى أن الآلهة يقفون من البشرية موقفا سلبيا ولا يتدخلون في أعمالنا ولا يختلطون بنا اختلاطا يكدر علينا الحياة ، ولما لم يكن لها علاقة بنا ولا اختلاط فليس من الواجب علينا أن نقدم لها أى نوع من أنواع العبادة .. ولماذا — اذن — نخافها وهي لا تستطيع أن تتألم بأى أذى ؟؟ ومع ذلك فليست العوالم ولا الآلهة التى تعمر ما بينها حائزة لصفة الخلود .. ان الآلهة لا تستطيع أن تفر من القضاء المحتوم مثلها في ذلك مثل جميع الموجودات المؤلفة من الذرات نعم ان لها حياة أطول من حياة الكائنات الانسانية ولكنها لا مفر لها من الفناء بالموت الذى يتأتى على الجميع بلا استثناء <sup>(٨٧)</sup> » ..

اللذة هي المطلب الأسمى ، والآلهة لا تحاسب أحدا فلماذا يتحمل الأبيقوريون أعباء الحياة ومشاكلها ويعكرون صفو حياتهم ولذة أنفسهم بما يتمتعون به .. لهذا رأوا الابتعاد عن الحياة الاجتماعية ورفضوا أن يشاركوا في تحمل أعبائها لأن ذلك يعرض استقلال الأبيقورى وهدوءه الروحي للخطر ..

(٨٦) المرجع السابق ص ١٩٦ .

(٨٧) المرجع السابق ص ١٩٣ .

ومثل هذه الفلسفات التي جرفت دولة الرومان جعلتها أمة تبحث عن اللذة فانتشرت فيها الموبقات المهلكة ، والانحلال الخلقي ، وعاشت أمة القانون والحضارة والحروب والقوة فريسة لعقائد محرقة لا أثر لها في النفوس أو القلوب ، وفلسفات ضالة سيطرت على الأفكار والمشاعر ، ولهذا عم الشقاء وانحرف الرؤساء وحكموا بالطغيان والجبروت وفرضوا على الرعية البائسة ما أرهاقها وسلب حريتها وارادتها ، مما كان سببا في انهيار امبراطورية الرومان وانحلالها .. يقول « ويلز » في كتابه : موجز تاريخ العالم : أما الطرق العظيمة وخرائب البنايات الفخمة وتقاليده القانون والسلطان التي خلفتها ( الامبراطورية الرومانية ) وأثارت بها دهشة الأجيال التالية فيجب ألا تخفى عن أعيننا أن أكل أبهتها الظاهرة أقيمت على ارادات مسلوقة وذكاء مكبوت ، ورغبات كسيحة ومنحرفة .. وحتى الأقلية التي كانت تسودها - فوق خضم الاستعباد المتلاطم - ولجات القمع والسخرة كانت أرواحها تتقلب على جمر القلق والتعاسة .. وولى من الدنيا الشعور القديم باستقرار النظم ، وولت معه الثقة في التأسيس والمعبود والقانون والعرف ..

وفي هذا الجو الذي يعمه الرق والقساوة والخوف والقلق والتبديد والتظاهر بالمظاهر ، والتهاوت على اشباع الملذات ، كان ينتشر في الناس هذا الوباء : وباء الاشتمزاز الذاتي ، وعدم الاطمئنان العقلي ، وكان يتفشى فيهم هذا الالتماس الأليم للسلام وان نالوه في مقابل التخلي عن الدنيا والمكابدة الارادية للآلام (٨٨) .. »

حرفت التوراة وضاعت مع جشع اليهود وجههم للحياة .. ومن بعدها خبا نور الانجيل وتبدلت تعاليمه .. وحلت مبادئ الانحلال محل

(٨٨) موجز تاريخ العالم هـ. ج. ويلز ترجمة عبد العزيز توفيق ومراجعة محمد مأمون ص ١٦٤ ، ١٧١ .



الهداية الالهية وعاش الناس تحت الحكم الرومانى أسوأ ما عرفت البشرية  
فى تاريخها من استعباد للشعوب وظلم وقهر لها ..

فهل بعد هذا الفساد فساد ??

لقد أصبح المرء وسون فى يد رؤسائهم «كأشباح اللاعبين يديرها من وراء  
حجاب ويظنها الناظر اليها من ذوى الألباب .. وظن أفراد الرعايا أنهم  
لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم ، وتوفير لذاتهم كما هو الشأن فى العجماوات  
مع من يقتنيها » (٨٩) ..

أفبعد هذا تصلح الحياة ?? ..

وهل تبقى — هكذا — دون تدخل من قبل السماء لافقاذ هؤلاء  
البؤساء المظلومين ؟ ان رحمة الله أوسع وعنايته أكرم من أن تتخلى عن  
الخلق وتتركهم فى الظلمات والله بعباده رءوف رحيم ..

(ج) بلاد فارس :

اذا كان بنو اسرائيل والروم أهل كتاب سماوى فاننا الآن أمام  
أمة لا دين لها الا ما تعتقده من الوهم الباطل . والآراء البشرية التى لا  
تعطى الصورة الصادقة والمنهج المتكامل لتعايش الانسان مع ربه ومع  
الناس أجمعين ..

هذه هى — المجوسية — دين الفرس العام تبين جهل القوم وسوء  
معتقدهم .. وبنيان هذه العقيدة : عبادة النار واقامة بيوت العبادة وتقديم  
القرابين لها .. يقول الشهرستانى ، « ثم ان التثنية اختصت بالمجوس حتى  
أثبتوا اثنين مدبرين قديمين ، يقتسمان الخير والشر ، والنفع والضرر ،

والصلاح والفساد يسمون أحدهما النور والآخر : الظلمة .. وبالفارسية  
يزدان واهرمين . ولهم في ذلك تفصيل مذهب .. ومسائل المجوس كلها  
تدور على قاعدتين اثنتين .. أحدهما بيان سبب امتزاج النور بالظلمة  
والثانية بيان سبب خلاص النور من الظلمة وجعلوا الامتزاج مبدأ  
والخلاص معادا .. (٩٠) » ..

وجاء - زرادشت ٦٦٠ - ٥٨٣ ق م « يهذب من عبادة المجوس  
ويصلح من عقيدتهم فما خرج كثيرا عنها فقد ادعى أن النور والظلمة أصلان  
متضادان وأن « الخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث انما  
حصلت من امتزاج النور والظلمة ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم ،  
وهما يتعاونان ويتغالبان الى أن يغلب النور الظلمة والخير الشر ثم يتخلص  
الخير الى عالمه والشر ينحط الى عالمه وذلك سبب الخلاص (٩١) .. » ..

واذن فالنار عند « زرادشت » رمز لفكرة الصراع بين الخير والشر  
وأن الخير الذي يرمز له بالنور سوف ينتصر في النهاية على الشر الذي  
يرمز له بالظلمة ، ودين زرادشت فيه تعدد الآلهة وفيه « ثنوية » الا أنه  
مع ذلك قال بالبعث وبالحياة الأخرى والحساب « وبين أن الاعتقاد والقول  
والعمل موارد التكليف ، فاذا قصر الانسان فيها خرج عن الدين والطاعة  
واذا جرى في هذه الحركات على مقتضى الأمر والشرعية فاز الفوز  
الأكبر .. » (٩٢) ..

ولم يبق للفرس من دين زرادشت الا الثنوية وعبادة النار .. ولهذا  
أحيا الكهنة الطقوس التي كانت موجودة من قبل عبادة الأصنام وتقديم

(٩٠) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٣٢ .

(٩١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٣٧ .

(٩٢) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٣٨ .

القرايين لها •• واختفت ديانة زرادشت خمسة قرون الى أن ظهر «أردشير» ابن بابك سنة ٢٢٦م من آل ساسان الملقين بالأكاسرة •• ولم يلبث الأكاسرة ان عمدوا الى القيام بنهضة شاملة في النواحي الاقتصادية والثقافية والحرية وأحيوا التراث الفارسي وكانت « الزرادشتية » من أبرز مظاهر هذا التراث الا أنها في ذلك الحين كانت بعيدة كل البعد عن اتجاهات زرادشت وكانت تحقق أهداف الملوك وطغيان الكهنة •• ومجتمع يعيش بلا دين لا بد أن يجرفه تيار الشيطان • وتوجه حياته الشهوة والانحلال والظلم، ولا بد أن تظهر فيه دعوات تدعو الى التبرؤ من هذا الفساد •• لكن مثل هذه الدعوات لا سند لها من وحى سماوى أو توجيه الهى •• ولهذا أضافت الى الشر شرا والفساد فسادا ••

« فماني » الذى ظهر في أواخر القرن الثالث المسيحى يزعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديين أحدهما نور والآخر ظلمة وأنها أزيلان لم يزالا ولن يزالا « وفرض على أصحابه العشر فى الأموال أكلها ، والصلوات الأربع فى اليوم والليلة والدعاء الى الحق وترك الكذب والقتل والسرقة والزنى والبخل والسحر وعبادة الأوثان » •• « واعتقاده فى الشرائع والأنبياء : أن أول من بعث الله تعالى بالعلم والحكمة آدم أبو البشر ثم بعث شيثا بعده ثم نوحا بعده ثم ابراهيم بعد عليهم الصلاة والسلام •• ثم بعث بالبددة الهى أرض الهند وزرادشت الى أرض فارس والمسيح كلمة الله وروحه الى أرض الروم والمغرب وبولس بعد المسيح اليهم ثم يأتى خاتم النبيين الى أرض العرب •• » (٩٣) ••

واختط طريقا يحارب به الشهوة التى وجهت مجتمعه •• « فنادى بحياة العزوبة ، وحرم النكاح لحسم مادة الفساد والشر من العالم ،

واتنصار النور على الظلمة بقطع النسل واستعجال الفناء .. الا أن هذه الدعوة الخطيرة لتخريب العالم أودت بحياته فقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة ٣٧٦ م قائلا : « ان هذا خرج لتخريب العالم فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه (٩٤) » ..

ومن بعد « ماني » ظهر « مزدك » سنة ٤٨٧م فرأى أن سبب الكراهية هو المال والنساء واذن فليس هناك في رأيه وسيلة لازالة أسباب الشقاق والخلاص بين الناس الا أن تكون الأموال والنساء مشاعا حرا يأخذ منه من يشاء ما يشاء ..

يقول الشهرستاني : « أحل - مزدك - النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلاء .. » (٩٥) ..

وقد أتيح لدعوة « مزدك » الانتشار بعد أن أيدها « قباذ » والد - أنوشروان - وآمن بها الشباب وأصحاب الشهوة ودعاة الانحلال ..

يقول الطبري : « كاتف السفلة » - مزدك - في دعوته وشايعوه فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم وحملوا « قباذ » على تزيين ذلك وتوعده ان رفض فلم يلبثوا الا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به .. » (٩٦) ..

(٩٤) المجتمع الاسلامي د. شلبي ص ٣٠ ، ٣١ .

(٩٥) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٤٩ .

(٩٦) تاريخ الأمم والملوك للطبري ج ١ ص ٨٨ .

وهذه الدعوة المنحلة التي أراد « مزدك » أن يصلح بها مجتمعه  
قضت عليه - أيضا - « فحين اطلع « أنوشروان » على خزي - مزدك »  
وافترائه طلبه فوجده فقتله » (٩٧) ..

وتحت ظلام هذه العقائد المزيفة عاش الفرس يعانون قسوة الملوك  
وتجبر الحكام الذين انتهزوا هذا الجهل المطبق فادعوا أنهم من عناصر  
علوية مقدسة وبنوا ادعاءهم على مذهب « مترا » أحد مصلحيهم الذي  
رفع سلطان الملوك الى عرش السماء وقال : « ان الشمس تشع عليهم  
قبسا من نورها وهالة من بركتها فيرمزون بعروشهم على الأرض الى  
عرش الله في عليين (٩٨) .. »

ولهذا أنزل الفرس ملوكهم منزلة الآلهة وقدموا لهم القرابين وأنشدوا  
لهم أناشيد الطاعة والعبودية واعتقدوا أنهم وحدهم الذين يجوز لهم أن  
يلبسوا التاج ويسيطروا على الناس أيا كانت سمعتهم أو كفاءتهم ..  
وبقى المجتمع الفارسي مجتمعا جاهلا تتحكم فيه الملوك وتفرق بين أفراد  
طبقية قدسية باعدت بين الناس ولم يستطع كل انسان في طبقة أن يتعداها  
الى سواها من الطبقات مهما أوتى من كفاءة خاصة وتجارب معينة ..  
ومجتمع هذا حاله في حاجة الى من يأخذ بقياده الى الأفق الرباني المشرق  
الوضي ..

#### ( د ) الهند :

نحن الآن أمام أمة جمعت من المتناقضات أقواها ومن الأعاجيب أعظمها  
وذلك لاتساعها واختلاف أماكنها وتباعد ما بين أطرافها .. يقول

(٩٧) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٩ .

(٩٨) الله .. للعقاد ص ٩٧ .

الشهرستاني : « الهند أمة كبيرة ، وملة عظيمة ، وآراؤهم مختلفة ، منهم البراهمة وهم المنكرون للنبوات أصلا ومنهم من يميل الى الدهر ، ومنهم من يميل الى مذهب الثنوية ، ويقول بملة ابراهيم عليه السلام ، وأكثرهم على مذهب الصابئة ومناهجها فمن قائل بالروحانيات ومن قائل بالهياكل ومن قائل بالأصنام الا أنهم مختلفون في شكل الهياكل التي ابتدعوها وكيفية وأشكال وضعوها ، ومنهم حكماء على طريق اليونانيين علما وعملا .. (٩٩) .. »

أمة جمعت من كل صنف ، وعبدت كل شيء وتشعبت بها الآراء ، وتعددت فيها الملل .. أمة متفرقة متدهورة في أخلاقها ، ونظام مجتمعها ، فكان حالها قبيل رسالة القرآن أسوأ حالة وصلت اليها الهند في تاريخها .

يقول أبو الحسن الندوى : « اتفقت كلمة المؤرخين في تاريخ الهند على أن أخط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعا كان ذلك العهد الذي يتبدى من مستهل القرن السادس الميلادى .. فقد شاركت الهند في التدهور الخلقى ، والاجتماعى ، الذى شمل الكرة في هذه الحقبة من الزمن .. وبلغت الوثنية أوجها ووصل عدد الآلهة الى ٣٣٠ مليوناً .. وقد أصبح كل شيء رائعا وكل شيء جذابا وكل مرفق من مرافق الحياة الها يعبد .. وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والالهات الحصر وأربت على العد .. فمنها أشجار تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله .. وجبال تجلى عليها بعض آلهتهم ، ومعادن كالذهب والفضة تحمل سر الألوهية ، وأنهار وآلات حرب وآلات التناسل ، وحيوانات أعظمها البقرة وغير ذلك .. وقد ارتقت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد حتى فاق هذا العصر في

ذلك جميع العصور الماضية .. وقد عكفت الطبقات كلها وعكف أهل البلاد من الملك إلى الصعلوك على عبادة الأوثان .. (١٠٠) ..

قوم مشركون تمثلوا آلهتهم في كل مظاهر الحياة .. وربما بدا من أناشيدهم الدينية أنهم توصلوا إلى صفة الإله الواحد الأحد لكنهم بعدوا عن هذه الحقيقة وتوجهوا إلى مظاهر قدرة الله في خلقه فقدموا لها القرايين واتخذوها آلهة من دون الله ..

لقد قالوا في بعض أناشيدهم الدينية : « اننى أنا الله .. نور الشمس وضوء القمر وبريق الذهب ووميض البرق وصوت الرياح وأنا الرائحة الطيبة التى تنبعث فى أنحاء الكون والأصل الأزلى لجميع الكائنات وأنا حياة كل موجود وصلاح الصالح أنا الأول والآخر والحياة والموت لكل كائن .. (١٠١) » ..

فطرتهم تنادى من الأعماق بأن الله واحد ، وجهلهم يطمس نور هذه الفطرة فيشركون بربهم تلك المخلوقات المسخرة بأمر الله ..

ومثلت البرهمية أهم ديانات الهند القديمة ومن بعدها كانت البوذية وهى كما يقول العقاد : « لا تعتبر اضافة فى صميم العقائد الدينية بل اضافة فى آداب السلوك وفلسفة الحياة . واطافة فى عرض الآراء على غير المستأثرين بها قديما من سدنة الهيكل والمحراب .. » وفلسفة البوذية متناقضة ، فهى تنكر الشخصية الانسانية ولا تعترف بالذات أو بالروح وهى مع هذا تؤمن بتناسخ الأرواح وثبوت شىء فى الانسان يبقى على

---

(١٠٠) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحس الندوى ص ٤٨ وما بعدها .

(١٠١) ذبل الملل والنحل لمحمد سيد الكيلانى ج ٢ ص ١٠ .

التنقل بين الأجساد والدورات وهي تؤمن بالكل أو المطلق الصمدي  
« الوجود » ثم تنفى عنه الذات كما تنفيها عن الانسان مع أن الكل بغير  
ذات لا يكون كلا بمعنى من معاني الكلية ولكنه شتات من أجزاء  
متفرقة .. (١٠٢) .. »

وليس المقام هنا لنقد أديان الهند وما انتشر فيها من عقائد ولكنها  
الاشارة العابرة لما وصل اليه الفكر الهندي وأثر ذلك في حياة الهنود ..

ولعل أشهر ما عرف في الهند هو نظام الطبقات الذي أقيم على  
أساس من الديانة البرهمية .. وذلك أن البراهمة اعتبروا أنفسهم من  
عنصر الهى : فهم كهنة الأمة الذين لا تجوز الذبائح الا بحضرتهم وتحت  
أيديهم واذن فهم سادة الطبقات ورأس الأمة المفكر ومن بعدهم طبقات  
ثلاثة : ١ - الكشترىا وهم رجال الحرب ٢٠ - الوشيا .. وهم التجار  
والصناع ٣٠ - الشودرا وهم طبقة الخدم والعييد ..

وبقى فريق آخر من الشعب الهندي لا يدخل في هذه القسمة  
الجائرة وهم المنبوذون .. ولقد حال انحطاط شأنهم دون اعتبارهم حتى  
بين الطبقات الدنيا من الخدم والأجراء ..

« وديانة المنبوذين تنحصر في عبادة الأرواح ، وأعظم الآلهة عندهم  
يظهر في شكل « كومة » من الآجر أو في هيئة أخرى ساذجة .. وهذا  
الاله هو الذى يمنح الخصب للعواقر ويحمى المحاصيل من الآفات  
ويرعاهم برعايته وعنايته ولكل مدينة الهها .. (١٠٣) .. »

(١٠٢) الله / العقاد ص ٦٥ ، ٦٨ .

(١٠٣) ذبل الملل والنحل ح ٢ ص ١٣ .



أفكار ساذجة وديانات باطلة وأوضاع اجتماعية جائرة قام بناؤها على تلك الأفكار وهذه الديانات أمة عاشت آلاف السنين على هذا الوهم وتلك الخرافات في ميسس الحاجة الى من يدلها على الطريق ويرشدها الى الهدى ..

فهل يمكن لها أن تستغنى بضلالها عن هداية الله وبباطلها عن الحق الذي جاء به كتاب الله .. ؟

### (هـ) الصين :

الصين تلك الأمة المرححة الضاحكة التي رأت أن الانسان طيب بالفطرة ، وأن الحياة ترضى من لا يسرف في تقاضيهها ، ويلحف في الطلب عليها - هذه الأمة عاشت بلا دين صادق ، أو عقيدة ثابتة ، وانما توجهت الى روح الحياة تستلهم منها معنى الاله الحق ، فرأت السماء وما فيها من كواكب ، والأرض وما عليها من جبال وما يجري فيها من بحار وأنهار .. ورأت أبطالها وأسلافها يذهبون ولا يعودون وتبقى ذكرياتهم حية في النفوس وفي القلوب فاندفعت الأمة الصينية الى كل هذا فقدسته وعبدته وقدمت له القرابين .. وادعت له صفات الألوهية .. وكانت عبادة روح أسلافهم وأبطالهم هي أشيع ما عرف عنهم من ألوان العبادة والطاعة ..

ولم يبعث لهم رسل .. انما وجد بينهم حكماء ومعلمون واشتهر حكميمهم ومعلمهم « كونفشيوس » بالاخلاص في الدعوة الى اصلاح النفس الانسانية وتكوين مجتمع سليم قوامه المحبة والاخاء والعدل والطاعة عن الرضا .. يقدمها الولد لوالده والأخ الأصغر للأخ الأكبر والمحكوم لحاكمه ..

كما اشتهر بالدعوة الى جملة من الفضائل النفسية : كالصدق

والاخلاص والقناعة والصمت الا فيما يجب الكلام فيه ومعاملة الناس بالرفق والمودة وغير ذلك من الفضائل .. لكن « كونفشيوس » لم يهتد الى الحياة الأخرى فأنكر الجنة والنار والثواب والعقاب .. وقد سأله بعض تلاميذه مرة عن الموت فقال : اتنا لم ندرس الحياة بعد .. فكيف ندرس الموت ?? \*

ومات « كونفشيوس » فتوجه الصينيون الى روحه بالعبادة والتقديس وأقاموا لها الهياكل وقدموا لها القرابين وانتقلت عبادة هذا الفيلسوف عبر الاجيال الى يومنا هذا ..

وعلى مثال « كونفشيوس » كان الفيلسوف « لاوز » وهو أسن من صديقه وكلاهما دعا الى الخير والفضيلة الا أنهما اختلفا في الخلق والمزاج وان اتفقا في العقيدة والايان .. « فلاو » يقول : من كان طيبا معي فأنا طيب معه ومن أساء اليّ فأنا طيب معه كذلك فلنجز السيئة بالحسنة ولنعمل الطيب على كل حال .. أما « كونفشيوس » : فهو يوصي بأن تقابل السيئة بالعدل وأن تقابل الاحسان بالاحسان (١٠٤) ..

وأتباع « لاوز » يبنون منهجهم على التصوف ، واحتقار العادات القديمة والاعتقاد بأن الدرس والتحصيل والتفكير العقلي ليس وسيلة لاكتساب المعرفة انما سبيلها تطهير النفس والتدرج في كمالاتها الى مرحلة الاتصال التام أو الوحدة التامة بين الفرد والقانون الأعظم .. كما دعا « لاوز » الى هجر العمل والاقتصار على التأمل والتجربة الصوفية .. وبعد وفاة « لاوز » أفسدت تعاليمه وتفشتها الأساطير وضمت اليها أشد الطقوس والفكرات الخرافية تعقيدا وخروجا على المألوف .. وحدث

فى الصين مثلما حدث فى الهند بالضبط أن نشطت فكرات السحر البدائية وتحركت الأساطير البشعة التى ظهرت فى ماضى طفولة جنسنا تكافح ضد التفكير الجديد فى العالم ونجحت فى أن تسدل عليه ساترا سابلا من طقوس غريبة مضحكة وغير معقولة وعتيقة بالية .. (١٠٥) ..

وليس من الغريب أن تنتقل أكبر ديانات الهند الى الصين وتلك هى - البوذية - التى نشرها الهنود والصينيون الذين ذهبوا الى الهند وعادوا الى قومهم حاملين رسالة البوذية .. الا أنهم حين قفلوها كانت قد فقدت بساطتها وتحولت الى عبادة تماثيل وصور .. يقول الأستاذ أبشوراتوبا : لقد قامت فى ظل البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل (١٠٦) ..

الكونفوشيوسية والتاوزمية والبوذية عقائد ونحل سرت فى كيان الأمة الصينية ووجهت حياتها .. وحياة أمة توجهها تلك المذاهب لا تحيا حياة الانسان الراقى الذى يشعر بقيمته وعراقة أصله وصلته الوثيقة بالسماء .. وأمة هذا شأنها فى حاجة الى عون الله حتى يمكن لها أن تسير الى غايتها وهى آمنة عثرات الطريق ..

#### ( و ) نظرة عامة :

بنو اسرائيل .. والرومان .. والفرس والهند والصين هذا القطاع الكبير من الانسانية ضل طريقه وعاش فى ظلام الشك والجهل والبهتان ، وعلى شاكلته كانت تعيش الدنيا بأسرها ، فلم يبق فيها موضع الا وانسان يمرغ كرامته أمام صنم ، ويدل عزته تحت أقدام الطغاة ونسى الانسان

(١٠٥) موجز تاريخ العالم : ويلز ص ١٧١ .

(١٠٦) المجتمع الاسلامى د. شلبى ص ٣٣ .

انسانيته مع تيار الشهوة والشیطان وضاع حقه بل فقد كيانه من أجل  
أطماع الملوك والمستبدین ..

« ففى اسبانيا وفرنسا الجنوبية كان شعب « الویزیجو » الأوریین  
یصاولون الملك « كلوفیس » وأولاده الكاثولوكیین .. وفى فرنسا نفسها  
كان أولاد « كلوفیس » هذا متقادرین متسافکین وكانت الحروب التى  
شبت نیرانها بین المملكة « الویزیجوتية » و « برونهو » والمملكة الفرنكية  
فیریديجوند « تهىء للتاریخ أشد الصعائف اثاره للأسى والکمد ..

أما فى انجلترا فكان « الانجلو » ینازعون « السکسونیین » الأرض  
التى احتلوها واستبعدوا فیها ذرية « کیمریس » وهم أقدم المغیرین على  
تلك الجزيرة التى تتطلع اليوم للوقوف فى مقدمة الأمم علما وصناعة  
وقوة وهى التى كانت فى ذلك الوقت مجالا للقوة الوحشية السائدة فى  
تلك الغیاهب الحالكة .. أما فى أفریقيا فكان اليونان الرومانیون أنفسهم  
— وهم أخلاط من عساكر وتجار وحکام مجموعین من آفاق مختلفة —  
دائبین على امتصاص دم القطر المصرى وعاملین على جعل مصر العلمیة  
ذات المجد القديم كالجنة المصبرة عديمة الحس والحراك وكان هذا  
شأنهم أيضا فى الأقالیم الخصیبة وقتئذ الواقعة فى الجهات الشمالیة  
من أفریقيا التى انتزعوها من أیدی الفندالیین ..

« والخلاصة أن جو العالم الأرضى كان متلبدا بسحب الاضطرابات  
الوحشیة فى كل جهة وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من  
اعتمادهم على وسائل الخیر وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم  
صیحة فى اصلاء نیران الحرب والمعارك .. ولم یکن يأخذ بعواطف القلوب  
ولا يؤثر علیها تأثیرا حادا وان كان وقتیا الا شىء واحد وهو الغنیمة وسلب

الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحرائين  
وبسطاء المتسولين (١٠٧) .. »

واذن فقد كان العالم الذى أشرقت عليه رسالة القرآن « عالما متداعيا  
قد شارف النهاية .. خلاصة ما يقال فيه ، انه عالم فقد العقيدة كما فقد  
النظام أى أنه فقد أسباب الطمأنينة فى الباطن والظاهر ، طمأنينة الباطن  
التي تنشأ من الركون الى قوة فى الغيب تبسط العدل وتحمى الضعف ،  
وتجزى الظلم وتختار الأصلاح الأكمل من جميع الأمور .. وطمأنينة  
الظاهر التي تنشأ من الركون الى دولة تقضى بالشرعية وتفصل بين البغاة  
والأبرياء وتحرس الطريق وتخيف العائنين بالفساد (١٠٨) ..

لقد « كانت دولتنا العالم : دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى  
الغرب فى تنازع وتجادل مستمر .. دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة  
وأموال هالكة وظلم من الإحن حالكة .. ومع ذلك فقد كان الزهو  
والترف والأسراف والفخفة والتفنن فى الملاذ بالغة حدا مالا يوصف فى  
قصور السلاطين والأفراد والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة : وكان  
شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد فزادوا فى الضرائب وبالغوا  
فى فرض الاتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم وأتوا على ما فى  
أيديها من ثمرات أعمالها وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما يبيد  
الضعيف ، وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل ، وتبع ذلك أن استولى  
على تلك الشعوب ضروب من الفقر ، والذل ، والاستكانة ، والخوف  
والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال .. (١٠٩) .. »

(١٠٧) الاسلام فى عصر العلم للأستاذ / محمد فريد وجدى ص ٢٧٥  
- ٢٨٠ .

(١٠٨) عبقريّة محمد للعقاد ص ١٢ .

(١٠٩) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ١٣١ .

يوضح هذه الصورة المحزنة لحال العالم الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه القيم : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .. فىقول : « بعث محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزا عنيفا فاذا كل شىء فىه فى غير محله نظر الى العالم بعين الأنبياء فرأى انسانا هانت عليه انسانيته : رآه يسجد للحجر والشجر والنهر وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرر .. رأى انسانا معكوسا قد فسدت عقليته وفسد نظام فكره وفسد ذوقه .. رأى مجتمعا هو الصورة المصغرة للعالم ، وكل شىء فىه فى غير شكله أو فى غير محله .. فقد أصبح الذئب فى راعيا ، والخصم الجائر قاضيا ، وأصبح المجرم فىه سعيدا حظيا ، والصالح محروما شقيا .. ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية وتسوقها الى هوة الهلاك ..

رأى معاقرة الخمر الى حد الادمان ، والخلاعة والفجور الى حد الاستهتار ، وتعاطى الربا الى حد القسوة ، والظلم الى حد الهوآد وقتل الأولاد .. رأى ملوكا اتخذوا بلاد الله دولا وعباد الله خولا ( خدما وعبيدا ) ورأى أجبارا ورهبانا أصبحوا أربابا من دون الله يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ..

رأى المواهب البشرية ضائعة أو زائفة لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح فعادت وبالا على أصحابها وعلى الانسانية : فقد تحولت الشجاعة فتكا وهمجية ، والجود تبذيرا واسرافا والأئفة حمية جاهلية ، والذكاء شطارة وخديعة ، والعقل وسيلة لابتكار الجنائيات ، والابداع فى ارضاء الشهوات ..

رأى الأمم قطعانا من الغنم ليس لها راع والسياسة كجمل هائج

حبله على غاربه ، والسلطان كسيف في يد سكران يجرح به نفسه ويجرح به اخوانه (١١٠) ..

أرأيت صورة عامة وشاملة في تاريخ الانسان مثل هذه الصورة للفساد والانحطاط والتطلع الى التغيير واللهفة الى الخروج من هذا الكابوس المسيطر والحنين الى الأمان والراحة والسلام ?? ..

انه عالم متحفز للثورة .. مستعد للرسالة .. يموج بالفتن والظلم والهلاك وتغلى مراجله بالحققد على هذا كله وهو يتساءل متلهفا : أين الطريق ?? وتتجاوب أصداؤه في الشرق والغرب : هل من سبيل للنجاة ؟ وكيف تكون النجاة ?? ..

### ثالثا - استنتاج :

أمة عربية جرفتھا العصبية ، وانتشرت فيها العقائد الفاسدة ، وسادت فيها الأوضاع الاجتماعية الجائرة ، ليست لها دولة وان كانت تتأهب لاقامة دولة .. الخطر في الشرق والغرب يحرق بها « هرقل الرومي يرسل الى مكة من يحكمها ، وأبرهة الحبشى يزحف الى مكة بمن يهدم كعبتها ويستبدل بها كعبة غيرها .. وفارس تطفئ على شرق البلاد وعلى جنوبها وتنظر هذه الأمة فترى أن تجارة العالمين في يدها : القوافل السائرة من خليج فارس الى بحر الروم والقوافل التي تسير من اليمن الى الشام أو من بحر القلزم الى بحر الروم انما تسير في رعاية العرب فان رضوا جرت الأرزاق بين المشرق والمغرب وبين المغرب والمشرق وان غضبوا بارت التجارة وكسدت الأسواق .. (١١١) » .

(١١٠) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد أبو الحسن على الحسنی الندوی ص ٧٨ ، ٧٩ .

(١١١) عبقرية محمد - للعقاد ص ١٣ .

أمة رأت فساد دينها فتطلعت الى غيره .. وكانت ظاهرة « التحنف »  
أصدق دليل على هذا التطلع .. ورأت فساد نظامها الاجتماعى فاجتمع  
عقلاؤها يتعاهدون باسم الله المنتقم ليكون مع المظلوم حتى يودى اليه  
حقه وذلك حلف الفضول الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم  
ما أحب أن يكون لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم ..

والعالم كله ?? ..

سقطت من يده المشاعل المضيئة وخبت أنوار الرسالات على أرضه  
فنظر يئمة ويسرة فوجد ظلاما مطبقا وهلاكا محققا فرنا الى الاستقرار  
واشتاق الى الرحمة وسار يبحث عن الهداية ..

واذن :

فهى أمة لهفى .. وعالم مترقب رسالة السماء .. تنتظر الأمة  
العربية وينتظر معها العالم من يربيه ويريه على المنهج الواضح ويرسم  
للدنيا كلها - فى رفق ومودة - معالم الطريق ..

وانها لتربية القرآن ومنهجه الربانى الذى تربت عليه الانسانية  
كلها كما سنرى فى صفحات مقبلة ..

ان شاء الله ..



# الباب الأول

## القرآن ... والعقيدة ..

الفصل الأول ..

— وجود الله ... ووحدانيته •

الفصل الثاني ..

— ثلاثة عشر عاما في مكة لاقرار العقيدة ..



## الفصل الأول

### وجود الله .. وحدانيته

#### دين الهداية

أولا : - دلائل وجود الله .. وحدانيته :

- ١ - الانسان .
- ٢ - عالم الحيوان .
- ٣ - عالم النبات .
- ٤ - عالم الكواكب .
- ٥ - الرياح .
- ٦ - من دلائل الوحدانية : الأرض ..

ثانيا : - وقفة مع الملحدين :

ثالثا : وقفة مع المشركين :

- ( أ ) التوحيد دعوة الأنبياء .
  - ( ب ) خطاب للمشركين .
  - ( ج ) تهديد لهم .
  - ( د ) مفارقة ضخمة .
  - ( هـ ) هل يمكن أن يكون لله شريك ..
- وهذا هو الطريق ..



## دين الهداية

الأمة الحائرة .. والعالم الضال .. والظلام المطبق في الشرق والغرب .. والنفوس المترقة لميلاد يوم جديد تشرق فيه شمس الأمان على جنبات هذا الكون الذي مزقته الأحقاد وأنهكته العداوات وصار يكبو كلما أراد النهوض ، وليس له من هاد أو دليل .. الكل يرنو الى حياة الرحمة والسلام .. ومحمد بن عبد الله تكلؤه يد العناية الربانية ، وتتعهده غرسا فتتميه ثمرا شهيا ، يحمل مشعل الهداية لهذا العالم الحائر وجاء كتاب الله خطابا عاما : يخاطب الناس على اختلاف مللهم وفحلهم وأديانهم .. وفيهم المنكر للوجود الالهي والمثبت له الا أن الطريق به قد التوى فعاش على الشرك وعبد مع الله آلهة أخرى من حجر أو شجر أو حيوان أو انسان .. وهناك أهل الكتاب من اليهود والنصارى ضلوا وأضلوا وضلوا عن سواء السبيل ..

وأمام هذا الحشد الجامع من البشر وقف القرآن يخاطب كلا بأسلوبه ويضع بين يدي كل منكر حجته ليقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق .. والقرآن في تربيته أمة على العقيدة الصحيحة وفي أخذه بيدها الى طريق الحق لم يرد أن يكون أسلوبه جدلا عقيما .. وتفلسفا باطلا .. وأدلة تستعصى على العقول مناجيها ، وتغيب عن أهل الفكر والنظر مدلولاتها ومراميها ، .. انما جاء سلسا سلسيلا يفهمه العامة والخاصة ويفهمه العربي في أعماق الصحارى العربية كما يفهمه أهل الحضارة والثقافة في أرجاء الأرض ويتذوقه من عاصر الوحي وشهد تنزلات القرآن ومن بعد به العهد عن هذا العصر في كل زمان ومكان .. والقرآن يبدأ بالفطرة فيوقظها ويذكرها بما هو مغروس في أعماقها ليجد أنها معترفة بوجود الخالق العظيم فهي في ذلك لا تحتاج الى دليل .

يقول ربنا :

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَىٰ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ  
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا  
أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۖ أَوْ تَقُولُوا  
إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ  
أَفْتُهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ » <sup>(١)</sup> .

انها الفطرة السليمة التي خلقها الله وهي تعرف ربها •

كما قال سبحانه :

« فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ  
اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » <sup>(٢)</sup>

تعرفه وتلوذ به اذا مسها الضر ولم تجد الا قوة القوى تحتمى  
بها وتستظل بعطفها :

قال تعالى :

« وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ  
فَلَمَّا نَجَّكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا » <sup>(٣)</sup> .

(١) الأعراف ١٧٢/٧ ، ١٧٣ •

(٢) الروم ٣٠/٣٠ •

(٣) الاسراء ٦٧/١٧ •

ويقول :

« وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ<sup>٤</sup>  
فَإِلَيْهِ تَجْرَوْنَ \* ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ<sup>٥</sup>  
مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ<sup>(٤)</sup> »

انها الفطرة التي تجيب وهي تسأل ..

« قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \*  
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ \* قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ  
السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ \* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ \*  
قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ  
إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ<sup>(٥)</sup> »

ويقول :

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ<sup>(٦)</sup>  
اللَّهُ<sup>(٦)</sup> »

ويقول :

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ  
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ<sup>(٧)</sup> »

(٤) النحل ٥٣/١٦ ، ٥٤ .

(٥) المؤمنون ٨٤/٢٣ - ٨٥ .

(٦) لقمان ٢٥/٣١ ، الزمر ٣٨/٣٩ .

(٧) العنكبوت ٦١/٢٩ .

ويقول :

« قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ  
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ  
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا  
تَتَّقُونَ \* فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ  
إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ <sup>(٨)</sup> »

قال الامام القزويني في سراج العقول :

« الدليل أن معرفة الله واجبة كونها من الأمور التي تصل العقول  
اليها .. فان الانسان اذا دهاه أمر وضاعت به المسالك فلا بد أن يستند  
الى اله يتأله له ويتضرع نحوه ويلجأ اليه في كشف بلواه .. ويسمو قلبه  
صعودا الى السماء .. ويشخص ناظره اليها من حيث كونها قبلة لدعاء  
الخلائق أجمعين .. فيستغيث بخالقه وبارئته طبعاً .. وجيلة .. لا تكلفا  
وحيلة ومثل ذلك قد يوجد في الأطفال والوحوش والبهائم أيضاً فانها  
ظاهرة الخوف والرجاء رافعة رؤوسها الى السماء عند فقدان الكلاء والماء  
واحساسها بالهلاك والفناء .. هذا كله مركز في جيلة الحيوانات فضلاً  
عن الانسان العاقل وهي الفطرة المذكورة في القرآن والحديث ولكن أكثر  
الناس قد ذهلوا عن ذلك في حالة السراء وانما يردون اليه في الضراء قال  
تعالى : « واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه » ..

وأيضاً فان عامة الناس في جميع أقطار الأرض دعت أنفسهم الى  
الاعتراف بأن لهم خالقاً من غير معلم ولا اثبات حجة عندهم ولا اصطلاح



وقع بين كافهم من أهل البوادي وأقاصى الهند والصين وأهل الجزائر الذين لم يبلغهم داع الى الاسلام ولا الى الشرك فانهم استغنوا بشهادة أنفسهم على الأعم الأغلب بالخائق جل جلاله وذلك قوله تعالى :

« قالت لهم رسلهم : أفى الله شك .. فاطر السموات والأرض ؟؟ وهذا كله قريب من الضروريات .. » (٩) ..

والقرآن حين يوجه نداه للفطرة لتفيق وتعتدل فى الطريق السوى يأخذ بيدها الى مظاهر الملك ويتعمق بها فى أسرار الملكوت ويسألها مع كل لمسة وهمسة .. ومع كل لفظة وإشارة .. من رب هذا ؟؟ فلا تملك الا أن تقول أفت يارب الذى وهبته حياته وأعطيته نماء وقوته .. وأودعته سرا مكنونا حار فيه العلماء ووقفوا أمامه يشهدون مع يد الفطرة التى تلس هذا بأن الله وحده رب هذا الكون ومسيره .. وبين يديك الآن بعض الأدلة على توحيد الله وهى أدلة أيضا على وجوده لذلك قدمناها قبل أن نرى كيف أرشد القرآن كلا من الملحدين والمشركين ودلهم على الطريق الواضح المستقيم ..

اولا - دلائل وجود الله .. ووحدانيته :

١ - الانسان :

هذا الانسان !!

ذلك العالم الأصغر .. أعجوبة الصناعة الالهية وآية من آيات الاله القادر يسألنا القرآن عنها فيما يسألنا فيقول :

« وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ \* وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (١٠) »

نبصر ماذا؟؟ نبصر هذه الآيات؟ وأي آيات وعلامات ودلائل في خلق الانسان نبصرها ونعرفها؟ نعم نبصر •

« مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ \* مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ \* ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرُهُ \* ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ \* ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (١١) »  
ويوضح لنا ربنا هذا الخلق العجيب فيقول :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ \* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ \* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا \* ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خُلُقًا \* آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ \* ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ \* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ (١٢) »

ويلفت أنظارنا الى سر من أسرار هذا التكوين فيقول :

« خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ \* ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا \* وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ \* يَخْلُقُكُمْ فِي

(١٠) الذاريات ٢٠/٥١ ، ٢١ •

(١١) عبس ١٨/٨٠ - ٢٢ •

(١٢) المؤمنون ٢٢/٢٣ - ١٦ •

يُطُونُ أُمَّهُتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظَلَمْتُمْ ثَلَاثَ ذَلِكُمْ  
 اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ» (١٣)

ويلقى بين أيدينا تلك المفارقة العجيبة بين التراب والنطفة ..  
 والانسان السوى المعتدل الخلقة الذى يتكاثر ويتناسل ويكون له الأبناء  
 والحفدة ؟ فيقول :

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ » (١٤)

ويقول :

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ  
 أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً » (١٥)

ويقول :

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ  
 تَنْتَشِرُونَ \* وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا  
 لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ  
 لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (١٦)

ويتحدث عن مراحل حياة الانسان وأطواره فيقول :

(١٣) الزمر ٦/٣٩ .

(١٤) النحل ٤/١٦ .

(١٥) النحل ٧٢/١٦ .

(١٦) الروم ٢٠/٣٠ ، ٢١ .

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ  
عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا  
شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى  
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (١٧)

ان نفخة من روح الله في قبضة من التراب صنعت هذا الكائن  
العجيب شاهد عظمة .. ودليل ربوبية •

قال تعالى :

« الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ  
مِنْ طِينٍ \* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ \* ثُمَّ  
سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ  
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » (١٨)

واللفتة البديعة في هذه الآيات اشارتها الى ذلك التباين في خلق  
الانسان فانه خلق من نطفة فعلاقة فمضغة فعظام كساها الله لحما ثم خرج  
من بطن أمه في وقت معلوم يسمع بعد لحظات ، ويرى بعد أيام قليلات ،  
ثم يدرك ويحس بعد أيام طويلات .. ينتقل من طبيعة الى طبيعة ومن حال  
الى حال :

فطبيعة الدم غير طبيعة الماء ( المنى ) وطبيعة اللحم غير طبيعة العظم

(١٧) غافر ٦٧/٤٠ •

(١٨) السجدة ٧/٣٢ - ٩ •

والسن والظفر والشعر .. وهذا كله وهو في ظلمات ثلاث .. فمن - اذن -  
الذى خلق من الماء بشرا سويا ثم جعله نسبا وصهرا ؟  
ثم من الذى جعل الناس أزواجا وأصنافا مختلفين لونا وشكلا ولغة  
وادراكا :

قال تعالى :

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ  
وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ » (١٩)

من الذى قدر الآجال والأعمار والأرزاق ؟ من الذى خلق الانسان  
من صلصال كالفضار ومن حمأ مسنون ؟ ومن الذى صوره فى الأرحام  
ووهب لمن يشاء اناثا ووهب لمن يشاء الذكور أو زوجهم ذكرانا واناثا ..  
وجعل من يشاء عقيما ؟ من الذى جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ؟  
هل يمكن أن يكون خلق هذا الانسان عبثا ولهوا أو مصادفة عمياء ؟ أو  
أن يكون هناك رب آخر مع الله أبدع هذا الابداع وخلق هذا الخلق فى  
أحسن صورة وأجمل منظر وأبهى حلة ؟ .. ان الفطرة هى التى تجيب :  
تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ..

## ٢ - عالم الحيوان :

وهذا عالم الحيوان !!

فيه من عجائب الخلق ما يستحق أن يقف عندها كتاب الله يلفت اليها  
الأنظار ، انه عالم مستقل .. بل عوالم تحار فيها العقول .. هذا التنوع  
فى الخلق من حيوانات برية ، وبحرية ، وهوائية طائرة ، وحيوانات حشرية  
صغيرة لا ترى الا بالمجاهير ، وأخرى كبيرة فخرية وثدييه .. وحيوانات

طويلة العمر ، وأخرى قصيرة الأجل ، وحيوانات تبيض وحيوانات تلد ، وحيوانات للأكل والحمل والألبان ، ومنافع أخرى كثيرة وحيوانات أخرى لا ينتفع بها الإنسان .. وحيوانات ملساء الجلد لا شئ عليها وحيوانات أخرى مكسوة الجلد بالريش والصوف .. واختلافها في الألوان والأصوات وطريقة الحياة ، وتناول الطعام أغرب وأعجب ..

يقول القرآن :

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » (٢٠)

ويقول :

« وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٢١)

ويقول :

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » (٢٢)

• (٢٠) الانعام ٣٨/٦

• (٢١) النور ٤٥/٢

• (٢٢) هود ٦/١١

ويسأل :

« أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٢٣)

ويقول :

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ » (٢٤)

ويمتن على الانسان بهذه النعمة فيقول :

« وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ \* وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ \* وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ \* وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (٢٥)

ويقول :

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ

• (٢٣) النحل ١٦/٧٩ .

• (٢٤) الملك ١٩/٦٧ .

• (٢٥) النحل ١٦/٥ - ٨ .

وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْثًا وَمَتَعًا إِلَى حِينٍ» (٢٦)

فهل هذا التنوع والتمايز والتناسق في عالم الحيوان المليء بالأسرار خلق مصادفة أو عبثا ؟ ..

أو يدع فرصة ليظن أحد بأن لله شريكا في ملكه ??

ان الفطرة التي انصت الى هذا التساؤل هي التي أجابت : سبحانه وتعالى عما يصفون ..

### ٣ - عالم النبات :

ويد الفطرة التي أخذ بها القرآن تستطيع أن تلمس ما حولها من عالم النبات : هذه حبة توضع في باطن الأرض فلا تتأثر برطوبة ما نزل عليها من الماء انما تربو وتتنفخ وتنشق من أسفل عن جذور تمتد في باطن الأرض ، ومن أعلى عن ساق يصعد الى أعلا ، شاقا لنفسه طريقا بين التراب . وبين الجذر والساق لا تنقطع الصلة حتى يطيب الزرع والشر ويؤتى أكله في حينه الموقوت باذن ربه .. وهل يتصور أن النواة على ضعفها تكون نخلة باسقة تمسك بها الجذور ولا تتأثر لهبوب الرياح وتؤتى أشهى الثمار ?? وجذور الشجر والنبات تختلف شكلا ونوعا كل بمقدار ونظام رتيب .. وهذا التنوع والتمايز في الثمرة الواحدة فانها تختلف حجما ولونا ومذاقا رغم أنها نوع واحد وفي أرض واحدة وتسقى بماء واحد وترى بعضها يؤكل باطنه ويرمى ظاهره وبعضها يؤكل ظاهره ويرمى باطنه ولو نظرت الى بساتين الأعناب والنخيل والأشجار لرأيت صنع الله : كيف نمت تلك الأغصان وتفرعت هذه الفروع وتغايرت تلك الثمار وتشكلت هذه الأواوان وتنوعت هذه المذاقات .. انها الآيات الباهرة التي لا تحتاج الا الى العقل الذي يفهم والقلب الذي يفقه .. وانها الدلائل



الميسرة الملموسة التي وقفت عندها تربية القرآن تقول للفطر المستقيمة :  
هذه آيات الله .. فهل من مجيب .. ؟ ..

يقول تعالى :

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ \* ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ  
الزَّارِعُونَ (٢٧) »

ويقول :

« إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ  
وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٢٨) »

ويقول :

« وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ  
كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا  
وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ  
وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ  
إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٨) »

ويقول سبحانه :

« وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ

وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَّانَ مُتَشَابِهًا  
وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ  
حَصَادِهِ « (٢٨)

ويقول عز من قائل :

« وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّتٌ مِنْ أَعْنَبٍ  
وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ  
وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ  
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ « (٢٩)

انها الفطرة المأمورة بالنظر في هذه الحقائق الباهرة ..

قال تعالى :

« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ \* أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا \*  
ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا \* فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا \* وَعَيْنًا وَقَضْبًا \*  
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا \* وَحَدَائِقَ غُلْبًا \* وَفَكْهَةً وَأَبَّا \* مَتَاعًا  
لَّكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ « (٣٠)

تأمل في نبات الأرض وانظر الى آثار ما صنع المليك

(٢٨) الأنعام ١٤٠/٦ .

(٢٩) الرعد ٤/١٣ .

(٣٠) عبس ٢٤/٨ - ٣٢ .

عيون من لجين شاخصات بأزهار هي الذهب السبيك  
 على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك  
 انها حين تنظر بعين الانصاف سوف تهتف من أعماقها : حقا : ان الله  
 ليس له شريك ..

#### ٤ - عالم الكواكب :

وهذا عالم الكواكب :

تراها معلقة في الفضاء تسير في مداراتها باحكام ودقة ونظام تعرف  
 بمسارها عدد السنين والحساب .. وتنوع بتنقلاتها الفصول من صيف  
 وخريف وشتاء وربيع .. وعالمها يحير العقول ويختلب الأبصار ..

هذا هو العلم يقول لنا عن الشمس وهي احدى تلك الكواكب :

« الشمس هي كرة متأججة بنار أشد وطيسا من كل نار على الأرض  
 وهي أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة . أما بعدها عنا فنحو  
 ٩٢٥٠٠٠٠٠ ميل .. هذا وان هي الا نجمة ، وليست هي في عداد  
 النجوم الكبرى .

وهناك مشكلة أخرى أعى حلها النهائي عقول العلماء والفلكيين ،  
 هي أن الشمس كما يؤخذ من علم طبقات الأرض لم تزل تشع نفس المقدار  
 أو نحوه من الحرارة مدة ملايين من السنين فاذا كانت الحرارة الصادرة  
 عنها نتيجة احتراقها .. فكيف لم تفن مادتها مع نوالى العصور ؟ فلا شك  
 أن طريقة الاحتراق الجارية فيها غير ما نعهد ونألف والا لكفاها ٦٠٠٠  
 سنة لتحترق وتنفذ حرارتها .

« أما فضل الشمس علينا فليس أنها مصدر نورنا وناارنا فقط بل  
 هي محور نظامنا السيارى ومصدر حياتنا أيضا .. فهي التى تبخر مياه

البحر وترفعها غيوما في الجو وتنزلها أمطارا على الأرض حيث تجرى  
جداول وأنهارا تروى زرعنا وتنمى أغراسنا وتثير الرياح وتهيج الأنواء ،  
فتطهر الهواء وتنقيه ، وتزجي السفن والمراكب في عباب المحيط • وهى التى  
تجر المركبات وتدير الآلات البخارية ، وما الفحم الحجري الا حرارة  
نارها المدخرة منذ قديم الأدهار لينتفع بها بنو العصور المتأخرة ، ولا حياة  
لولا الشمس لحيوان ، ولا نبات ، فالحيوانات تتعش بحراراتها ،  
والأطياف تغرد بأنوارها وتسبح تسبيحا ، وبحراراتها وأنوارها تبزغ  
النباتات وتنمو الأشجار ، وتزهو الأزهار ، وتنضج الثمار فنحن مدينون  
للشمس بماكلنا ومشربنا وهى علة وجودنا على هذه الأرض » ••

فاذا تجاوزنا الشمس وجدنا أن :

أقرب نجم إلينا بعد الشمس يعادل بعده ٢٦٠.٠٠٠ مرة بعد الشمس  
• عنا •

ويعتبر هذا شيئا ضئيلا جدا بالنسبة لنجوم المجرة التى أسماها  
القدماء « طريق التبانة » بل تعتبر المجموعة الشمسية ذرة اذا قيسـت  
بالمجرة ، اذ انها تحتوى على مائة مليون نجم موزعة فيما يشبه القرص  
المفرطح الرقيق نسبيا ••

ويقول هيربرت سبنسرجوتز مؤلف كتاب « الفلك العام » :

« ان الضوء يستغرق مائة ألف سنة ضوئية ليصل بين طرفى المجرة  
ومعلوم أن الضوء يسير بسرعة ١٧٦ ألف ميل فى الثانية أو ٣٠٠ ألف  
كيلو متر وعلى هذا فان السنة الضوئية تعادل عشر مليون مليون  
كيلو مترا ••

وليست هذه المجرة التى تبلغ هذا الحد من الضخامة التى لا يقوى  
العقل على استيعابها الا واحدة من كثيرات لم يحصها العد ••

وبقى أن نعرف أن أقرب مجرة لمجراتنا تبعد سبعمائة ألف سنة ضوئية» (٣١) . والقرآن يبسط هذه الأدلة بأسلوبه العذب الذي تخالط رفاقته أوتار القلوب فيقول :

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ  
مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ  
إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (٣٢)

ويقول :

« وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ  
الْعَلِيمِ \* وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ  
الْقَدِيمِ \* لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ  
سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (٣٣)

ويقول :

« اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ  
أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي

(٣١) قصة الكون من السديم الى الانسان ، من كتاب الطاقة الانسانية  
لاحمد حسين ص ١٥ .

(٣٢) يونس ٥/١٠ .

(٣٣) يس ٢٨/٣٦ - ٤٠ .

لَأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ  
تُوقِنُونَ» (٣٤)

ويقول :

« وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ  
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (٣٥)

ويقول :

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي  
ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (٣٦)

ويقول :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ  
تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى  
الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (٣٧)

ويقول :

« الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ \* وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ \*  
وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ » (٣٨)

• (٣٤) الرعد ٢/١٣

• (٣٥) النحل ١٢/١٦

• (٣٦) الأنعام ٩٧/٦

• (٣٧) الحج ٦٥/٢٢

• (٣٨) الرحمن ٥/٥٥ - ٧

ويقول :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ  
غَافِلِينَ » (٣٩)

ويقول :

« أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا  
وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » (٤٠)

ويقول :

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » (٤١)

٥ - الرياح :

وظاهرة أخرى من ظواهر هذا الوجود .. جلية واضحة أمام  
الناظرين وهي جلية واضحة لأنها لا يستغنى عنها انسان أو حيوان أو  
نبات فهي أساس نظام الحياة على هذا الكوكب ..

نعم هي بادية ولكن للأعين البصيرة والقلوب المستعدة للإيمان ..

أرأيت الرياح ?? وكيف أحكم الله سيرها وقدر قواها ووزعها على  
هذا الكوكب الأرضي توزيعا دقيقا رصدته العلماء وقسموا على أساسه  
هذا العالم الى مناطق حارة وباردة ومعتدلة وعرفوا سيرها فكانت الجوار  
في البحر كالأعلام ..

(٣٩) المؤمنون ١٧/٢٣ .

(٤٠) ق ٦/٥٠ .

(٤١) الذاريات ٤٧/٥١ .

وكيف أدخل في تكوين الهواء مادة الحياة التي لو زادت لأدت الى احتراق الأرض وما عليها ومن عليها ولو قلت لاختنق الأحياء جميعا ..

وهذه الرياح تحمل حبوب اللقاح : احياء للنبات والأشجار ، والسحاب الذى يحمله الهواء وما يتبع ذلك من مطر ورعد وبرق .. وكله أثر بليغ ليد القدرة لا يسير خط عشواء انما هو الاحكام والدقة .. تلك الآيات الباهرات وقف عندها القرآن مرشدا وهاديا يخبر ويستفهم ويقول :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ » (٤٢)

ويقول :

« هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ \* وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ » (٤٣)

(٤٢) النور ٢٤/٤٣ .

(٤٣) الرعد ١٣/١٢ ، ١٣٠ .



ويقول :

« وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ  
حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ  
الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ  
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » (٤٤)

ويقول :

« وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً  
فَأَسْقَيْنَكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ » (٤٥)

ويقول :

« أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ  
الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَعْلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا  
يُشْرِكُونَ » (٤٦)

ويقول :

« وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ

(٤٤) الأعراف ٥٧/٧ .

(٤٥) الحجر ٢٣/١٥ .

(٤٦) النمل ٦٣/٢٧ .

مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ  
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٤٧)

ويقول :

« وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ \* إِنْ يَشَأْ  
يُسْكِنِ الْريِّحَ فَيُطْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ \* أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ  
عَنْ كَثِيرٍ » (٤٨)

ويقول :

« وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى  
بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْنُّشُورُ » (٤٩)

من دلائل الوحدانية : الأرض :

والأرض !!

أقرب شيء الى الانسان .. ترفو اليها التربية القرآنية لتأخذ منها  
الدليل الذى يتناسق مع منطق الفطرة ويؤلف مع أشواقها للمعرفة نغما  
هادئاً يريح الأعصاب ويشبع رغبات القلب ..

الأرض منها خلقنا وعليها عشنا وفيها ندفن ومنها نبعث ..

(٤٧) الروم ٤٦/٣٠ .

(٤٨) الشورى ٣٣/٤٢ ، ٣٤ .

(٤٩) فاطر ٩/٣٥ .

أرأيت الأرض ?? انها آية من آيات الله القادر .. فيها البحار والأنهار والجبال والوديان والصحارى .. ما فى باطنها أعجب مما على ظاهرها .. جعلها خالقها مستعدة لاستقبال الانسان واستخلافه فيها .. جعل ثلاثة أرباعها ماء مالحة حتى لا تفسد الحياة وتتعفن .. وجعل هذا الماء الكثير وسيلة أخرى تسير بها قافلة الحياة .. اذ يتبخر بواسطة حرارة الشمس ويتصاعد من مسطحات المياه ليكون السحب التى تنزل ماء عذبا صافيا يحيى الانسان والحيوان والنبات .. وأجرى فى الأرض الأنهار والبحار متجاورة لا يبغي أحدها على الآخر .. وجعل الجزء الباقي مهينا لحياة الانسان ومسخر لخدمته : فلاهو بالرخو تغوص فيه الأقدام ولا بالصلب الذى يستعصى حفره والارتفاع به .. ولم يجعله باردا فيتجمد ما فوقه ولا حارا يحرق ما عليه .. انما هو التناسب والتوافق بين خصائص الانسان وما ينتفع به حتى تكمل اللذة ويتم الارتفاع .. وانها آية قريبة وملموسة تراها فطرة الانسان ولا تملك الا أن تجيب بأن هذه الأرض برهان القدرة الالهية والعظمة الربانية ..

ومن حق القرآن أن يواجه هذه الفطرة بهذه التساؤلات فيقول :

« أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوْسِيًّا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » (٥٠)

ويقول :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ

ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ  
مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ \* وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ  
وَأَلْنَاعِمْ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ  
عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ<sup>(٥١)</sup>»

ويقول :

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا \* وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا<sup>(٥٢)</sup> »

ويقول :

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا \* أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا \*  
وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شِمَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا \* وَيَلُّ  
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ<sup>(٥٣)</sup> »

ويقول :

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ \* وَإِلَى السَّمَاءِ  
كَيْفَ رُفِعَتْ \* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ \* وَإِلَى الْأَرْضِ  
كَيْفَ سُطِحَتْ<sup>(٥٤)</sup> »

(٥١) فاطر ٢٧/٣٥ ، ٢٨ ،

(٥٢) النبأ ٧٨/٦ ، ٧٩ ،

(٥٣) المرسلات ٣٥/٧٧ - ٣٨ ،

(٥٤) الفاشية ١٧/٨٨ - ٢٠ ،

ومن حق التربية القرآنية أن تمتن بهذه النعمة وهي تقول :

« وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ \* وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ » (٥٥)

وتقول :

« وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَاْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٥٦)

وتقول :

« وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَآخِرَ فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٥٧)

وتقول :

« وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا » (٥٨)

(٥٥) الحجر ١٥/١٩ ، ٢٠٠ .

(٥٦) فاطر ٣٥/١٢ .

(٥٧) النحل ١٦/١٤ ، ١٥ .

(٥٨) الفرقان ٢٥/٥٣ .

وتقول :

« قُلْ أَتِنَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي  
يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ \* وَجَعَلَ  
فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي  
أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ \* ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ  
دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا  
طَائِعِينَ » (٥٩)

وتقول :

« ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا \* رَفَعَ سَمَكُهَا  
فَسَوَّاهَا \* وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا \* وَالْأَرْضَ بَعْدَ  
ذَلِكَ دَحَاهَا \* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا \* وَالْجِبَالَ  
أَرْسَاهَا \* مَتَعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ » (٦٠)

انه هذا الكون الفسيح في سمائه وأرضه وما في سمائه وأرضه  
حقل خصيب وتربة طيبة تنقل فيها تربية القرآن شجرة التوحيد الخالص  
لتغرسها في أعماق النفس الانسانية حتى لا يؤثر فيها تيار الانحراف ..  
ولا تجرفها أمواج الشرك ..

(٥٩) فصلت ٩/٤١ - ١١ .

(٦٠) النازعات ٢٨/٧٩ - ٣٣ .

### ثانيا - وقفة مع الملحدین :

ومن هذا الكون تأخذ الدليل الواضح لتقتلع به جذور الباطل وتقتضى على جرائم الالحاد والانكار .. انظر الى هذه التربية وهى تواجه الملحدین والمنكرين لوجود الله الذين يقولون ما حكى الله عنهم « ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر (٦١) » كيف يجادلهم القرآن ويأخذ بأيديهم الى الطريق .. مبينا لهم ولأمثالهم : أن انكارهم وليد الجهل ولأوهام ،

« وَمَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » (٦١)

اذ يستحيل أن تكون هذه الحياة وليدة الصدفة العمياء بعد أن بدا من مظاهر هذا الوجود ما يؤكد حاجته الى خالق مدبر عليم .. ويكفى في بيان جهل هؤلاء الملحدین أن النظرة العابرة توحى بأن اخراج الحياة من العدم وايداع ما فيها ومن فيها سر البقاء والتجدد دليل أيما دليل على الوجود الربانى ..

قال الأستاذ ليشز في خطاب الرئاسة السنوى بقسم الفزيولوجى من جامعة اكسفورد عام ١٩٣٦ ما فحواه :

« ان كل خلية من البروتين تتألف من سلسلة فيها بضع مئات من الحلقات .. وان كل حلقة منها هى تركيبة من ذرات قوامها حمض من الأحماض النوشاردية .. وهى أحماض يبلغ المعروف منها نحو العشرين ويجوز أن يقع كل منها موقعه على اختلاف فى النسبة والترتيب .. ولكننا لا نراها فى بعض الأنسجة الا على ترتيب واحد ونسبة واحدة بغير شذوذ ولا اختلاف .. »

فهل نستطيع أن نتخيل مبلغ الدقة في هذه الإصابة بين احتمالات الخطأ التي لا تحصى أرقامنا المألوفة ??

يكفى لتقريب هذه الدقة من الخيال أن نذكر أن الحروف الأبجدية في لغات البشر كافة لا تتجاوز الثلاثين ويتألف من تراكيبها المتغيرة كل ما تلفظ به الأمم من الكلمات والعبارات فإذا كانت خلية البروتين في حجمها الخفى قابلة لأضعاف ذلك التكرار ثم لا نشاهد فيها إلا كلمة واحدة في ترتيب واحد لا يتغير - فقد عرفنا على التقريب معنى تلك الإصابة في التوفيق والتركيب ..

يقول الأستاذ ليشز لتقريب هذا الخيال : - ان الضوء يصل من طرفي المجرة الى الطرف الآخر في ثلثمائة ألف سنة فإذا أردنا أن نشبه إصابة الخلية في تركيبها بمثل مفهوم - فهذه الإصابة تضارع إصابة الرصاصة التي تنطلق من الأرض فتصيب هدفا في نهر المجرة بحجم عين الثور ولا تخطئه مرة من المرات .. وهذا على فرض أن حلقات الخلية خمسون فقط وليست بضع مئات •

يقول العقاد :

لقد بطل معنى القصد في لغة العقل ان كان هذا كله مصادفة لا تستلزم الخلق والتدبير ونحن مع هذا لا نبلغ غاية العجب في هذا التركيب المحكم المصيب .. لأن الجسم الحي الذي تتكرر فيه هذه المعجزات كل لحظة من لحظاته لا تزال فيه بقية للعجب لعلها أعجب من كل ما تخيلناه ، وهي أن هذه الذرات الخفية تتجمع وتنفرد وتلتئم وتفصل على نحو يضمن لها التجدد أو يضمن الدوام للحياة فيتألف كل حي من جنسين وتخرج من كل منهما خلية واحدة يتكون منهما حي جديد وتنقسم هاتان الخليتان تارة أزواجا .. وتارة فرادى على الموضع المطلوب في المرحلة المطلوبة ،



ويتفق عددها في كل نوع من الأنواع الحية بغير زيادة ولا نقصان ..  
 ويطلع كل حيوان على عادات وغرائز تسوقه الى التناسل في موعده  
 المقدور فينبى العش قبل أن ينسل ان كان من الطيور ، ويفارق الماء الملح  
 الى مداخل الأنهار أو الخليجان قبل أن ينسل ان كان من سمك البحار ،  
 ويستلئ بالشوق الى شريكه في التوليد قبل موعد التوليد على اختلاف  
 الأنواع والأجناس .

ونعود فنقول مرة أخرى ، « ان معنى القصد قد بطل في عقل الانسان  
 ان كان القول بالمصادفة هنا أيسر من القول بالخلق والتدبير .. فالقرآن  
 الكريم قد خاطب الأحياء بلغة الحياة وخاطب العقلاء بلغة العقل حين كرر  
 برهان الحياة وبرهان النسل في اثبات وجود الخالق الحكيم (٦٢) » ..

والعلامة نيوتن أعظم علماء الطبيعيات يقول : « لا تشكو في الخالق  
 لأنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هي قائدة الوجود .. لأن  
 ضرورة عياء متجانسة في كل مكان وزمان لا يتصور أن يصدر منها هذا  
 انتشوع في الكائنات ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها  
 مع تغيرات الأزمنة والأمكنة .. بل ان هذا كله لا يعقل أن يصدر الا من  
 كائن أزلى له حكمة وإرادة » ويقول : « ان من المحقق ان الحركات  
 الحالية للكواكب لا يمكن ان تنشأ من فعل الجاذبية العامة .. لأن هذه  
 القوى تدفع الكواكب نحو الشمس فيجب لكي تدور هذه الكواكب  
 حول الشمس أن توجد يد الهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها » ..  
 ويقول : « يجب وجود سبب عرف هذه المواد وقارن بين كميات  
 المادة الموجودة في الأجرام السماوية المختلفة وأدرك ما يجب أن يصدر  
 منها من القوة الخارقة وقدر المسافات المختلفة وأدرك ما يجب أن يصدر  
 منها من القوة الخارقة وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين

توابعها ، وقدر السرعة التي يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مركزا لها .. » ويقول : « كيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ?? ولأى المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ?? وهل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الأبصار ونواميسه ، والأذن بدون المام بقوانين الصوت ?? كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بارادتها ؟ ومن أين جاء هذا الإلهام الفطري في نفوس الحيوانات ?? فهذه الكائنات كلها في قيامها على أبدع الأشكال وأكملها ألا تدل على وجود اله منزه عن الجسمانية .. حى .. حكيم .. موجود في كل مكان يرى حقيقة كل شيء في ذاته ويدركه أكمل ادراك (٦٣) » ..

والترية الإلهية تعرض لكل هذا في أجمل بيان وأقوى حجة وأنصع دليل فيقول ربنا :

« إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ \* فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا » (٦٤)

ويقول :

« يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ \* وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ » (٦٥)

(٦٣) دراسات موضوعية تحت ضوء القرآن والسنة للدكتور عبدالغنى  
الراجحي ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٦٤) الأنعام ٩٥/٦ ، ٩٦ .

(٦٥) الروم ١٩/٣٠ ، ٢٠ .

ويقول :

« بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (٦٦)

ويقول :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » (٦٧)

الى غير ذلك من الآيات التي واجه القرآن بها هذا الصنف المنحرف في فطرته عن الطريق السوى فعاش على الظن والشك .. قال ابن رشد :

« ان قوما قالوا : كيف أبدع الله العالم لا من شيء وفعله شيئا من لا شيء .. قلنا في ذلك : ان الفاعل لا يخلو من أن تكون قوته كقدرته .. وقدرته كإرادته .. وإرادته كحكمته أو تكون القوة أضعف من القدرة والقدرة أضعف من الإرادة .. والإرادة أضعف من الحكمة فان كانت بعض هذه الصفات أضعف من بعض فاذن ليس بيننا وبين الخالق فرق وقد لزمها النقص وهذا مستحيل أو يكون كل واحد من هذه الصفات في غاية التمام وغاية الحكمة فهو ما يشاء كما يشاء من لا شيء وانما يتعجب من النقص الذي فينا (٦٨) » ..

وقال بعضهم : « دعوى أن الحدوث من العدم محال يقال عنها انها محال بنفسها لا بفعل قادر أزلي . وعدم ادراكنا لذلك وكونه مما يفوق طور العقل لا ينفيه اذ لا يلزم من جهل الأمر نفيه .. وقد اعترف

(٦٦) البقرة ١١٧/٢ .

(٦٧) فاطر ١/٤٥ .

(٦٨) دلائل التوحيد : للقاسمي ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .

الماديون بتعذر معرفة أصل المادة .. وكم من أشياء مشهورة يعسر على الانسان ادراك حقيقتها .. وكما أنه لا يحق لمن لم يبصر أمرا أن ينكر وجوده فهكذا ليس لمن لم يفهم حقيقة الخالق أن ينكر وجوده سيما وهي من غيب الغيوب وأبطن البطون(\*)» ..

أرأيت هذه الحملة التي شنتها تربية القرآن على دعاة الالحاد ?? انها حملة ضخمة لا تدع فرصة لمنكر الا وضيعتها ولا شبهة الا وأزالتها ولا حجة الا ودحضتها .. ولهذا ايضا مزيد بيان في الصفحات التالية ..

### ثالثا ن وقفة مع المشركين :

#### ( ١ ) التوحيد دعوة الأنبياء :

وكما اتجهت التربية القرآنية الى المنكر ترشده امتدت رحمتها الى المشرك الذي يدعى مع الله آلهة أخرى سواء كان صاحب كتاب منزل ضل عنه وانحرف عن تعاليمه أو ليس معه دليل ولم يأته رسول فعبد الحجر والشجر والكواكب وغيرها ..

امتدت الى هؤلاء جميعا فوجدتهم في جهالة عمياء وضلال مبين .. فأقنعتهم بالحجة البينة والبرهان الساطع حتى استبان كل طريقه وظهر للناس وجه الحقيقة دون زيف أو بهتان ..

لقد وجد القرآن - وهو يربى هذه المجتمعات - ركاما من التراب فوق أكبر حقيقة مات تحت رايتها الشهداء وتعذب من أجلها الصالحون ، وطورد لها الأنبياء ، لأنها تحرير للانسان من كل عبودية في الأرض وجعل هذه العبودية لله وحده .. وهي اعلاء لكرامة الانسان ومشعل يحمله في يده يجوب به مسالك الحياة .. انها دعوة التوحيد بأكمل صورته :

توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتنزيه اللاله عن النسب والشريك  
والوالد والولد .. دعوة لتوحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله ..

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » (٦٩)

وهي دعوة الأنبياء في كل أمة قال تعالى :

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي  
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ  
أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ  
مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ » (٦٩)

وقال :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ  
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » (٧٠)

وقال :

« وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ  
دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ » (٧١)

(٦٩) الشورى ١١/٤٢ ، ١٣ ،

(٧٠) الأنبياء ٢١/٢٥ .

(٧١) الزخرف ٤٣/٤٥ .

نوح أبو البشر الثاني يتجه الى قومه بهذه الدعوة ..

قال تعالى :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ » (٧٢)

وابراهيم أبو الأنبياء ينادى قومه :

« اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (٧٣)

وهكذا قالها هود وصالح وشعيب لأقوامهم ..

ويعقوب يسائل أبناءه :

« مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (٧٤)

ويوسف ابن يعقوب يخاطب دعاة الشرك في تهكم وانكار ..

« أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ \* مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (٧٥)

• (٧٢) المؤمنون ٢٣/٢٣ .

• (٧٣) العنكبوت ١٦/٢٩ .

• (٧٤) البقرة ١٣٣/٢ .

• (٧٥) يوسف ٣٩/١٢ ، ٤٠ .

وموسى يقول لقومه :

« أَغَيِّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلَكُمْ عَلَى  
الْعَالَمِينَ » (٧٦)

وعيسى يعلن أمام بنى اسرائيل :

« إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » (٧٧)

ويأتى محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ليجد هذه  
الرسالات كلها قد تلاشت من على ظهر الأرض وذهبت صيحات الأنبياء  
أدراج الرياح ، وأن دعوة المرسلين التى تتابعت مع عمر الانسانية تدعوها  
الى عبادة الله وحده لا شريك له ، لم يعد لها وجود .. فاليهود حرفوا  
التوراة وبدلوها وقالوا : عزيز ابن الله . والنصارى نسوا تعاليم الانجيل  
والمسيح وغيروها وادعوا : أن الله هو المسيح عيسى بن مريم وأن الله  
ثالث ثلاثة ..

وفى الفترة التى غابت فيها الرسالات انحرفت الفطرة عن الطريق  
السوى فكانت عبادة الأصنام والكواكب ومظاهر الطبيعة ..

ومن هنا جاءت رسالة الاسلام بمفهوم جديد للوحدانية أزال  
ما تراكم من أثرية على دعوات الأنبياء السابقين وأعادت لهذه الدعوة  
جدتها وروقتها ونجحت فى غرس هذه العقيدة فى القلوب ..

وكان مفهومها لهذه الدعوة جديدا وذلك لطول العهد الذى بعد  
بالناس عن حقيقة الوحدانية التى كافح من أجلها المرسلون ..

(٧٦) الاعراف ١٤٠/٧ .

(٧٧) آل عمران ٥١/٣ .

ولأول مرة في حياة البشرية تتفرع شجرة التوحيد وتستقر جذورها في أعماق النفوس وتصبح ديناً عاماً في أرجاء الأرض .. وهى لم تتفرع وتستقر وتصبح ديناً عاماً الا بعد أن أخذت على القلوب أقطارها وحاصرتها فلم تجد لديها دليلاً تقدمه وسند تركز اليه فألقت بزمامها بين يدى الله واستسلمت لأمره ورضيت به ربا ..

ولم يبق بعيداً عن ساحة التوحيد الا الفطر الملتوية التى يقودها الجهل والعناد :

« فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » (٧٨)

#### (ب) خطاب للمشركين :

وأول خطة وضعتها تربية كتاب الله لتصفية النفس من أدران الشرك هى الرجوع الى فطرة الانسان وحيائها والتساؤل معها عن مظاهر الخلق والتدبير والملك والحفظ والاحسان والرحمة .. ( كما سبق ) ..

والفطرة لا تملك الا الاعتراف بالربوبية لله سبحانه .. وما دامت قد اعترفت بالله ربا فما يمنعها أن توحده فى ذاته وصفاته وأفعاله ?? .. ان اشارك آلهة أخرى مع الله يصبح ضلالاً وسوء فهم وجاهلية وعمى يستحق أن يشن القرآن حملته عليه فيظهر فساد هذه الآلهة المدعاة وعجزها الشنيع وفقرها البالغ لمن يدبر أمرها ويقوم بحاجتها فضلاً على أن تعبد وتقدم لها فروض الطاعة والولاء ..

يقول القرآن مهاجماً هذا الجهل :

« أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ \*



وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ \* وَإِنْ  
تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ  
أَمْ أَنْتُمْ صَمِتُونَ \* إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ  
أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \*  
اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ  
أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا  
شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَآ تَنْظُرُونَ» (٧٩)

ويؤكد عجز هذه الآلهة فيقول :

« وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ  
يُخْلَقُونَ \* أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ» (٨٠)

ويقول :

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ» (٨٠)

ويبين فقرها واحتياجها فيقول :

« قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ  
كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا \* أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ  
وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا» (٨١)

ويوضح حمق بنى اسرائيل وعبادتهم عجلا من دون الله فيقول :  
« أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ  
ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » (٨٢)

وآلهتهم لا تنجيهم من عذاب الله ، لأنها لا تقنذ نفسها ..  
قال تعالى :

« أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ  
نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مَنَا يُصْحَبُونَ » (٨٣)

ويشرح لهؤلاء الغافلين مدى ما وصلت اليه آلهتهم من عجز فيقول :  
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ  
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ  
يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ  
وَالْمَطْلُوبُ » (٨٤)

(٨١) الاسراء ٥٦/١٧ ، ٥٧ .

(٨٢) طه ٨٩/٢٠ .

(٨٣) الانبياء ٤٣/٧١ .

(٨٤) الحج ٢٢ / ٧ .

ويقول :

« ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ \* إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » (٨٥)

ويقول :

« قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ \* وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » (٨٦)

ويدلهم على المصدر الحقيقي للرزق فيقول :

« إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (٨٧)

(٨٥) فاطر ١٥/٣٥ .

(٨٦) سبأ ٢٢/٣٤ .

(٨٧) العنكبوت ١٧/٢٩ .

ويعرفهم أن هذه الآلهة لا تملك لأحد نفعاً ولا ضراً فيقول :

« قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ <sup>(٨٨)</sup> »

كما يعرفهم أن عبادة هذه الآلهة طريق إلى النار واسراف وضلال فيقول على لسان مؤمن آل فرعون :

« وَيَقَوْمٍ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ \* تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ \* لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ <sup>(٨٩)</sup> »

ويعنفهم ويوبخهم ويتعجب من تفاهة أفكارهم فيقول :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُتَوْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ

(٨٨) الزمر ٣٨/٣٩ .

(٨٩) غافر ٤٠/٤١ ، ٤٣ .

إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُلُونَ \* وَإِذَا حُشِرَ  
النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٩٠) «

وهكذا تتجه تربية القرآن الى المشركين فتفضح مكنوناتهم وتسفه  
أحلامهم وتشنع عليهم وتضع أيديهم على مفاتيح الحق : كيف يرضى عاقل  
لنفسه أن يمرغ جبهته أمام حجر أصم أو انسان عاجز أو كوكب تسيره يد  
القدرة ?? وكيف ينزل الانسان الى هذا الدرك الأسفل مع اعترافه بأن لهذا  
الوجود ربا ?? ولم لا يتوجه مباشرة الى هذا الخالق العظيم يعبد به ويزداد  
بالقرب منه شرفا وفضلا ..

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ  
الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ  
يَرْشُدُونَ » (٩١)

لذلك يتوجه الى هؤلاء منكرا ومبينا للانسانية كلها ظلمهم وجهلهم  
فيقول :

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ  
بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » (٩٢)

(٩٠) الأحقاف ٤/٣٦ - ٦ .

(٩١) البقرة ١٨٦/٢١ .

(٩٢) العنكبوت ٦٨/٢٩ .

ويقول :

« وَمَنْ أَظْلَمَ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى  
إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » (٩٣)

ويسألهم بلسان ابراهيم :

« مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ \* قَالُوا  
وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ \* قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ  
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »

ولما ظهر حقيقهم قال لهم :

أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ \*  
أَفَلَا تَعْقِلُونَ » (٩٤)

ويصور مدى ما وصلوا اليه من ضلال فيقول :

« لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ  
لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ  
بِابْلُغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » (٩٥)

(٩٣) الصف ٧/٦١ .

(٩٤) الأنبياء ٥٢/٢١ - ٥٤ ، ٦٦ ، ٦٧ .

(٩٥) الرعد ١٤/١٣ .

## (ج) تهديد لهم :

وتنتقل التربية القرآنية بالنفوس الى جو آخر بعيد عن هذا العالم المشهود تنتقل الى يوم القيامة فتصور حال العابدين والمعبودين من الخزي والمهانة والذلة والضياع .. وكيف يتبرأ الاتباع من المتبوعين ويندم هؤلاء على ضياعهم ولات حين مناص .. فعل هذه المشاهد المفزعة تفرع قلوب هؤلاء المشركين فتنتفتح أبوابها لضياء الحق ونور التوحيد ..

ويوم القيامة بكل ما فيه غيب سوف يكون .. ولكن تصوير القرآن لمشاهده يجعلنا ننسى أن هذا لم يأت بعد فيعيش الانسان متمثلاً لحظاته بكل ما فيها وكأن هذه المشاهد وقعت وانقضت وما زالت شبحاً مخيفاً يتهدد الظالمين ولتستمع الى كتاب الله ينقلنا الى أحد هذه المشاهد فيقول :

« وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ \* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ \* وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ \* قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَادُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » (٩٦)

ويقول :

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ  
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ  
اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ \* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا  
لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذٍ  
جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ \* وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا  
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذ تَأْمُرُونَنَا أَنْ  
نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا  
الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ  
يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (٩٧)

وفي موقف بين الملائكة وعابديها يبدو خزي هؤلاء :

يقول ربنا :

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ  
إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ \* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ  
دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ \*  
فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ  
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » (٩٨)

(٩٧) سبأ ٣١/٣٤ - ٣٣ -

(٩٨) سبأ ٤٠/٣٤ - ٤٢ -



وهذا موقف آخر من مواقف هذا اليوم فيه تنقطع الأسباب وتبدو الحسرات يقول فيه القرآن :

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ \* إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ \* وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّنَا كَرَّةً فَنتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » (٩٩)

وهذه صورة أخرى مفزعة لمشهد حي متحرك من مشاهد الفزع والندامة حين يشهد المشركون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .. فيتوجه إليهم النداء :

« أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ \* وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ

لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» (١٠٠)

وها هم أولاء أتباع عيسى الذين قالوا : ان الله هو المسيح بن مريم . . . وقالوا : ان الله ثالث ثلاثة موقوفون أمام الله في هذا اليوم ليفضح قولهم ويبين ضلالهم حين يجمع الله الرسل فيقول :

« مَا ذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ

الْغُيُوبِ » (١٠١)

ويتوجه بالسؤال الخاص الى عيسى عليه السلام :

« يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي  
وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ  
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ  
مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ  
الْغُيُوبِ \* مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ  
رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا  
تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
شَهِيدٌ \* إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ  
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ

(١٠٠) الأعراف ٣٨/٧ ، ٣٩ .

(١٠١) المائدة ١٠٩/٥ .

صَدَقَهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ<sup>(١٠٢)</sup>

( د ) مفارقة الضخمة :

وهذا لون آخر من ألوان تربية القرآن تقدمه بين يدي المشركين .. وهذا اللون يقوم على بيان المفارقة الضخمة بين الخالق والمخلوق والمتصف بصفات الكمال والمستكين الى العجز والنقص .. هذا الملكوت شاهد بأن صانعه لا يدانيه في صفاته أحد من خلقه .. فله وحده الأسماء الحسنى . قال تعالى :

« وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »<sup>(١٠٣)</sup>

وتلمح دقة هذه التربية في قول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْغَزِيزُ الْحَكِيمُ »<sup>(١٠٤)</sup>

وهذا توجيه الهى حكيم يضع أيدي الكافرين على الحقيقة الناصعة: فأين شركاؤهم في ذلتها ونقصها وكيف توضع في موضع المقارنة بالله الذي يمتلك العزة كلها وأمر العالم كله يصرفه بحكمته مما لا يقدر عليه الا رب العزة وحده ??

ان القرآن يعرفنا الاله الحق بهذه الصفات العظيمة فيقول :

(١٠٢) المائدة ١١٦/٥ - ١١٩ .

(١٠٣) الأعراف ١٨٠/٧ .

(١٠٤) سبأ ٢٧/٣٤ .

«هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ  
هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ \* هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ  
الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ  
سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ \* هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ  
لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (١٠٥)

وتجمع آية الكرسي جملة من هذه الصفات الدالة على تفرد سبجانه  
بالألوهية والربوبية وثبت أن من كان متصفا بذلك لا بد أن يكون واحدا  
في ملكه ولا شريك له من خلقه .. فتقول الآية :

« اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا  
نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ  
عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا  
يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ» (١٠٦)

والقرآن ملئ بهذه الصفات .. يذكرها في كثير من آياته يبرهن  
بها على ما اتصف به المولى جل جلاله من الصفات التي لا يماثله فيها أحد  
من مخلوقاته وبذلك يدلنا على أن الله واحد لا شريك له ..

(١٠٥) الحشر ٢٢/٥٩ - ٢٤ .

(١٠٦) البقرة ٢٥٥/٢ .

قال تعالى :

«وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» (١٠٧)

وقال :

«الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى \* لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ  
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى \* وَإِنْ تَجْهَرَ  
بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى \* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ  
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» (١٠٨)

(هـ) هل يمكن أن يكون لله شريك ؟ :

وأخيرا تحاصر وجدان المرء بهذا الدليل القاطع وتقدمه في نصاعة  
الحق وانسياب البرهان المقنع الذي لا يحتاج الى اعمال الفكرة ودقّة  
الذكاء .. يقول القرآن :

«لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَاءُ إِلَهَةٍ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ  
رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» (١٠٩)

يقول العلامة شارح الطحاوية بعد أن ذكر هذه الآية : « فتأمل هذا  
البرهان بهذا اللفظ الوجيز الظاهر .. فان الاله الحق لا بد أن يكون خالقا  
فاعلا يوصل لعباده النفع ويدفع عنه الضرر .. فلو كان لله سبحانه اله آخر  
يشركه في ملكه لكان له خلق وفعل .. وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة ..

. (١٠٧) البقرة ٥/٢ ، ١٦٣ .

. (١٠٨) طه ٥/٢٠ - ٨ .

. (١٠٩) الانبياء ٢١/٢٢ .

بل أن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرد في الملك والالهية دونه فعل وان لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق كما انفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه اذا لم يقدر أن انفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه فلا بد من أحد ثلاثة أمور :

١ - اما أن يذهب كل اله بخلقه وسلطانه . ٢ - واما أن يعلو بعضهم على بعض . ٣ - واما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كما يشاء ولا يتصرفون فيه بل يكون وحده هو الاله . . وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه . . وانتظام أمر العالم به واحكام أمره من أول دليل على أن مدبره اله واحد ملك واحد ورب واحد لا اله للخلق غيره ولا رب لهم سواء . . الى أن يقول : « فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته مستقر في الفطرة معلوم بصريح العقل بطلانه فكذا تبطل الهية اثنين فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوية دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الالهية (١١٠) .

وتقدم تربية القرآن هذا الدليل في أسلوب آخر فتقول :

« مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ » (١١١)

وقريب منه قوله جل جلاله :

« قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغَوْا

(١١٠) دعوة التوحيد : حقيقتها - الأدوار التي مرت بها مشاهير دعايتها للأستاذ / محمد خليل هراس ص ٣٣ .

(١١١) المؤمنون ٩١/٣٣ .

إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا \* سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ  
عُلُوًّا كَبِيرًا» (١١٢)

نعم هذه قوى الأرض تتناحر وتتحارب ولا تتفق ابداً .. والأرض  
هباءة سابحة في هذا الفضاء الشاسع والذي لا يعلم ما فيه من الكواكب  
والمخلوقات الا الخالق العظيم ولكن أهلها - دائماً - في تنازع وصراع  
فما بالنا بالقوة التي تسير هذا الكون .. هل يمكن أن تتعدد ?? وحين  
تتعدد هل يمكن أن يقوم بينها اتفاق يدوم ملايين السنين ?? ان العقل يثبت  
بطلان هذا التعدد لأن الاتفاق بين الآلهة مستحيل والخلاف لا بد واقع ..  
وحينئذ تنقسم الخلائق تبعاً لآلهتها وتثور العداوات وتقوم الخلافات بين  
الكتل المتنافسة على أبهة الملك والملكوت وتعبير القرآن « وما كان معه  
من اله اذ لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » .. وهذه  
الآلهة سوف لا يسلم واحد منها للآخر ملكه انما هي المحاولة الجادة  
للاستحواذ على ما في يد هذا اله الآخر وهنا ينقلب عرش الرحمن الى  
حلبة للصراع والتنافس وتسقط عظمة الملك كله وتتحول السموات العلاء  
الى ميدان قتال يحاول كل اله أن يستولى على مملكة الكون .. وتعبير  
القرآن .. « قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذ لابتغوا الى ذى العرش  
سبيلاً » ..

قال الامام نور الدين الصابوني فيما رواه عنه صاحب سـفينة  
الراغب : « لو ثبتت الموافقة بينهما - بين الالهين - فهي اما ضرورية فيلزم  
عجزهما واضطارهما أو اختيارية ويمكن تقدير الخلاف بينهما فيتحقق  
الالزام - وأحسن الامام اسماعيل الكلنهورى حيث قال في حاشيته على شرح  
الجلال : « لا يخلو اما ان يكون قدرة كل واحد منهما وارادته كافية في  
وجود العالم أو لا شيء منهما كاف فقط .. وعلى الأول يلزم اجتماع

المؤثرين التامين على معلول واحد وهو محال وعلى الثانى يلزم عجزهما  
لأنهما لا يمكن لهما التأثير الا باشتراك الآخر وعلى الثالث لا يكون الآخر  
خالقا فلا يكون الها » ••

يقول العقاد : « وصواب الأمر أن وجود الهين سرمدين مستحيل ،  
وأن بلوغ الكمال المطلق فى صفة من الصفات يمنع بلوغ كمال مطلق  
آخر فى تلك الصفة وان الاتنية لا تتحقق فى موجودين كلاهما يطابق  
الآخر ولا يتمايز منه فى شىء من الأشياء ، وكلاهما بلا بداية ولا نهاية  
ولا حدود ولا فروق وكلاهما يريد ما يريد الآخر ويقدر ما يقدره ويعمل  
ما يعمل فى كل حال وفى كل صغير وكبير •• فهذان وجود واحد وليس  
بوجودين ، فاذا كانا اثنين لم يكونا الا متمايزين متغايرين ، فلا ينتظم على  
هذا التمايز والتغاير نظام واحد واذا كانا هما كاملين فالمخلوقات ناقصة  
ولا يكون تدبير المخلوق الناقص على وجه واحد بل على وجوه (١١٣) » •  
أرأيت أدلة القرآن وتربيته الفريدة وقيادته للنفوس حتى تستسلم لله  
وتؤمن به ؟؟ آيات الله المبثوثة فى السماء والأرض والجملة العنيفة على أهل  
الشرك والضلال ، وبيان عجز آلهتهم واحتياجها ، ووصف الله بالصفات  
التى لا يشاركه فيها أحد والتى يستحيل أن يتصف بها أحد من هذه الآلهة  
الباطلة ، ونقل المعركة الجدلية من الندم والحسرة التى تسيطر على هؤلاء  
السفهاء الى تصور حى شاخص يوم الجزاء وايقاظ العقل ومحاصرته بهذه  
الأدلة البينة •

كل ذلك حصار قوى للفطرة يدفعها الى السبيل الواضح فلا تجد  
أمامها طريقا تسلكه غير هذا الطريق والا فهو الموت: قال تعالى : «أو من  
كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات



ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون» (١١٤). وهو العمى والظلام والحياة الثقيلة البائسة .. قال تعالى : هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور (١١٥) « وقال عز من قائل : « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات (١١٦) » .

النفس التي اعترفت بالله والتي تولاهها القرآن بالعناية والرعاية وغرس فيها شجرة التوحيد : أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها .. هذه النفس تصدق ماجاء به الوحي فتؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .. وهذه حقيقة الايمان ، وهذا طريق الانسان كما أراد الله له أن يحيا في ثقة من قوة الله التي تسير هذا الوجود ، وفي سعادة تسرى في أوصاله يشعر معها بكل ما حوله ومن حوله فيتفاعل مع الحياة ويؤدي وظيفة الاستخلاف في الأرض وينشر في ربوعها ألوية الحق والسلام .

#### وهذا هو الطريق :

وحتى تظل الجماعة المسلمة على طريق التوحيد تعهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حركاتها وسكناتها فعلمها أن الحياة باسم الله ويجب أن تظل باسمه وحده ، فلا اسم مع اسمه ، ولا مشاركة له في ملكه ، ولهذا عطر الحياة كلها بأريج من ذكر الله ولم يدع لحظة أو إشارة الا وسكب عليها من فيض روحه وجميل دعائه النابض بالحب والشوق لله سبحانه وبقيت أذكاره نشيدا حلوا في سمع الزمن يرتلها أصحابه فيتجاوب معهم الكون كله مسبحا ومغنيا وشاديا ومعلنا أن العبادة لله وحده ..

(١١٤) الأنعام ٦/١٢٢ .

(١١٥) الرعد ١٣/١٦ .

(١١٦) فاطر ١٩/٣٥ - ٢٢ .

لقد علم صلى الله عليه وسلم أصحابه كيف يذكرون اسم الله في كل شيء وعلى كل شيء :

عن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لأصحابه ، لا مبيت لكم ولا عشاء .. واذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله قال الشيطان : ادركتم المبيت ، واذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء (١١٧) » .

وكان صلى الله عليه وسلم اذا لبس ثوبا جديدا أو نعلا جديدا قال : « اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه .. أسألك خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره ومن شر ما صنع له (١١٨) » .. واذا أوى الى فراشه قال :

« اللهم أنى أسلمت نفسى اليك ووجهي وجهي اليك وفوضت أمري اليك وألجأت ظهري اليك رغبة ورهبة اليك لا ملجأ ولا منجأ منك الا اليك آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت (١١٩) » .

وكان يقول : اللهم باسمك أموت وأحيا .. واذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور (١٢٠) .

وكان اذا وضع رجله فى ركاب دابته قال : باسم الله .. فاذا استوى على ظهرها قال : الحمد لله الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى

(١١٧) رواه مسلم .

(١١٨) رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن

(١١٩) رواه البخارى .

(١٢٠) رواه البخارى .

ربنا لمنقلبون • ثم قال : الحمد لله •• ثلاث مرات • ثم قال : الله أكبر ثلاث مرات ثم قال : سبحانك انى ظلمت نفسى فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب الا أنت (١٢١) ••

وفى رواية مسلم : اللهم انا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى اللهم هون علينا سفرنا هذا واطوئنا بعده اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل اللهم انى أعوذ بك من وعاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب فى المال والأهل والولد • وإذا رجع قالهن وزاد فيهن : آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون ••

بل انه علم أصحابه كيف يمكن أن يكون قضاء الشهوة باسم الله • فعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «لو أن أحدكم اذا أتى أهله قال باسم الله •• اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا ففضى بينهما ولد لم يضره (١٢٢) •• »

ورتب على قضاء هذه الشهوة الأجر والثواب لأنها توجهت الى الله وباسمه فيقول لأصحابه : وفى بضع أحدكم صدقة • قالوا يارسول الله أيا ترى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام آكان عليه وزر ؟ فكذلك اذا وضعها فى الحلال كان له أجر (١٢٣) ••

وهو الذى كان يقول اذا أصبح : اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت واليك النشور • واذا أمسى قال : اللهم بك أمسينا وبك نحيا وبك نموت واليك النشور (١٢٤) •

(١٢١) رواه أبو داود وقال : حديث حسن صحيح •

(١٢٢) متفق عليه •

(١٢٣) رواه مسلم •

(١٢٤) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن •

ويعلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه حين قال : يا رسول الله مرنى بكلمات أقولهن اذا أصبحت واذا أمسيت قال : قل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة .. رب كل شىء ومليكه أشهد أن لا اله الا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه .. قال : قلها اذا أصبحت واذا أمسيت واذا أخذت مضجعك .. (١٢٥) .

الى غير ذلك من هذه الضراعات المباركات التى اختلطت بمشاعر المؤمنين ووجدانهم فحفظتهم من انحراف الشرك وبها تحرروا من عبودية غير الله .. ولا عجب فى ذلك فالرسول مأمور أن يجعل حياته كلها لله . يقول الحق فى كتابه على لسان نبيه :

« قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ \* لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ  
الْمُسْلِمِينَ » (١٢٦)

بل أول نداء فى وحى الله اليه :

« أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ  
عَلَقٍ \* أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ  
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (١٢٧)

وهى منهج واضح : القراءة باسم الله والعلم باسم الله والحياة وما فيها يجب أن تكون باسم الرب الذى خلق ..

(١٢٥) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(١٢٦) سورة الأنعام ١٦٢/٦ ، ١٦٣ .

(١٢٧) سورة العلق ١/٩٦ - ٥ .

وهذا هو الطريق .. الطريق الواضح الذى لا عوج فيه ..

يقول رب العزة :

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا  
السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ  
تَتَّقُونَ » (١٢٨)



## الفصل الثاني

ثلاثة عشر عاما في مكة لاقرار العقيدة





### ثلاثة عشر عاما في مكة لاقرار العقيدة

الاسلام الكامل لله في كل أمر وتحرير البشر من عبادة البشر والحجر وربطهم بالاله الحق .. انتزاع السلطان من أهل البغى والفساد وجعل ذلك لمن له الحكم واليه ترجعون .. تلك الصيحة العارمة التي انبعثت من كتاب الله وتفجرت ينابيعها مع بيانه الذي أروى الأرواح الظامئة .. كلها معان ضخمة حملتها العقيدة التي مكث القرآن ثلاثة عشر عاما في مكة يغرسها في القلوب ويمدها بالغذاء ويتعهد بها بالعناية والحفظ حتى امتدت جذورها في شعاب النفس الانسانية ووصلت الى أعماقها وخرجت الى الوجود بأسفة الأغصان وارفة الظلال واستطاعت تلك العقيدة التي استقرت في القلوب ان تغير ملامح الانسان وتصنع منه خلقا جديدا تغمره نفاتح الله وتوجهه رعايته وعنايته ..

لقد عرفته هذه العقيدة طريقه فوجد بها نفسه الضالة وأحسن بقيمته كإنسان .. عرف لماذا جاء الى هذه الحياة ومن أين جاء والى أين يصير ؟ وما هي القوة التي تسير هذا الوجود .. وكيف يتحرر المرء من الخضوع لما عداها .. وعرف بهذه العقيدة كيف يتعامل مع ربه ومع الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم ووجد بين يديه نورا هاديا استبان به المسالك المتشعبة واستطاع أن يجوبها جميعا بقدرة تستمد اندفاعها من قدرة منظم هذا الوجود في غيبه وشهوده وملكه وملكوته ..

ومن حكمة الله أن يختار الشعب العربي في الجزيرة العربية الذي يمثل اذ ذاك السفح الهابط للانسانية ، فلا حضارة ولا مدنية ولا قانون ولا دين غير ما أودعه فيه من خصائص كادت تموت لولا أن نفخ فيها منهج القرآن من روح الله فأحيها ووجهها الى نصره الحق ورفع لواء الدين .. اختار الله هذا الشعب المتخلف ليقدم منه نموذجا حيا لما يمكن أن يصنعه القرآن بالمجتمعات وكيف ينقلها من منزلتها الهابطة الى قمة

السمو والرفعة فهذه طبيعته وتلك وظيفته .. وهكذا صاغ القرآن المجتمع العربي أولاً وما زال مستعداً لصياغة أى مجتمع مهما بلغت درجة تأخره وتخلفه ..

يقول تعالى :

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ \* اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » (١)

لكن هذه الصياغة الربانية يبدو فيها سر عجيب : فتنزلات القرآن استمرت ثلاثة وعشرين عاماً منها عشر سنوات في المدينة وبقية في مكة .. وهذه الفترة التي نزل فيها القرآن في مكة لم يعالج الا قضية واحدة هي قضية العقيدة بكل ما تشتمل عليه من توحيد للاله الحق وتحرير من أوهام الشرك وما يترتب على ذلك من ايمان بالبعث والحساب والملائكة والكتب والرسل وما يؤكد هذه العقيدة ويثبتها في القلوب من تنظيم أخلاقي للمعاملة بين الخالق والمخلوق وبين الانسان وأخيه الانسان ..

أما تفصيلات الحياة وفروعها وتنظيم المجتمع المسلم وما يحكمه من تشريعات فكل هذا سكت عنه القرآن في مكة ولم يتحدث فيه الا بعد أن استقرت عقيدة المسلمين وأصبح لهم مجتمع وسلطة تستطيع أن تنفذ أحكام الله وشريعته .. فلماذا استمرت التربية القرآنية هذه الفترة الطويلة لا تطلب من العرب الا شيئاً واحداً هو أن يعترفوا بالله رباً واحداً ؟؟

ولماذا عاش المسلمون على مدى هذه السنوات الطوال في مكة دون ان يعرفوا شيئاً من تفصيلات النظام الاسلامي في الحلال والحرام

ودون أن يعلموا شيئاً عن الصلات الاجتماعية وقوانينها في الميراث والزواج والطلاق وعلاقة الحاكم بالمحكوم وحقوق كل على الآخر مما فصله القرآن فيما بعد وهو ينشئ المجتمع الجديد في المدينة ??

بل لماذا قابل العرب هذه الدعوة تلك المقابلة العنيفة ورفضوا التسليم لها ولم يجد نفعا الا السيف والدماء والمعارك التي توجت بفتح مكة في العام الثامن للهجرة وافتحتها سقط أكبر معقل للوثنية ودانت أكبر قوة تناوىء دعوة الاسلام .. وبرغم هذه المواجهة العنيفة فان تربية القرآن لم تتنازل عن هذه الدعوة ولم تيأس من تكرارها ولم تجد غضاضة في أن ترددها لفظا واحدا لا يتغير : اعبدوا الله لا تشركوا به شيئا ..

أفلم يكن من الممكن أن يجد الرسول عليه السلام طريقا غير هذا الطريق يجذب قلوب العرب اليه أولا ثم يعلمهم كيف يعبدون الله وحده وقد كان في استطاعته - وهو من هو في سمو أخلاقه وعظيم مكانته - أن يجعلها دعوة لإصلاح ما فسد من أحوالهم الاجتماعية أو السياسية أو الأخلاقية وقد بلغت الحضيض وهو - لا شك - وأجد من أهل العقول من ينضم الى دعوته بل سيجد كثرة من هؤلاء وبهم يعلم العرب كل شيء??

الا أن الله - جلت حكمته - أراد شيئا آخر .. أراد أن يربى فئة خاصة من طراز خاص ، ويبدأ بها هذا الطريق الشاق ، ويحررها من أنفسها . وينقيها ويطهرها من أدران مجتمعتها .. ويعايشها ثلاثة عشر عاما وفي كل يوم يدفع بهذه العقيدة الى أعماق قلوبها ويحيى جزءا من نفوسها حتى بدأ هذا الكيان الانساني الذي تمثل في تلك الجماعة التي اعتنقت هذا الدين لأول مرة خلقا آخر تبدلت طباعه وصفاته وأفكاره ومشاعره وأصبح قوة خطيرة : توضع فوق صدر الواحد منهم الأحجار الثقالة في حرارة مكة المهلكة ويرمى الى الأطفال يتلهون به . ويكوى بمكاوى

الحديد ، وتلهب ظهره السياط ، فلا يزيده هذا الا ثباتا واستمساكا ولا يجد  
الا كلمة أشرفت بها نفسه ووجد معها حياته فكأنما بعث من جديد .. لم  
يجد الا هذه الكلمة : أحد .. أحد ..

بل تفيض روح الواحد منهم تحت وطأة التعذيب فلا ينطق بكلمة  
الكفر ..

واستطاعت التربية الالهية لهذه الثلة المختارة أن تخرج للعالم من  
هؤلاء الأميين رعاة الأغنام : رعاة أمم ، وساسة شعوب ، وقادة معارك ..  
وبهم تحقق كل شيء مما كان يقترحه المقترحون : فتعدلت الأخلاق  
واستقامت الأوضاع الاجتماعية وشعر العرب بعزتهم يستمدونها من دينهم  
فحملوه للعالم كله بعد أن تحررت نفوسهم من نفوسهم ولم يبق لهم مطمع  
في جاه أو منصب أو ثراء ولم يعد لهم الا هدف واحد : أن يروا دين الله  
منتصرا .. ورايته خفاقة .. وشجرته يستظل بها العالمون ..

وكان من حق العرب أن يقابلوا هذه الدعوة تلك المقابلة العنيفة  
لأنهم وجدوا فيها خطرا أيضا خطر على ما لديهم من سلطان ورأوا في هذه  
الكلمة القوية التي تدعو الى وحدانية الله ثورة على كل ما عندهم من  
أفكار وتصورات .. انها انتزاع القوة والحكم والنفوذ وجعل الأمر  
كله لله وحده ، وهي قضاء تام على العصبية والجاهلية والكبرياء ...  
ودعوة الى المساواة التي لا يمتاز فيها أحد على أحد بحسبه أو نسه أو  
ماله انما يتقدم بتقواه وعمله .. فكيف يسلم العرب لمحمد بن عبد الله  
بكل هذا ?? ومع ذلك لم يلاينهم ولا يداهن في رسالة ربه انما أصر على  
دعوة هذه الأمة للتوحيد ولم يخرج بها الى التفريعات والتشريعات في  
الفترة المكية لأن الاسلام دين عملي ينظر الى الواقع فيخطط له وليس  
دراسة نظرية لا طائل تحتها .. اذ كيف يشرع لهم أحكاما وليس لهم  
مجتمع ينفذ هذه الأحكام .. ولم يكن من طبيعة التربية القرآنية أن

تنزل هذه الأحكام يختزنها المؤمنون بهذا الدين الى أن يحين وقتها فيطبقوها ، لأنه دين جاء يلبي حاجات المجتمع ويساير تطوره ولا ينزل الا ليعالج أمرا واقعا لا وهما متوقعا ..

وكان في مقدور الله أن ينزل القرآن على نبيه جملة واحدة ويترك المسلمين يدرسونه ويطبقون أحكامه كلما احتاجوا لشيء لكنه سبحانه أراد أن ينزل هذا القرآن مفرقا على مدى ثلاثة وعشرين عاما حتى يصنع المجتمع المسلم الصناعة الواقعية ويربيه التربية الربانية ويوجهه في كل خطوة وكل حركة :

قال تعالى :

« وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » (٢)

وقال سبحانه :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا \* وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » (٣)

وهكذا بليت لنا حكمة تصدى القرآن ثلاثة عشر عاما لمعالجة قضية العقيدة وأنه كان يريد أن يغرس شجرتها التي تتناسب مع عظم

(٢) سورة الاسراء ١٧/١٠٦ .

(٣) سورة الفرقان ٢٥/٣٢ ، ٣٣ .

هذه الرسالة وشمولها وعمومها وامتدادها مع عمر الزمن الى أن ينتهى الزمن .. فلا بد أن تتشعب جذورها وتثبت وتستقر وأن تأخذ أكثر من نصف عمر الرسالة النبوية حتى اذا ما رأت شمس الحياة اشتدت على سوقها قوية لا تزلزلها عواصف المحن ، وارفة تجمع الى ظلالها البشرية كلها بأسقة لا يطاولها مكابر أو معاند ، باقية ممتدة ما بقى على هذا الكوكب الأرضى انسان وما بقيت الحياة هي الحياة ..

## الباب الثاني

### القرآن . . والتربية الأخلاقية

الفصل الأول : ارتباط الأخلاق بالعقيدة

الفصل الثاني : العبادات أسلوب للتربية

الفصل الثالث : أخلاق الاسلام وكيف غرسها في النفوس





## الفصل الأول

### ارتباط الأخلاق بالعقيدة

- ١ - العقيدة وأثرها في النفس
- ٢ - العقيدة الصحيحة يتبعها السلوك الصحيح
- ٣ - أخلاق .. وأخلاق
- ٤ - الترابط بين الأخلاق والعقيدة



## ارتباط الأخلاق بالعقيدة

### ١ - العقيدة واثرها في النفس :

الانسان الذى استيقظت فطرته على نداء هذا الكون فلمس يد القدرة فى كل حركة وسكون .. ورأى عظمة الخالق حيثما تلفت وعرف ربه حق المعرفة .. وآمن بخالقه مدبرا ومصرفا فلم يتخذ له سنداً سواه ولم يشرك بالله آلهة مزيفة : لأن الكل مخلوق وربّه هو الخالق .. والكل محتاج واله هو الغنى ..

هذا الانسان الذى لم يعد لشيء مما على الأرض سلطان على حسه وروحه .. ولم يبق لسلطة مهما بلغت فى عتوها وجبروتها يد على قلبه وايمانه .. انه بعقيدته - هذه - عرف وجهته وحدد طريقه وترك أهل الشرك فى ظلامهم وحيرتهم وترددهم واستعلى - بعزة الايمان - على كل مشرك ورأى ما فى يده من قيم ومبادئ هى العظمة فى سموها ورفعتها لأن قيمه ومبادئه صناعة الهية سماوية ، وقيم هؤلاء ومبادئهم صناعة بشرية أرضية .. وكيف تتساوى الأرض بالسما ؟ والنجوم بالتراب ؟ والربوبية بالأهواء والأباطيل ؟

يقول تعالى :

« قُلْ أَتَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ أَتُنِتْنَا قُلْ إِنْ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » (١)

فهل يستوى المهتدى لله رب العالمين بالعاجز الحيران المشتت القلب  
والاحساس ؟ :

قال تعالى :

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا  
سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ  
لَا يَعْلَمُونَ » (٢)

وحرية المؤمن هذه هي الأساس الضخم الذى يرد للانسان كرامته  
وانسانيته .. وبها وحدها تصل الانسانية الى أعلى مستوياتها لأنها  
تدرك بذلك حقيقة الوجود وتشعر أنها قطعة من هذا الكون .. فلا  
يعيش الفرد فى حدود أنانيته وفرديته انما تتسع المسافة فى وجدانه لتشمل  
الحياة بكل أبعادها « وميزة الانسان تتجلى فى ادراكه .. والادراك  
يبتدىء بالمحسوس وينتهى الى القيم والمعنويات .. فاذا وصل هذا  
الادراك الى قمة عليا تتجمع عندها كل القيم وآمن بها على انها المرجع  
والنهاية لكل قيمة عليا ، وكذا لكل محس فقد وصل هذا الادراك الى  
السمو وعندئذ يصل مستواه الانسانى الى الدرجة العليا فى  
الانسانية ، وعندئذ يكون قد أدرك الوجود كله .. أدرك قاعدته التى  
تتمثل فى الجزئيات المنشورة المحسوسة ، وأدرك ما بعدها من قيم ، ثم  
أدرك قيمته الأخيرة العليا التى تتمثل فى الله الواحد » .

« والاسلام يوجه الانسان الى القيم والمعنويات جميعها ويؤكد فى  
التوجه من بينها قيمة المشيئة والاختيار ، ان قيمة الحرية والارادة للانسان  
وكذا قيمة المجتمع ثم أخيرا قيمة الوحدة فى الألوهية هى قيم ثلاث تصور

المستوى الفاضل للانسانية ، المستوى الرفيع ودون ادراكها والايمان بها يقف الانسان قبل عتبة الرشد الانساني ، يقف اما متخلفا عن الانسانية أو في صراع مستمر بين أن يبقى غريزيا أنانيا أى يبقى جيوانيا أو أن يصعد الى مستوى الانسان فى انسانيته (٣) » •

والمجتمع الذى يريه القرآن طراز فريد فى احساسه بقيمة حريته • تلك الحرية التى تجعل كل فرد فيه مسئولا عن كل لفظة وشارة أمام الله العليم به وبكل ما حوله والذى هو أقرب اليه من جبل الوريد •

ومازال كتاب الله يتعهد النفس البشرية بكل ألوان التربية حتى استقامت على الطريق فلم ترغب فى سواء ولم ترهب غيره : رغبت فيه عن حب ، وخافت منه عن علم ويقين ، وارتفعت الى درجة الاخلاص فى القول والعمل ••

## ٢ - العقيدة الصحيحة يتبعها السلوك الصحيح :

ومن هذا ينبوع الدافق ارتوت الحياة بمفاهيم للأخلاق جديدة واستقرت - بالمنهج الذى رسمه القرآن لتربية مجتمعه - على أرض صلبة لا تميد وأصبحت الحرية الانسانية والمسئولية أمام الله والحب العميق لله والشعور النبيل باستخلاف الله للانسان فى تعمير الكون وارتباطه بالسابقين من أصحاب الرسالات وإيمانه بما غاب عن حسه من عالم الملائكة والجن والحياة الأخرى وما فيها من جنات وأنهار ، وعذاب ونيران ، وما فيها من بعث وحساب •• وأشعار الانسان بأن حياته دائمة متصلة الا أنها ذات شقين : حياة هنا على ظهر الأرض يؤدى فيها المرء مهمة الخلافة عن

---

(٣) الاسلام دين المستوى الفاضل فى الانسانية : محاضرة للدكتور محمد البهى بقاعة المحاضرات بالازهر فى ٥/٥/٥٩ م ص ١٧ •

الله ويعمرها بالحق والعدل والخير ، وحياة بعدها أطول وأبقى : حياة  
الخلود والأبد يقدم فيها كشف الحساب عن المرحلة الأولى .

قال تعالى :

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ  
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (٤)

كل هذه المعاني التي أثرت عقيدة الانسان وزادتها نماء وبهاء لا  
يصدر عنها غير الخلق القويم والسلوك الصحيح : يشعر المرء أن الناس  
جميعا اخوته فيعاملهم بالاحسان : يعطف على صغيرهم ويوقر كبيرهم ،  
ويساعد ضعيفهم ، ويعين محتاجهم ، ويدفع الأذى عنهم ويرشدهم الى  
الخير ويهديهم الى الحق ..

فالرحمة والمودة والمروءة والنجدة وما تعارف عليه العقلاء واهتدت  
اليه الانسانية ، وأقرته رسالات السماء من قيم الأخلاق ، عنوان صادق  
لصدق الايمان . وسلامة الاعتقاد في الله واليوم الآخر .. وبدون هذا  
الايمان تصبح الأخلاق لفظا لا مفهوم له ولا حقيقة .. يقول العقاد :

« ان العالم الانساني كلمة غير مفهومة عند من يدين برب غير رب  
العالمين . وان قيم الأخلاق كيل جزاف حين تنقطع الأسباب بين الحسنات  
والسيئات وبين الثواب والعقاب .. وان الانسانية الجامعة شيء لا وجود  
له قبل أن يوجد الانسان المسئول وانما توجد الانسانية الواحدة ويتساوى  
الانسان والانسان مع الاله الواحد الأحد رب الناس ورب العالمين  
أجمعين .. أفضلهم عنده أتقاهم وأصلحهم وأسبقهم للخيرات (٥) » .

(٤) الزلزلة ٧/٩٩ ، ٨ .

(٥) الانسان في القرآن : للعقاد ص ٦١ .

« والصورة الواضحة لهذا الايمان وما نبع عنه من أخلاق فاضلة ، تتجلى في تلك الصورة المشرقة التي رسمتها يد التربية القرآنية لمجتمع الاسلام الأول وبقيت مثالا فذا في تاريخ الانسانية ، تحاول المجتمعات أن تصل الى شيء منها فلا تستطيع ، ولن تستطيع الا اذا عادت الى منهج القرآن في تربيته تنشئ عليه جيلا وأجيالا كهؤلاء الأعلام الأفاضل .. »

يقول أبو الأعلى المودودي في كتابه القيم «منهاج الانقلاب الاسلامي» مبينا ما أحدثته عقيدة الاسلام في المجتمع الاسلامي الأول : « لم يتغير بهذا الانقلاب طراز ادارة البلاد فحسب بل الحقيقة أنه قد تبدلت بهذا الانقلاب العقليات ووجهات الأنظار ومناهج التفكير وتغيرت طريقة المعيشة والأخلاق والعادات تغيرا تاما .. وبالجمله قد انقلبت الأرض : أرض العرب ظهرا لبطن وتحولت الأمة بأسرها تحولا تاما ، فالذين كانوا يأتون الفاحشة من رجالهم أصبحوا حماة لأعراض النساء .. والذين كانوا يعاقرون الخمر عادوا دعاة لالقاء المسكرات واستئصال شأفتها .. والذين كان دينهم التلصص وقطع الطريق ، قد بلغوا من الورع والعفاف مبلغا جعلوا يتخرجون الأكل عند أصدقائهم حذرا أن يكون من قبل أكل المال بالباطل ، الى أن أنزل الله في كتابه ما جعلهم يطمنون الى الاجتراح عليهم فيما طعموا أو أكلوا في مثل تلك الظروف ، والذين كان من شيمهم شن الغارات والاعتداء على حقوق الناس قد صعدوا أعلى معارج الزهد والتقوى ، حتى انه لما فتحوا عاصمة بلاد الفرس وجد جندي من عامة جنودهم التاج الكسرى الذي يناهز ثمنه ملايين الدنانير أسره الى أمير الجيش في الليل المظلم مخفيا اياه تحت كسائه المرقع عسى ألا يراه أحد فيكون له حسن الأحدثه بهذا الحدث الجليل ويشوب صدقه واخلاصه شيء من شوائب الرياء ، والذين كانوا لا يقيمون وزنا للنفوس البشرية ويسفكون الدماء من غير ظائل ويثدنون بناتهم وقلذات أكبادهم بأيديهم قد بلغوا من شعورهم بحرمة النفس أن أصبحوا لا يقدررون أن ينظروا

الى طائر صغير يراق دمه من غير شفقة ولا رحمة .. والذين ما كانوا من قبل من الأمانة والعدل في شيء قد أصبحوا بررة يضرب المثل بأمااتهم وتعففهم حتى انه لما ذهب لجباية الخراج عاملهم الى يهود خبير بعد أن انتقادت لأمر الاسلام وخضعت له وقدموا له مبلغا كبيرا من المال ليخفف عنهم بعض ما عليهم من خراج الحكومة أبى أن يقبل الرشوة .. ورفضها رفضا باتا ، بل شطر جميع ما أغلته أرضهم في ذلك العام شطرين وخيرهم بأن يأخذوا أيما شاءوا .. ولما رأت اليهود من العامل هذه المعاملة الغريبة أخذ العجب منهم مبلغا عظيما واستولت عليهم الدهشة حتى صاحوا قائلين : ما قامت السموات والأرض الا بمثل هذا العدل والقسط .. ونبغ فيهم من ولاية وأمراء ما كانوا يسكنون في قصور الحكومة بل يعيشون بين الرعية في مثل بيوتهم ، وكانوا يمشون في الأسواق على أرجلهم ، ولم يكن لهم حرس على أبوابهم ، حتى انه كان يسورا لكل فرد من أفراد الشعب أن يزورهم في أية ساعة من ساعات الليل والنهار ، ونبغ فيهم من القضاة من قضى لرجل من اليهود على الخليفة نفسه ، حينما رفع الخليفة القضية الى المحكمة ، قضى لليهودي ولم يقبل دعوة أمير المؤمنين لأنه لم يتمكن من تقديم الشهود على دعواه غير ابنه ومولاه ، ونبغ فيهم من قواد العسكر من رد الجزية برمتها الى أهل المدينة وهي حمص من ملذ الشام — حينما اضطر الى اخلائها لمصلحة حرية مصرحاً لهم بأنهم — المسلمين — قد أخذوها جزاء منعهم فوجب ردها للعجز عن هذه المنعة قائلا : « قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأتتم على أمركم » فما كان جوابهم الا أن تأثروا بصنيعهم هذا وصاحوا قائلين : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم » .

« ونبغ فيهم من السفراء من دخل بلاط رئيس قواد العساكر الإيرانية والجمع حافل غاص بأعيان القوم وأمرائهم .. دخل بلاطه فمثل مبادئ ..



الانسانية الخالدة والاسلامية الكاملة تمثيلا رائعا أخذ بمجاميع القلوب  
 «واتقد ما شاهد هنالك من الفوارق بين الطبقات وعلو بعضها على بعض  
 اقتادا صريحا جديرا بالموقف ويعلم الله كم من جنود الفرس ورجال  
 عسكرهم ممن حضروا ذلك الحفل الحافل ، واستمعوا الى كلام السفير  
 المسلم ، وشاهدوا موقفه الرائع . قد أحسوا بجلال دين الانسانية ،  
 وتأثروا بعظم شأنه في ذلك الموقف الرهيب نفسه .. ونشأ فيهم من الرعية  
 من بلغ من شعوره بالمسئولية الخلقية أن كان أحدهم يقترب ذنبا ويرتكب  
 جناية فيأتى الأمير ويعترف له بجنايته ويلج عليه أن يجرى عليه حدود الله  
 ولا يتهاون في أمره وهو يعلم علم اليقين أن تعدى حد من حدود الله ،  
 يعاقب صاحبه بقطع اليد ، أو يرحم بالحجارة حتى يهلك ، وذلك ليتطهر  
 من أرجاس الاثم الذى اجترحه ولا يأتى ربه سارقا أو زانيا .. ونشأ  
 فيهم من الجنود من كانوا لا يقاتلون ابتغاء للرزق بل كانوا يحاربون على  
 نفقتهم اعلاء للكلمة التى آمنوا بها لا يريدون بها جزاء ولا بديلا ولا  
 يستأثرون بماتناله أيديهم من الغنائم بل يأتون بها كلها الى أمير الجيش  
 ليقضى فيها حسبما نزل به التشريع (\*)» .

الرحمة والنجدة والكرم والعدالة مع العدو قبل الصديق .. والأمان  
 لكل الناس بل لكل المخلوقات : أفرع لشجرة الايمان التى امتدت  
 جذورها في خبايا النفس كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء فلما  
 طاب الفرس طاب الثمر فأنت أكلها كل حين باذن ربها .. وجنت الانسانية  
 من ثمار غرس القرآن وتربية الاسلام تلك المثل الخلافة والتى تجسمت  
 في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم جميعا فكانوا  
 المثل الفريد الذى لم يتكرر من بعدهم أبدا والى يومنا هذا الا أن تكون

(\*) منهاج الانقلاب الاسلامى لأبى الأعلى المودودى أمير الجماعة  
 الاسلامية بباكستان وهو معرب عن الأردية ص ٦٩ وما بعدها .

حالات فردية متناثرة على مدار التاريخ لا تعطي المجتمع الذى تعيش فيه صورة الحياة الحقبة التى عاشها المجتمع الأول العظيم ..

« ان اصلاح الباطن أساس لكل اصلاح ظاهرى ولا بقاء لاصلاح خارجى الا اذا تركز وكان نتيجة وأثرا للاصلاح الباطنى ، وشعبة الأخلاق هى الكفيلة بالاصلاح الباطنى .. ولعل قوله عليه الصلاه والسلام « ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » من أقوى العبارات الماثورة فى تقرير القضية الطبيعية قضية الضمير وهى :

« صلاح الظاهر نتيجة لصلاح الباطن <sup>(٦)</sup> » ..

### ٣ - أخلاق .. وأخلاق :

هذه هى النقلة البعيدة فى المجتمع الانسانى وتلك هى ثمار الايمان الذى استقر فى القلوب فكان هذا التصور المشرق لحقيقة الانسان . وكان هذا الخير العميم الذى تمثل فى الأمانة والسلام والرحمة والمودة واللين والعفاف .. والقناعة .. والزهد فى أعراض الحياة .. والذى تمثل فى كل خلق كريم لا يميل مع الهوى ولا ينحرف مع الاغراض .. وانها لقوة العقيدة وصلابتها التى أقيم عليها صرح الأخلاق الاسلامية فكان لها تلك القوة وهذا الشمول واستمدت عظمتها من ايمان أصحابها برب واحد .. واله واحد .. وجمعت كلمة التقوى وحدها أسمى ما تتطلع اليه البشرية فى تاريخها من أداء الحق ونصرة المظلوم ، وحماية الحمى ، وعزة الانسان ، وكرامة الفرد ، وجمال الاحسان فى كل شيء والى كل شيء .. « وما التقوى ؟؟ التقوى كلمة واحدة تجمع كل وازع يسزع الضمير .. وأقدر الناس على أمانة التقوى أقدرهم على النهوض بالتبعة وأعرفهم بمواضع المعروف والمنكر والمباح والمحظور ..

(٦) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ / شلتوت ص ٤٨٥ ..

والانسان التقى مرة أخرى هو الانسان .. « الانسان » .. ما هذه التقوى التى تتعلق بها كل فضل الانسان عند رب العالمين؟؟ لو شاء فلاسفة الأخلاق لعلموا ما هذه التقوى وعلموا حقا أن كل موازينهم جميعا لا يحسن الترجيح بين فضل وفضل وبين قدرة وقدرة كما تحسنه هذه التقوى التى يحسبونها تسييخة من تساويح المعابد ، ويخيل اليهم أنها أفضل من أن تنفع العالم المحقق فى مقام الموازنة والتفضيل (٧) » .

ويوم أن تشوهت صورة التوحيد فى نفوس المنتسبين للإسلام وأصبحت العبودية لله كلمة تقال لا خلقا تابعا من الاحساس بالصلة الوثيقة بين المؤمن وخالقه .. ويوم أن أصبح الاسلام عادة وما فيه من رسوم العبادة وأشكال القربات لله تقليدا للسابقين خاليا من الروح منقطع الصلة عن الفكر المستقيم والنظر الصحيح .. يوم أن أضحي مجتمع الاسلام بعيدا عن قرآنه وأخلاق دينه أعطى سلاحا للعدو يشهره فى وجه تربية القرآن لأتباعه .. وشاع بين الناس أن المسلم مثال الخيانة والغش والخداع والمكر وسوء الجوار ونقض العهود والاحتيال والكذب يبيع دينه بدراهم معدودات ..

وتلفتت المجتمعات الاسلامية الى أوروبا .. الى العالم الغربى فهالها ما رأت من ألوان الحضارة المادية والرقى الاجتماعى .. ورأت فى القوم أعلى ما سعت اليه الانسانية فى تاريخها الطويل من الصدق فى القول والاخلاص فى العمل والنزاهة فى المعاملة .. واللطف الذى هو عنوان الصغير والكبير .. والنظام والدقة فى كل شىء .. الى غير ذلك من مظاهر الأخلاق العالية والقيم الرفيعة .. وخيل الى الناس أن هذا الذى يرون هو الواحة الخضراء التى وجب أن تأوى اليها البشرية ..

ونقل المسلمون ما استطاعوا من معاملات القوم ونظامهم وقانونهم وحضارتهم المادية .. ورفضوا عن عمد أو جهل مبادئ القرآن وحضارته ونظامه وتشريعاته وعاشوا في ظلام الوهم وحيرة الشك وجرفهم تيار الفساد الذى استشرى خطره وانتشر ضرره .. وأطبق على العالم فى شرقه وغربه .. وسيطر على النفوس واستولى على القلوب وتنادى الجميع على اختلاف أديانهم ونحلهم وأجناسهم ومراتبهم ومنازلهم : هل من حاد يدلنا على الطريق ??

هل من علامات نيرات يصل اليها المركب الضال الحائر ؟

ولم يستطع المظهر البراق الخادع أن يزيّف الحقيقة طويلا .. وثبت أن أخلاق أوربا ومن سار فى ركابها كمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ..

ثبت زيف هذه الأخلاق وفساد معدنها وخبث طويتها وانحراف غايتها ..

اذ لو تساءلت : على أى أساس أقيمت هذه الأخلاق ؟ ولأية غاية تقصد ؟ لعرفت مدى التخلف والتحليل الخلقى .. وأن هؤلاء فى حاجة الى من يدلهم على الطريق .. وأن ما عندهم من اختراعات سهلت للناس حياتهم وجملتها ، ما كانت ولن تكون سببا لاسعاد المجتمع وطمأنينة القلب والشعور بالرضا والأمن والسلام .. بل انقلبت مخترعاتهم وسائل هدامة مدمرة للانسان ولحضارة الانسان ..

على أى أساس أقيمت أخلاقهم ؟ ولأى غاية تقصد ؟ .. لعل فى الاجابة عن هذا التساؤل ما يبين الهوة الواسعة بين أخلاق وأخلاق .. أخلاق كان من نتائجها ما نرى من سلب الشعوب حقها فى الحرية والحياة واعتداء على الأمنين وابداء للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان

واخلاق أعطت للانسان والمجتمع الانساني أصدق ما تمنى وأكرم ما أراد  
وفتحت له الطريق فشعر بقيمة استخلاقه في أرض الله وحقق وجوده  
باعتباره أرفع مخلوق كرمه ربه ، وأعلى قدره ، وأسجد له ملائكته .  
وعلمه الأسماء كلها . وسخر له الكائنات في الأرض والسماء ، والبحار  
والأنهار ، والشموس والأقمار ، والليل والنهار ..

على أى مبدأ أقيمت أخلاقهم وما غايتها ؟ ان أساسها المنفعة وغايتها  
تحقيق هذه المنفعة عن أى طريق .. فالصدق خلق محمود اذا ما أدى الى  
الكسب الاجتماعى والأدبى .. والأمانة خلق جميل اذا ما كانت وسيلة  
لزيادة الثروة والربح .. وهذا التعاون والنظام والدقة فى كل شئ أساسه  
الحفاظ على كيان مجتمعهم حتى يقف قوة تستطيع أن تنقذ على من  
تشاء فى كل وقت ..

فاذا ما فرض قانون المنفعة التخلّى عن الصدق والأمانة والقيم  
الانسانية العالية وجدت القوم خونة ينقضون العهود والمواثيق ..  
وكاذبين ينشرون الفساد فى الأرض باسم النزاهة والبحث العلمى والخدمة  
الانسانية وما هذا الا « الطعم » يوضع للسماك الحائر فى خضم الحياة  
فياكلونه لحما وعظما ، ويسلبون الشعوب الأمانة أمنها وحريتها واستقرارها  
وما هذه المصانع والمباني الضخمة ، وما تلك الحضارة ، الا بناء أقيم على  
بحار من دماء الأبرياء والشهداء فى أنحاء الأرض .

فهل ترى فى تلك الأخلاق بصيصا من رجاء ؟؟ وهل ماتعج به هذه  
المجتمعات من ألوان العهر والفجور والتحلل الخلقى يمكن أن يقام عليه  
بناء انسانى سليم ؟ وهل تنتظر البشرية من هؤلاء خيرا يرفعها من وهدة  
الشقوة والحيرة ؟ أو أنها ستعيش مذعورة خائفة أمام قنابلهم ومدمراتهم  
وما اخترعوه من وسائل الابادة الجماعية للانسان أينما كان ؟ وكأن حقدًا

دفعنا على كل البشر سيطر عليهم فانطلقوا مخربين مدمرين فاذا ما وجدوا القوة الرادعة عادوا الى المداهنة والمراوغة والوعود الكاذبة والتظاهر بأنهم دعاة أخلاق وسلام .. وأنهم الأمناء الصادقون والبررة الأوفياء والحافظون لحق الانسان في الحياة الحرة الكريمة .. وسرعان ما ينهار ذلك كله امام الأطماع والشهوات .. وهذا منطق طبيعي .. اذ كيف تأمل من قوم أقاموا تعاملهم مع الناس على أساس من المنفعة والانتهازية سوى هذا الدمار الشامل الذى لا تحميه عقيدة رادعة ودين يربط الانسان بأخيه الانسان برغم اختلاف الألوان والأجناس والأديان ؟ •

وليس هناك من وجه للمقارنة بين أخلاق أوروبا التى بنيت على هذا الأساس المنهار وأخلاق الاسلام وتربية القرآن - لأن الشقة بين هذه وتلك بعيدة .. بعيدة .. أصيبت الانسانية من جراء من دان بغير الاسلام بتلك النكسات الموجهات وعرفت من الأهوال ألوانا • ومن الجبروت أشكالا • ومن الضغائن والدماء المنزوفة المراقبة ظلما وعدوانا ما لم تعرفه فى تاريخ وجودها فى هذه الحياة ..

وتذوقت طعم السلام بدخول حملة النور من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، واستراحت من عناء الضلال والظلام وانفتحت عيناها على الضياء الهادى فدخل من دخل فى الاسلام عن حب واقتناع دون رهبة أو خوف .. وبقي من بقى على دينه محاطا بالحماية والحفظ على نفسه وعرضه وما له فى ظل هؤلاء البررة الصادقين الأوفياء .. ورأت الانسانية شيئا جديدا لم تعهده فى حياتها من قبل - رأت قوما زهدوا فى أعراض الحياة ونظروا الى اخوانهم من بنى الانسان فوجدوا قياصرة وآكاسرة وحكاما ظالمين يحولون بين اخوتهم فى الانسانية والحياة التى يجب أن يحيهاها البشر فباعوا أرواحهم فداء لتحرير اخوتهم ، وأسقطوا معاقل الظلم فى كل مكان ، وفتحوا الطريق أمام الانسان ليرى بنفسه

هذا الدين وكيف يبعث الحياة في الأموات ، فيتحركون في قوة يعمرون وجه الأرض كما أراد الله وأمر ، فبدت الانسانية في مظهرها ومخبرها وحدة متماسكة تجمع بينها الفكرة وتحفظها قوة الاسلام وعقيدة المؤمنين به .. يقول الاستاذ مسينون « للاسلام ماض بديع في تعاون الشعوب وتقاهمها .. وليس من مجتمع آخر له - مثلاً - ما للاسلام من ماض كله نجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات .. ولقد برهنت الطوائف الاسلامية الكبرى في أفريقيا والهند الشرقية والجماعات الصغيرة منهم في الصين واليابان على أن الاسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل الى التوفيق بينها ..

فإذا ما أريد احلال التعاون محل الخلاف بين المجتمعات في الشرق والغرب فان وساطة الاسلام ضرورية لا غنى عنها فهو وحده الكفيل بحل المشكلة التي تواجه أوروبا في علاقتها مع الشرق .. فإذا اتحدنا عظم الأمل في أن تكون النتيجة سلاماً أما اذا رفضت أوروبا معاونة الاسلام وألقت بنفسها في أحضان خصومه فان العاقبة لا يمكن أن تكون الا نكبة لهما معا (٨) » ..

وهذه أخلاق الاسلام شامخة باسقة الأغصان .. تراها منتشرة في رياض كتاب الله الخالد تدعو الى أرفع خلق وأنبل قصد : تدعو الى الصفح الجميل الذي لا عتاب فيه ..  
قال تعالى :

« فَأَصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَمِيلِ » (٩)

(٨) أركان الاسلام الخمسة وأثرها في حياة الافراد والجماعات .  
د. يحيى الدرديري ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٩) الحجر ٨٥/١٥ .

والى مقابلة السيئة بالحسنة وهو أنفس ما وصلت اليه الانسانية فى تاريخها من كرم الخلق .. والقرآن فى تربيته لا يوجه بذلك أمرا انما يفتح أعماق النفس ، ويأخذ بقيادها الى الاستجابة لندائه فيقارن بين الحسنة والسيئة وبين عاقبة العفو والاحسان فى واقع الحياة ويجعل من تمسك بذلك رفيع القدر وصاحب حظ عظيم - جاهد نفسه وشيطانه واتصر عليهما فاستحق رضوان الله .. يقول ربنا :

« وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ \* وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » (١٠)

وتدعو أخلاق القرآن الى بر الوالدين: وتستشير عطف الأبناء ومودتهم ببيان حال العجز والكبر والاحتياج .. وتعرف الأبناء كيف تكون مودة آبائهم وأمهاتهم ..

قال تعالى :

« وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » (١١) .

وقال :

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا \* وَأَخْفِضْ لَهُمَا »

(١٠) فصلت ٢٤/٤١ ، ٣٥ .

(١١) النساء ٣٥/٤ .



جَنَاحَ الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي  
صَغِيرًا \* رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا  
صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ۝ (١٢)

وهل رأيت دعوة الى الادخار والاقتصاد أثمرت ثمرتها وآمن بها  
الأفراد كدعوة القرآن أتباعه الى ذلك ؟ انظر اليه وهو يجعل المبذرين  
أخوان الشياطين ويصور حال المسرف أو المقتِر والكل يلومه وهو  
يتجرع كأس الحسرة والعجز ..

يقول ربنا :

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ  
الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝ (١٣) »

وهذه دعوته الى الثقة في الله والامتناع عن قتل الأولاد لأن الله  
هو الرزاق وكما رزق الآباء فسيرزق الأبناء ..

قال تعالى :

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ  
وَأَيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ أَنْ كَانَتْ خِطْئًا كَبِيرًا ۝ (١٤) »

(١٢) الاسراء ١٧/٢٣ ، ٢٥ .

(١٣) الاسراء ١٧/٢٩ .

(١٤) الاسراء ١٧/٣١ .

ويقول :

«وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ» (١٥)

ومجتمع الاسلام مجتمع عفيف طاهر بعيد عن دنس الشهوات فان طريق الزنى كله فحش وضياع وهو طريق سيىء لا يوصل الى خير .. من أجل هذا كان من خلق الاسلام أن نهى المؤمنين عن الاقتراب من تلك الجريمة البشعة •

فقال جل شأنه :

«وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا» (١٦).

وعباد الرحمن العارفون به ..

كما قال ربنا :

«لَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا \* يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا \* إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» (١٧).

كما أن أخلاق القرآن تقوم على حرمة النفس البشرية والمحافظة عليها ، وحين يفلت الزمام فيقع اعتداء عليها تمسك هذا الزمام وتجعل للدم

(١٥) الانعام ١٥١/٦ .

(١٦) الاسراء ٣٢/١٧ .

(١٧) الفرقان ٦٨/٢٥ - ٧٠ .

الذى أريق احترامه وتقديره وتوقع على الجاني العقوبة التى يستحقها  
وتحول بذلك بين استنزاف الدماء واثارة البغضاء فنقول :

« وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا » (١٨)

وتقول :

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا \* وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا » (١٩)

واذا كان القرآن قد حرم الاعتداء على النفس الإنسانية فإنه قد جعل من أخلاقه تقدير حاجة الضعاف وعدم الاعتداء على حقوقهم ..  
 وحين يربى أجيالاً على مثل هذه الصفة يضع لها الدعائم القوية ويستجيش مشاعر الإنسان في حب البقاء الذي يراه متمثلاً في أبنائه .. لذلك ينهى عن الاقتراب من مال اليتيم .. مجرد الاقتراب الا اذا كان في ذلك حفظ لماله وتثمير له قال تعالى :

«وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ» (٢٠).

ويذكر الإنسان بأولاده وأنهم ربما كانوا أيضاً أيتاماً .. فمن لهم ?? فيقول :

«وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا» (٢١).

ويجعل أكل مالهم نارا في البطون وطريقاً لعذاب السعير فيقول :

«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا» (٢٢).

والوفاء بالعهد مظهر لكل من دان بالاسلام .. والقرآن حين يدعو لذلك يربط الإنسان بخالقه ويذكره بالمسئولية أمام ربه فيقول :

(٢٠) الاسراء ٣٤/١٧ .

(٢١) النساء ٩/٤ .

(٢٢) النساء ١٠/٤ .

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ  
 بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ  
 مَا تَفْعَلُونَ \* وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ  
 قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ  
 هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ  
 الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » (٢٣)

ويقول :

« وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » (٢٤)

ومن الوفاء بالعهد : الوفاء بالكيل والوزن بالقسطاس المستقيم  
 فذلك برهان على حسن الطوية وعنوان على مدى التزام مبادئ القرآن  
 إذ ان من خاف أن ينقص حبات من كيل أو دراهم من وزن لا يمكن أن  
 يفرط في تعاليم دينه وقرآنه .. يقول المولى :

« وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ  
 ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » (٢٥)

وهذا أمر مقرون بالوعيد الشديد كما قال سبحانه :

« وَيَلُ لِّلْمُطَفِّفِينَ \* الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ

(٢٣) النحل ٩/١٦ ، ٩٢ -

(٢٤) الاسراء ١٧/٣٤ -

(٢٥) الاسراء ١٧/٣٥ -

يَسْتَوْفُونَ \* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ \* أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ \* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ \* يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٢٦) .

وأخلاق القرآن تصل الى قمة السمو البشرى حين تجعل كل عضو من أعضاء الانسان محاسباً عما عمل ومن هنا كان لا بد للمسلم من الثبوت واليقين والعلم قبل الاقدام على أى أمر كما قال ربنا :

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » (٢٧) .

كذلك خلق التواضع تقدمه التربية القرآنية في هذه الصورة المشرقة التى تذكر الانسان بضعفه وعجزه وأن هناك فى هذا الكون ما هو أعظم منه وأقوى .. قال تعالى :

« وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا » (٢٨) .

بر الوالدين .. والعطف على البائسين .. والاعتدال فى الاتفاق والثقة فى فضل الله ورزقه .. والابتعاد عن الفواحش .. ورحمة الضعفاء .. واليتامى .. والبعده عن الاستغلال .. والوفاء بالعهود .. والعلم قبل العمل .. والتواضع .. وغير ذلك من أخلاق الاسلام التى لا يسعها هذا

(٢٦) المطففين ١/٨٣ - ٦ .

(٢٧) الاسراء ١٧/٣٥ .

(٢٨) الاسراء ١٧/٣٦ .

البحث سردا للآيات وبيانا لما تحمل من معاني السمو والرفعة .. انما  
هى اشارات على الطريق تبين عمق التربية القرآنية ، ومنهجها الخالد فى  
تربية المجتمع على الأخلاق الفاضلة ..

ولعل فى وصايا لقمان لابنه ما يبين أصالة هذه التربية وامتداد  
جذور الأخلاق القرآنية فى أعماق الوجود الانسانى وأن المؤمن فى  
التزامه بها يحس أن هذا ما تعارف عليه الأنبياء وأصحاب الرسالات  
وأتباعهم فيشعر بأصالته وقوة الحق الذى بين يديه ..

هذا هو لقمان جالس مع ابنه يعظه بجملة من الأخلاق العالية ..  
وبها يعلم القرآن المؤمنين كيف يلتزمون بهذه الأخلاق ويجعلونها عنوان  
حياتهم ..

وأول خلق يعلمه لقمان لابنه : توحيد الله ..

« يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »

وتوحيد الله هو الأساس الذى يقوم عليه البناء الأخلاقى المتين بل  
يقام عليه بناء الشرائع كلها قولاً وفعلاً ..

ومن معرفة الله ينبع هذا الخير الذى يقدمه لقمان لابنه حكماً  
خالداً باقيات على مر الدهر .. اذ ينقل له وصية الله بالأبوين .. والأم  
على وجه خاص ويبين له طاعة هذين الوالدين وكيف تكون حتى لو  
أشركا بالله ..

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ

وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ \*

وَأِنْ جَهْدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝

ويربطه بحبل الله المتين حتى يصدر في قوله وفعله عن احساس كامل بخطورة ما يقول وما يفعل .. فيخوفه ، بدقة الحساب واحاطة الله الكاملة بكل ما في الكون :

« يَبْنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ »

والصلاة .. والمحافظة عليها واقامة شعائرها والاعتزاز بأدائها زاد روحى يعين على مشقات الطريق .. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برهان ساطع على صدق الايمان الذى يغير واقع الأرض الى مايسعده ويرقيه ، ولا بد لمن سلك طريق الايمان أن يصبر على ما يصيبه فى سبيل دعوته ومبادئه فهذا دليل العزيمة القوية التى لا تضعف أمام ضغط الفساد وقوة الباطل ..

« يَبْنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝ »

والكبر : أسوأ صفة يمتقنها الله .. فليبتعد عنها ابن لقمان وليعرف المؤمنون معه أن المولى غاضب على المتكبرين راض عن المتواضعين ..



« وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ \* وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » (٢٩)

أرأيت أخلاق القرآن ?? هل هناك ما يقاربها ?? ان الميزان الذى أقيمت عليه لا يخطئ أبدا وهذا سر سموها وعظمتها .. يقول العقاد : « مصدر الأخلاق الجميلة هو .. عزم الأمور .. كما سماه القرآن الكريم وهو مصدر كل خلق جميل حث عليه شريعة القرآن الكريم .. فالشخصية الانسانية : فى الجمال الأخلاقى كلما ارتفعت فى الاستعداد « للتبعة » ومحاسبة النفس على حدود الأخلاق .. وليس للتفاوت فى جمال الخلق مقياس أصدق من هذا المقياس ولا أعم منه فى جميع الحالات وفى جميع المقابلات بين الخصال المحمودة أو بين أصحاب تلك الخصال . فالصبر والصدق ، والعدل والاحسان ، والمحاسنة ، والأمل .. والحلم والعفو هى مثال الكمال الذى يطلبه لنفسه من يزرع نفسه ويختار لها أحسن الخيرة ويأبى لها أن يهبط بها مكانا دون مكان الجميل الكامل من الخصال ومن الفعال ..

« وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »  
« فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ » . . . « وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ

إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ  
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .. « إِنَّ اللَّهَ  
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ  
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ  
أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ \* » .  
« .. لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ (٣٠) » .

هل تسعد الانسانية بغير تلك الأخلاق ؟ وهل يستطيع أحد أن  
يضع أخلاق النفعيين والمعتدين والآثمين موضع المقارنة مع أخلاق القرآن  
الا أن يبين البون الشاسع بين أخلاق .. وأخلاق ??

#### ٤ - الترابط بين الأخلاق .. والعقيدة :

أسلوب القرآن في تربيته يقوم على أساس لا يتغير بتغير الزمان  
أو المكان : انه يقوم على أساس من اسلام الوجه لله .. فكل ما أمر به  
خير والالتزام به خلق جميل وحميد ، وكل ما نهى عنه شر ، الوقوع فيه منكر  
واثم عظيم .. واذن فهناك رباط وثيق بين الأخلاق والعقيدة لو انحل  
هذا الرباط تخبطت الأخلاق وضلت السبيل ولم تعرف لها مقياسا ترجع  
اليه : فما هو محمود عند قوم منبوذ عند آخرين .. وما هو خلق متين

اليوم سوف يكون غدا تأخرا ورجعية .. وهنا يكون الضياع والفساد:  
 تتحلل المجتمعات باسم المدنية والتقدم وتهدر المبادئ باسم الحضارة ..  
 ولعل الوثنية اليونانية وزعيمها أرسطو على رأس من دعا الى انفصال  
 العقيدة عن الأخلاق « لأن الخير في ذاته لا يمكن أن يتحقق في الواقع  
 أو يجوزه انسان .. ونظرية الخير — كما يقول — يجب أن تكون عملية  
 أصلا .. ومنذ أن استبعد أرسطو كل أساس ميتافيزيقي للفلسفة  
 الأخلاقية أصبح ذلك النسق مسلما به لدى معظم فلاسفة الأخلاق من  
 بعده حتى عصر «كانت» انهم يختلفون معه في الغاية أو في وسيلة  
 تحقيق الغاية أو في وصف طبيعة العلم الأخلاقي : معيارى أو وضعى  
 أو في ادراك الخير بالعقل أو بالحدس أو بالتجربة ، ولكنهم يلتقون معه  
 في أن موضوع العلم : الخير الانسانى المحدد لا المطلق وأن النسق اللازم  
 له استقرار الوقائع والصعود منها الى النظريات لا الصعود عن المبادئ  
 أو الأصول (٣١) » ..

ونقلت دول الغرب فلسفة اليونان ، واعتزت بها ونقلنا نحن عن  
 هؤلاء وأولئك وأصبحت كلمة «الرجعية» «التطور» سلاحا نشهره في  
 وجه كل داع الى شد الوثاق بين العقيدة والأخلاق .. لكن مبادئ  
 القرآن التى ربت خير أمة أخرجت للناس بقيت خالدة لا يعتورها تغيير  
 أو تبديل .. وعاش المجتمع الأول مسترشدا بهديها صادرا عنها وواردا  
 اليها ، كما عاشت بعد هذا الجيل أجيال وجئت في مبادئها الأساس الذى  
 لا يميد ، وليس للعقل ولا للفكر الانسانى دخل في اختيار النسق الأخلاقى  
 الذى يجب على البشرية التزامه ، لأن العقول متفاوتة وهى وليدة البيئة

والترتية الا أنها لو راجعت وقارنت بين الأخلاق القرآنية وغيرها لوجدت  
فرقا هائلا وعظيما بين هذه وتلك : ..

« لقد أنزل الله فيما وراء الطبيعة وفي الأخلاق ما فيه كفاية تامة  
للمؤمن .. والمؤمن غير محتاج لما وراء ذلك : « اليوم أكملت لكم دينكم  
وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » فاذا ما تمرد المؤمن  
على هذه المبادئ وبدأ يلقي بقياده الى عقله حتى ولو كان يريد أن يصل  
عن طريق ذلك الى نفس النتيجة التى أتى بها الدين فانه منحرف عن هدى  
العبودية لله الى هدى العبودية للعقل .. وهو يفعل ذلك تقديسا لنفسه  
وذلك نوع من عبادة الذات أو نوع من غرور العقل والوضع الصحيح  
— اذن — بالنسبة لأساس الأخلاق أن نلجأ الى الدين نستمد منه الهداية  
والارشاد فانه هو وحده المعصوم .. أما العقل والضمير والفكر الانسانى  
فانه يتأرجح ويتذبذب لأنه محتاج الى القائد المربى وليس هذا القائد  
المربى الا الدين (٣٢) » ..

« وفي هذا التقرير الحاسم للعلاقة المتينة بين العقيدة والأخلاق ما يبين  
خطأ المعتزلة ومن نهج نهجهم فى نظرتهم الى حسن الأفعال وقبحها وأنها  
ترجع الى صفات ذاتية فى الأفعال يدرسها العقل من نفسه ولا تجيء من  
الشرع متى أمر أو نهى ، يقول سعد الدين التفتازانى مبينا رأى أهل السنة  
والمعتزلة « وقد اشتهر أن الحسن والقبح عندنا شرعيان وعند المعتزلة  
عقليان ، وليس النزاع فى الحسن والقبح بمعنى صفة الكمال والنقص  
أو الملاءمة للغرض وعدمها فان ذلك يدرك بالعقل ، وان لم يرد به الشرع  
وانما النزاع فى الحسن والقبح عند الله بمعنى استحقاق فاعله فى حكم

الله المدح أو الذم عاجلا والثواب أو العقاب آجلا فعندنا ( يريد أهل السنة ) ذلك بمجرد الشرع ، أى ما ورد به الأمر فحسن وما نهى عنه فقيح من غير أن يكون للعقل صفات تجعله حسنا أو قبيحا في ذاته ، حتى لو أمر الله بما نهى عنه صار حسنا وبالعكس .. وعند المعتزلة للأفعال صفات ذاتية تجعلها حسنة أو قبيحة في حكم الله وهذه الصفات يدركها العقل .. والفرق بين المذهبين كبير : الأمر والنهى عندنا من موجبات الحسن والقبح بمعنى أن الفعل أمر به فحسن ونهى عنه فقبح وعندهم « المعتزلة » من مقتضياته : بمعنى أنه حسن عقلا فأمر الله به وقبح عقلا فنهى الله عنه ، فالأمر والنهى اذا وردا كشفا عن حسن وقبح سابقين حاصلين للفعل ذاته (٣٣) » ..

ومما يؤكد الصلة الوثيقة بين الأخلاق والعقيدة آيات الكتاب الكريم التى ربطت بين الايمان والعمل هذا الرباط المحكم وجعلت الفعل الصادر عن الايمان انفعالا للنفس بما ينبغى أن يكون فيفعل وبما لا ينبغى أن يكون فيتترك ، فأصبحت تصرفات المسلم راسخة متشعبة الجذور محكومة بأخلاق الهية سامية وأصبح الايمان والاسلام أخوين لا ينفصلان وكلاهما يعطى صورة الأخلاق القوية لمجتمع الاسلام .. » .. فمن لازم الايمان الاسلام وهو : الشهادة بالتوحيد وبالرسالة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والوضوء والغسل من الجنابة والغسل يوم الجمعة والصبر .. والشكر .. والورع .. والحياء .. والأمانة .. والنصيحة .. وطاعة أولى الأمر .. والذكر .. وكف الأذى .. وأداء الأمانة .. ونصرة المظلوم .. وترك الظلم .. وترك الاحتقار .. وترك

(٣٣) شرح المقاصد المجلد الثانى ص ١٠٩ - ١١٠ الشهرستانى فى الملل والنحل ج ١ ص ٥٣ وما بعدها .

الغيبة .. وترك النسيمة .. وترك التجسس .. والاستئذان .. وغض  
 البصر .. والاعتبار وسماع الأحسن من القول واتباعه .. والدفاع بالتى  
 هى أحسن .. وترك الجهر بالسوء من القول .. والكلمة الطيبة .. وحفظ  
 الفرج .. وحفظ اللسان .. والتوبة .. والتوكل .. والخشوع ..  
 وترك اللغو .. والاشتغال بما يعنى وترك ما لا يعنى .. وحفظ العهد ..  
 والوفاء بالعقود .. والتعاون على البر والتقوى .. وترك التعاون على  
 الاثم والعدوان .. والتقوى .. والبر .. والقنوت .. والصدق ..  
 والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. واصلاح ذات البين .. وخفض  
 الجناح واللين .. وبر الوالدين .. وترك العقوق .. والدعاء .. والرحمة  
 بالخلق .. وتقدير الكبير ومعرفة شرفه .. ورحمة الصغير .. والقيام  
 بحدود الله .. وترك دعوى الجاهلية فان النبى صلى الله عليه وسلم يقول  
 « دعوها فانها خبيثة » .. والتودد .. والحب فى الله والبغض فيه ..  
 وترك التباغض .. وترك التناجش .. وترك شهادة الزور وترك الهمز  
 واللمز والغمز ، وشهود الجماعات .. وافشاء السلام .. والتهادى ..  
 وحسن الخلق .. والسمت الصالح .. وحسن العهد وحفظ السر والنكاح  
 والانكاح ، وحب الفأل .. وحب أهل البيت .. وترك الطيرة .. وحب  
 الزوجة .. وحب الطيب .. وحب الأنصار .. وتعظيم الشعائر .. وتعظيم  
 حرمان الله .. وترك الغش .. وترك حمل السلاح على المؤمن وتجهيز  
 الميت .. والصلاة على الجنائز .. وعيادة المريض .. واماطة الأذى ..  
 وأن تحب لكل مؤمن ما تحب لنفسك .. وأن يكون الله ورسوله أحب  
 اليك مما سواهما .. وأن تكره أن تعود فى الكفر .. وأن تؤمن بسلامة  
 الله وكتبه ورسله وبكل ما جاءت به الرسل من عند الله .. الى ما لا يحصى  
 كثرة .. (٣٤) » ..

(٣٤) اركان الاسلام الخمسة واثرها فى حياة الافراد والجماعات  
 د. يحيى احمد الدرديرى ص ١٧ ، ١٨ .

والآيات التي ترشد الى هذا كثيرة تفوق الحصر .. وكلها تتادى  
المؤمنين الى التخلق بأخلاق الله والتزام مبادئ الاسلام ..

ولعل في وصف القرآن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه على  
خلق عظيم ما يبين مكانة الأخلاق في دين الاسلام .. مما جعلها جديرة  
أن تكون الهدف الأسمى لبعثته صلى الله عليه وسلم فهو القائل ..  
« انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق (٣٥) » ..





## الفصل الثاني

### العبادات أسلوب للتربية

- ١ - المقصود بالعبادات
- ٢ - الصلاة .. والتربية الأخلاقية
- ٣ - الزكاة وتطهيرها للنفس
- ٤ - الصوم منهج أخلاقي
- ٥ - الحج .. والتربية الأخلاقية
- ٦ - العبادات هدف .. ووسيلة



## العبادات أسلوب للتربية

### ١ - المقصود بالعبادات :

على جبل النور .. فى غار حراء .. والكون ساجد لله ، ومحمد ابن عبد الله يعتصر ذهنه وفكره بعيدا عن صخب الحياة وأباطيلها فى زمن استشرى فيه الباطل وبسط أرديته على أرض الناس .. وبينما هو مستغرق فى تأمله فى هذا المكان البعيد عن أهل مكة يبحث عن الطريق ، اذ بملك الوحي جبريل عليه السلام يضمه الى صدره ويبلغه نداء الله :

« أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (١)

ومن هذه اللحظة التى انبثق فيها شعاع الوحي أصبح للعبادة مفهوم جديد .. وتغيرت نظرة الانسان الى كل ما يصدر عنه .. ولم تعد العبادة رسوما وطقوسا تؤدى داخل المعابد والصوامع والبيع .. وركب الفساد الجائر يطحن الناس ويقضى على أمنهم واستقرارهم وسعادتهم .. والمتعبدون فى كنائسهم وأمام آلهتهم يقولون : « اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ..

نعم تغيرت هذه النظرة الضيقة للعبادة وأصبحت « اقرأ باسم ربك » منارة هادية وضعت يد الانسان على الحقيقة : فالقراءة باسم الله . والعلم باسم الله .. والصلاة باسم الله .. والحياة بما فيها ومن فيها باسم الله .. بل والممات باسم الله هكذا أمر رسول الله :

« قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ \* لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » (٢)

واذن فهذا الفصل بين الدين والسلوك .. بين العبادات بالمعنى  
الظاهر وأفعال الانسان وأقواله لا معنى له .. لأن كل عمل وقول يرتفع  
عليه شعار الاستسلام لله ويذكر عليه اسمه : عبادة .. وليس تقسيم  
الفقهاء لأبواب الفقه : عبادات ومعاملات .. الا من حيث أن الأولى عمل  
لا يبدو في ظاهره التعامل الا مع الله والثانية تعامل مع خلق الله ..  
والترتبة القرآنية ترى أن العبادات والمعاملات وغيرها يطلق عليه عبادة ..  
بل ان الشهوة يقضيها صاحبها - باسم الله - عبادة : « وفي بضع  
أحدكم صدقة » كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) .. ومع  
هذا الفهم الصادق لمداول العبادات سوف نرى فرائض الاسلام وشعائر  
العبادة فيه من صلاة وزكاة وصيام وحج .. سنراها وسائل تربية وتقويم  
للمجتمع وسندرسها وهي تمثل جزءا من العبادة التي يؤديها المجتمع  
المسلم في حياته وبها يبدو في ثوبه القشيب يرتبط بهذا الجزء الذي يؤديه  
في يومه في الصلاة وفي ماله بالزكاة وفي عامه بالصوم .. وفي عمره  
بالحج .. يرتبط بذلك بالجزء الأكبر : بالكون كله وبالحياة كلها ..  
ويتكامل ديننا ودنيا .. علما وعملا .. قولاً وفعلاً .. ويتحول بهذا  
الامتزاج بين الأجزاء في داخل نفسه وحسه الى طاقة تغير الحياة  
والأحياء .. والى يتابع خير وحب وعدل واخلاص .

(٢) سورة الانعام ١٦٢/٦ ، ١٦٣ .

(٣) رواه مسلم .. ويراجع كيف جعل القرآن كل الحياة عبادة في

الباب الاول - فقرة : وهذا هو الطريق .

## ٢ - الصلاة .. والتربية الاخلاقية :

وهذه أول فرائض الاسلام منهج متكامل لتربية المجتمع : تطهرهم  
 ظاهرا وباطنا ، وتروى فيه شجرة الأخلاق بماء الوضوء ونور الذكر  
 وروعة التجرد لله فاذا ما تنشده الانسانية من مساواة وعفة ومجبة ورحمة  
 وقوة وأدب واقع حى ملموس تراه فى أصوات الساجدين والمتبتلين  
 والداعين والذاكرين والمتجهين لربهم والخاصعين لسيدهم .. شعورهم  
 واحد : أنه لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، وأن أكرمهم عند الله  
 أتقاهم .. وربهم واحد لا شريك له .. وقبلتهم واحدة هى منزل الوحي  
 الالهى والرسالة العظمى الخالدة .. وشعارهم واحد : الله أكبر ..  
 الله أكبر ..

ولعل القرآن حين جعل الصلاة من أوصاف المتقين فقال :

« أَلَمْ \* ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ \*  
 الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ  
 يُنْفِقُونَ » (٤)

أراد أن يبين السر فى هذه التقوى التى هيمنت على سلوك المجتمع  
 المسلم أفرادا وجماعات فبدأ فى كل حركة وسكون .. مع القريب  
 والبعيد .. مع العدو والصديق .. فى بيته وعمله .. فى تعامله الدولى  
 ونظام مجتمعه الداخلى .. بدأ فى كل هذا نورانيا رحيمًا عادلا مراقبا  
 لله .. ناظرا الى خالقه .. شاعرا باطلاعه عليه .. والسر فى هذا بعد  
 الايمان بالله هو اقامة الصلاة .. واختيار القرآن لكلمة « الاقامة »  
 وبصيغة الجمع « يقيمون » له مغزاه ومعناه فى تربية القرآن : فان الاقامة

هي الاعتدال والمداومة : اعتدال في الأداء « منكم من يصلى الصلاة كاملة ومنكم من يصلى النصف والثلث والرابع والخمس حتى يبلغ العشر (٥) » .. « صل فانك لم تصل » (٦) ومداومة على هذا الأداء حتى ترسخ صورة القيم التي يريد القرآن أن يبثها في كيان المجتمع عن طريق هذه الفريضة .. وصيغة الجمع « يقيمون » برهان على صورة التجمع والتعاون والتناسق بين هؤلاء الأطهار في اقرار الصلاة . ورفع شعارها في كل مكان قال تعالى :

« الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ  
وَعَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ  
عُقُبَةُ الْأُمُورِ » (٧)

وفي احساسهم بقيمتها وما يمكن أن تصنعه للاسلام وكيف يبدو بها المجتمع المسلم في شكله الفريد ومنظره الرائع : منظر الجباه التي تخشع لله ويرتفع من فوق مآذنها وفي وسط أماكنها العامة أشرف لفظ ، وأكرم نداء يحمل عزة الايمان ورفعتها فوق الشهوات والأطماع .. فوق كل ما على الأرض ويعلن على الملأ في تأكيد واصرار « الله أكبر .. الله أكبر » ..

وباقامتها على هذه الصورة تخترق أشعة الهداية حواجز الشهوات التي كبلت أهل الشرك والضلال ، فاذا بهم ينسابون أفواجا يعلنون حبهم لهذا الدين ويندفعون حاملين رايته — مخلصين لدعوته ..

وفي اقامة الصلاة برهان على صلق الايمان .. وعلى تقوى الله ..

(٥) رواه الجماعة

(٦) النسائي بإسناد حسن

(٧) الحج ٢٢/٤١

وعلی ما یتمتع به صاحبها من بره بعهدہ وقیامہ علی الحق وإخلاصہ  
 ۛ قال تعالیٰ :

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ  
 وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ  
 وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ  
 وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ  
 الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا  
 وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ  
 صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » (٨)

وقال تعالیٰ :

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ  
 خَشِعُونَ » (٩)

والتمسك بالكتاب وتحمل مسئولية الإصلاح كلها سمات بارزة  
 للمجتمع الذي يقيم الصلاة قال تعالیٰ :

« وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا  
 لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ » (١٠)

(٨) البقرة ١٧٧/٢

(٩) المؤمنون ١/٢٣ ، ٢

(١٠) الاعراف ١٧٠/٧

والفحشاء والمنكر أسوأ ما يتصف بهما فرد أو مجتمع .. ومهما ادعى أصحاب الدراسات الأخلاقية والمذاهب الاجتماعية من أن دراستهم ومذاهبهم يمكن أن تقضى على أسباب الفواحش والمنكرات وتعيد للأخلاق الكريمة بهاءها ورونقها مهما حاولوا فلن يستطيعوا الا اذا أعلنوا انضمامهم للواء المنهج الالهى .. وهذه هى الصلاة منهج متناسق لتربية الفرد والمجتمع يصل بهما الى قمة السمو الأخلاقى ، ويعمق فى حس مجتمع الاسلام وشعوره كراهته لكل الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولكافة ما تنكره الأذواق العالية والنفوس المستقيمة وما يتنافى مع التعاليم الالهية والعرف الذى استقر بناؤه على أساس من دينه وعقيدته .. يقول القرآن :

« أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ » (١١)

وكيف لا تحول الصلاة بين المؤمنين والوقوع فى أسر الشهوات والمؤمن ينتقل فى يومه من صلاة الى صلاة : تبدأ أولاها مع موكب الضوء الهادىء فى السحر وتنتهى الرحلة آخر اليوم بصلاة العشاء .. الأولى توقظه والأخيرة تسلمه الى خالقه وبين هاتين يحيا الانسان مندفعاً فى دروب الحياة ، وكلما ضل الطريق أتت احدى الفرائض فذكرته — ان كان قد نسى — وأعادت اليه الأمان والراحة وغسلت عنه ذنوبه ومساوئه فعاد تقياً طاهراً .. وواصل رحلة الحياة فى يمن وسر لا يهلع ولا يجزع اذا



حسه الضر ولا يمنع خيره وعطاءه اذا ما وسع الله عليه لأذن صلاته وثقت صلته بالله ، فأضحى بما عند الله أوثق مما في يده قال تعالى :

« إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً \* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً \*  
وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً \* إِلَّا الْمُصَلِّينَ \* الَّذِينَ هُمْ عَلَى  
صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ » (١٢)

يتعلم من صلاته كيف ينكر ذاته ويرتفع عن شهواته ويروض نفسه على تسليمها المطلق لربها ..

ومجتمع تربى على ذلك لا يدانيه أحد في أخلاقه كما لم يقاربه في شيء مما ملك من أسباب القوة الايمانية من قبل ..

يقول الاستاذ / مصطفى صادق الرافعي .. « وما الاسلام في جملته الا هذا المبدأ : مبدأ انكار الذات واسلامها طائفة على المنشط والمكروه لفروضها وواجباتها ، وكلما نكصت الى منزعها الحيواني أسلمها صاحبها الى وازعها الالهي ، وهو أبدا يروضها على هذه الحركة مادام حيا فينتزعها كل يوم من أوهام دنياها ليضعها بين يدي حقيقتها الالهية ويروضها على ذلك كل يوم وليلة خمس مرات مسماة في اللغة خمس صلوات لا يكون للاسلام اسلاما بغيرها ، فلا غزو أن كانت الصلاة بهذا المعنى كما وضعها النبي صلى الله عليه وسلم هي عماد الاسلام بين ساعات وساعات في كل مطلع شمس من حياة المسلم صلاة ، أي اسلام للنفس الى الارادة الاجتماعية الشاملة القائمة على الطاعة للغرض الالهي .. وانكار لمعانيها الذاتية الفانية التي هي مادة الشر في الأرض .. واقرارها لحظات في حيز

الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكراتها ، ومعنى ذلك كله تحقيق المسلم لوجود روحه اذا كانت أعمال الدنيا في جملتها طرقاً تشتت فيها الأرواح وتنبعث حتى تضل روح الأخ عن روح أخيه فتكرها ولا تعرفها (١٣) » .

وعلى موائد الله وضيافته يفد المؤمنون الى مساجدهم في تلك الصورة الجليلة الخاشعة : صفوفاً متراسة ينسون - وهم في موقفهم هذا - جنسياتهم وأحسابهم ومراكزهم الدنيوية .. ويجمع بينهم الرباط الواحد الذى لا يهن ولا يضعف : رباط الايمان بالله وحده - ويوحد بينهم الاتجاه الواحد .. ويقف الغنى بجانب الفقير بل ربما تقدم الفقير على الغنى في الصف والمكان لأن المكان في بيت الله لمن سبق .. فتعلم بذلك المجتمع الذى رباه الاسلام صفات جليلة رسخت في النفس فأعطتها هذه القوة وهذا الثبات : فالتواضع والاعتراف للناس بكرامتهم وحقوقهم واشعار الجميع بأنهم قد تساوا في حضرة ربهم .. الصوت الخافت المطمئن .. التسامح والرضا والحرص على مصلحة الجماعة وترابطها .. كل ذلك وأكثر من ذلك مما تخلق به المؤمنون ..

ومن هنا كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة لا تستطيع الأمة أن تصر على عدم اقامتها والا أثمت وخرجت عن طاعة الله .. ومع الصلاة اليومية صلاة الجمعة ومن اسمها نعرف انها لا تصح الا في جماعة .. وفي العام اجتماعان بل مؤتمران هامان لأهل البلدة وذلك في صلاة عيدى الفطر والأضحى، وفيهما يصل الخلق الاسلامى الى قمته : فتبدو المودة والمحبة والرحمة - والأخذ بيد الضعيف ليقوى

(١٣) اركان الاسلام الخمسة ص ٧٢ د . يحيى الدرديرى نقلا عن مقال تحت عنوان : نبى الاسلام المثل الأعلى للانسانية بقلم مصطفى صادق الرافعى جريدة الاهرام ٥ يوليو ١٩٣٣ م

والفقير البائس ليحس بالسعادة - فاذا يوم العيد بسمه على كل الشفاه وفرحة في كل القلوب » وكان اجتماع الناس خمس مرات في المسجد للصلاة له أثر كبير في رفع مستواهم الأدبي والأخلاقي .. وضلع عظيم في تشييد صرح عظمتهم ومجدهم فالصغير يقلد الكبير والعالم يرشد الجاهل والغنى يواسى الفقير والكل يسعى لمرضاة الله .. وقد قيل : ان للأخلاق تأثيرا في جميع أطوار الحياة فأخو الفضائل يرفع من حوله وأخو الرذائل يحط من فضائلهم وينتقص من أخلاقهم غير شاعر .. قال بعضهم : ان فردا صالحا محبا للخير خير من مائة بل من ألف ممن لا خلاق لهم (١٤) » .

لا عجب بعد هذا أن تكون الصلاة زادا لكل الأجيال يوصى بها الله عيسى عليه السلام :

« وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا » (١٥)

ويأمر بها اسماعيل قومه قال تعالى :

« وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ  
وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا \* وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ  
وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » (١٦)

(١٤) أركان الاسلام الخمسة وأثرها في حياة الافراد والجماعات

ص ٨٢

(١٥) مريم ٣١/١٩

(١٦) مريم ٥٤/١٩ ، ٥٥

ويوحى الله لموسى أن يأمر بها بنى اسرائيل لتكون من أسباب القوة  
التي يواجهون بها ظلم فرعون وكيده قال تعالى :

« وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا  
بِمِصْرَ بِيوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ  
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » (١٧)

وهي أيضا من الميثاق والعهد الذى أخذه الله على قوم موسى فنقضوه  
قضرت عليهم الذلة والمسكنة قال تعالى :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ  
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ  
وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ  
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ » (١٨)

وهذا ابراهيم عليه السلام يأخذ ابنه اسماعيل وزوجته هاجر لتلك  
الصحراء الموحشة فى مكة تنفيذا لأمر ربه وذلك لتقيم هذه الأسرة حول  
بيت الله المحرم شعائر الصلاة والنسك قال سبحانه :

« رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ  
عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً

مَنْ النَّاسِ تَهْوَىٰ إِلَيْهِمْ وَارْزُقُهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ  
يَشْكُرُونَ ﴿١٩﴾

•• ويتوجه الى ربه أن يجعله وذريته من الذين رفعوا منارة العبادة  
وأعلوا راية الايمان في كل مكان وزمان :

« رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ  
دُعَاءِ » ﴿١٩﴾

ويستجيب الله دعاءه فيجعل ذريته دعاة خير ومقيمي الصلاة قال تعالى :  
« وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ  
الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا  
عَبِيدِينَ » ﴿٢٠﴾

وتلك الصلاة هي التي دفعت شعبيا عليه السلام أن يواجه فساد  
قومه وضلالهم اذ قالوا ما حكى الله عنهم :

« يَشْعِبُ أَصْلَوَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا  
أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ  
الرَّشِيدُ » ﴿٢١﴾

(١٩) ابراهيم ٣٧/١٤ ، ٤٠

(٢٠) الانبياء ٧٣/٢١

(٢١) هود ٨٧/١١

وهكذا أمر بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قال تعالى :  
 « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ  
 الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » (٢٢)

.. يؤديها قدوة للمؤمنين ويأمر بها أهله قال تعالى :  
 « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ  
 رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى » (٢٣)

ويأمر بها المؤمنين كما قال له ربه :  
 « قُلْ لِّلْعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا  
 مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ  
 فِيهِ وَلَا خِلَالٌ » (٢٤)

وهكذا وردت الانسانية بأجيالها المؤمنة حياض الصلاة فسعدت  
 وارتقت .. وأصبحت الصلاة علامة الايمان بالغيب قال تعالى :

« إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا  
 الصَّلَاةَ » (٢٥)

(٢٢) الاسراء ١٢/٧٨

(٢٣) طه ٢٠/١٣٢

(٢٤) ابراهيم ١٤/٣١

(٢٥) فاطر ٣٥/١٨

والاخلاص لله قال تعالى :

« مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا  
الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ » (٢٦)

والاستجابة لنداء الله كما قال ربنا :

« وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ  
شُورَىٰ بَيْنَهُمْ » (٢٧)

كما هي دليل العلم بالله والخشية منه والتأثر بكتابه قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا  
مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ » (٢٨)

كما أصبحت زادا وقوة تمد صاحبها بالصبر عند الشدائد والشدائد  
في مجال دعوة الحق قال تعالى :

« وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ » (٢٩)

وقال :

« وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ » (٣٠)

(٢٦) البينة ٥/٩٨

(٢٧) الشورى ٣٨/٤٢

(٢٨) فاطر ٢٩/٣٥

(٢٩) الرعد ٢٢/١٣

(٣٠) الحج ٣٥/٢٢

وقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ » (٣١)

وقال :

« وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » (٣٢)

وبها يستحق الانسان أخوة المؤمنين قال تعالى :

« فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » (٣٣)

وإذا كان للصلاة تلك المنزلة فقد جعل القرآن تركها وسيلة للانحطاط الخلقي والوقوع في أسر الشهوات قال تعالى :

« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا » (٣٤) \*

كما جعل تركها دليل التكذيب بيوم الدين قال تعالى :

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ \* فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ \* وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ \* فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ \*

(٣١) البقرة ١٥٣/٢

(٣٢) البقرة ٤٥/٢

(٣٣) التوبة ١١/٩

(٣٤) مريم ٥٩/١٩



الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ \* الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ \*  
وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» (٣٥).

ولقد أدى التكذيب بيوم الدين كما ترى الى الغلظة والأناة ،  
والشح الذى تجلبى فى معاملة اليتيم .. تلك المعاملة الجافة السيئة ، وفى  
التخلى عن حث المجتمع على معاونة المحتاجين ، وفى ترك الصلاة وفى منع  
الخير عن الناس .. كذلك كان تركها سببا للخلود فى النار قال تعالى :

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ \* إِلَّا أَصْحَابَ  
الْأَيْمَنِ \* فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ \* عَنِ الْمُجْرِمِينَ \*  
مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ \* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ \* وَلَمْ  
نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ \* وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ \*  
وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ \* حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ » (٣٦).

ولعلنا ندرك بعد هذا الترغيب والترهيب فى الصلاة أن القرآن  
ما أفاض فيها وجعلها ركنا أساسيا فى دين الله الا لما تحمله من قوة التأثير  
فى مجتمع الاسلام وما تغرسه من صفات نبيلة طاهرة .. فهى المدرسة  
الربانية التى تربي فيها المسلمون فكان لهم هذا الخلق الفريد النابع من  
صلتهم الوثيقة الممتدة مع ترنيمات صلواتهم عبر الأجيال والقرون .

### ٣ - الزكاة .. وتطهيرها للنفس :

وهذه هي الزكاة التي فرضها الله : جزء من منهج القرآن في تربية المجتمع ، انها تطهير للقلوب من أمراض الشح والبخل ، ولن نذهب بعيدا لنبين كيف كانت الزكاة ومازالت من أقوى العناصر في تهذيب السلوك الانساني ، فان اسمها دليل على مايمكن أن تقدمه لوسائل التربية الالهية من خير ..

فالتزكية : هي السمو والرفعة .. سمو في النفس ورفعة عن الشهوات .. ومن أجل هذا فرضت الزكاة قال تعالى :

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » (٣٧)

يقول البيضاوي : « وتزكيهم بها : أى تنمى بها حسناتهم وترفعهم الى منازل المخلصين (٣٨) » .

والاخلاص - أسمى أخلاق النفس البشرية وهو الذى أشار العلامة البيضاوي اليه وأنه نتيجة اخراج الزكاة - وثيق الصلة بتزكية النفس التى من أجلها بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى :

« لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » (٣٩)

(٣٧) التوبة ١٠٣/٩

(٣٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ١ ص ٣٥٨ للبيضاوي

(٣٩) آل عمران ١٦٤/٣

وتلك التزكية مهمة المرسلين جميعا فهذا موسى عليه السلام يقول  
للفرعون :

« هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى » (٤٠)

وهى طريق الفلاح والفوز قال تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » (٤١)

لهذا تجب مجاهدة النفس حتى تعتدل على الطريق قال تعالى :

« وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ » (٤٢)

والمال قطعة من النفس وجزء من حياة الانسان بل هو مقدم على  
خلقات الأكباد قال تعالى :

« أَلْمَالُ وَالْيَنُوتَانِ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » (٤٣)

وقال :

« إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ

عَظِيمٌ » (٤٤)

(٤٠) النازعات ١٨/٧٩

(٤١) الشمس ٩١/٩ ٢٠

(٤٢) فاطر ١٨/٣٥

(٤٣) الكهف ١٧/٤٦

(٤٤) التغابن ٦٤/١٥

ومقدم على النفس قال تعالى :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (٤٥) .

وقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تُنَجِّيكُمْ  
مِّنْ عَذَابِ آلِيمٍ \* تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ » (٤٦) .

وقال :

« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ  
الْفَائِزُونَ » (٤٧) .

وقال :

« لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ  
وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (٤٧) .

(٤٥) الحجرات ١٥/٤٩

(٤٦) الصف ١١/٦١

(٤٧) التوبة ٨٨/٩

ولهذه المكانة التي فصلتها الآيات القرآنية لقيمة المال ومدى حب الإنسان له كان إخراج تطهيرا للنفس من هذا الحب الذي يطغى ويردى • ودليل قوة أخلاقية وعظمة نفسية استمدت عظمتها وقوتها من فهمها لوظيفة المال في الحياة ومن إيمانها العميق بتعاليم ربها الذي ساق لها الخير • قال تعالى في شأن أبي بكر الصديق رضى الله عنه :

« وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى \* الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى » (٤٨)

فهو قد أنفق ما أنفق واشترى من العبيد ما استطاع ليحررهم من رِق العبودية • فعل كل هذا ابتغاء مرضاة الله فبرهن بذلك على طهارة نفسه وعلو همته وما رسخ في أعماقه من أخلاق طاهرة تجردت من كل غرض دنيوى ولم يبق لها مطلب سوى الله •

والقرآن حين يربى المجتمع على هذا التجرد من حب المال يرسم خطة محكمة تحاصر النفس من كل جوانبها فاذا بها سخية لينة كريمة معطية • تدفع وتبذل بكل ما تستطيع في السر والعلن لا تخشى من ذى العرش اقلا •

• وأول هذه الخطة هو بيان مصدر المال • من أين جاء للإنسان؟ والمشاهدة خير دليل ، يقتنع • لأنها الواقع الملموس : هذه البذرة التي توضع في الأرض وتسقى بماء السماء • من الذى أنبتها وتعهدها بالعناية والرعاية حتى استوت على سوقها وآت أكلها ؟ ومن الذى أنزل لها المياه فكانت الأنهار ؟ انه الاله القادر وراء كل هذا • يصرفه ويدبره قال تعالى :

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ \* ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ  
الزَّارِعُونَ \* لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ \*  
إِنَّا لَمَغْرُمُونَ \* بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ \* أَفَرَأَيْتُمْ أَلْمَاءَ  
الَّذِي تَشْرَبُونَ \* ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ  
الْمُنْزِلُونَ \* لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » (٤٩)

وهذه السماء : من الذى رفعها بغير عمد ومن الذى زينها  
بالكواكب .. ؟ والأرض : من الذى خلقها وأودع فيها كنوزها .. هل  
هو الانسان ؟؟ لا .. انما هو الله وحده قال تعالى :

« أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا  
وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ \* وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا  
فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ \* تَبْصِرَةً  
وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ \* وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا  
فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ \* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا  
طَلْعٌ نَضِيدٌ \* رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مِثْلًا كَذَلِكَ  
الْخُرُوجُ » (٥٠)

(٤٩) الواقعة ٥٦/٦٣-٧٠ .

(٥٠) ق. ٥٠/١١-

وقال سبحانه :

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَآلَقَا فِي الْأَرْضِ رُوسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ \* هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » (٥١)

والانسان : من الذى خلقه وسواه ؟ انه الله رب العالمين ، قال تعالى :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ \* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ \* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا \* ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » (٥٢)

واذن فالانسان وما حوله ومن حوله ملك لله وحده قال تعالى :

« لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* »

(٥١) لقمان ٣١/ ١٠ - ١١

(٥٢) المؤمنون ٢٣/ ١٢ - ١٤ (يراجع دلائل التوحيد فى الباب الاول)

والله به عليم :

قال تعالى :

« هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ »

فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .. وكيف تخفى عليه وهو الذي خلقها بقدرته وحركها بمشيئته ?? قال تعالى :

« هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »

نعم هذا الملك اليه وحده فاليه يرجع الأمر وحده قال تعالى :

« لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ »

انه قدير وعليم :

« يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » (٥٣)

وبعد هذا البيان الرائع الذي كشف عن وجه الحقيقة ورد الأمر والقدرة والعلم كله لرب العزة جل جلاله تأتني وظيفة الانسان وصلته بهذه المخلوقات .. فيبين لنا منهج القرآن أن هذه الكائنات مسخرة بأمر الله لنا قال تعالى :



« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ  
مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلُكَ  
لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ \* وَسَخَّرَ  
لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ \*  
وَأَتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَآسَاءٍ لَتَمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا  
إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » (٥٤)

وقال :

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي  
الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً » (٥٥)

وقال :

« وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ  
فَاذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا  
فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْأَنْعَامَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ  
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ \* لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ

يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ  
عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ <sup>(٥٦)</sup>

وقال سبحانه :

« اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ  
بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ \* وَسَخَّرَ لَكُمْ  
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ  
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ <sup>(٥٧)</sup> »

هذا الكون كله هبة من الله للإنسان .. ألا ما أجل هذا التكريم  
وهذا العطاء ..

الانسان هذا المخلوق الضعيف يختاره ربه ليكون خليفة في الأرض??  
انه تكليف شاق وأمانة ضخمة ومسئولية خطيرة يتحملها الانسان ولا بد  
من الأداء .. قال تعالى :

« إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ  
فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ  
كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا <sup>(٥٨)</sup> »

(٥٦) الحج ٢٢/٣٦ ، ٣٧

(٥٧) الباقية ٤٥/١٢ ، ١٣

(٥٨) الاحزاب ٣٣/٧٢

ووظيفته .. وظيفة الخليفة كما عبر القرآن .. ومع أنه .. خليفة ..  
 فهو مثاب على حسن استخلافه وأمانته .. فضلا من الله وكرما ..  
 ونعود الى المال .. فنراه جزءا من هذه القضية .. نعم هو نتيجة  
 كسب العبد وعمله ولكنه ملك لله : يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء -  
 ليس للذكاء أو الغباء أو القوة أو الضعف دخل في ذلك قال تعالى :  
 « اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ  
 الْعَزِيزُ » (٥٩)

وقال :

« لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ  
 يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٥٩)  
 وقال :

« أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ  
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٦٠)

وهكذا يثق الانسان في فضل الله وعطائه ويؤدى حق الله فيما بين  
 يديه .. فهو لا يدفع تفضلا وانما يعطى حقا لأصحابه :  
 قال تعالى :

« وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » (٦١)

(٥٩) الشورى ٤٢ / ١٩ ، ١٢

(٦٠) الروم ٣٧ / ٣٠

(٦١) الذاريات ١٩ / ٥١

.. يعطى وهو يؤمن بهذه المبادئ السامية وتحوطه الأخلاق العالية  
دون من علم الآخذ أو أذى له ، قال تعالى :

« قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى  
وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ  
بِالْمَنِّ وَالْأَذَى » (٦٢)

.. وعندما يصل القرآن الى تلك الدرجة في تثبيت هذه المعاني  
يوجه البشرية ويأمرها أن تثوب للايمان وتنق مما أفاض الله عليها :

« ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ  
فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » (٦٣)

فهو اتفاق من مال الله في سبيل الله .. وما أجمله من منهج ..  
ما استطاعت ولن تستطيع مناهج البشر أن تصل الى ما وصل اليه ..  
لأنه تربية الاله العظيم لمن خلقهم .. وهل بعد أن يحاصر النفس البشرية  
ويودع فيها دعائم الايمان بالله وحده ويعرفها أن الكون كله ملك له ..  
ثم يكرم الانسان هذا التكريم ويناديه هذا النداء ويرفعه الى درجة  
المقرض لله والمعطى لربه فيقول :

« مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ  
وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » (٦٤)

(٦٢) البقرة ٢/٢٦٢ ، ٢٦٣

(٦٣) الحديد ٥٧/٧

(٦٤) الحديد ٥٧/١١

•• هل بعد هذا منهج يمكن أن يقوم سلوك الانسان فيعتدل به الى وجهة الحق والخير فاذا المنفق في سبيل الله كريم النفس سخي اليد رحيم القلب مطمئن البال •• واثقا أن اعطاه الله •• والله الذي أعطى من قبل وسوف يزيده في العطاء من بعد ••

•• ومن هنا ندرك كيف كانت الزكاة وسيلة من وسائل تطهير النفس •• وطهارة النفس وتركيتها أعلى خلق يمكن أن تتخلق به الانسانية •• وما أحوجها الى مثل هذه الطهارة وتلك التزكية فذلك وحده سبيل سعادتها واتقادها من وهدة الشقاء والحيرة والضلال ••

#### ٤ - الصوم : منهج أخلاقي :

تمر الأيام وتتوالى الشهور وفي كل يوم يرحل المجتمع المسلم بكل أفرادهِ - الى ربه خمس مرات في لحظات تشرق بالدعاء والضراعة ، وتنطهر باللقاء الذي لا يحجبه شيء ، فترتفع الأرواح الى الآفاق محلقة في معارج الأخلاق السامية ، والصفات النبيلة •• ومع تكرار هذه الرحلات تتحول الى عادة - ربما - يرحل فيها المسلم الى بارئه فلا يحس لذة الرحلة وسعادة اللقاء ••

ويأتى شهر عظيم من بين أشهر العام يستوقف الركب السائر ليزوده بالعطاء ويشعره بلذة الأنس والقرب من الله - انه شهر رمضان : الواحة التي يفد اليها المؤمنون فيرون فيها خضرة الايمان ، ونماء المعرفة وأنهار التقى والطهر ، وأشجار المحبة والاخاء فيفيضون الى الظلال الوارفة ، ويستنشقون عطر الرضا والسكينة ويعودون الى ركب الحياة المضطرب يصلحون اعوجاجه ، ويقومون اضطرابه ويتولون هم قيادته ، فيعيدون له الاستقرار ، ويذهبون عنه الخوف والقلق ••

وحق للسماء أن تحتفل بهذا الشهر، ولالأرض أن تتزين من أجله ،  
وللاله العظيم أن يجعل منه عيداً يمتد مع أيام شهر رمضان ولياليه : فانه  
ذكرى الخلوة المحمدية والتحنث في غار حراء ، والبحث عن الحقيقة أيام  
أن كانت مفاصد الجاهلية تضغط على أعصاب محمد بن عبد الله فلا يجد  
لذلك حلاً الا أن يتعد عن مكة وأهلها هناك في قمة الجبل يعوص فسى  
أعماق الوجود عله يهتدى الى الحق الضائع فيطمئن اليه القلب وتركن  
اليه النفس .. وفي لحظة من هذا الشهر انطلقت الشرارة الأولى لثورة  
الحق على الباطل ونزل المدد الالهى لينقذ الانسانية الحائرة والقافلة  
الضالة .. واختارت السماء محمدا العابد المتبتل في مغارة بالصحراء  
ليحمل المشعل وليكون السراج المنير .. قال تعالى :

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً \*

وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً » (٦٥)

واذا كانت الأمم تحتفل بأعياد انتصاراتها على الظلم والطغيان  
وتجعل من يوم ثوراتها فرصة لشرح مبادئها وتربية أبنائها فان شهر  
رمضان أحق بذلك : لأنه ثورة الحرية على العبودية، والتقدم على التخلف،  
والتوحيد على الشرك ، والرفعة على الضعة ، والقوة على الصغار والهوان،  
والهدى على الضلال ..

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ

وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ » (٦٦)

ولا عجب بعد هذا أن يكون شهر القرآن فرصة يتربى فيها المؤمن على أخلاق القرآن ويعمق فيها المنهج القرآنى رسالة الإصلاح الانسانى فى أغوار النفس ، وخلايا المجتمع ، فيأتى ختام الشهر اعلانا لهذه المبادئ وتلك القيم ويصبح فجر أول يوم من شوال عيداً تبدو فيه نعمة الاسلام والايمان ، وتعبق الحياة بأريج الاخاء ، والمودة ، وصلة الرحم وبر الوالدين ، والعطف على البائسين .. وتنعم الدنيا بما صنعه هذا الشهر فى مجتمع الاسلام حيث تعلم المسلمون فى مدرسة الايمان أسمى ما يطلبه الانسان سمواً فى الفكرة ، ونقاء فى السيرة ، وطهراً فى السلوك، ورفعة فى المعاملة ، ونزاهة فى القول والعمل ..

وهذه الأخلاق التى نبتت فى حقل الايمان هطلت عليها قطرات الغيث القرآنى من سماء الأفق الالهى فامتدت جذورها وبسقت أغصانها وآتت أكلها كل حين باذن ربها ..

هذه أول ليلة من رمضان - وفيها المجتمع المسلم ، مازال على عاداته يأكل ويشرب ويستمتع دون قيود أو حدود حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر - دخل فى تجربة مع نفسه يروضها على الطاعة ويعودها على حسن الخلق ويصب عليها من بحر المراقبة الدائمة لحظات يومه وساعاته .. فهو مع صخب الحياة وعجيجها .. وفى سكون بيته ومع أهله .. وفى خفقة قلبه أمام شهوة عارضة وممتعة زائلة يذكر أنه صائم ..

فلا يصح له أن يخون نفسه ويخون مبادئه لأنه مراقب : عين الله اليه ناظرة ، ويده له محركة ، ومن هنا يتعلم كيف يعيش للاله الحق : يخاف عقابه ويرجو رحمته .. وما تزال أيام رمضان تنهال على المسلم يجرب نفسه : هل تقوى ربها ؟ هل تعقل عنه ؟ وفى كل يوم يشتد أثره وتقوى

صلته ، وتتوثق بين العبد وخالقه عرى الاخلاص ويحقق منهج القرآن  
أسمى خلق فرض من أجله الصيام ونودى له المؤمنون ..

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ  
عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (٦٧)

يقول الشيخ شلتوت رحمه الله « وليست التقوى هو ذلكم اللون  
الشاحب ، أو الصوت الخافت أو الرقبة المنحنية ولا هى المهمة بكلمات  
تعرف التسبيح والتهليل ولا الهدمة بآيات تقرأ وتلى وانما التقوى ذات  
عنصر سلبي يمنع من فعل الشر للنفس وللغير .. ولهذه التقوى التى لا  
يعرف القرآن سواها فرض الله الصوم وجعله مددا للإيمان ، وبها كان  
الصوم عنصرا قويا من عناصر تكوين المجتمع فى نظر الاسلام  
ومنهجه (٦٨) » ..

وهذه أمم الأرض والشهوات قد سرت فى أوصالها سريان النار فى  
الهشيم ، ولم تستطع بكل ما تملك من فلسفات ومنظمات أن تعيد للمجتمع  
الانسانى ما يجب ان يتصف به من الأخلاق الفاضلة .. وتطلع فلاسفة  
العالم فرأوا أن تهذيب النفس ورياضتها هو الطريق الحقيقى لتحقيق هذا  
الأمّل .. يقول صمويل سميلز « لو قام بيننا مستبد طاغية يسلبنا أموالنا  
ويأمرنا بتعاطى مادة تحط من قدرنا وتنتزع صفات الانسانية من نفوسنا  
حتى نصير أشبه بالبهائم ثم يقضى على راحة بيوتنا ويذر فينا بذور  
المرض والموت العاجل لأصبحنا وكلنا - جماعات ساخطة تعقد ..  
ومظاهرات ضخمة تنظم وخطباء موفوهون للحرية ينتصرون .. وللخلاص  
مما ألم بهم من الظلم يطلبون .. مع أن هذا الحاكم المستبد مقيم بيننا  
لا تقوى عليه الجنود ، ولا تسقط جبروته الأصوات ، ونحن بالاذعان

(٦٧) البقرة ١٨٣/٢

(٦٨) منهج القرآن فى بناء المجتمع للشيخ محمود شلتوت ص ١٣٢



لسلطانه والنزول على حكمه راضون ، ذلك هو : سلطان الشهوات .. ألا لا سبيل الى انزال هذا الطاغية عن عرش جبروته الا بالوسائل الأدبية أى تهذيب النفس ورياضتها ومراعاة حرمتها وضبطها .. وكل وسيلة غير هذه للخلاص من استبداد الشهوات عديمة الجدوى وليس تهذيب القوانين ، ولا تحسين طرق الانتخاب ، ولا اصلاح الحكومات ، ولا التعليم المدرسى ، براعة من أخلاق قوم ينهمكون فى الملاهى بمحض رغبتهم .. والانهماك فى الملاهى غير الشريفة يدعو لا محالة الى نقص السعادة الحققة لأنه يقضى على الآداب - ويضعف الهمم ، ويذهب برجولة الأفراد وصحتهم ، وسلامة الأمم وعظمتها (٦٩) » ..

وأمل هذا الفيلسوف وأمل الانسانية جمعاء تحقيقه فريضة الصوم احدى شعائر الاسلام وتتمكن فى يسر من صناعة هذا الانسان السوى فى سلوكه وفكره وقوله وفعله وتقدمه للبشرية نقيا طاهرا فيصبح احدى لبنات البناء الاجتماعى الذى يكون مجتمع الايمان والاسلام .. يقول الشيخ محمد عبده : « الصوم يعد نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى ، ويظهر ذلك من وجوه كثيرة أعظمها شأنًا وأنصعها برهانًا وأعظمها أثرا وأعلها خطرا انه أمر موكل الى نفس الصائم لا رقيب عليه فيه الا الله تعالى ، وسر بين العبد وربّه لا يشرف عليه أحد غيره سبحانه ، فاذا ترك الانسان شهواته ولذاته التى تعرض له فى عامة الأوقات لمجرد الامتنال لأمر ربه والخضوع لارشاد دينه مدة شهر كامل فى السنة ملاحظا عند عروض كل رغبة له من أكل نفيس وشراب عذب وفاكهة يانعة وغير ذلك أنه لو لا اطلاع الله تعالى عليه ومراقبته له لما صبر عن تناولها وهو فى أشد التوق لها لا جرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ملكة المراقبة لله والحياء منه سبحانه وتعالى أن يراه حيث نهاه .. وفى

هذه المراقبة من كمال الايمان بالله تعالى والاستغراق في تعظيمه وتقديسه، أكبر معد للنفوس ومؤهل لها لسعادة الآخرة وكما تؤهل هذه المراقبة النفوس المتحلية بها لسعادة الآخرة تؤهلها لسعادة الدنيا أيضا .. انظر هل يقدم من تلبس هذه المراقبة قلبه على غش الناس ومخادعتهم ؟ هل يسهل عليه أن يراه الله آكلًا لأموالهم بالباطل ؟ هل يحتال على الله تعالى في منع الزكاة وهدم هذا الركن الركين من أركان دينه ؟ هل يحتال على أكل الربا ؟ كلا .. ان صاحب هذه المراقبة لا يسترسل في المعاصي اذ لا يطول أمد غفلته عن الله تعالى واذا نسى وألم بشيء منها يكون سريع التذكر قريب الفىء والرجوع بالتوبة الصحيحة . قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » (٧٠)

#### ٥ - الحج .. والتربية الاخلاقية :

الصلاة والزكاة والصيام تلك فرائض الاسلام وشعائره التي جعلها الله أشعة هدى .. ومناهج تقويم وتهذيب .. ووسائل تدريب عملى على حسن الصلة بين الانسان وخالقه وبين الانسان وأخيه الانسان ..

وهذه فريضة الحج جماع ذلك كله : فيها الرجوع بالصلاة الى حقيقتها الطاهرة النقية والى مكانها الذى نبت فيه وانبثقت من جواره .. حيث القوم الذين رفعوا منارتها للعالمين :

« رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » (٧١)

(٧٠) الاعراف ٢٠١/٧ - اركان الاسلام الخمسة واثرها في حياة الافراد والجماعات ص ١١٦  
(٧١) ابراهيم ٣٧/١٤

وفي الحج تعويد على البذل والسخاء بما يقدمه الحاج من هدى.  
لفقراء البيت وما ينفقه من ماله في سبيل الله .. وفيه الصيام ..

قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ  
وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ  
يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدِيًّا بِبَلِيغِ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ  
طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ » (٧٢)

وقال :

« وَاتَّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ  
مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ  
فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن  
صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ  
إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ  
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ  
ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » (٧٣)

(٧٢) المائدة ٩٥/٥

(٧٣) البقرة ١٩٦/٢

واذن فنحن أمام فريضة جمعت مبادئ التربية كلها وهى كفيلة بما  
تحملة من معانى الخير والطهر أن تعيد للانسان انسانته فيعود الى دياره  
كما خلقه الله ، نقاء فى الفطرة واشراقا فى السريرة ، واخلاصا يملأ عليه حياته  
ويدفعه الى بذل نفسه وماله فى سبيل اسعاد أمتها وخواصه .. قال صلى  
الله عليه وسلم : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه (٧٤) »

وهذه أول خطوات الطريق تبين ما يصنعه « الحج » فى المجتمعات:  
فلا استعداد للسفر .. ومفارقة المال والولد والأهل ، وتحمل المشاق ..  
ذلك كله .. انما يحركه ايمان بالله الذى أمر وثقة فى فضله الذى لا  
يتخلف .. وليس بعد الايمان بالله والاعتقاد فى الدار الآخرة مشير لفعل  
الخير والابتعاد عن الشر والتمسك بالأخلاق الكريمة ..

وفى السفر : تذكير للانسان أنه لابد مرتحل من دار الى دار لا بد  
أن يتزود لرحلته الطويلة بأكرم زاد يصل بصاحبه الى نهاية السفر حيث  
يلتقى مع خالقه ..

قال تعالى :

« الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا  
رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ  
يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي  
الْأَلْبَابِ » (٧٥)

(٧٤) متفق عليه

(٧٥) سورة البقرة ١٩٧/٢

ومفارقة المال والتضحية والانفاق منه في سبيل الله تحرير للانسان من عبادة المال وفي ذلك أمان للنفس وللبشر فان حب المال يطمس بصيرة الانسان فلا يرى الخير أبداً ويحيا معذب القلب شارد الفكر • فلا يشبع من مال مهما بلغ •• فاذا ما تحرر من الارتباط بهذا المال شعر بالسعادة تملأ حياته ، والاستقرار يحيط به •• وما تنافست الأمم ، وقامت بينها المعارك الدامية وما اعتدى الأقوياء على الضعفاء ، الا من أجل المال وجمعه والاستئثار به •• ويوم ان ترتفع المجتمعات بحسها فلا تكون مستعبدة للمال فتجعله وسيلة لا غاية •• وسيلة لتحقيق السعادة للمحرومين والبائسين في أنحاء الأرض فان السلام الذي تحاوله سوف تجده بين يديها •• وهذا مجتمع الاسلام الأول الذي رفع لواء الحرية والعدالة وجعل من المال سنداً لحماية الحق استطاع أن يعطى العالم اطمئنانه وراحته وأن يسكب في نفس الحائرين من بحار الرضا كئوساً مترعة عادوا بعدها اخوة أجباباً ، وأنصاراً لدين الحق وأمثلة للانسان الذي صنعه منهج القرآن ••

ومفارقة الأهل والولد والعشيرة جهاد للنفس ورياضة لها تتعلم بها كيف تمضي في سبيل ربها •• قال تعالى :

« قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » (٧٦)

وها هو ذا المسلم قد خرج في شهر حرام الى بلد حرام وعند ميقاته خلع ملابسه ولبس ملابس الاحرام وتساوى في مظهره مع اخوانه .. فحسب بالوحدة الجامعة ، وتحرر من آثار المظاهر الكاذبة والتفاخر الممقوت .. وهذا الشعور بالزمان والمكان واللباس وأنه كله يحرم فيه الاعتداء والظلم والتنافس على أعراض الحياة والاقتراب من الشهوات تربية لم يصل اليها منهج بشرى على الاطلاق ..

«ومنهج التربية بتحريم الزمان والمكان شرع الهى قديم أقره الاسلام وربط بين المؤمنين الأولين والمؤمنين الآخرين وهو في واقعه لأهل العصر الواحد فرصة تهيب لهم - لو آمنوا به ونزلوا على مقتضاه واتبعوا شرع الله فيه - حسن التفاهم والعمل على قطع أسباب الخلاف والتخاصم ، وعلى اقرار الأمن والسلام هو بمثابة هدنة الهية يتدبر الناس فيها شئونهم فيعرفون مهمتهم في الحياة من حسن التعمير واسعاد البشرية على أسس من المحبة والتعاون وبذلك يكفون عن العدوان وعن الجشع المثير للحروب، القاضى على الهناء والاطمئنان ، المفسد لخلافة الانسان في الأرض» (٧٧) ..

وما ان يبدو شعاع مكة ويقترّب وفد الحجيج من بيت الله الحرام حتى تشور الأشجان وتهطل العبرات وتفوح رائحة الذكرى العطّرة ويتلاشى الزمان والمكان .. وتصفو الروح وتشف فترى رسولها أمامها ومعه رهطه الطيب واصحابه الأبرار .. هنا صلى ، وهنا أودى ، وهنا دعا الى ربه، ومن هنا هاجر، والى هنا جاء فاتحا مطهرا للبيت من دنس الشرك وأقذار الجاهلية .. وترى ابراهيم وابتلاء الله له بترك ولده اسماعيل في هذا المكان الموحش القفر واختبار الله له بذبح ولده ..

كما قال :

« يَبْنِيْ اِنِّىْ اَرَىْ فِي الْمَنَامِ اَنِّىْ اَذْبَحُكَ فَانْظُرْ  
مَاذَا تَرَىْ قَالَ يَسَابَتِ اَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيْ اِنْ شَاءَ اللّٰهُ  
مِنْ الصّٰبِرِيْنَ » (٧٨)

وتلمحه وهو يرفع القواعد من البيت مع هذا الابن المبارك وما زال  
تداوئهما يتجاوب صدها في أرجاء الأرض وهما يتقربان بهذا العمل العظيم  
الى الله ويرفغان أول بيت وضع للناس ..

قال تعالى :

« وَاِذْ يَرْفَعُ اِبْرٰهِيْمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَاِسْمٰعِيْلُ  
رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا اِنَّكَ اَنْتَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ \* رَبَّنَا وَاَجْعَلْنَا  
مُسْلِمِيْنَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا اُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَاَرِنَا مَنَاسِكَنَا  
وَتُبْ عَلَيْنَا اِنَّكَ اَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ \* رَبَّنَا وَاَبْعَثْ  
فِيْهِمْ رَسُوْلًا مِنْهُمْ يَتْلُوْا عَلَيْهِمْ ءَايٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰبَ  
وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ اِنَّكَ اَنْتَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ » (٧٩)

وفي غير تلك الذكريات التي لا يتسع المقام لعرضها .. ومع الجو  
الذى ملأه الطهر في الظاهر والباطن فشعر فيه الطير والشجر بالأمن

والسلام فضلا عن الانسان .. في هذا المقام العظيم يتربى مجتمع الاسلام . يطوف ويسعى ويقف بعرفات وينحر الهدى ويرمى الجمرات .. وفي كل همسة ولمسة ومع كل خفقة قلب يشد بكلتي يديه على حبل الله المتين ويتعلم كيف يصنع الخير عن حب وايمان ..

« ان ذهاب عشرات الآلاف من مسلمي العالم على اختلاف بلادهم وأجناسهم وألوانهم ولغاتهم الى مكة لأداء فريضة الحج له أثر بالغ في تربية النفس وذلك باحتمال مشقة السفر ووعث الطريق في سبيل تحقيق المبدأ وهو رياضة الوجدان على طاعة الرحمن .. اجتماع الألوف المؤلفة من مختلف الأجناس البشرية الاسلامية من بقاع الكرة الأرضية بين فقير مقل وغنى كبير الثراء .. الأبيض والأسود والأصفر والأسمر وعالم جاهل وأمير ورفيع وصغير ووضع في صعيد واحد ولباس واحد في وقت واحد تنفيذا لأمر الله الواحد وطلبا لغفرانه ومرضاته من أكبر الأسباب في تحقيق المساواة (٨٠) » ..

وانه للقاء مبارك في جوار بيت مبارك :

قال تعالى :

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ \* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » (٨١)

(٨٠) أركان الاسلام الخمسة وأثرها في حياة الأفراد والجماعات للدكتور / يحيى أحمد الدرديري ص ٣  
(٨١) آل عمران ٩٦/٣ ، ٩٧ .



تجتمع فيه عناصر القوة والرحمة وتبدو فيه حقيقة الاسلام جليلة واضحة ويرى المؤمنون قيمة « المنافع » التى ندبهم الله لشهودها من يوم أن أمر الله ابراهيم عليه السلام فقال :

« وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ \* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ » (٨٢)

يقول الشيخ شلتوت تعليقا على هذه الآية « واذا عرفنا أن كلمة « منافع لهم » لا تعنى فى هذا المقام خصوص المنافع الروحية التى يحققها أداء الأفراد لمناسكهم وانما تعنى كل ما ينفع المسلمين أفراد وجماعات .. روحيا وماديا .. ومعنويا وأخرويا عرفنا الأثر العظيم الذى يجب أن يحصل عليه المسلمون فى بناء مجتمعهم من عبادة الحج ولا ريب أن أول ما ينفعهم باعتبارهم أمة واحدة ذات عقيدة واحدة وتشريع واحد وكيان واحد هو ما يحقق لهم عمليا وحدتهم ويسمو بمجتمعهم ويجعله فى مكانة تعلو به عن مواقع الأطماع ومساقط التيارات التى تمزق كتلتهم وتمكن الأعداء منهم (٨٣) » ..

هذه أمة الاسلام التى صنعها القرآن بليت فى هذا المظهر المهيّب الخاشع : نداؤها واحد .. لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك .. هاهى ذا تنتقل بين ربوع تلك البقاع الطاهرة مؤدية شعائر الحج حتى انصهر أفرادها فى بوتقة الايمان وأعيد تشكيلهم من جديد قشعر كل مسلم أنه فرد فى أمة يدعو بدعائها ويفرح لفرحها ويتألم لألمها .. يوقر الكبير ، ويرحم الصغير

(٨٢) الحج ٢٢/٢٧ - ٢٨

(٨٣) منهج القرآن فى بناء المجتمع للشيخ شلتوت ص ١٣٠ .

ويعطف على المسكين ، ويواسى المحروم ، ويساعد الضعيف ، ويتخلق بأخلاق الله .. وليس بعد التخلق بالأخلاق الربانية منزلة تسعد بها البشرية مثل هذه المنزلة ..

وهكذا يتعلم المسلم : كيف تكون وحدانية الله وكيف تؤدي الصلاة وكيف يطبق الاسلام : عقيدة وشريعة .. علما وعملا حتى اذا مرجع الى دياره عاد داعيا الى دين الله فاقها لأحكامه ..

فهل يستطيع منهج بشرى أن يصنع أمة كتلك الأمة التي لبث نداء الله ووقفت بعرفات وعظمت شعائر الله .. قال تعالى :

« وَمَنْ يُعِظَّمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ » (٨٤)

وهل تتمكن أى فلسفة أن تغرس هذه الأخلاق العالية فى نفوس البشر كما تغرسها فريضة الحج ؟ ألا ان الحق واضح لا لبس فيه ولا عوج ولكن أكثر الناس لا يعلمون ..

## ٦ - العبادات : هدف .. ووسيلة :

فى محراب الكون يقف المؤمن خاشعا مرتلا آيات التقديس والالجلال يرى ربه مع النسمات العذبة .. والشمس المشرقة والقمر المضى .. ومع ركب البشر المتحرك .. وفى الأرض المبسوطة والسماء المرفوعة - وفى قطرات الماء ورائحة الأزهار واختلاف الثمار وتقلب الليل والنهار .. يرى ربه مع الأنفاس التى تتردد والقلب الذى يخفق والعين التى تبصر .. يحس به فى كل شئ ومع كل شئ .. وليس بعد هذا الخشوع عبادة .. فانها الرباط الوثيق الذى يشد ألوتار القلب - دائما - الى الله ويعرف

الانسان أن الحياة لا تقاس ببطن مملوء ، وأموال تملأ الخزائن ، وأجسام عراض وألسنه حداد .. وانما قيمتها في أشواق الروح وانفعالاتها بمظاهر هذا الوجود ، والوصول من ذلك الى الاحساس بخالق هذا كله وما يمكن أن يتصف به من صفات الكمال ..

ومن هنا يصبح البشر عبيدا لله : تخضع قلوبهم وتلين جلودهم أمام عظمة بارئهم وخالقهم فيتحقق الغرض الأسمى من وجودهم على ظهر هذه الأرض ..

قال تعالى :

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ \* مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا \* إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » (٨٥) .

وهذا المعنى العظيم للعبودية الذي جاء به المنهج القرآني فربى به أعظم أمة وصنع به خير الرجال - وحتى يحدث الامتزاج الكامل بين داخل الانسان وخارجه بين الجبل الذي يربطه بالله والجبل الذي يربطه بالناس - جعل الله للانسان « محطات » يلتقى فيها رحاله ويصلح نفسه ويراجع حسابه ليبدأ الرحلة من جديد . وهكذا الى أن يصل الى آخر الرحلة هناك عند ربه في مقعد صدق عند مليك مقتدر ..

وتلك « المحطات » هي ما عرف في الاسلام بالعبادات لصلتها الوثيقة الخالصة بالله مما جعل جانب المعاملة فيها بالنسبة للخلائق غير ملحوظ .. وكانت المعاملات هي الجانب الذي يقابل العبادات .. وبين

العبادات والمعاملات تكون الأخلاق هي الروح المعبرة والنور الذى يكسب الحياة جمالها وروبقها وهى التجسيد الحى للشحنة الالهية التى امتلأ بها حس المؤمن ووجدانه فخرج الى مجال الواقع العملى للحياة فكان هذا الانسان الذى تخلق بأخلاق الله ..

والعبادات والمعاملات وما بينهما من أخلاق كلها عبادة لأنها تنفيذ للارادة الالهية وتحقيق للغرض الذى خلق من أجله آدم وبنوه .. وكلها بذلك معاملة : لأن المعاملة هى محك الاختبار لما استفاده المرء من مناهج التربية السماوية .. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أيما رجل تدين دينا وهو مجمع ألا يوفيه اياه لقي الله سارقا<sup>(٨٦)</sup> » وقال : « أيما رجل تزوج امرأة ينوى ألا يعطيها من صداقها شيئا مات يوم يموت وهو زان • وأى رجل اشترى من رجل يبع ينوى ألا يعطيه من ثمنه شيئا مات يوم يموت وهو خائن .. والخائن فى النار<sup>(٨٧)</sup> » ..

ولقد مر بنا ما فى شعائر العبادة من قوة تستطيع أن تنقل الانسان الى المستوى الرفيع وأن تخطو به الى عالم المثل والقيم العالية مما يفوق ما تصوره أصحاب المدن الفاضلة والمذاهب الأخلاقية لأن الذى وضع خطة تلك التربية هو الاله الحكيم العليم بالنفوس وخباياها وكيف تساس وتستغل سجايها فترتفع الى أقصى طاقتها الربانية ، وتحرر من طينها وغفوتها وخبثها وأرضها وتحلق مدفوعة بالنفحة الالهية التى أودعها الله فيها الى العظمة الانسانية والأخلاق الفاضلة العالية .. فالصلاة والزكاة والصيام والحج « مدد للإيمان بالله تغذيه وتنميه وسبيل قوى تنفذ منه أشعة الهدى والنور الى قلب المؤمن فيريه الخير خيرا فيعمله لنفسه ولغيره

(٨٦) رواه ابن ماجه والبيهقى .

(٨٧) رواه الطبرانى فى الكبير .

وتريه الشر شرا فيعصم منه نفسه وغيره وبهذا يكون مصدر خير وتقع  
لا شر فيه ولا ضرر (٨٨) ..

وهذه الشعائر وان كانت مددا للايمان فانها هدف مقصود لا يمكن  
الاستغناء عنه لأنها امتثال لأمر الله .. قال تعالى :

« أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ » (٨٩)

وقال تعالى :

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا  
لِلَّهِ قَنِينًا » (٩٠)

وقال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا  
كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » \*

وقال :

« فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » (٩١)

(٨٨) منهج القرآن في بناء المجتمع للشيخ شلتوت ص ١٢٩ .

(٨٩) الاسراء ١٧/٧٨ .

(٩٠) البقرة ٢/٢٣٨ .

(٩١) البقرة ٢/١٨٣ ، ١٨٥ .

وقال تعالى :

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ  
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٩٢﴾

وقال :

« وَرَبِّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » (٩٣)

وهي هدف مقصود وفي نفس الوقت خطة محكمة ودواء ناجع  
لأمراض المجتمعات وفساد القلوب وخبث النفوس .. وهذا كتاب الله  
ينطق بما فيها من أسرار وما لها من حكم بالغات : فالصلاة تشد الانسان  
— أبداً — الى ربه فلا يقترب من فاحشة ولا يقترب منكرا ..

قال تعالى :

« أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ  
الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ  
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ » (٩٤)

والصيام منهج أخلاقي يعلم التقوى .. والزكاة تزكية للنفس وتطهير  
لها من الشح والبخل .. قال تعالى :

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ  
عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » (٩٥)

(٩٢) النور ٥٦/٢٤ .

(٩٣) آل عمران ٩٧/١٣ .

(٩٤) العنكبوت ٤٥/٢٩ .

(٩٥) التوبة ١٠٣/٩ .

وقال تعالى :

« وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ \* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ » (٩٦)

لكن قد يبدو بعض الناس في زى الرهبان الصالحين والأتقياء العارفين ومع هذا المظهر فهم لم يؤدوا في حياتهم فريضة من فرائض الله ، أو شعيرة من شعائر العبادة بل وربما خرجوا من جملة المسلمين فكافوا من المنكرين للاله أو المشركين به .. وربما انخدع بعض المتحذلقين بذلك فادعوا ان الهدف الذى سعى اليه القرآن من دعوته لالتزام ما افترض الله من عبادات قد تحقق .. وتحقق من أقرب طريق دون جهد يبذل في صلاة أو صيام ودون انفاق من مال في زكاة أو حج .. فلنترك هذه العبادات ولنهجر تعاليم الله ولننزع تعاليم السماء من حياة الناس فان الغرض الذى سعت اليه قد أصبح واقعا ملموسا ..

وهذه دعوى باطلة وفهم خاطيء سقيم . فان العبادات التى شرعها الله اذا أدت على وجهها الصحيح كما أراد الله لها أن تكون وجهت صاحبها وارتقت به الى منازل الخلق المحمود .. والخلق الذى ينبع منها يختلف عن غيره من الأخلاق المدعاة : لأن طهارة المنبع ونورانية الأصل تجعل لأخلاق الاسلام عمقها وتأثيرها فى الحياة .. وأخلاق تقوم على الايمان بالله والثقة فى فضله لا تدانيها أخلاق زائفة مقصدها المنفعة الخاصة فاذا لم تتحقق تلك المنفعة انقلب هذا الانسان الهادىء الوديع ذئبا ضاريا ووحشا مفترسا وثعبانا ماكرا يضرب بالقيم الانسانية عرض الحائط ويهلك

الحرث والنسل وينشر الفساد فى الأرض ابتغاء عرض زائل ومكسب ضئيل (٩٧) ..

واذن فالاستغناء عن شعائر العبادة غير ممكن لأنها هدف فى ذاتها وواجب الهى لا بد من أدائه جعلها الله منهج تربية وتقويم يعتدل بها سلوك الانسان فى حياته ويبتعد عن مواطن الزلل والسوء فاذا لم تؤد غرضها فليس لعب فى الدواء وانما العيب فى المريض الذى لم يلتزم أوامر الطبيب الذى أرشده الى طريقة تعاطى الدواء ..

واذا لم يتحقق هدفها فلن يكون الحل أن تتركها ونرفضها ونبحث عن سواها لأن سواها هو السم القاتل والوباء الفتاك .. ولم لا يكون كذلك وهو دواء يقطع الصلة بين العبد وخالفه وليس بعد هذا بلاء .. وليس بعد قطع تلك الصلة أمل فى تهذيب النفس واعتدال السلوك واصلاح الأخلاق لأن القلب المظلم لا يمكن أن ينير للناس الطريق والنفس الموبوءة لا تستطيع أن تقدم لغيرها العلاج .. فلا بد من العبادات تأخذها هدفا فى ذاتها وتؤديها كما جاء بها كتاب الله الخالق ونجعلها وسيلة لاصلاح الحياة .. ولن تصلح الحياة ولن تعتدل الأخلاق الا بهذا المنهج الالهى العظيم .



## الفصل الثالث

### أخلاق الاسلام وكيف غرسها في النفوس؟؟

- ١ - الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم
- ٢ - بين الترغيب .. والترهيب
- ٣ - البيئة
- ٤ - الطفولة
- ٥ - احياء انسانية الانسان



## أخلاق الإسلام ..

### وكيف غرسها في النفوس

#### ١ - الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم :

كلما راعنا هذا الانتقال الذي أحدثته منهج القرآن في أخلاق البشر بما لم تعهده الإنسانية من قبل في تاريخها الطويل تساءلنا عن السر في ذلك فلعل الاهتداء اليه يتيح لنا فرصة العودة الى هذا المنهج فتعود لنا قيادة العالم الحائر فترشده الى طريق الله ونحرره من الأوهام والضلال .

وكم فشل فلاسفة ومفكرون تخيلوا مناهج للتربية وخططوا مدنا فاضلة فبقيت مناهجهم ومدنهم خيالا هائما وتصورا عقليا لم يتحول الى واقع ابدا .. وحين أنزل الله كتابه لم يرد أن يكون نظرية تحفظ ، وانما أراد أن يكون سلوكا يترجم في واقع الحياة فاختر - من بين الناس - محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون السراج المنير والمثل الأعلى والقدوة العظمى للإنسانية .. اختاره عن علم كما قال سبحانه :

« اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » (١)

واختاره بعد أن رباه وأدبه .. « أدبني ربي فأحسن تأديبي » (٢) ..

وهذه حياته مشرقة مضيئة لا يخفى منها شيء وذلك حتى يكون الاقتداء به على أتم وجهه أكمله - يقول العالم الانجليزي باسورث سميث من بعض ما أورده السيد / سليمان الندوي في كتابه الرسالة المحمدية .. ترى الشمس هاهنا مشرقة بارزة بيضاء تنير أشعتها كل شيء وتصل الى

(١) الأنعام ١٢٤/٦ .

(٢) رواه ابن السمعاني في أدب الإسلام عن ابن مسعود .

كل شيء ولا شك أن في الوجود شخصيات لا تعلم عنها شيئا ولا تتبين حقيقتها أبدا أو تبقى منها أمور مجهولة .. بيد أن التاريخ الخارجى لحمد صلى الله عليه وسلم نعلم جميع تفاصيله من نشأته الى شبابه .. وعلاقته بالناس وروابطه ، وعاداته ونعلم أول تفكيره وتطوره وارتقاءه التدريجى ثم نزول الوحي العظيم عليه .. ونعلم تاريخه الداخلى بعد ظهور دعوته وعلان رسالته ، وان عندنا القرآن لا مثيل له في حقيقته وفي كونه محفوظا مصونا .. (\*) « ..

وهذا الرسول العظيم الذى لم يغادر أصحابه صغيرة أو كبيرة أو حركة أو سكونا في حياته الا سجلوها ، وكان في بيته تسع من أمهات المؤمنين يروين دقائق معاشرته : في نومه وسهره وعبادته ، في أقواله وأفعاله . هذا الرسول الكريم كان آية من آيات الله ، وطاقة هائلة عجيبة دفعت برسالة القرآن عبر الأجيال والقرون الى أن يلقى الناس ربهم .. فقد كان صلى الله عليه وسلم قرآنا نابضا حيا متحركا ، وكان - كما تروى السيدة عائشة رضى الله عنها وقد سئلت عن خلقه فقالت : « كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه (٣) » ..

فكنت تراه في كل شيء وكأنه متخصص فيه .. ان نظرت الى عبادته وجدته رجل عبادة لا يطاوله فيها أحد يسهر الليل مناجيا ربه ناصبا قدميه الى أن تفطرتا وحين تسأله عائشة : يا رسول الله : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول يا عائشة : « أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا (٤) » وانه ليتزود بهذا الزاد الروحى ليكون عدته في تبليغ رسالته كما قال تعالى :

(\*) الرسالة المحمدية للسيد / سليمان الندوى ص ٨٣ .

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود عن عائشة .

(٤) متفق عليه - واللفظ للبخارى .

«يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ \* قُمْ آلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا \* تَصْفَهُ أَوْ  
 أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا \* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا \*  
 إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» (٥)

وإذا جاهد وحمل السلاح ، قلت انه رجل حرب وجلاد تكفى  
 قيادته للجنود الغازية في سبيل الله أن تشغل عشرات القواد .. يخوض  
 المعارك في سبيل الله بقوة وبسالة لا يدانيه في ذلك أحد .. عن على رضى  
 الله عنه قال : انما كنا اذا حمى البأس واشتد واحمرت الحديق اتقينا برسول  
 الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتنى  
 يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو  
 وكان من أشد الناس بأسا (٦) ..

وسأل رجل البراء قال : أفررتهم يوم حنين عن رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم ؟ فقال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر - لقد  
 رأيته على بعلته البيضاء وأبو سفيان - يقصد ابا سفيان بن الحارث بن  
 عبد المطلب - أخذ بلجامها والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : «أنا النبي  
 لا كذب أنا ابن عبد المطلب» (٧) .. «

وفي حياته الزوجية مسئوليات أسرة ضخمة تشغل عددا من الرجال:  
 تسع نسوة في بيته يعدل بينهن ويعاملهن أكرم معاملة عرفتها البشرية فعن  
 عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخط  
 ثوبه ويخسف ثعله ويرقع دلوه ويحلب شاته ويخدم نفسه ويقم البيت

(٥) المزمل ١/٧٣ - ٥ .

(٦) الشفاء ج ١ ص ٦٧ .

(٧) رواه الطبراني عن أبي سعيد .

ويعقل البعير ويعلف ناضحه<sup>(٨)</sup> ويأكل مع الخادم ويعجن معها ويحمل بضاعته من السوق<sup>(٩)</sup> ..

وعنها قالت : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أبدن فقال للناس تقدموا فتقدموا ثم قال تعالى حتى أسابقك فسبقته فسكت حتى حملت اللحم وبدنت وسمنت خرجت معه في بعض أسفاره فقال للناس تقدموا ثم قال : تعالى أسابقك فسبقني فجعل يضحك ويقول هذه بتلك<sup>(١٠)</sup> وفي مودته لاخوانه وأصحابه لا يبارى : يعود مرضاهم ويواسي محتاجهم ويداعب صبيانهم ويعطف على بائسهم وكأنه متفرغ لهذه الحياة الاجتماعية ليس له من شاغل سواها ..

« جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقال لها أم أيمن فقالت : يا رسول الله إن زوجي يدعوك قال : ومن هو الذي بعينه يياض ؟ فقالت : لا .. والله .. فقال صلى الله عليه وسلم : ما من أحد إلا بعينه يياض<sup>(١١)</sup> » ..

وعن أنس رضى الله عنه قال : كان غلام يهودى يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده ، فقعد عند رأسه فقال له : أسلم فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له : أطع أبا القاسم فأسلم فخرج النبي صلى الله عليه وسلم من عنده وهو يقول : الحمد لله الذى أنقذه من النار<sup>(١٢)</sup> » .

(٨) الناضح : البعير يستقى عليه .

(٩) المواهب ج ٤ ص ٢٧ .

(١٠) رواه البخارى .

(١١) رواه البخارى .

(١٢) رواه البخارى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على أعرابي يعودده وكان اذا دخل على من يعودده قال : « لا بأس .. طهور ان شاء الله » (١٣) .. وافك لتراه سائرا يتدفق حيوية ونشاطا كأكمل الناس صحة وعافية : يسلم على الناس بجميع يده وفي حرارة وقوة - يرضى من كل نفسه فيعرف أصحابه في وجهه السرور ويفض فيبدو الغضب على وجهه ويدر عرقه من جبهته - وهكذا كل أمر تراه قد وصل فيه الى حد الكمال الانساني ولهذا صدق فيه قول الحق تبارك وتعالى :

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » (١٤)

الا أن هذا النور الساطع بشر كسائر البشر، يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ، لم يصل الى هذه المنازل العالية ليبقى صورة أسطورية خيالية لا تتحقق في واقع الناس ولا يتمكن أحد أن يقتدى بها وانما هو البحر الزاخر يأخذ كل منه بقدر طاقته :

قال تعالى :

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (١٥)

يقول السيد / سليمان الندي في كتابه الرسالة المحمدية : « اذا كنت غنيا مثريا فاقتد بالرسول صلى الله عليه وسلم عندما كان تاجرا يسير بسلعته بين الحجاز والشام وحين ملك خزائن البحرين ..

(١٣) رواه البخارى .

(١٤) القلم ٤/٦٨ .

(١٥) الأحزاب ٢١/٤٣ .

واذا كنت فقيرا معدما فلتكن لك أسوة به وهو محصور في شعب  
أبي طالب ، وحين قدم الى المدينة مهاجرا اليها من وطنه وهو لا يحمل من  
حطام الدنيا شيئا ..

واذا كنت ملكا فاقتد بسنته وأعماله حين ملك أمر العرب وغلب  
على آفاقهم ودان لطاعته عظماءهم وذوو أحلامهم ..

وان كنت رعية ضعيفا فلك في رسول الله أسوة حسنة أيام كان  
محكوما بمكة في نظام المشركين ..

وان كنت فاتحا غالبا فلك من حياته نصيب أيام ظفره بعدوه في  
يادر وحين ومكة ..

وان كنت منهزما — لا قدر الله ذلك — فاعتبر به في يوم أحد وهو  
بين أصحابه القتلى ورفاقه المشخين بالجراح .. وان كنت معلما فانظر اليه  
وهو يعلم أصحابه في صفة المسجد ..

وان كنت تلميذا متعلما فتصور مقعده بين يدي الروح الأمين جاثيا  
مسترشدا ..

وان كنت واعظا ناصحا ومرشدا أمينا فاستمع اليه وهو يعظ الناس  
على أعواد المسجد النبوي ..

وان أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف وأنت لا ناصر لك ولا  
معين فانظر اليه وهو ضعيف بمكة لا ناصر ينصره ولا معين يعينه ومع  
ذلك فهو يدعو الى الحق ويعلن به ..



وان هزمت عدوك وخضدت شوكته وقهرت عناده. فظهر الحق على  
يدك وزهق الباطل واستتب لك الأمر - فانظر الى النبي صلى الله عليه  
وسلم يوم دخل مكة وفتحها .. وان أردت أن تصلح أمورك وتقوم على  
ضياحك فانظر اليه صلى الله عليه وسلم وقد ملك ضياح بنى النضير وخير  
وفدك : كيف دبر أمورها وأصلح شئونها وفوضها الى من أحسن القيام  
عليها ..

وان كنت يتيما فانظر الى فلذة كبد آمنة وزوجها عبد الله وقد توفيا  
وابنهما صغير رضيع ..

وان كنت صغير السن فانظر الى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته  
مرضعته الحنون حليلة السعدية .. وان كنت شابا ناشئا فاقراً سيرة  
راعى الغنم بمكة ..

وان كنت تاجرا مسافرا بالبضائع فلاحظ شئون سيد القافلة التى  
قصدت بصرى ..

وان كنت قاضيا أو حكما فانظر الى الحكم الذى قصد الكعبة قبل  
بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود فى محله، وقد كان رؤساء مكة يقتتلون  
ثم ارجع البصر اليه مرة أخرى وهو فى فناء مسجد المدينة يقضى بين  
الناس بالعدل يستوى عنده منهم الفقير المعدم والغنى المثرى .

وان كنت زوجا فاقراً السيرة الطاهرة والحياة النزيهة لزوج خديجة  
وعائشة ..

وان كنت أباً لأولاد فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء وجد  
الحسن والحسين ..

وأيا ما كنت .. وفى أى شأن كان شأنك فانك مهما أصبحت أو  
أمسيت .. وعلى أية حال بت أو أضحيت فلك فى حياة محمد صلى الله  
عليه وسلم هداية حسنة ، وقدوة صالحة تضيء لك بنورها دياجى الحياة  
ويتجلى لك بضوءها ظلام العيش (١٦) » ..

وهذا المثل الرفيع الذى تمثل فيه كتاب الله وهديه شع نورا فى  
القلوب فارتبطت به ، وأحبته من كل نفسها ، وضحت بما تملك فداء  
لرسالته مما يبين أثر القدوة الحسنة فى النفوس وكيف كانت دعامة قوية  
فى تربية المجتمع على مبادئ الاسلام :

هذا سعد بن الربيع أحد هؤلاء المقتدين بالرسول الكريم والمحبين  
له يقول زيد بن ثابت رضى الله عنه .. فيه .. » بعثنى رسول الله صلى  
الله عليه وسلم يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فقال لى : ان رأيته فأقرئه  
منى السلام وقل له يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تجدك؟  
قال : فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بأخر رمق وفيه سبعون ضربة  
ما بين طعنة رمح ، وضربة سيف ورمية سهم فقلت : يا سعد ان رسول الله  
صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام ويقول لك أخبرنى كيف تجدك ؟  
فقال : وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام قل له يا رسول الله أجد  
ريح الجنة .. وقل لقومى الأنصار : لا عذر لكم عند الله ان خلس الى  
رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم عين تطرف وفاضت نفسه من  
وقته (١٧) » ..

وهذا سعد بن معاذ يقول قبلى بدر لرسول الله صلى الله عليه وسلم  
عن نفسه وعن الأنصار : صل من شئت واقطع جبل من شئت وخذ من

(١٦) الرسالة المحمدية للسيد / سليمان الندوى ص ٩٣ - ٩٥ .

(١٧) زاد المعاد ج ٢ ص ٩٦ .

أموالنا ما شئت واعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركته  
وما أمرت فيه من أمرنا فأمرنا تبع لأمرك فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك  
من غمدان لنسيرن معك والله لئن استعرضت بنا هذا البحر لخضناه  
معك (١٨) » ..

وهذه أم حبيبة ابنة أبي سفيان بن حرب وقد جاء والدها إلى المدينة  
وهو على الكفر ودخل عليها في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما  
ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوته عنه ! فقال : يا بنية ما أدرى  
أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني : قالت : بل هو فراش رسول  
الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس (١٩) بل إن هذا الحب  
الذي استولى على القلوب دفعها أن تبذل فوق طاقتها حين رأت من رسولها  
خير قدوة للوجود .. هذا عمرو بن الجموح الأعرج شديد العرج وله أربعة  
بنون شباب يغزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا يأبى إلا أن  
يتوجه إلى أحد فيقول له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت  
ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد .. فيذهب عمرو إلى رسول  
الله صلى الله عليه وسلم يشكو إليه أمر أبنائه ويقول : إن بني هؤلاء  
يسعونني أن أخرج معك ووالله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه  
في الجنة فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم — أما أنت فقد وضع  
الله عنك الجهاد وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه  
الشهادة ، فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقتل يوم أحد  
شهيدا (٢٠) ..

(١٨) زاد المعاد ج ٢ ص ٨٦ .

(١٩) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢٠) زاد المعاد ج ٢ ص ٩٦ .

أمثلة لما تصنعه القدرة الحسنة - لو أردنا ان نتنسم عيرها  
ونستعيد ذكرياتها لاحتاج الأمر منا الى صفحات ، وهذه كتب السير والتراجم  
شاهدة بما أحدثه هذا التيار النوراني الالهى الذى انبعث من البشير  
النذير والسراج المنير فى أمة كادت أن تموت فأحيها رسول الله بروح  
القرآن فاذا هى تبعث من جديد تنفض غبار الزمن وتصنع الحياة والأحياء  
على خير زاد وأجمل طريق وأروع مسلك • وصدق قول الله فى رسوله  
الحبيب :

«هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ  
آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا  
مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (٢١)

ولقد زكاهم هذا الرسول وطهر أخلاقهم وسلوكهم وعقائدهم  
ورفعهم من الوهدة الهابطة والضياع القاتل الى القمة العالية فاذا بالأمّة  
الأمية رائدة وقائدة تفيض حكمة نابغة من الكتاب الخالد الذى شربت كئوسه  
من هذا الذى بعث من نفسها فأحيها وقد كانوا من قبل فى ضلال مبين ••  
وليس بعد الضلال والعماية والجهالة خلق هابط يوصف به الانسان وليس  
بعد الطهر والتزكية والرفعة والحكمة والعلم خلق رفيع يتشرف به البشر  
وهذا ما صنعه القدوة الفريدة التى تمثلت فى رسول الله صلى الله عليه  
وسلم •• وكانت هذه القدوة أول الطريق فى منهج التربية القرآنية لغرس  
الأخلاق الفاضلة وتهذيب السلوك المعوج •• ولهذا أمر الله المؤمنين باتباع  
الرسول وطاعته وجعل هذا علامة الحب لله فقال :

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » (٢٢).

كما جعلها سبيل الفلاح وطريق الهداية فقال :

« فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ \* قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَاْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (٢٣).

وعاتب الله الذين تعرضوا لدعوة الناس إلى الخير حين كانوا مثلاً سيئاً لقومهم فقال لبنى إسرائيل :

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » (٢٤).

(٢٢) آل عمران ٣/٣١ ، ٣٢ .

(٢٣) الأعراف ٧/١٥٧ ، ١٥٨ .

(٢٤) البقرة ٢/٤٤ .

وجعل من أكبر الكبائر أن يقول الإنسان ما لا يفعل لأنه بذلك يكون  
مثلا سيئا وقدوة فاسدة للناس :

قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ \*  
كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » (٢٥)

ولا عجب ان ينجح الاسلام في تربيته ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الله بفعله قبل قوله ويعلم الناس بسلوكه ونهجه في الحياة قبل أن ينطق لسانه : اشتهر بين أهله بالأمانة حتى لقبوه بالأمين وبالبعد عن الفواحش حتى انه أراد أن يسمر مع شباب مكة - وذلك قبل أن يوحى اليه - فما ان أتى حتى ضرب الله عليه النوم فما أيقظه الا مس الشمس .. وعاش بعد الرسالة على الكفاف حتى نام على حصير قد أثر في جنبه الشريف وكان يمر الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما يوقد في بيته نار ، وقد عرضت عليه الجبال أن تكون ذهبا فأبى ..

ومع ايذاء قومه وحربهم اياه كان يقول : اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون ..

وحين أمكنه الله من رقابهم وفتح مكة سألهم في مودة : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا .. أخ كريم وابن أخ كريم .. قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ..

وهكذا لا تجد خصلة من خصال الخير الا وقد تمثلت فيه - صلى الله عليه وسلم - فكان بهذا دالا على ربه في صدق واخلاص .. وبهذا استطاع أن ينفذ الى القلوب فيقودها الى ما شاء الله لها من السرفعة والكرامة ..

وما زال تاريخه المشرق الذي سجله أصحابه ، وجمعه الافذاذ من العلماء موضع القدوة والتأسي ، كما هو زاد لكل من أراد زادا . ومنهج لصناعة الانسان واعادة تشكيله من جديد ..

### ٣ - بين الترغيب .. والترهيب :

رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة الانسانية ومرشدها الى ربها بحركته وسمته وفعله .. لكن القدوة الصالحة قد لا ترتقى اليها بعض النفوس فتظل غافلة جاهلة لا تتأدب بأدب ولا تنتهي عن منكر ..

فهل من محرك يثير هذه النفوس الراكدة ويدفعها الى التخلق بأجل الصفات :

هنا تأتي الموعظة التي تطرق القلب وتشهد رغائب الانسان وترتقى به الى أعلى منزلة وتهديه الى الخير وتبين له مزاياه .. وتقرع مشاعره وتضعه في موقف الخوف والرهبه وتصهره بكل ألوان التعذيب والتضييق والتنكيل وتذكره بما ينتظره في يوم آت قريب اذا ما وقع في الشر وأصر عليه .. فتتطابق القدوة بما ترسمه في شخص القائد من الالتزام بالخير والبعد عن الشر وما يبدو عليه من شارات الهداية والنور مع التربية بالمواعظ والتذكير واستشارة العزائم ودفعها بالخوف والرجاء ، وبالقدوة والموعظة يتربى الانسان على الأخلاق الفاضلة .

وكتاب الله حافل بهذا اللون من التربية كما قال منزله :

« وَهَدَىٰ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ » (٢٦) .

وكما قال :

« وَذِكْرَىٰ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ » (٢٧) .

والرسول مأمور بهذا التذكير .. قال تعالى :

« وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » (٢٨) .

وقال تعالى :

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ » (٢٩) .

لذلك لا تجد خلقا حميدا الا وحث عليه القرآن ولا تلقى خلقا سيئا الا نهى عنه .. وفي كل ذلك لا ينسى قاعدته الكبرى التي أقام عليها كل أوامره ونواهيه ألا وهى الايمان بالله واليوم الآخر .. وبين الجنات والخلود والأمان والرضا والسلام والنعيم المقيم .. والنار الموقدة والعذاب والهوان والشقاء فى الدنيا والتعاسة فى الآخرة .. بين هذا وذاك يضرب القرآن على أوتار القلب المشدودة من هنا بالخوف ومن هناك بالرجاء فتصدر عنها أنغام متناسقة ليس فيها نغمة نشاز انما هو الاحكام فى كل تصرف والارتباط بكل خير والابتعاد عن كل شر ..

(٢٦) آل عمران ١٣٨/٤ .

(٢٧) غافر ٥٤/٤٠ .

(٢٨) الذاريات ٥٥/٥١ .

(٢٩) الفاشية ٢١/٨٨ .



هذا خلق السخاء : ينبع من داخل النفس حين فجر القرآن يتابع  
اليقين والثقة في فضل الله وحرر الانسان من ربة المال .. ولذا جادت اليد  
بإلطاء سرا وجهرا لا تخاف الا الله وحده :

« إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا  
شُكُورًا \* إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا » (٣٠).

انظر لتربية القرآن وهو يربى النفس على هذا الخلق ويضعها بين  
الخوف والرجاء فيصور الاتفاق الخالص لوجه الله بهذه الصورة النامية:

« مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ  
حَبَّةٍ أُنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ  
يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (٣١).

ولم لا ينميه الله وهو قد جعله قرضا له فقال :

« إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا  
حَسَنًا يُضَعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ » (٣٢).

ومع هذا النماء والبركة مغفرة للذنوب وأمان في الحاضر وثقة في  
المستقبل فلا هم ولا خوف ولا حزن للأسخياء المنفقين قال تعالى :

(٣٠) الانسان ٩/٧٦ ، ٢٠ .

(٣١) البقرة ٢/٢٦١ .

(٣٢) الحديد ٥٧/١٨ .

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٣٣)

وهل يخاف أو يحزن من يتاجر مع الله .. وما أكرمها من تجارة ..  
ان الفضل والخير والربح الوفير .. والمساكن العالية في جنات عدن ..  
والنصر المبين .. والعزة والسيادة لأمثال هؤلاء ، قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ \* تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \* وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » (٣٤)

وهذه تجارة رابحة حقا قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ \* لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ » (٣٥)

(٣٣) البقرة ٢٧٤/٢ .

(٣٤) الصف ١٠/٦١ - ١٣ .

(٣٥) فاطر ٢٩/٣٥ ، ٣٠ .

وهذا السخاء الذى غرسه القرآن مبرأ من شهوات النفس وتعاليتها  
وتفاخرها انما هو الاحساس بالأخوة الانسانية وتكاليفها وما تفرضه  
على الجماعة الاسلامية من أخذ القوى بيد الضعيف ووقوف القادر بجانب  
المحتاج العاجز .. فان تسرب الى هذه النفس التى يربىها القرآن هوى  
من رياء أبطل هذا الانفاق .. وكتاب الله يصور ذلك بصورة فذة مستثيرة  
إيمان المؤمنين وما يستلزمه هذا الايمان من الاخلاص فيقول :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ  
وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ  
وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ  
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » \*

ويعرض الوجه الآخر للانفاق الصحيح في هذا المثل فيقول :

« وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ  
وَتَشْبِيهًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ  
فَأَتَتْ أَكْطَاهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِْبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا  
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٣٦).

وفرق شاسع بين الحجر الذى لا ينبت ولا يتحرك ولا يستفيد منه  
أحد ، والتربة الخصبة النامية المخضرة ذات الجنات الوارفات ، فيها الخير

« وفيها النماء وفيها الحياة .. وهي صورة مشرقة تدفع الانسان الى بذل ما  
ملكته يداه ، بل بذل روحه في سبيل الله .. »

بل ان القرآن يصور هوى النفس بتلك الصورة المفزعة .. فهوى  
النفس الذى يفسد على الانسان عمله وما بذل فيه الا يفترق عن الاعصار  
العاصف الذى يأتى على مازرع الانسان فلا يبقى له أثرا .. فماذا يكون  
شعور الانسان اذا رأى جنته التى جمعت كل الثمر وأصبحت له ولأولاده  
الضعفاء قوتا ورزقا وهو قد بلغ به الكبر أقصاه ولكن تلك الجنة قد  
هلكت ؟ انه هوى النفس الذى يبطل ثواب الانسان ، ويتركه للندم  
والحسرة يقول القرآن :

« أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ  
وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ  
نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ  
تَتَفَكَّرُونَ » (٣٦)

ومع هذا الترغيب يكون التخويف من الصفة المقابلة للسخاء  
تأكيدا للسخاء وحثا عليه .. والصفة المقابلة له هى : « البخل » وهو  
من أخطر أمراض النفوس لذلك يتعهد القرآن بأدويته الناجعة حتى يبرأ  
القلب من أذاه ..

وأول سؤال للبخلاء فى تربية القرآن : لم تبخل ؟ هل خوف من  
المستقبل ؟ أم خوف على المال ؟ أم حب فى كنزه ؟ خشية الفقر لا ينجيك

منها بخلك ، فكم من مقل فقير أغناه الله ، وكم من غنى واسع الشراء أفقره الله ؟ والحياة شاهدة بذلك قال تعالى :

« أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ  
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٣٧) .

حرصك على ما بين يديك وشحك بالعطاء جبا لهذا المال جهل لا يتناسب مع الواقع - فظفرة الى الدابة الضعيفة وكيف يسوق الله اليها رزقها كفيلا أن تدرك الى الصواب لو اعتبرت ، قال تعالى :

« وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ  
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (٣٨) .

والمال الذي كنزته وبال عليك اذا لم تؤد حق الله فيه انك ستكوى بما جمعت وستعذب به العذاب الأليم ..

قال تعالى :

« وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ \* يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي  
نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا  
مَا كُنْتُمْ لِنَفْسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » (٣٩) .

(٣٧) الروم ٣٧/٣٠ .

(٣٨) العنكبوت ٦٠/٢٩ .

(٣٩) التوبة ٣٣/٩ ، ٣٤ .

وَأَنْتَ فِي الْوَاقِعِ مَرْزُوقٌ وَلَسْتَ رَازِقًا وَمَحْتَاجٌ وَلَسْتَ مَانِحًا قَالَ  
تعالى :

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ  
الْحَمِيدُ» (٤٠).

وبخلك عائد عليك قال عز وجل :

«هَٰأَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ  
مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ  
وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ  
لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ» (٤١).

وقال تعالى :

وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ  
هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ  
الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ  
خَبِيرٌ» (٤٢).

وبعد .. فهذا مثال لخلق واحد من أخلاق القرآن وهو السخاء ..  
رأينا كيف عالجه هذا المنهج الرباني بطريق الترغيب فيما عند الله من حسن

(٤٠) فاطر ١٥/٣٥ .

(٤١) آخر « محمد » ٣٨/٤٧ .

(٤٢) آل عمران ١٨٠/٣ .

«الجزاء ، والترهيب فيما ينتظر البخلاء من سوء المصير وذلك بعد تصفية النفس وتطهيرها من حرصها وشحها ، قال تعالى :

« وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (٤٣)

ومثال آخر من أخلاق القرآن .. الشجاعة ..

ولقد استطاع القرآن - بمنهجه - أن يربي الأجيال من المؤمنين اندفعت الى ساحات القتال طوعا لا كرها .. ليس فيهم الا من يود أن يتشرف ببقاء الموت ويوارى جسده في تراب المعركة ويكفن في ثياب الجهاد ويحظى بالشهادة في سبيل الله .. حتى زلزلوا معقل الظلم في أنحاء الأرض فتهوت تحت أقدامهم شاهدة بما فيهم من بسالة وقوة فاقت ما عرفته الدنيا كلها من صور البطولات ..

كيف تربت هذه النفوس ؟ وكيف غرس القرآن في أعماقها هذا الخلق المتين الذي تسكن به من حماية الحق ونصرة الضعاف ونشر الأمان لكل الناس ؟؟ ..

لقد وضع النفس بين الخوف والرجاء .. وبين الرغبة والرغبة .. وأخذ يسألها ويقرر لها حتى خلصها من ضعفها وعجزها وجبنها .. ثم ربطها بجبله القوى وعصمها من الانحراف والميل مع الهوى ..

الموت ! غاية كل حي قال تعالى :

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » (٤٤)

(٤٣) الحشر ٩/٥٩ ، التغابن ١٦/٦٤ كما يراجع فقرة : الزكاة وتطهيرها للنفس في هذا الباب .

(٤٤) آل عمران ١٨٥/٣ ، الأنبياء ٣٥/٢١ .

لا مهرب منه مهما كانت وسائل النجاة قال تعالى :

« أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي

بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ » (٤٥)

لا يرتبط بصحة أو مرض أو كبر في السن أو صغر فيه قال تعالى :

«وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا » (٤٦)

وقال :

« وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ

لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا » (٤٧)

وقال :

« وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا

تَعْمَلُونَ » (٤٨)

واذن : فلم يحيا الانسان جيانا ??

ما يدافع عنه أهل الايمان مصدر قوة وعزة وما يقاتل من أجله

الكافرون باطل وطغيان وظلم :

(٤٥) النساء ٧٨/٤ .

(٤٦) آل عمران ١٤٥/٣ .

(٤٧) الحج ٥/٢٢ .

(٤٨) المنافقون ١١/٦٣ .



قال تعالى:

«الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً» (٤٩)

فالباطل مهما عظم صغير ومهين أمام صولة الحق وبطشه:  
« قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ \* وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ » (٥٠)

وتحت راية الحق تحلو التضحية ويلد الموت ..

وإذا كانت نفس الانسان تحن الى الخلود لأنه من غرائزها المكنونة وكان التعلق بالخلد سببا جعل آدم ينسى عهده مع ربه حين أغواه الشيطان وحرك فيه هذه الغريزة: غريزة حب البقاء فقال له ما حكي الله عنه:  
« هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى » (٥١)

فان القرآن استغل هذه الغريزة ووجهها الى الزود عن حياض الحق وجعل الموت في سبيل الله طريق الخلود قال تعالى:

« وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَّا تَشْعُرُونَ » (٥٢)

(٤٩) النساء ٧٦/٤ .

(٥٠) التوبة ٢٤/٩ .

(٥١) طه ١٢٠/٢٠ .

(٥٢) البقرة ١٥٤/٢ .

وقال :

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ  
أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ \* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ  
فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ  
أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٥٣)

والصفقة الرابعة بيع لحم وشحم تأكله الأرض والديدان بجنة  
عرضها السموات والأرض قال تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ  
بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ  
وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى  
بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا ببيعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ  
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (٥٤)

وقال :

« فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا  
بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ  
فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » (٥٥)

(٥٣) آل عمران ٣/١٦٩ ، ١٧٠ .

(٥٤) التوبة ٩/١١١ .

(٥٥) النساء ٤/٧٤ .

ومع الرحمة والرضوان والنعيم المقيم والخلود الأبدي والفوز العظيم .. ومع الهداية واصلاح البال وتلك الظلال الوارفة يحيا المجاهدون قال تعالى :

« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ \* يَبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ \* خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » (٥٦)

وقال :

« وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ \* سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ \* وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (٥٧)

ومع هذا التروغيب الذى يثير شوق القلوب الى بذل الغالى والنفسى يكون الترهيب من الجبن والقعود عن الجهاد : اذ ان القعود ليس وسيلة النجاة قال تعالى :

« الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا | قُلْ فَادْرِكُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلْمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (٥٨)

(٥٦) التوبة ٢٠/٩ - ٢٢ .

(٥٧) محمد ٤٧/٤ - ٧ .

(٥٨) آل عمران ١٦٨/٣ .

والتخلي عن الجهاد فسوق وعصيان يستحق التهديد الشديد ؟  
قال تعالى :

«قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» (٥٩)

والأمة التي لا تهب للدفاع عن دين الله لا تستحق الحياة لأنها أمة ميته ولا بد أن تزول .. هكذا خاطب القرآن الأمة التي كلفت بنصرة دين الله يوم أن كان هذا الدين نبتة غضة طرية وهكذا يخاطب أتباع هذا الدين في كل زمان ومكان فيقول :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ \* إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٦٠)

(٥٩) التوبة ٢٤/٩ .

(٦٠) التوبة ٣٨/٩ ، ٣٩ .

وغضب الله وعذابه جزاء وفا لمن فر من المعركة ولم يثبت في موطن اللقاء قال تعالى :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا  
فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ \* وَمَنْ يُولَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا  
لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ  
جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (٦١)

فهل بعد هذا التهديد كله يركن مؤمن الى الراحة ويرضى بالتخلف عن ركب المجاهدين ؟ قال تعالى :

« لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ  
وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ  
الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً  
وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ  
أَجْرًا عَظِيمًا \* دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ  
غَفُورًا رَّحِيمًا» (٦٢)

وهل بعد حياة النعيم والخلود والرضوان في الآخرة .. واصلاح  
البال والعزة والسيادة في الدنيا يبقى للانسان مطلب ؟ ..

(٦١) الانفال ١٥/٨ ، ١٦ ، .

(٦٢) النساء ٩٥/٤ ، ٩٦ ، .

وهكذا استطاع القرآن عن طريق الترغيب والترهيب أن يستولى على الغرائز البشرية ويوجهها الى ما تأمله ويتعد بها عما تخاف منه وأن يغرّس فيها خلق الشجاعة وغيره من الأخلاق الكريمة الفاضلة ..

ولو شئنا أن نعرض ما فى القرآن من أخلاق كالرحمة والعفو وكظم الغيظ والحب والكره .. والصبر والتوكل واليقين والتقوى والاخلاص والتواضع .. لطلال بنا الحديث .. لكن يكفيننا من كل هذا أن نعرف أن الترغيب والترهيب مع القدوة الحسنة من وسائل التربية التى استطاع بها القرآن أن يخرج خير أمة فى تاريخ البشرية فما أعظم أخلاق القرآن فانها أخلاق سماوية .. وما أكرم منهجه لأنه منهج ربانى ..

### ٣ - البيئة :

الانسان ضعيف .. هكذا خلقه الله قال تعالى :

« وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا » (٦٣)

لا يثبت أمام الاغراء فسرعان ما ينسى عهده مع ربه .. ولا ينجو من هذا الا طائفة قليلة من الناس هى التى تربت على تقوى الله الا أنها مع هذا لا تنجو من مس الشيطان وكيده وان كانت تتذكر سريعا فتعود الى الله قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ

تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » (٦٤)

(٦٣) النساء ٢٨/٤ .

(٦٤) الاعراف ٢٠١/٧ .

ومع شدة حرصها فقد تقع في الفاحشة ولكنها تؤوب الى ربها قال تعالى :

« وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ  
وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ \* الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ  
وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ  
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ \* وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا  
أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ  
الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ  
\* أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » (٦٥)

فهذا الانسان الضعيف في ارادته وعزيمته كما قال تعالى :

« وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ  
عَزْمًا » (٦٦)

تكفيه القدوة التي تمثلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم وتربيته

الموعظة بما تحمل من ترغيب وترهيب ؟ ..

(٦٥) آل عمران ١٣٣/٣ - ١٣٦ .

(٦٦) طه ١١٥/٢٠ .

ان أرسطو بعد الجهد المضنى الذى أقامه بكتابه « الأخلاق »  
 يختتم صفحاته بعبارات تنم عن الأسف فيقول : « لسو كانت الكتب  
 والخطب وحدها تكفى لردنا أخيارا لكانت مطلب الناس جميعا ..  
 ان كل ما فى وسع المبادئ أن تحققة فى هذا الصدد هو - لسوء الحظ -  
 أن تشد عزم فتیان كرام على الثبات فى طلب الخير وترد القلب الشريف  
 بفطرته صديقا للفضيلة وفيما بعدها .. (٦٧) » ..

فكيف عالج المنهج القرآنى هذا الضعف وشد عزم أتباعه على  
 الثبات فى طلب الخير وجعلهم أصدقاء للفضيلة أوفياء بعهدا وحقق حلم  
 الفلاسفة فى ايجاد هذا الانسان الخير بفطرته ??

انه مع تقديره لما تصنعه القدوة والموعظة لم يغفل أثر البيئة وما  
 تتركه فى النفس من انطباعات وانفعالات . انها المدرسة الحقيقية التى يأخذ  
 عنها الانسان عاداته وتقاليده ، وان البيئة الفاسدة تدعو الى الفساد وتجبر  
 الى الهلاك ، وان الانسان - لضعفه - يندر أن يقاوم عوامل الفتنة والاغراء  
 ومن الصعب تكليفه بالاعتدال والمجتمع الذى يعيش فيه ماخوئ فسق  
 وحانة فجور .. لذلك أراد المنهج القرآنى .. وهو يربى خير أمة  
 أخرجت للناس .. أن توجد البيئة المناسبة لاجراج هذه الأمة وأن ييسر  
 لها الطريق ويذل لها عقباته ، ولم يفرض عليها ما فرض من حدود الا بعد  
 أن أصلح لها ما حولها وسد عليها أبواب الشهوات .. وهذه البيئة التى  
 انشأها القرآن .. والتى تمثلت فى المجتمع الاسلامى الأول هى الهواء  
 النقى الذى يستنشقه المسلم فيه غير الحياة ، فيحس بالنشوة والارتياح  
 فهو حيثما سار وأينما نظر لا يجد الا دوافع الطهر ودواعى العفة ..



هذه جريمة الزنى .. مثلاً .. لا تشيع الا حيث يوجد الانحلال، وتدهور القيم والمبادئ ، وتنطلق الشهوات من عقالها ، لتحطم ما أقرته الرسالات السماوية من حرمة الأعراض ، وسلامة الانسانية . وحفظ كيان الانسان أن ينزل الى مرتبة الحيوان ..

والقرآن حين أشرق بضياءه على هذا العالم ووجد فيه التبذل والخنا ، ورأى فيه الاختلاط المزرى ، والعورات المكشوفة ، والأجسام العارية . والفواحش المباحة . لم يرد أن يكلف المؤمنين شططا ، ويقيم عليهم حد هذه الجريمة الا بعد أن خلق لهم الجو المناسب ، ولم يترك بابا للشر الا أحكم قفله ، ولم يعد أمام كل فرد فى هذا المجتمع الا التزام هذا الطريق ، فان حاد عنه فقد هلك واستحق ما ينزل به من عقاب :

فقد أمر المؤمنين بأن يسترن أجسادهن حتى لا تكون مثار شهوة وفتنه ، وحتى يحمى المؤمنة من قالة السوء ونظرات المنافقين فقال :

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» (٦٨)

وأمر المؤمنين والمؤمنات جميعا بغض أبصارهم وحفظ فروجهم ولكنه حصى عورات المؤمنات ان تتبذل ، وتبدو أجسادهن لغير من يحل لهن ، حفظا للمؤمنين وحشا لهم على التزام طريق الله فقال :

« قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا

فَرُوجُهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ \*  
 وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ  
 وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ  
 عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ  
 أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ  
 أَوْ بَنَى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ  
 أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ  
 الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ  
 بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ  
 جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٦٩)

ويسر طريق الاستمتاع الحلال للشباب فلم يجعل المهر ثمنا للمرأة  
 إنما هو عنوان الرغبة في الزواج قال تعالى :

« وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ  
 شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا » (٧٠)

(٦٩) النور ٢٤/٣٠، ٣١.

(٧٠) النساء ٤/٤.

ومن لم يستطع الزواج بالمرّة قليس عليه جناح ان يبتى بملك اليمين

قال تعالى :

« وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ  
الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتِيَّاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ  
أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ  
مُسَفِّحاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْنَ  
بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ  
ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ  
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٧١)

فاذا طلب القرآن من المؤمنين أن يلتزموا العفة بقوله :

« وَلَيْسَتَغْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ  
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » (٧٢)

وجدوا طريقها أمامهم سهلا يسيرا ..

وإذا قال :

« أَلَزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ » (٧٣)

فهو قد سائر الفطرة البشرية وقدر حاجتها وعذرتها وحماها قبل ان يقيم عليها هذا الحد قال تعالى :

« يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا \* يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا » (٧٤)

ولهذا حين نهى عن هذه الجريمة في وصاياه الجامعة قال :

« وَلَا تَقْرَبُوا أَلْفَوْحَ حِشٍّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » (٧٥)

فلم يجعلها فاحشة واحدة انما جعلها « فواحش » وذلك لأنها لا تقع الا بعد مقدمات ومشرات - كل منها فاحشة : فالنظرات والضحكات.

(٧٣) النور ٢/٢٤ .

(٧٤) النساء ٢٦/٤ - ٢٨ .

(٧٥) الأنعام ١٥١/٦ .

والهمسات واللمسات والاختلاط والعري ، والتنهك والحلاعة والزينة  
التي بدلت خلق الله والهيب المشاعر بسياط الشهوات كلها مغريات بالفتن  
وداعية الى موقعة المحذور .. والاقترب .. مجرد الاقتراب .. منهى  
عنه ، وذلك لعلم الله الذي خلق الانسان .. وهو أعلم بمن خلق .. أن  
هذا الانسان ضعيف واقتربه من مقدمات الجريمة شباك يقع فيها وقل  
أن ينجو .. وهو نهى عن الاقتراب من الفواحش كلها ما ظهر منها وما بطن  
والتزام لطريق الجادة وابتعاد عن كل اسباب الفتنة ودواعيها ..

فهل هذا الوسط الطاهر العفيف يدع فرصة لمسلم لينحرف ؟ ..  
وهذا ما اراده منهج القرآن حين غرس القيم العالية والأخلاق الرفيعة في  
النفوس فجعل للمسلم قدوة في رسوله وقدوة في المجتمع الذي يحيا فيه  
كذلك ، فهو حين يرى أسوة طاهرة ومجتمعاً نظيفاً طاهراً ومن وراء ذلك  
كله ايمان بالله يقام عليه بناء عظيم من الترغيب في متاع الدنيا والآخرة  
وترهيب من عذاب الله ومقته وغضبه .. يستوى الانسان بشراً مستقيماً  
لا انحراف فيه ..

وحين أدرك أعداء الله ما في الانسان من ضعف أرادوا أن يدمروا  
الانسانية ليستولوا عليها فأشعلوا نار الشهوات وألهبوا بالمثيرات -  
وزيفوا الحقائق باسم الحضارة والمدنية ، وصارت كلمة « الرجعية »  
سلاحاً يشهر في وجه كل من دعا لاختداد تلك النيران المشتعلة ، واندفعت  
المجتمعات في أنحاء الأرض في طريق الانحلال تروى ظمأها من متع الجنس  
ولن ترقى أبداً ..

ولا نجاة للانسان الا اذا عاد لمنهج القرآن وخلق البيئة الصالحة  
التي تنبت فيها الأخلاق الطاهرة الكريمة ..

## ٤ - الطفولة :

والقرآن الذي ربى القلوب وربطها بمصدر القدوة وتعهد بها بالترغيب والترهيب وأنشأ لها البيئة المناسبة لم يغفل أهمية العادة في حياة الإنسان فان من شب على شيء شاب عليه .. وقد يلقي صاحب الخلق السيئ من نفسه شدة وعسرا اذا ما أراد لها أن تستقيم .. وما عاق دعوات الاصلاح شيء كما عاقها عادات المجتمعات وتمسكها بما ورثته عن الآباء والأجداد .  
قال تعالى :

« وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ \* قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِآهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » (٧٦)

وقال :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفِينَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ \* وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » (٧٧)

(٧٦) الزخرف ٢٣/٤٣ ، ٢٤ .

(٧٧) البقرة ١٧٠/٢ ، ١٧١ .

لهذا كانت خطة التربية القرآنية لتغرس غرسها المبارك أن تتعهد أبناء المجتمع منذ نعومة أظفارهم بالتهذيب والتقويم حتى ينطبع في وجداناتهم أخلاقيات القرآن وتشع من نفوسهم أنوار الإيمان كما يشع الضوء الوهاج على الشمس المشرقة : يقول أحمد أمين في كتاب الأخلاق : « قوة الحكم الأخلاقي ترقى برقى الانسان فهو يولد وعنده جرثومة الحكم الأخلاقي تولد معه حسب قانون الوراثة ثم ينشأ في أسرته فيراهم يمدحون أشياء ويمدون أخرى ويكافئون على أعمال ويعاقبون على أخرى فينمو عنده الحكم الأخلاقي بذلك ويتبع أسرته في مدحها وقيمها ويستحسن من الأشياء ما مدح عليه ويستهجن ما ذم من أجله (٧٨) » .

والقرآن يستغل ما ركب في الانسان من حبه لأبنائه مما يجعله يدفع عنهم كل أذى ويتمنى لهم كل خير ونفع . . وليس بعد النار وعذابها وبال يدفع المرء اليه أبناءه . . أنظر الى القرآن وهو يذكر المؤمن بإيمانه ويناشده أن ينقذ نفسه وولده وأهله من هذه النيران فيقول :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » (٧٩)

وبين طريق هذه الوقاية فيقول :

« وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى » (٨٠)

(٧٨) الأخلاق : لأحمد أمين ص ٣٠ .

(٧٩) التحريم ٦/٦٦ .

(٨٠) طه ١٣٢/٢٠ .

ولعلنا نلمس في هذا التوجيه الالهي كيف جعل مهمة رب الأسرة أن يأمر أهله بالصلاة وأن يكون قدوة صالحة لهم وأن يواظب عليها ويؤديها كما أمر الله .. أما الرزق وطلبه .. أما السعي الذي يلهم عن دين الله طمعا في اسعاد الأولاد وتوفير الحياة المستقرة لهم فهذا جهل منه لأن السعادة والأمان في الايمان الذي يقدمه زادا لأبنائه لا في ما يوفره لهم من الأموال والمتاع ثم ان المال والرزق فضل من الله فكيف يجود بهما الانسان على غيره « نحن نرزقك » فهو مرزوق وليس رازقا فيجب أن يعلم أن العاقبة الحميدة والنهاية السعيدة لعباد الله المتقين .. نعم مهمة الأب أن يسعى ويكد ويجتهد ليحصل على قوته وقوت أولاده لكن يجب ألا يكون هذا ملهارة تشغله عن انقاذ أولاده من عوامل الفتن فيتركهم دون دين قويم وتربية صالحة رشيدة .. ومنهج الصلاة الذي أمر الله به أولياء الأمور أقوى مناهج التربية وأفضلها وهو الغذاء الروحي الذي يختلط بالحس والمشاعر .. فالطفل يفتح عينيه فيرى آياه وأمه واخوته وأخواته وأهله ذاكرين الله واقفين بين يديه فتنتطح هذه الصورة في ذهنه ويشب عليها يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله : « الفطر المرنة القابلة للتطور والترقى يجب أن يعتمد في تربيتها على ما ينطوى فيها من الصفات الكريمة والمشاعر النبيلة وأن يبدأ في تغذيتها منذ نعومة أظفارها بالغذاء الأدبي المعنوي اللائق بانسانيتها (٨١) » ..

ولهذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نأمر أولادنا بالصلاة لسبع وأن نضربهم عليها لعشر .. فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مروا أولادكم

(٨١) في الدين والأخلاق والقومية للدكتور محمد عبد الله دراز ص



بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع (٨٢) » ..

والصلاة التي يربى عليها المسلم بنيه وأهله تعرفهم كيف تكون تلك الصلاة منهجا متكاملا ينتهى به المسلم عن الفحشاء والمنكر .. كما تعلمهم كيف تكون مبادئ الاسلام وكيف ترفع دعائمه وتقام شعائره وأن ما بين أيديهم من هذه الذخيرة الحية التي تبعث الأحاسيس الميتة وتحبى الأمم من العدم لا تعادلها مبادئ ولا قيم ولا مناهج فيشب الطفل عزيزا قويا كريما واثقا مما معه من الحق وما عند غيره من الباطل .. ومثل هذه الشخصيات الفذة تحتاج الى قوة تعتصم بها حتى لا يغربها ضغط الباطل ولا تفرط فيما في يدها أمام عتوه وجبروته وانتفاخه .. ولعل هذا بعض ما يفهم من التعبير بالمضارع الدال على التجدد والاستمرار وتأكيد الفعل بالنون واقتترانه « بلا » الناهية واختيار أسلوب القصر وذلك في وصية الأنبياء لأبنائهم : اذ يقول تعالى :

« وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ \* أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (٨٣)

(٨٢) حديث حسن رواه ابو داود باسناد حسن .

(٨٣) البقرة ١٣٢/٢ ، ١٣٣ .

وإذا كانت هذه وسيلة التربية القويمة للأبناء كما انتهجها الأنبياء  
بتوجيه من الله فإنها شعار التوجيه الإلهي دائما للأمة المؤمنة قال تعالى :  
«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ  
إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ \* وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا  
تَفَرَّقُوا» (٨٤)

وتكرار هذه العبارة : « ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » في وصايا  
الحق جل جلاله دلالة على ما يلقاه المؤمن من مشقات وما يفرضه عليه من  
مجاهدات ليحيا على الاسلام ..

والطفولة التي تربت على الاسلام منها وقولا وعملا وقدوة  
في البيت والشارع ودور العلم في معاملاتها وفي مجتمعها هي وسيلة الأمة  
لتخريج جيل قوى في أخلاقه نبيل في قيمه .. رفيع في مبادئه .. سام  
في تفكيره .. وهذا أمل غال يحتاج الى يقظة الفكر وترنو اليه الأمم  
المتطلعة الى الرقى والتي ترى في أبنائها لبنات اذا صلحت أقيم عليها  
أقوى بناء وأجمله ..

ولهذا عرف المسلمون أن تحفيظ القرآن لأبنائهم من الوسائل التي  
تعين على تقويتهم واعتدال سلوكهم فكان هذا مطلبهم : فالطفل المسلم  
لا بد أن يحفظ قدرا من القرآن الكريم وكثيرون كانوا يحفظونه كله  
وأولئك هم الذين حفظوا تواتر القرآن وكان لهم حفظه كما قال تعالى :  
« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (٨٥)

ويرى الشيخ محمد أبو زهرة : « أن الطفل في هذه المرحلة يجب أن يعلم فرائض الاسلام الدينية والخلقية ويحفظ طائفة كبيرة من السنة النبوية التي تتعلق بمعاملة الناس بعضهم مع بعض وبما يتحلى به المؤمن من خلق كريم ، ومع هذه التربية المعنوية يربى على الرماية والسباحة واستعمال السلاح وركوب الخيل وبعبارة عامة يربى على ما يقوى جسمه وخلقه وعقله ودينه وبهذا تتجه التربية الأولى تربية نواح ثلاث : الناحية الدينية والناحية اللسانية والعقلية والاجتماعية والناحية الثالثة هي الناحية البدنية والعسكرية وبذلك تجتمع في الغلام منذ نعومة أظفاره دين قوى وعقل قوى وارادة قوية وجسم قوى وتكون بها كل المعانى الانسانية قوية متناسقة غير متنافرة (٨٦) » ..

وبعد .. فهذه هي الوسائل التي استطاع بها القرآن خلق جيل قوى يرتاد الطريق حين يرى أسوة صالحة متمثلة فيما عرفه من سيرة رسوله وفيما يرى من حوله فيعرف من أول أمره معنى المبادئ القوية التي تضي قوة وعزة على من تمسك بها ، وليس بعد هذا النجاح الهائل الذي حققه القرآن نجاح يمكن أن تغرس به الأخلاق الفاضلة في نفوس الناشئة من الجيل الجديد .

#### ٥ - احياء انسانية الانسان :

هذا الجيل العظيم الذي أقر دعائم الأخلاق الالهية ظاهرة فريدة في نوعها جديرة بالتأمل والبحث .. اذ أن الاسلام حين أشرق بضياؤه على ربوع مكة ومن بعدها شع سناه في أرجاء الأرض وجد أقواما عاشوا فترة طويلة من عمر الزمن تحت وطأة الجاهلية وأثقالها وتعودوا على ما رسمته من نظم للحياة فألفوها ومرنوا عليها .. ربوا عليها أطفالا

وعاشوا معها رجالا وشيوخا .. لكنهم على حذاء القرآن وندائه تغيروا  
وتبدلوا وكان لهم تلك المنزلة الرفيعة في اقرار أسمى خلق عرفته البشرية  
فكيف حدث هذا ؟

أطفال المسلمين الذين نشأوا على الاسلام ودربوا عليه حين يلتزمون  
بالمنهج القرآني ويشبون على الأخلاق الاسلامية لا غرابة في ذلك .. لكن  
وجه الغرابة في هؤلاء الذين تغيروا فيما يشبه المعجزة .. فكيف تغيروا ؟

لعل شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يحمله بين يديه  
من ترغيب وترهيب .. ولعل البيئة الصالحة التي أنشأها الاسلام ورسم  
معالمها وحى الله الذى تعهد تلك البيئة بتربيته على امتداد ثلاث وعشرين  
سنة الى أن قال :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ  
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (٨٧)

وقال :

« وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ  
نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » (٨٨)

لعل هذه القدوة الصالحة والبيئة الطاهرة قد أثرت في أخلاق القوم  
فنقلتها تلك النقلة البعيدة ..

(٨٧) المائدة ٣/٥ .

(٨٨) البقرة ٢٨١/٢ .

لكن مع هذا بقى رعييل عظيم فى صفاته وأخلاقه نبت وسط الأشواك والدموع والفساد الذى بسط أرديته على وجه الأرض فغابت فى ظلمات الشرك ، والجهل ، والكفر بنعمة الله .. نبت هذا الرعييل مع مطلع فجر الوحى وتجسست فيه صفات الصبر واليقين والتضحية والثقة فى النفس والكرامة الانسانية وتحمل من صنوف العذاب ألوانا ، وما استطاعت قوى الأرض وجبروت الكفر أن يجعل واحدا من هذا الرعييل يتحول عن مبدئه ويتنازل عن ايمانه ، انما كانت تكوى أجسادهم ، وتعذب أجسامهم بل تفيض أرواحهم وهم كالجبال الرواسى لا تميد ولا تضجر .. انما استعذبوا العذاب فى سبيل الله وأحسوا لذة الطاعة والفداء وتقربوا بكل هذا الى اله عرفوه فوحدوه ولم يعبدوا بعده شيئا أبدا .

ومرة أخرى كيف صنعت تربية القرآن هذا الصنف الممتاز من البشر ؟ وكيف نبت فى جو الفساد المعتم القاتم ؟

خلق الله الانسان وفيه استعداد للخير والشر وزوده بالاحساسات والآلات التى يتمكن من استخدامها فى البناء والتعمير كما يتمكن من استخدامها فى الهدم والتخريب .. وتلك القوى الضخمة التى جعلها الله للانسان ليكون خليفة فى الأرض وبها امتاز على سائر المخلوقات تحتاج الى قيادة : فان الخير رفعة والشر ضعة .. والانسان يميل الى الراحة والكسل واللهو والعبث لأنه سهل لا تكليف فيه ، ولا يجب البذل والفداء لأنها مسئولية وتضحية ، ومن هنا كان النجاح صعبا والرسوب سهلا ، فالأول جهاد ، والثانى قعود وعجز .. والقيادة الرشيدة التى يمسك بها العقل الرشيد تغلب الخير على الشر ، والبذل والعمل على الراحة والكسل ، والنجاح على الرسوب لأن فى الأول منها سعادة وفى الثانى تعاسة وشقاء ..

وهذا هو القرآن يسأل موبخاً ومنكراً : لم لا يستعمل الانسان ما أعطاه الله من وسائل يستطيع بها أن يسلك سبيل الخير في اجتياز ما يعترضه من عقبات حتى يصل الى قمة السمو البشرى فيقول :

« أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ \* وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ \* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ \* فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ \* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ \* فَكُّ رَقَبَةٍ \* أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ \* يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ \* أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ \* ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ \* أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » (٨٩)

واذن فالخير يحول دونه عقبة وعقبات ، وهو شاق على النفوس والانسان الذي أراد أن يتخطى العقبة الكئود وموقف الحساب العسير ، والنار الموقدة فلا بد له من المجاهدة ولا بد له أن يعطي ، وان يتحرر من رق الشهوات ، ويشعر بحاجات المحرومين والبائسين .. وبهذه المجاهدة وهذا التحرر يكون الانسان قد استعمل ما وهبه الله من ملكات وقدرات فيما خلقت من أجله وبهذا وحده تقاس انسانية الانسان والا كان كما قال الحق جل جلاله :

« لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » (٩٠)

(٨٩) سورة البلد ٨/٩٠ - ١٨ .

(٩٠) الاعراف ١٧٩/٧ .

وكما قال :

« أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » (٩١)

ولأجل أن يصنع القرآن هذا الصنف الممتاز الراقى في آدميته عند مباشرة الى هذه الانسانية الكامنة فأحيائها والى هذا الخير الدافق في النفوس فأيقظه فاستوى الانسان بشرا مفطورا على الخير صبورا على المحن ، رحيم بالخلق ، مقداما ، جوادا ..

هذه سورة «الانسان» مثال لهذه التربية : اذ هي تبين أن الله قد خلق الانسان سميعا بصيرا مستعدا للخير والشر اما شاكرا واما كفورا : وهذا الاستعداد المزود بامكانيات الاختيار ابتلاء من الله واختبار لانتصار النور على الظلام والخير على الشر والشكر على الكفران والجحود .. وهنا تتقدم التربية الالهية لتهد الكيان الانساني وتربطه بالله وحده وتعرض على حسه صورة للعذاب وللنعيم .. الأولى قاتمة مرعبة ، والثانية مشرقة مضيئة .. الأولى — بما تحمل من هذا الفزع — تقضى على نوازع الشر اذ يقول فيها الحق :

« إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْدِلَالًا وَسَعِيرًا » (٩٢)

ومن يطبق استعداد الله وترصده ؟ وأي نفس بشرية تحتل السلاسل والأغلال والسعير ؟ .. أما الصورة الثانية فهي المتجلية في هؤلاء الأبرار الأوفياء الذين استحقوا أن يفيض القرآن في وصف ما هم فيه من نعيم

(٩١) الفرقان ٤٤/٢٥ .

(٩٢) سورة الانسان ٤/٧٦ .

مقيم يشوق المرء الى تلك النعمة الرحيمة التي تجلى فيها رضوان الله .  
وكرمه وعطاؤه .

وفي وسط النعيم ومع الكأس والظلال .. والحرير والأرائك  
والقطوف الدانية والولدان المخلدة والملك الكبير ، والثياب الفاخرة ..  
ومع التكريم العظيم حين يستقيهم ربهم شراباً طهوراً .. مع هذا كله بيان  
لأسباب النعمة كلها ، والرضا كله ودفع بالانسان أن يتعلق بما اتصف  
به هؤلاء ليظفر بما ظفروا به ويسعد كما سعدوا .. فهم ما استحقوا هذا  
الا بعد أن وصلوا الى قمة الرقي الانساني وتجردوا الى الله وخشعت  
قلوبهم له ، وخافوا يوم الحساب العسير فهم القائلون :

« إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لِرُوحِهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا  
شُكُورًا \* إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا » (٩٣)

وهم وصلوا الى هذا بعد أن صبروا على كيد النفس والشيطان  
واتصروا على كل أنواع المغريات فأوفوا بعهدهم من الله وثبتوا على  
ايمانهم وتحملوا تكاليف العهد ومسئوليته . فحرموا أنفسهم الراحة  
الجسمانية لينعموا بالراحة الأبدية ..

وبالخوف من الله والصبر في كل شيء .. قال تعالى :

« فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا \*  
وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا \* مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى  
الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا \* وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ



ظَلَّلَهَا وَذَلَّلَتْ قُطُوفَهَا تَذْلِيلًا \* وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِسَانِيَةٍ  
 مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا \* قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ  
 قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا \* وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا \*  
 عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا \* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ  
 مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا \* وَإِذَا رَأَيْتَ  
 ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا \* عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ  
 وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا  
 إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ۝ (٩٤)

وإذا كانت هذه « لقطة » من سورة الانسان تبينا فيها منهج القرآن  
 في صناعة هذا النوع الانساني الفريد من الناس وكانت هذه اللقطة  
 « قرية من أسلوب القرآن في الترغيب والترهيب » فسورة الانسان  
 مثال رائع لطريقة القرآن في احياء انسانية الانسان وربطه بالكون وخالقه  
 ومع روعتها فلن ننسى القاعدة الكبرى التي أرسى القرآن دعائمها فلما  
 استقرت في القلوب حولتها وفتحت بصائرهما على الكون بما فيه ومن  
 فيه فشعر الانسان بانسانيته وأحس أنه جزء من هذا الوجود المربوب  
 لرب واحد والعابد لمعبود واحد .. هذه القاعدة الضخمة هي : الايمان  
 بالله ربا مدبرا والها خالقا وسيدا مبدعا .. ومع الايمان بالله ايمان بما  
 وراء ذلك من اليوم الآخر والملائكة والكتب والرسل والقدر خيره وشره  
 وارتباط وثيق بالسابقين واللاحقين .

وانها لمعان جديدة على أسماع البشر وان كانت قديمة قـدم الحياة .. وما ان عرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الفطر المستقيمة حتى استجابت للنداء .. وبذلك الاستجابة - التي وضعت بذرة الايمان في النفس - اتسعت مدارك الانسان وامتد أفقه وخرج من حدود الحيوانية والبهيمية وضيق النفوس والصدور الى سعة الانسانية ويسرها وامتداد الحياة وآفاقها .. ورأى بهذا الايمان فرقا شاسعا بين ما كان فيه وما يستمتع به من رحابة الفكر واتساع الكون .. وارتبط حسا وعقلا وادراكا - بالدنيا والآخرة والغائب والشاهد وما يرى وما لا يرى ..

وبهذا الايمان الذي ثبتت أركانه واستقرت جوانبه استطاع القرآن أن يغير أخلاق القوم وأن يشدهم الى التحلى بكريم الخصال. وأخذ يشير اليهم الى مظاهر القدرة في السماء والأرض والانسان والحيوان والبحار والأنهار والنجوم والكواكب وفي كل أمر يقول لهم :

« ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ » (٩٥)

وما ان أحيا كتاب الله هذا الانسان ونفخ فيه من روحه حتى عاد الى فطرته واتصّر على ضعفه واستوى قويا يدافع عوامل الغواية والفساد من حوله . وترفّع عليها ويأبأها في نفسه وفي أهله ويقاومها بكل ما يستطيع .. وليس من السهل على انسان أحياه الله وودبت فيه روح القرآن أن تنتصر عليه قوة في الأرض أو أن يؤثر في أعصابه ووجدانه طاعوت من طواغيت الكفر قال تعالى :

« أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي

( ٩٥ ) الانعام ١٠٢/٦ وانظر : وجود الله ووحدانيته في الباب الاول.

وما بعدها .

بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا  
كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٩٦)

وبعد ..

فهذه أهم الوسائل التي أخذ بها المنهج القرآني لغرس أخلاقه في  
النفوس وبدأت بالرسول الطاهر الكريم : قدوة الانسانية ورائدها الى  
الخير .. وتعهدت النفوس بالترغيب والترهيب ، وخلقت البيئة المناسبة  
التي أتاحت للأفراد التخلق بهذه الصفات .. كما تعهدت الطفولة الناشئة  
فدربتها وخرجت منها جيلا قادرا قويا - وعمدت الى انسانية الانسان  
فأيقظتها وحركتها - وأشرق الكيان الانساني بنور هذا القرآن فتغير وتبدل  
وتقدم الحياة والأحياء وهو أشرف مخلوق وأكرم انسان فغمر الكون  
بالأخلاق الفاضلة والتعاليم السامية والرحمة الشاملة ..

« هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا  
يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَآءِ الْآلَبَابِ » (٩٧)

• (٩٦) الأنعام ١٢٢/٦

• (٩٧) الزمر ٩/٣٩



# الباب الثالث

## القرآن .. والبناء الاجتماعي

مدخل :

الفصل الأول :

نظام الأسرة

الفصل الثاني :

التكافل الاجتماعي

الفصل الثالث :

المعاملات المالية

الفصل الرابع :

الحرية

الفصل الخامس :

المساواة

الفصل السادس :

نظام الحكم



## « مدخل »

الشخصية الايمانية التى ربها القرآن وتولاها بمنهج ومازال بها حتى غرس فى تربتها عقيدة راسخة فى الله لا تميد فاتصل العابد بالمعبود وشعر الانسان أنه جزء لا ينفصل من هذا الكون الذى يعيش فيه وأن مدبر هذا الكون هو أيضا الذى يدبر أمره ويشرع له فى حياته وما عليه الا أن يتلقى شريعة الله فى نفسه وأهله ومجتمعه بالقبول والرضا والاصرار على التنفيذ والاعتقاد فى سمو مصدرها ، وشرف مقصدها ، واحاطتها بكل أسرار النفوس واصلاحها لكل مجتمع مهما تغير الزمان وتبدلت الأيام .

وعلى هذه العقيدة يقيم منهج القرآن بناء أخلاقيا يتمثل فى طهارة القلوب من كل أدران الحقد والحسد وسوء النية ويتمثل فى طهارة الألسنة من الفحش فى القول ، والجهر بالسوء ، والغيبة ، والنميمة ، ويبدو مظهره فى طهارة الصلة التى ربطت بين المسلم وكل من يلقاه . فالأمانة ، والصدق ، والتسامح ، والكرم ، والنجدة ، والشهامة ، والمروءة ، والاحساس الرقيق الرحيم بحاجة الناس وضعفهم ، وكثير من الأخلاق التى تمكن القرآن أن يغرسها فى النفوس نبعت من أشرف منبع وأطهره : نبعت من ايمان بالله يرجى ثوابه ويخشى عقابه : يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ومثل هذا الانسان الذى تناولناه فى الباب الأول والثانى ورأينا كيف تربى عقائديا وخلقيا هو اللبنة الصالحة التى تكون منها وبها البناء الاجتماعى الذى بدأ فى صورة مجتمع الاسلام وفى صورته الختامية بعد أن استقرت أحكامه وانتظمت حياته وتمت عليه نعمة ربه قال تعالى :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ  
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » <sup>(١)</sup>

وإذا كنا في هذا الباب بحاجة الى دراسة هذا البناء العظيم في وضعه المستقرة بعد أن أصبح مجتمعا له صفاته المميزة فانا بذلك نرى لونا جديدا وفريدا كذلك في الطريقة التي أخرج بها كتاب الله هذا المجتمع الى الوجود لكنا في هذه الدراسة لا نستطيع أن نغفل العقيدة والأخلاق فهما خطان متلازمان يرتبط كلاهما بالآخر ويسريان في كل صورة يقيهما القرآن لمجتمعه صغرت أم كبرت .. وسواء في المجتمع الصغير في الأسرة أم المجتمع الكبير في الأمة فكلاهما جزء لا ينفصل عن جميع مظاهر أى بناء اجتماعى باعتبار أن الانسان الذى تمثلت فيه العقيدة والأخلاق جزء لا ينفصل من أمته .. ولعل هذا يبدو واضحا في تناولنا لهذا المجتمع حين نرى تخطيط القرآن له ، وفي كل خطة يرسمها يربط خيطها بالايان بالله ، ويحيطها بسياج متين من الأخلاق .

وإذا كان مفهوم البناء الاجتماعى عند علماء الاجتماع « يتضمن مبدئين أساسيين ومتكاملين : الأول هو مبدأ الاستمرار في الزمن ويصدق ذلك على الجماعات وعلى العلاقات الاجتماعية التى تؤلف البناء الاجتماعى ، فالجماعات الكبيرة التى تحتفظ لعدة أجيال بكيانها وبهيكلها العام ونظام تقسيماتها الداخلية ونمط علاقاتها بعضها ببعض تعتبر وحدات بنائية فى نظر كل علماء الاجتماع ، والأثرولوجيا بغير استثناء ، وذلك بعكس الزمر الاجتماعية المؤقتة أو السريعة الزوال التى يتفق معظم العلماء على اخراجها من البناء الاجتماعى وبالمثل تعتبر العلاقات الدائمة التى تقوم بين هذه الجماعات علاقات بنائية وتعبر عن



مواقف بنائية ، والمبدأ الثانى هو أن العلاقات الثابتة المستمرة التى تقوم بالضرورة بين الجماعات المتماسكة التى ينقسم اليها المجتمع تتخذ شكل أنساق ونظم تلعب دورا هاما فى الحياة الاجتماعية أو يقول آخر تودى وظيفة اجتماعية معينة كما هو شأن علاقات القرابة والعلاقات السياسية والعلاقات الاقتصادية وهذا معناه أن الدراسات البنائية لا يمكن أن تقف عند حد الاهتمام بالظواهر الاجتماعية من حيث هى كذلك وانما لابد لها من أن تدرس النظم والأنساق التى تتألف بدورها من ظواهر وعلاقات مشخصة ملموسة (٢) .

نعم اذا كان هذا مفهوم البناء الاجتماعى فان الصورة التى تقدمها من كتاب الله سوف تتناول عدة جوانب هامة ، تبدأ بالأسرة باعتبارها تنظيما اجتماعيا يقام عليه نظام الأمة كله . وهى المحضن الرئيسى للأجيال الناشئة ، والخلية الأولى فى البناء الاجتماعى ، كما نرى ألوان التكافل وشمولها للنشاط الانسانى ، وكيف ربط منهج القرآن المجتمع بأقوى رباط وأقدسه ، ولن نفعل جانب المعاملات لما لها من أثر ملموس فى حياة الأمم ... ثم بناء الكيان الانسانى كله على الحرية والمساواة ... وأخيرا ضمانات التنفيذ لتلك التشريعات الخالدة فى حكم اسلامى وحكومة قوية ... وهنا ندرس نظام الحكم فى منهج كتاب الله ونلمس دقة هذا التنظيم الذى صاغته يد القدرة الالهية فبدأ هذا المجتمع فى صورته المشرقة الفذة ، يواجه الحياة ليوجهها الى ما تصبو اليه ، من سعادة ورفعة ... ولذلك لابد من دراسة علاقة المجتمع الاسلامى بغيره من المجتمعات ونظرا لأهمية هذا الموضوع أفردناه بباب مستقل يلى هذا الباب .

(٢) البناء الاجتماعى - مدخل لدراسة المجتمع ج ١ - د. احمد

أما هنا فلن تخرج عن الخطة الرشيدة لبناء المجتمع الاسلامى فى  
 صلات أفراده الاجتماعية واقامتها على أسس متينة من العقيدة واحاطتها  
 بالأخلاق الفاضلة مما جعل هذه العلاقات نابضة بالحياة مشرقة بضياء  
 القرآن وجعل هذا المجتمع يبدو فى عظمته وسموه حيا متحركا ، والعالم  
 من حوله ميت ينتظر من يث فيه روح الله :

قال تعالى :

« مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ  
 هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » (٣) .

## الفصل الأول

### نظام الأسرة

- ١ - أساس البناء
- ٢ - الزواج رحمة
- ٣ - الزواج ميثاق وعهد
- ٤ - عشرة خالدة
- ٥ - دعائم السعادة
- ٦ - تباغض موهوم
- ٧ - النشوز ..
- ٨ - الطلاق ..
- ٩ - تعدد الزوجات
- (أ) الحرائر
- (ب) ملك اليمين والرقيق
- ١٠ - الأصول والفروع



## نظام الأسرة

### ١ - أساس البناء :

كتاب الله الخالد يفيض شرحا وتفصيلا .. وهداية في كل شأن له علاقة بالأسرة وقيمتها على الوضوح الكامل حتى لا يدع مكانا فيها للتصدع .. ولا يترك ثغرة يمكن أن ينفذ منها أحد لهدم هذا الأساس .

ومثل هذا الاسهاب في بيان أمور الأسرة دليل على أهمية هذا الكيان ووضعه في المكان اللائق به ، وذلك أنه أساس البناء الاجتماعي كله فاذا ما تطرق اليه الخلل والوهن هوى البناء وضاعت معالمه ، « ان البيت هو المؤسسة التي تدرب فيها كل سلالة أخلافها وتعددهم لتحمل تبعات التمدن الانساني العظيمة بغاية من الحب والمواساة والتودد والنصح .. فهذه المؤسسة لا تهيب الأفراد لبقاء التمدن البشرى ونموه فحسب - بل هي مؤسسة يود أهلها من صميم قلوبهم وأعماق صدورهم أن يخلفهم من هو خير منهم وأصلح شأنًا وأقوم سبيلا .. فالحقيقة التي لا تنكر على هذا الوجه : أن البيت هو جذر التمدن البشرى وأصله وأنه يتوقف على صحة هذا الجذر وقوته صحة التمدن البشرى نفسه وقوته ومن ثم نرى أول ما يهتم به الاسلام ويعتني به من وسائل الاجتماع انما هو أن يقيم مؤسسة البيت ويقرها على أصح الأسس وأقومها (١) .

وأول ما نلمسه في منهج القرآن هو غرس الشعور بما للزوجة من منزلة : فهي قطعة من نفس الرجل وجزء لا ينفصل عن تكوينه .

---

(١) نظام الحياة في الاسلام : لابي الأعلى المودودي ص ٤٥ ، ٤٦ .

واذا كان القرآن - وهو يربى الانسانية - يذكرها بأنها - بكل أفرادها - تعود في حقيقتها الى أصل واحد ، ونفس واحدة .. وأنها ما تكاثرت واختلفت شعوبا وقبائل لتتعدى وتتناكر وانما لتتعارف وتتآخى ، فانه أراد أن يربط بين الذكر والأنثى برابط التجاذب والتلاقى ، والاحساس في هذا التلاقى بالعودة الى جزء انفصل عن الآخر فترة ثم رجع اليه في شوق وحنين .. ولعل هذا بعض ما يفهم من افتتاح سورة النساء بهذا البيان :

قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » (٢)

.. وسورة النساء - كما يبدو من عنوانها وما اشتملت عليه من أحكام هامة في التشريع الاجتماعى لنظام الأسرة - حين تبدأ هذه البداية تؤكد لنا سر خلود الأسرة الاسلامية وأن العلاقة بين أفرادها « ليست صفقة تجارية بين شريكين في المعيشة ، ولا ضرورة لاسكات صيحات الجسد ، والاستراحة من غوايته الشيطانية ، ولا تسوينغ الشهوة بمسوغ الشريعة ، ولا هى علاقة عدمها خير من وجودها اذا تأتى للرجل أو للمرأة أن يستغنيا عنها (٣) » . ولكنها قبل هذا وبعده علاقة انسانية جديرة بالاحترام والتقدير فهى علاقة بين الزوج والزوجة وبين الزوجين والأبناء

(٢) سورة النساء ١/٤ .

(٣) الفلسفة القرآنية - للعقاد ص ٦٨ ، ٦٩ .

وبين هؤلاء جميعا والأبوين .. الا أنها مع هذه العلاقات المتعددة التى تشكل حجر الأساس فى البناء الاجتماعى وتشمل الزوجين والأبناء والآباء تبدأ فى حقيقتها باجتماع رجل وامرأة فى حياة واحدة ذات هدف مشترك : هو اثراء الحياة بمزيد من الحب والنسل الصالح ..

## ٢ - الزواج رحمة :

.. ولقد جعل القرآن الزواج آية من آيات الله بما أودع فيه من سر المودة والرحمة والهدوء والاستقرار .. وخير ما يعبر عن تلك المعانى قول الله سبحانه ،

« وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (٤) \*

« والسكن » كلمة لها جرس خاص توحى بما تحتاج اليه النفس من الراحة والاطمئنان .. « فلا زواج بغير مودة ورحمة ولا حكمة للزواج ان لم يكن ملاذا يأوى اليه الزوجان معا الى سكن يلقيان عنده أعباء الصراع العنيف فى الحياة الخارجة الى حين وخير الزواج ما استطاع أن يدبر للانسان كهفا آمينا يثوب اليه كلما ألجأته المكاسب والشواغل الى ظلاله وانه ليعيش من الدنيا فى جحيم موصول العذاب ان لم يكن له فيها ذلك الكهف الأمين وذلك الملجأ الحصين .. ومن قديم الزمن هيات الأمومة طبيعة المرأة لتدبير ذلك السكن وتزويده ب زاد المودة والرحمة (٥) ... » ولن ترى أبلغ من تعبير القرآن اذ يقول :

(٤) سورة الروم ٢١/٣٠ .

(٥) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه - للعقاد ص ١٧١ ، ١٧٢ .

« هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ » (٦) .

وليس بعد أن يصير كل منهما سترا للآخر يحميه من تقلبات الدهر ويدفع عنه كل سوء .. وبه يتزين الانسان ويبدو أمام المجتمع في مظهره الحسن الجميل .. ليس بعد هذا رحمة يمكن أن يطلبها انسان في الحياة ..

والمجتمع الذى ينظر الى الزواج نظرة احتقار وازدراء مجتمع مختل .. والفرد الذى يرى فى الزواج ضياعا وحملات ثقيلة وأن ما فيه من متاع لا يعدو متعة الجسد وهذه يمكن الحصول عليها من طريق سهل لا تكليف فيه .. هذا الفرد فى فطرته عوج وفى طبعه انحراف ، ولن يستقيم لانسان أمر ولن يستقر لأمة نظام وفوضى الجنس تصرف شبابها عن الزواج وتهدم عش الأمان والسعادة وتعدده سجنا رهيبا فيه الشقاء والعذاب ..

وكيف تستقيم الحياة بغير الزواج « والعلاقة بين الرجل والمرأة بغير الزواج لا تنتج نسلا واذا أنتجت نسلا لا تنتج قويا صالحا للالف الاجتماعى الذى يجعل من الأسرة لبنة فى بناء المجتمع .. وان التجربة العملية أثبتت أن الولد الذى يعيش بين أبويه يكون أقوى جسما وعاطفة من الأطفال الذين ينشأون فى الملاجئ » (٧) ..

.. فالنوع الانسانى ليس مجرد سلالة تتكاثر كما يتكاثر الحيوان والطيور وسائر الأجناس انما هو نوع له رسالة : هى الخلافة فى الأرض .. ومن ثم كانت العناية بتربيته حتى يؤدى تلك الوظيفة الجليلة ..

(٦) سورة البقرة ١٨٧/٢ .

(٧) تنظيم الاسلام للمجتمع للشيخ محمد ابو زهرة ص ٦٦ .



والزواج الذي أراده الاسلام رحمة بالانسان فردا وأمة .. فهو استقرار .. وتراحم وصلة بين القلوب .. والانسان الذي يجد هذه المعاني في حياته يعتبر الزواج رحمة وينمو عنده احساس بالواجب والمسئولية وتتسع نفسه لألوان من العواطف والقيم لم تكن لتوجد لولا هذه الصلة .. وأمة تجد عند أبنائها مثل هذا الرصيد الضخم وترى في أسرها أحضانا أمينة تربي أجيالها على الحب والرحمة وتهيئهم للحياة الاجتماعية السليمة أمة يجب عليها أن تيسر لشبابها سبل الزواج والعفة لأنه لها رحمة أيضا ..

يقول العقاد : « ومن ثم يراد الزواج - فضلا عن بقاء النوع - لتهديب النفس الانسانية واستزادة ثروتها من الرحم والرحمة ومن العطف والمودة ومن مساجلة الشعور بين الجنسين بما ركب فيهما من تنوع الاحساس وتنوع العاطفة وتنوع القدرة على الحب والايناس .. ولهذا كان اجتياز الزوجات مقصورا على النساء اللائي يوجدن المودة عن طريق العشرة الزوجية دون غيرها .. فلا زواج بين رجل وامرأة تتصل المودة بينه وبينها من طريق القرابة ومحارم الأسرة .. وكل النساء المحرمات في الزواج من هذا القبيل ..

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُنَّ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ يَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن

تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا  
رَحِيمًا» (٨).

فالغرض من شمول هؤلاء النساء جميعا بالتحريم ظاهر وهو زيادة ثروة الانسان من العطف والمودة وتعويده أن يعرف ألوانا من الشعور غير شعور الذكور والاناث في عالم الحيوان .. وكل هؤلاء القريبات أو أشباه القريبات قد جعلت المودة بينهن وبين أقربائهن من الرجال فلا موجب لخلطها بالمودة التي تنشأ من العلاقة الجنسية ولا لتعريضها للجهلاء الذي يعرض أحيانا بين الأزواج والزوجات (٩) « ..

### ٣ - الزواج ميثاق وعهد :

ولهذه المنزلة الرفيعة التي جعلت الزواج في نظام الأسرة أساسا للبناء الاجتماعي واعتبرته رحمة تشمل الفرد والمجتمع جاء وحى الله يؤكد تلك الصلة ويربطها برباط قوى متين . فجعلها صلة ميثاق وعهد تأبى النفوس التي يناديه ربها بالايمان أن تنقض هذا الميثاق لأنه ليس ميثاقا سهلا وعهدا يقبل الرجوع بل هو ميثاق غليظ .. ولم لا يكون كذلك وليس بعد أن يفضى الرجل الى المرأة وتفضى اليه تلاق للقلوب وكشف للمستور ؟ .

وهذا بعض ما يفهم من قول الله تعالى :

« وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُم إِلَىٰ بَعْضٍ  
وَأَخَذْنٰ مِنْكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا » (١٠).

(٨) سورة النساء ٢٣/٤ .

(٩) الفلسفة القرآنية - للعقاد ص ٦٩ ، ٧٠ .

(١٠) سورة النساء ٢١/٤ .

« فهو استنفهام انكارى لمن يحاول أن يأخذ شيئاً من المهر بعد أن أفضى لزوجته وأفضت اليه » وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » .. وفى ترك الفعل - أفضى .. هكذا دون ذكر متعلقه ما يبين قدر هذا العهد : فالكلمة الحانية والنظرة الهادئة واللمسة الرقيقة والعتاب الرقيق والتشاور فى مواجهة الأيام وتدبير المعاش وإطلاع أكل واحد على ما لا يجوز أن يطلع عليه أب أو أم ، والمباشرة الحلال ، ولذة الأُنس المتبادلة ، كل ذلك وأكثر من ذلك افضاء .. فهو ميثاق ، وميثاق غليظ عند الله وفى واقع الحياة .. يقول الزمخشري : « والميثاق الغليظ : حق الصحة والمضاجعة كأنه قيل : وأخذ الله به منكم ميثاقاً غليظاً : أى بإفضاء بعضهم الى بعض ووصفه بالغلظ ، لقوته وعظمه فقد قالوا : صحة عشرين يوماً قرابة .. فكيف بما يجرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج (١١) » ?? .

وهذه ليست صحة عشرين يوماً أو عشرين سنة انما هى صحة العمر .. وفى كل لحظاتها تجديد عهد وأخذ لميثاق .. ولو رجعنا الى هدى القرآن نرى على ضوءه مدى قوة هذا الميثاق وصلته بما بين الزوجين لوجدنا أن القرآن لا يعبر بهذا اللفظ الا فى الأمور الجليلة ذات الصلة بالعقيدة أو ما اتصل بها قال تعالى :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » (١٢) .

(١١) تفسير الكشاف - للزمخشري ج ١ ص ٣٨٨

(١٢) سورة البقرة ٨٣/٢ .

وقال :

«وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ» (١٣)

وفي العهد الذي أخذه الله على الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وينصروه يقول :

«وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (١٤)

.. وعهد التوحيد وتقريره بين أجيال الانسانية عهد وميثاق أخذه الله على كل الرسل :

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا» (١٥) .

• (١٣) سورة آل عمران ١٨٧/٣

(١٤) سورة آل عمران ٨١/٣

• (١٥) سورة الاحزاب ٧/٣٣

وتقضى هذا الميثاق من الأمم كفر بالله يستحق الطرد والابعاد :  
يقول الله في بنى اسرائيل :

« وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا  
الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ  
مِيثَاقًا غَلِيظًا \* فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْهُمْ بِنَاءِ يَتِ اللَّهِ  
وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ  
اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا » (١٦).

ويقول في الكفار جميعا الذين يفسدون في الأرض :

« وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ  
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ  
لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » (١٧).

أما الوفاء بهذا العهد الالهى فهو أول صفة للمؤمنين المهتدين يقول  
القرآن :

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ  
هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ \* الَّذِينَ يُوفُونَ  
بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ \* وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ

اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشُونَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ \*  
وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا  
مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ  
أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ « (١٨) .

الى غير ذلك من الآيات التى تبين أن هذا الميثاق لا يكون الا فى  
المسائل الهامة ذات الصلة الوثيقة بالله ورسله ..

فاذا ما قال الله للأزواج ان هذا العقد ميثاق غليظ خشعت قلوبهم  
وعلموا أن هذا أمر خطير لا يقوم على نقضه الا كل جاحد لنعمة الله ،  
لا يرعى حقوق ربه ولا يعرف لها مقامها الرفيع ..

يقول الشيخ شلتوت : « واذا كان المتبع لكلمة « ميثاق »  
ومواضعها التى وردت فيها لا يكاد يجدها تأخذ مكاتبتها فى التعبير  
القرآنى الا حيث يأمر الله بعبادته وتوحيده والأخذ بشرائعه وأحكامه  
فانه يستطيع - وقد جاءت فى شأن الزواج - أن يدرك عن طريق قريب  
المكانة السامية التى وضع الله الزواج فيها وجعله فى التعبير عنه صنوا  
للايمان بالله وشرائعه وأحكامه (١٩) » •

(١٨) سورة الرعد ١٩/١٣ - ٢١ .

(١٩) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ١٥٩ .

## ٤ - عشرة خالدة :

.. وهذا لون آخر من منهج القرآن في تكوين الأسرة ونظامها لم  
تصل اليه حضارة أرضية الى يومنا هذا .

.. وهذا اللون يتشكل من عقيدة المؤمنين في الله واليوم الآخر  
وأن الحياة طريق واحدة ذات مرحلتين ، أولى : على ظهر الأرض يؤدي  
فيها المجتمع المؤمن وظيفة الاستخلاف في الأرض ثم ينتقل بعد الموت  
الى المرحلة الأخرى وهى مرحلة الخلود الأبدى الأزلى اما في الجنة أو  
في النار ..

وعقيدة البعث والحساب وما في هذه المرحلة الثانية من المواقف  
هى مفترق الطرق بين الايمان والكفر كما هى أول دليل على هداية  
المهتدين قال تعالى :

«ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ \* الَّذِينَ  
يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ \*  
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ  
وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ \* أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ  
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٢٠)

وصلة الرجل بامرأته تنبع من هذا المعين الطاهر فهى ليست صلة  
أيام أو سنين يقضيانها على هذه الأرض ولكنها عشرة خالدة باقية تمتد  
مع خطوات الطريق كله وتواكبه في أولاه وآخره وتتصل هذه العلاقة

في الآخرة كما كانت متصلة في الدنيا وان كان الحق تبارك وتعالى ينفي عن الزوجة في الآخرة ما يعرض لها من حيض وثقاس وسوء طبع ..  
ويجتمع لدى المؤمن زوجاته من الحور العين وزوجته أو زوجاته من نساء الدنيا .. ولكن يجب أن ندرك أنها صلات مبرأة من الأحقاد والضغائن كما هو شأن أهل الجنة جميعا .

قال تعالى :

« وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ » (٢١).

يقول القرآن في نعيم المؤمنين في الجنة :

« كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » (٢٢).

ويقول :

« مُتَكَبِّينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » (٢٣).

ويقول :

« وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٢٤).

(٢١) سورة الحجر ٤٧/١٥ .

(٢٢) سورة الدخان ٥٤/٤٤ .

(٢٣) سورة الطور ٢٠/٥٢ .

(٢٤) سورة البقرة ٢٥/٢ .



•• والمراد بتطهير الأزواج : « أن طهرن مما يختص بالنساء من الحيض والاستحاضة وما لا يختص بهن من الأقدار والأدناس ويجوز لمحيته مطلقا أن يدخل تحته الطهر من دنس الطباع وطبع الأخلاق الذي عليه نساء الدنيا مما يكتسبن بأنفسهن ومما يأخذنه من أعراق السوء والمناصب الرديئة والمناشيء المفسدة ومن سائر عيوبهن ومثالبهن وخبثهن وكيدهن (٢٥) » .

« وذكر عبد الرازق قال أخبرني الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد : « مطهرة » قال : لا يبلن ولا يتغوط ولا يلدن ولا يحضن ولا يمينن ولا يبصقن (٢٦) » .

وفي تفسير الجلالين : « ولهم فيها أزواج » من الحور العين وغيرها •• « مطهرة من الحيض وكل قدر (٢٧) » . وفي هذا النعيم وتلك الحياة الخالدة يقول القرآن أيضا :

« لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » (٢٨)

وينادى المؤمنين :

« يَعْبادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ \*

(٢٥) تفسير الكشاف - للزمخشري ج ١ ص ٢٠٣ .

(٢٦) تفسير القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ص ٢٠٧ .

(٢٧) تفسير الجلالين - بهامش تفسير البياضى ج ١ ص ٣٦ .

(٢٨) سورة آل عمران ١٥/٣ .

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ \* أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ  
 أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ» (٢٩).

« وهن الزوجات المؤمنات (٣٠) » .

« يقول عمار بن ياسر رضى الله عنهما فى شأن عائشة أم المؤمنين  
 رضى الله عنها : والله انى لأعلم أنها زوجته فى الدنيا والآخرة » ذكره  
 البخارى (٣١) .

ويبين الله نعمة هذا الخلود فىقول :

« إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فى شُغْلٍ فَكِهُونَ \* هُمْ  
 وَأَزْوَاجُهُمْ فى ظِلِّلى عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ \* لَهُمْ فِىهَا  
 فَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ \* سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ » (٣٢).

وإذا كانت صلة الايمان قد جمعت هؤلاء فى الجنة فان صلة الكفر  
 بالله قد قرنت بين الكفار وأزواجهم فى الجحيم قال تعالى :

« أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ \*  
 مِّن دُونِ اللَّهِ فَاهْلُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » (٣٣).

(٢٩) سورة الزخرف ٦٨/٤٣ - ٧٠ .

(٣٠) الفتوحات الالهية : للعلامة الجمل على الجلالين ص ٩٤ ج ٢

تفسير البيضاوى على الجلالين ص ٢٩٥ ج ٢ .

(٣١) تفسير القرطبى : الجامع لاحكام القرآن ص ٢٠٦ .

(٣٢) سورة يس ٥٧/٣٦ - ٦١ .

(٤٣) سورة الصافات ٢٢/٣٧ ، ٢٣ ، ٢٤ .

والمقصود بأزواجهم كما قال النسفى ، أشباههم وقرنائهم من الشياطين أو نساؤهم الكافرات (٣٤) .

لكن يرجح الرأى الثانى : أن الله حين عرض نعيم المؤمنين ليغيط به الكافرين فى نفس سياق الآيات من السورة قال :

« وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ \* كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ » (٣٥) .

فحين يتوجه النداء الى المؤمنين بأن يدخلوا الجنة مع أزواجهم المؤمنات تكون حسرة الكافرين حين يؤمرون بأن يحشروا هم وأزواجهم فى النار وهى صورة متقابلة لها مدلولها وإيحائها فى سياق آيات القرآن الكريم حين يعرض صور الثواب والعقاب .

وهذه الحياة الممتدة تحيط بالأسرة وتجمعها هناك فى الآخرة فاذا بالآباء والأبناء والزوجات قد شملهم هذا النعيم وامتدت صلاتهم أبد الآبدين قال تعالى :

« جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ \* سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ » (٣٦)

(٣٤) تفسير النسفى ج ٤ ص ١٩ .

(٣٥) سورة الصافات ٤٨/٣٧ ، ٤٩ .

(٣٦) سورة الرعد ٢٣/١٣ ، ٢٤ .

وما هم أولاء حملة العرش يستغفرون للذين آمنوا وينادون المولى  
جل جلاله قائلين :

« رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ  
تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ \* رَبَّنَا  
وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ  
وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* وَقِهِمُ  
السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ وَذَلِكَ هُوَ  
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (٣٧) .

وعطف الله يشمل كل أفراد الأسرة فيرفع المقصر الى منزلة المؤمن  
الكامل اكراما لرابطة الايمان التي جمعتهم في الدنيا ولا ينبغي أن  
يتابعوا في الآخرة .. قال تعالى :

« مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ \*  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ  
ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا  
كَسَبَ رَهِينٌ » (٣٨) .

(٣٧) سورة غافر ٧/٤٠ - ٩ .

(٣٨) سورة الطور ٥٢/٢٠ ، ٢١ .

قال الزمخشري : « والذين آمنوا معطوف على حور عين أى قرناهم بالحور والذين آمنوا أى بالرفقاء والجلساء منهم كقوله : « اخوانا على سرر متقابلين » فيتمتعون تارة بملاعبة الحور العين وتارة بمؤانسة الاخوان (٣٩) » .

وفى القرطبي : « وعن ابن عباس : ان كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء الى الآباء وان كان الأبناء أرفع درجة رفع الله الآباء الى الأبناء فالآباء داخلون فى اسم الذرية كقوله تعالى : وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون .. وعن ابن عباس أيضا يرفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم قال : اذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال : انهم لم يدركوا ما أدركت .. فيقول : يارب انى عملت لى ولهم فيؤمر بالحاقهم (٤٠) » .

ورفعة كل الى درجة الآخر تفضل من الله على عباده كما قال تعالى : « وما ألتناهم من عملهم من شيء » . أى « وما نقضناهم من عملهم من شيء بهذا اللاحق فانه كما يحتمل أن يكون بنقص مرتبة الآباء باعطاء الأبناء بعض ثوبتهم يحتمل أن يكون بالتفضل عليهم وهو اللائق بكمال لطفه (٤١) » .

وليس بعد هذه الصلة الوثيقة التى ترتبط مع الزمن فى بدايته وقبل بدايته وبعد نهايته الى الخلود الأبدى يمكن أن تكون هناك صلة أوثق منها تجمع بين الناس .. فهى عشرة خالدة بدأت باسم الله وسارت على هذا الدرب ، فكان الأبناء نتيجة لقاء طاهر حلال بين زوجين بدأه

(٢٩) الفتوحات الالهية للعلامة الجمل ج ٤ ص ٢١٥ .

(٤٠) الفتوحات الالهية للعلامة الجمل ج ٤ ص ٢١٦ .

(٤١) تفسير البيضاوى : انوار التنزيل واسرار التأويل ج ٢ ص ٣٣٨

باسم الله أيضا وذهبت هذه الأسرة بعد أن عبرت القنطرة الفاصلة بين الدنيا والآخرة فإذا بها تتلاقى عند هذا الاله الذى عاشت من أجله وتحركت باسمه وأدت حياتها على هدى من نوره ووجيه : تتلاقى فى ود وصفاء يغمرها النعيم الالهى والكرم الربانى ، وما أقوى هذه العلاقة وما أعظمها من صلات لا تقرب ساحتها ما اخترع البشر من وسائل اللقاء والمحبة والصدقة : فصلاتهم مرتبطة بالأرض وهى تراب وبالدنيا وهى فانية زائلة ، لكن الصلات التى جعلها هدى الله بين أفراد الأسر باقية خالدة لأنها متصلة بالله وحده .. وفرق بين الفانى والباقى وبين الأرض والسماء وبين هدى الله وتفاهاات العقول وعجزها .

#### ٥ - دعائم السعادة :

هذه الأسرة التى جعلها منهج القرآن أساس البناء ، وأقامها على دعائم الرحمة والسكن النفسى ، ووثق العلاقة بين أفرادها بميثاق وعهد لا ينفصمان بل كانت هذه الصلات أبدية أزلية تمتد مع الحياة بكل مراحلها فى الأولى والآخرة .. مثل هذه الأسرة الجديرة بكل هذا الاهتمام لم تترك لأهواء النفوس وعواصف الأغراض .. ولم تقم العلاقة فيها على التطوع القائم على الفهم لمدى عمق تلك الصلات فحسب ، إنما أرسى لها القرآن - بجانب هذا الفهم - دعائم ثابتة واضحة المعالم وحدد لكل طرف فيها ما له وما عليه من حقوق وواجبات وضمن للجميع حياة آمنة مستقرة استردت المرأة بهذه الضمانات والحقوق المرعية ما سلبته المجتمعات المنحرفة منها من حق الحياة الانسانية الكريمة اللائقة بها باعتبارها بنت وأم وزوجة وعضو من أهم أعضاء المجتمع ، يكون نصف المجتمع الانسانى على امتداده واتساعه ان لم يزد عليه .

.. وأول خطوات الطريق تبدأ من « الخطبة » .

وهي في نظر الاسلام قائمة على اقتناع كل بما لدى الآخر من مواهب خلقية وجمالية واجتماعية .. والمزايا الخلقية والاجتماعية يمكن معرفتها عن طريق الاستقصاء لمثل هذه الأحوال .. أما المزايا الجمالية : فان رؤية كل للآخر عامل هام في دوام المحبة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم للمغيرة بن شعبة لما خطب فتاة : « .. هل نظرت اليها ؟ قال : لا فقال له عليه السلام : انظر اليها فانه احرى أن يؤدم بينكما (٤٢) » .

... والنظرة الى المخطوبة حد وسط بين الافراط في الجمود وحجب الفتاة أن يرى منها من أراد الزواج بها ما يرغب فيها وأن تراه هي حتى تكون على بينة من أمرها . وبين التفريط في الاختلاء والخروج للأماكن الخاصة والعامة دون رقيب مما يؤدي الى كوارث اجتماعية ومساوئ خلقية كلها نتيجة الانحراف عن هدى الله وهدى رسوله عليه السلام ..

والخطبة تقوم على المبادئ الاسلامية في محافظتها على الروابط الانسانية فلا تجوز خطبة الرجل على أخيه في الايمان .. « لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه (٤٣) » كما لا يجوز خطبة المعتدة ففى ذلك اثاره للعداوة بين الناس .. وربما راجعها زوجها .. ولن تجد دينا يحفظ الود ويقوم على الوفاء كالاسلام .. لهذا لا يجوز خطبة المعتدة لوفاء زوجها تصريحاً . أما التعريض بذلك فجائز .. وفرق بين التصريح والتعريض .. قال تعالى :

« وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ

(٤٢) سبل السلام ج ٣ ص ١١٣ والحديث رواه الترمذى والنسائى

(٤٣) رواه أحمد والبخارى والنسائى .

وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» (٤٤).

•• ومع الاقتناع يكون الاقدام على الزواج ، ويبدأ بالعقد الذى لا اكراه فيه ولا اجبار انما أساسه رضا الطرفين •• وان كان الله قد علم أن الفتاة فى سنها المبكر ربما لا تحسن الاختيار فجعل لها وليا ترجع اليه فى الرأى الا أن هذا الولي ليس له اجبارها على الزواج بمن لا ترغب •• روى البخارى : أن فتاة قد جاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ان أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع خسيسته فجعل صلى الله عليه وسلم الأمر اليها فقالت : قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء ••

يقول الدكتور عبد الرحمن الصابونى رئيس قسم الشريعة الاسلامية بجامعة حلب : « على أننا نرى مع هذا ضرورة استئذان الولي جمعا بين الأدلة فقد ورد عنه عليه السلام : « أيما امرأة أنكحت نفسها بغير اذن وليها فكأحيا باطل » •• هذا فضلا عما نشاهده اليوم من استقلال بعض الفتيات بتزويج أنفسهن وما ينتج عن هذا من نتائج سيئة تعود على الولي والأسرة والمجتمع بالندم والخسران والضرر (٤٥) » ••

(٤٤) سورة البقرة ٢/٢٣٥ ••

(٤٥) نظام الأسرة وحل مشكلاتها فى ضوء الاسلام للدكتور عبد الرحمن الصابونى ص ٣٢ ••



ويرى الشيخ محمد أبو زهرة ، « أن ليس للزوجة أن تنفرد باختيار الزوج الا اذا أراد الولي مضايقتها وكان الزوج كفتاً .. وقد قرر أبو حنيفة : أن المرأة لها أن تنفرد باختيار الزوج وأن تزوج نفسها من غير رضا وليها مادامت بالغة عاقلة (٤٦) » .

وهذا العقد الذى يتم بالايجاب والقبول وبحضور شاهدين وليس فيه توقيت : فما خلق عقد الزواج ليكون مؤقتاً ، ولا شرط فاسد ، فأساس العقد يجب أن يكون قويا .. هذا العقد المؤبد المؤكد يسن اعلانه فى المجتمع وبه يتم ميلاد أسرة جديدة تترسم خطا الوحي الالهى الذى جمع كل دعائم سعادة الأسرة فى عبارة واحدة فقال :

« وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ » (٤٧)

فلها حق المهر وهو « منحة تقدير تحفظ حياءها وخبرها يتقدم بها الزوج معبرا عن تقديره اياها ورغبته فى اتمام الزواج بها وقد حثت الشريعة على يسره وعدم المغالاة فيه .. وبه تشرح الصدور وتقوى الألفة وتطيب الحياة (٤٨) » . قال تعالى :

«وَعَاتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا» (٤٩) .

(٤٦) تنظيم الاسلام للمجتمع للشيخ محمد أبو زهرة ص ٨٩ .

(٤٧) سورة البقرة ٢/٢٢٨ .

(٤٨) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ١٦٧ .

(٤٩) سورة النساء ٤/٤ .

وهذا المهر دين في ذمة الزوج للزوجة ، لها أن تمتنع عن الانتقال الى بيت الزوجية حتى يقدم لها معجل الصداق .. فان طلقها قبل الدخول والخلوة الصحيحة ولم يسم مهرا وجبت لها متعة لا ارهاق فيها ولا عنت ، فهي على قدر الوسع قال تعالى :

« لَأَجْنَحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ \* وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٥٠).

ونظام الاسلام في هذا ليس له مثيل فهو يخلق من الفشل نجاحا ، ولا يجعل الزواج الذي اعترته مشاكل الحياة فلم يتم وسيلة للعداوة والبغضاء ، انما يسكب عليه رحيقا من المودة والصلة ويلزم الزوج بمتعة أو جزء من المهر اعلانا للأسى والأسف من جانبه .. ولا يدع الزوجة أو وليها دون التذكير بالله وتقواه ، ويندبهما للعفو والاحسان عما لزم الزوج من هذا الحق .. وهو - بلا شك - عفو القادر المتسامح لا تنازل المكروه المضطر الذي أصيب في عرضه وشرفه .. ويذكر الجميع بالفضل الذي تبقى آثاره : « ولا تنسوا الفضل بينكم » .. ومع هذا

التذكير ارهاب للقلوب عساها أن تخشع منه فتخلص في اخائها ومودتها  
« ان الله بما تعملون بصير » • فهو المطلع على السرائر ، يحاسبها عما  
قدمت وأخرت •

واذا كان حق المهر مؤكدا لها فان الحق الذي لا شبهة فيه أيضا  
هو : الاتفاق عليها واعاشتها وتوفير الحياة المستقرة لها من مسكن ومأكل  
وملبس •• أما أموالها وممتلكاتها الخاصة فليس لأحد سلطان عليها في  
ذلك ، انما لها مطلق الحرية فيما تحت يدها وعلى زوجها توفير متطلباتها  
وحمايتها والاتفاق على أولاده منها •• بل بالغ القرآن في الزام الرجل  
بكل نفقة فجعل ارضاع الأم لولدها تطوعا منها لا فرضا عليها •• ومن  
حقها أن تتقاضى عليه أجرا أو يبحث الأب عن مرضعة لولده قال تعالى :

« وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ  
أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ  
بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ  
بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ  
أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا  
وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ  
إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ  
اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٥١).

وقال جل شأنه :

«وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ  
حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأُتِمِرُوا  
بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسْتَزْضِعْ لَهُ أُخْرَىٰ \*  
لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ  
مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ  
بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا» (٥٢).

وهذه الآيات وإن كانت في سياق أحكام الطلاق وما يجب للزوجة من رعاية وحماية وأن الزوجة في ظروفه مصانقة مكربة .. كما هي دائما مصونة مكربة — لا تتحمل نفقة ولد لا ينسب اليها انما ينسب لأبيه ومن واجب هذا الأب الاتفاق عليه وعليها في أثناء الحمل والرضاعة .. لكن هذا التشريع الخالد فريد في منهجه وما كانت المرأة في عصر من عصورها تتطلع الى مثل هذا الحق أو قريب منه لولا اكفالة الاسلام لكل هذه الحقوق ..

يقول الامام محمد عبده : « هذه الدرجة التي رفع النساء اليها لم يرفعهن اليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع بل لم تصل اليها أمة من الأمم قبل الاسلام ولا بعده .. وهذه الأمم الأوربية التي كان من تقدمها في الحضارة والمدنية أن بالغت في احترام النساء وتكريمن ، وعنيت بتربيتهن وتعليمهن الفنون والعلوم ، ولا تزال المرأة فيها دون

هذه الدرجة التي رفعها الاسلام اليها ، ولا تزال قوانين بعضها تمنع المرأة من حق التصرف في مالها دون اذن زوجها ، ذلكم الحق الذي منحتة الشريعة الاسلامية للمرأة من نحو ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، فلم تبح للرجل أن يأكل من مالها - فضلا عن تملكه والتصرف فيه ، الا اذا كان عن طيب نفس منها « فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » . وقد كان النساء في أوروبا منذ خمسين سنة بمنزلة الأرقاء في كل شيء كما كن في عهد الجاهلية عند العرب أو أسوأ حالا . . الى أن قال : وقد صار هؤلاء الأفرنج الذين قصرت مدنيتهن - ولا أقول دينهم الذي جاء به المسيح - عن شريعتنا في اعلاء شأن النساء - يفخرون علينا بل يرموننا بالهمجية في معاملة النساء ويزعم الجاهلون منهم بالاسلام ان ما نحن عليه هو أثر ديننا<sup>(٥٣)</sup> . . . ومع كل هذه الحقوق فلها حق العدل : لا يظلمها ولا يجور عليها انما يعاشرها بالمعروف - واذا كان في عصمته غيرها وجب عليه أن يسوى بينها وبين غيرها في البيت والنفقة ، وهو العدل المطالب به من أراد التزوج بأكثر من واحدة وفيه يقول الله تعالى :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا » (٥٤) .

(٥٣) نقلا عن كتاب الشيخ شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة ص ١٦٧

(٥٤) سورة النساء ٣/٤ .

أما الميل القلبي فلا يمتلكه انسان ولا شيء فيه لكن بشرط ألا يظهر في سلوك الزوج فيظلم من لا يميل اليها قال تعالى :

« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً » (٥٥).

أما الزوج الذي ألزمه وحى الله بكل هذا فله على زوجته « حق الطاعة فلا تخرج من بيته الا باذنه ، ولا تنصرف في ماله الا باذنه ، وللزوج حق قيادة الأسرة وتوجيهها قال تعالى :

« الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » (٥٦).

وليس هذا لضعف او انتقاص في جنس النساء وانما هو التساوى العادل « والتسوية بين الحقوق والواجبات هي العدل الذي فرضته الفلسفة القرآنية للمرأة وهو وضع المرأة في موضعها الصحيح من الطبيعة ومن المجتمع ومن الحياة الفردية (٥٧) » ..

وتلك القوامة التي جعلها الله للرجال مشروطة بشرطين : التفضيل في المواهب والاستعدادات ، والاتفاق على الزوجة .. « فالقوامة التي فرضها الاسلام للرجال على النساء هي - اذن قيادة يجب أن تتوافر فيها

(٥٥) سورة النساء ١٢٩/٤ .

(٥٦) سورة النساء ٣٤/٤ .

(٥٧) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٥٠ .

ما يتوافر في كل قيادة رشيدة . فالقائد يجب أن يكون أفضل من في الجماعة التي يقودها وأن يكون أهلاً للمسئولية عن قيادتها .. وعلي ذلك يجب أن تتوافر في قوامه الرجل على المرأة الشروط الآتية :

- ١ - أن يبلغ مبلغ الرجال سناً وادراكاً .
- ٢ - أن تتوافر له صفة الفضل أو التفضيل .. فالرجل الفاسد أو المجرم المطارد أو فاقد الحرية لا قوامه له على المرأة الصالحة .
- ٣ - أن يقوم بواجبه في الاتفاق على من يعوله من النساء (٥٨) ..

ومع أن الله قد جعل للرجل حق قيادة الأسرة فإنه لم يجعلها قيادة مستبدة إنما أقامها على التشاور والتراضي . وعند التنازع لابد من حسم الموقف بكلمة من القائد حتى لا يتهدم البناء .. « فالأسرة المسلمة لا تعرف الاستبداد بالرأى ولا الظلم في المعاملة ولا الطاعة العمياء بل هناك حقوق وواجبات ، اذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق بل الطاعة للشرع فطاعة الزوجة لزوجها ليست لشخصه بل للأوامر والقواعد والنظم التي بموجبها تم عقد الزواج .. وطاعة الزوج ليست من قبيل المن أو العطف بل من قبيل القيام بالواجب (٥٩) » ..

وبهذه الحقوق المتبادلة تقام الأسرة على دعائم قوية وينطلق الزوجان لأداء مهمتهما في الحياة دون حواجز أو قيود الا ما أقره منهج القرآن من آداب ومبادئ يلتزم بهما مجتمع الاسلام وفي حدود ذلك يكون سلوك الناس العام والخاص وتستطيع الزوجة في ضوء الاسلام أن

(٥٨) حقوق المرأة في التشريع الاسلامي والدولي والمقارن لحسنی نصار المفتش بوزارة العدل ص ١١٣ .

(٥٩) نظام الاسرة وحل مشكلاتها في ضوء الاسلام للدكتور عبدالرحمن الصابوني ص ٣٦ .

تباشر حقوقها السياسية والاجتماعية والاقتصادية مادامت قد خرجت  
محتشمة ساترة لجسدها لا تبدو منه عورة ..

ومادام القرآن قد أباح لها أهلية التصرف وندبها الى مادعا اليه  
الرجال من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة الى الخير والمشاركة  
في الأعمال الصالحة وحضور الجماعات ومجالس العلم وأعطاها أجرها  
على كل هذا كاملا دون نقص فلا شيء عليها اذا أدت حق زوجها ومجتمعها  
وتراضى الزوجان على ذلك وانتظمت حياتهما واستقرت أحوالهما ..  
« وليس من ريب في أن التعاليم القرآنية والنبوية تهيم لأولى الأمر في  
الدولة وسيلة عقيدية لتنظيم الأمر وجعله في دائرة الحق والمنطق والآداب  
من جهة ، ولضمانة تمتع المرأة بحريتها وحقوقها وتعليمها ومشاركتها في  
مختلف الشؤون السياسية والاجتماعية في النطاق المرسوم من جهة ،  
ومواجهة وصد التيارات الغريبة الجارفة الهدامة التي تهدد المجتمع  
الاسلامى من جهة (٦٠) » ..

## ٦ - تباغضى موهوم :

ومع هذا البيان الجلى الواضح الذى أرسى به القرآن دعائم الحياة  
السعيدة للأسرة . فان الأيام وأحداثها ومشاكلها قد تكون سببا في تنافر  
ود القلوب - وقد يرى الرجل من امرأته ما يفضبه وما لا يستريح اليه  
من تصرفات وقد يلمس فيها تنكرا وجحودا لكل ما قدم لها من خير ..

وفي الحديث : « أريت النار فاذا أكثر أهلها النساء يكفرن ..  
قيل : أيكفرن بالله ؟ قال : لا .. يكفرن العشير ويكفرن الاحسان ،

---

(٦٠) المرأة في القرآن والسنة ومركزها في الدولة والمجتمع وحقوقها  
الزوجية المتنوعة وواجباتها وحقوقها وآدابها لمحمد عزة دروزة ص ٢٦٥ .



لو أحسنت الى احداهن الدهر ثم رأيت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط .. (٦١) » ..

وأشد ما يثير سخط الانسان أن يرى نكرانا لمعروف صنعه ، وأن يشعر بأن الزوجة التى بذل لها حياتها لا تعترف له بجميل .. وأن ترى الزوجة فى زوجها مثل هذا النكران بعد أن أعطته نفسها ، وبذلت له حياتها ، وقامت على تربية أولاده وخدمته خير قيام ، وهو جاحد لهذا الخير ..

وهنا تتعرض الأسرة لعواصف البغض والكراهة وينفث الشيطان سمومه ليضل الى مأربه ، ويفصم هذا الرباط المقدس .

فعن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان ابليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجرىء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا فيقول ، ما صنعت شيئا ثم يجرىء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته فيدنيه منه ويقول : نعم أنت .. فيلتزمه .. (٦٢) » ..

لكن منهج القرآن لا يدع الشيطان يهدم هذا البناء .. فتوجه الى هذه الخواطر التى أثارت الزوجين فاستلها واتزعها وسكب فى القلوب برد الأمان والسعادة فشكك فى هذه النزعات وعدها من وساوس الشيطان ولقت الأنظار الى طريق الإصلاح وهو العشرة الحسنة بما فيها من الكلمة الطيبة والمودة الحانية والعفو والتسامح وذكر الانسان بقصور علمه عما فيه صلاحه وخيره .. وكثيرا ما توهم امرؤ أن هذا العمل خير كله

(٦١) رواه البخارى .

(٦٢) رواه مسلم .

فاذا به شر كله .. أو أن ما وقع فيه من شر يحز في نفسه ويحزنها فاذا به  
باب للخير والسعادة يقول القرآن في ذلك :

« وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ  
تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » (٦٣).

أمر بالمعاشرة الطيبة التي يقرها العرف النابع من الكرامة الانسانية  
المكون من هداية الله لعباده ، ثم تشكيك فيما يتسرب الى القلب من  
بواعث الكراهة والبغض .. فان كرهتموهن .. ثم علة بالخير الكثير  
على مكافحة تلك البواعث التي تحاول بنزعات الخواطر النادرة أن تنفذ  
الى القلوب المتحابة فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا (٦٤)

هل ان الانسان في جملته لا يخلو من الخير ولا يتجرد من كل  
الصفات الجميلة فاذا أساء انسان في صاحبه تصرف لا يرتضيه ، وجانب  
لا يستريح له فليتنظر الى كثير من الجوانب المترنة والأفعال الحميدة وبهذه  
النظرة الواسعة يشعر الزوجان بالرضا ، ويسكن أحدهما للآخر دافعا  
ما اتياه من أوهام الشيطان وهواجس النفس .. يقول رسول الله صلى  
الله عليه وسلم : لا يفرك « لا يكره » مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقا رضى  
منها آخر .. (٦٥)

## ٧ - النشوز :

لكن هذه الكراهة المكبوتة والتي يضطرم أوارها داخل مشاعر  
الانسان لا تلبث أن تشتعل نارا مهلكة ، وبراكين مدمرة تنسف بناء الأسرة

(٦٣) سورة النساء ١٩/٤ .

(٦٤) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص ١٧٤ .

(٦٥) رواه مسلم .

وتقوضه من الأساس .. فاذا بالهدوء والسكون ثورة وتمرد وعصيان ..  
 « ترى الزوجة غاضبة ثائرة لا تطيع أمرا ولا يقر لها قرار ، وترى الزوج  
 كارها لا يستريح لزوجته ولا يؤدي لها حق الله عليه .. وهو ما سماه  
 القرآن بالنشوز .. ولم يدعه حتى وصف له العلاج الناجع والخطّة  
 الرشيدة لمحاصرته والقضاء على أسبابه وبواعثه .. يقول القرآن في  
 نشوز الزوجة وعلاجه :

« الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ  
 عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ  
 حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ  
 فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ  
 أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا \*  
 وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا  
 مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ  
 عَلِيمًا خَبِيرًا » (٦٦)

وفي نشوز الزوج يقول :

« وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا  
 فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ

خَيْرٌ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» (٦٧).

فالزوجة الصالحة مطيعة حافظة لمغيب زوجها في نفسها وماله ، أما التي يبدو منها عوارض التمرد والعصيان فإن الزوج يوجه إليها النصح ، ويذكرها بحق الله عليها ، ويبين لها ما في عصيانها من خطر يهدد حياتهما وحياة أولادهما ، وما يترتب على ذلك من العواقب الوخيمة .. فإن لم يجد الوعظ فالهجر في المضاجع ، وهو عقوبة نفسية تتأدب بها المرأة وليست عقوبة جسدية تجرمها من لذة الجسد بضعة أيام أو بضعة أسابيع ، والا لكانت عقوبة للرجل أيضا .. وهى درس قاس يصيب المرأة في الصميم : « لأن أبلغ العقوبات هى العقوبة التى تمس الانسان فى غروره وتشككه فى صميم كيانه ، فى المزية التى يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه ، والمرأة تعلم أنها ضعيفة الى جانب الرجل ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت أنها فاتنة له ، وأنها غالبة بفتنتها ، وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعته فيه من شوق اليها ورغبة فيها .. ولن يبطل العصيان بشيء كما يبطل بأحاساس العاصي غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه» (٦٨) ..

فان لم يفلح الوعظ والهجر فليس الا الضرب . « فانه هو الذى يصلحها له ويحملها على توفية حقه .. والضرب فى هذه الآية هو ضرب الأدب المبرح وهو الذى لا يكسر عظما ولا يشين جارحة كاللكزة ونحوها فان المقصود منه الصلاح لا غير فلا جرم اذا أدى الى الهلاك وجب الضمان» (٦٩) ..

(٦٧) سورة النساء ١٢٨/٤ .

(٦٨) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٦٩) تفسير القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ص ١٧٤٢ .

قال الشوكاني: «فإن اكتفى بالتهديد ونحوه كان أفضل ومهما أمكن الوصول الى الغرض بالايهام لا يعبد الى الفعل لما في وقوع ذلك من النفرة المضادة لحسن المعاشرة المطلوبة في الزوجة الا اذا كان في أمر يتعلق بمعصية الله .. (٧٠) ..»

والاكتفاء بالتهديد أفضل لأنه من أخلاق الكرماء وفي ذلك يقول الرسول عليه السلام: «منفرا من الضرب: «يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد فلعله يضاجعها من آخر يومه .. (٧١) ..»

ومع هذا فإن الضرب الذي أباحه القرآن لا يتنافى مع المودة والرحمة: «ولم ينفهما فيما هو أمس الأمور بالمودة والرحمة وهو تربية البنين وتربية المتعلمين .. وتخويل رب الأسرة حق التأديب بدل من أحوال كثيرة كلها غير صالح وكلها غير معقول في شئون القوامة البيتية: فاما أن يكون لرب الأسرة هذا الحق في معظم الشئون البيتية واما أن يستغنى عن التأديب في الأسرة، أو يوكل التأديب فيها الى دور الشرطة والقضاء في كل كبيرة وصغيرة تعرض للزوجين على الرضا والغضب والجهر والنجوى .. هذا أو يكون التأديب المسموح به ان ينصرم جبل الزواج وأن يهدم بناء البيوت على من فيها من الآباء والأمهات والبنين (٧٢) ..»

فاذا اشتد النزاع واتسعت هوة الخلاف ولم ينفع وعظ ولا هجر ولا ضرب وفشلت كل الأساليب وقاربت الأسرة الهوة الخطرة • ووهى جبل المودة أصبح من واجب المجتمع أن يتدخل ليحول بين سقوط هذا الحجر من بنائه الاجتماعي • ويتحمل هذا الواجب الحاكم الذي اختارته الأمة

(٧٠) نيل الاوطار ج ٦ ص ١٣٣ .

(٧١) متفق عليه .

(٧٢) حقائق الاسلام وابطال خصومه للمقاد ص ١٧٣ .

فينتدب لذلك حكما من أهل الزوج ، وحكما من أهلها في محاولة لاصلاح  
ما فسد .. قال تعالى :

« فابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا  
إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا » (٧٣)

قال البيضاوى : فابعثوا أيها الحكام متى اشتبه عليكم حالهما لتبيين  
الأمر أو اصلاح ذات البين رجلا وسطا يصلح للحكومة والاصلاح من  
أهله وآخر من أهلها فان الأقارب أعرف بيوطن الأحوال وأطلب  
للصلاح (٧٤) ..

قال سعيد بن جبير : الحكم : أن يعظها أولا فان قبلت والا هجرها  
فان هي قبلت والا ضربها فان هي قبلت والا بعث الحاكم حكما من أهله  
وحكما من أهلها فينظران من الضرر وعند ذلك يكون الخلع (٧٥) ..

ولم يدع القرآن وسيلة الا وسلكتها للمحافظة على هذا الرباط :  
فراى أن النشوز كما قد يكون من جانب الزوجة قد يكون من جانب  
الزوج أيضا .. بأن يقل محادثتها - وموانستها وذلك لبعض الأسباب  
من طعن في سن أو دمامة أو شيء في خلق أو خلق أو ملال وطموح عين الى  
أخرى أو غير ذلك (٧٦) ..

(٧٣) سورة النساء ٣٥/٤ .

(٧٤) تفسير البيضاوى . انوار التنزيل وأسرار التأويل ج ١

ص ١٨٦ .

(٧٥) تفسير القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ص ١٧٤٥ .

(٧٦) تفسير الكشاف للزمخشري ص ٤٢٧ .

وربما أدى هذا الى تشريد الأسرة وهدمها ، لذلك دعا الزوجة للتنازل عن بعض حقها في المبيت أو النفقة فقال :

« وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا  
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ  
خَيْرٌ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ  
اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » (٧٧) .

والصلح خير من الفرقة فان التماذى على الخلاف والشحناء  
والمباغضة هى قواعد الشر وقد قال عليه السلام فى البغضة : « انها الحالقة  
يعنى حالقة الدين لا حالقة الشعر (٧٨) » ..

ولعلنا نلمس دعوة القرآن للاحسان والتقوى فى مثل هذا الأمر ..  
وأولى الناس بالاحسان زوجة رضىت أن تتنازل عن حقها . وأحق الناس  
محافظة على مشاعرهما امرأة ضعيفة لم تجد بدا من ترك مالها على زوجها .  
فتقوى الله وخشيته تدفعان الى مراعاة كل ذلك .. فان الله كان بما  
تعملون خبيرا .. وهو ختام للآية يحمل ترهيبا شديدا للأزواج الناشزين  
ولهذا رأى المالكية أن القاضى اذا عرض عليه الأمر وعظ الزوج أولا فان  
لم يفد أمرها بهجره فان لم يفد ضربه وقالوا فى الزوج انه يسجن (٧٩) » ..

(٧٧) سورة النساء ١٣٨/٤ .

(٧٨) تفسير القرطبى ص ١٩٧٦ .

(٧٩) نظام الأسرة وحل مشكلاتها نقلا عن حاشية الدسوقي  
ج ٢ ص ٤٠٢ .

## ٨ - الطلاق :

الا أن التشريع الخالد وجد أن القلوب التي تنافر ودها قلما تنتظم لها حياة أو ينمو في ظلها غصن رطيب .. واجتماع مثل هذه القلوب في فراش واحد يؤدي الى انحرافات خطيرة تهدد البناء الاجتماعي في أساسه واذن فليس هناك الا وقف هذه العلاقة مدة من الزمن يراجع فيها كل منهما نفسه وبعدها تستأنف حياة جديدة يسودها الصفاء والوئام .. وهذا ما يعرف بالطلاق .. وهو علاج ناجع « شرع لدفع الضرر عن الزوجين اذا استحال أو صعبت المعيشة المشتركة بينهما بحيث يصبح الفراق لازما وضرورة ونعيما <sup>(٨٠)</sup> » ..

وهذا العلاج لا يؤدي نتيجة المرجوة الا اذا تعاطاه المجتمع بالصورة التي أرشد اليها رب العزة سبحانه .. وهذه الصورة هي ما شرعه فيه من تقييده بعدد معين بعد أن كان عند العرب وغيرهم لا حد له : فلا يتجاوز تطليقتين متفرقتين أما الثالثة فلا تحل بعدها الزوجة الا أن تتزوج غيره قال تعالى :

« اَلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَاِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ اَوْ تَسْرِيحُ بِاِحْسَانٍ »

وقال :

« فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ

زَوْجًا غَيْرَهُ » <sup>(٨١)</sup> .

(٨٠) نظام الأسرة وحل مشكلاتها في ضوء الاسلام ص ٩٤ .

(٨١) سورة البقرة ٢/٢٢٨ ، ٢٢٩ .



والطلاق مقيد أيضا بالزمن فلا طلاق في الحيض .. وبالوصف :  
فلا يطلقها في طهر جامعها فيه . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ  
وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ » (٨٢)

ومع هذه الحقيقة التي تجعل الرجل يقوم على حل عقدة الزواج وهو  
واع لكل ما يترتب على ذلك من نتائج .. قدر القرآن ما لعامل الزمن  
من أثر في تهدة النفوس وما لرؤية كل من الزوجين لصاحبه من دوافع  
المراجعة والاعتذار .. لذلك جعل قضاء مدة العدة وهي غالبا ثلاثة أشهر  
في منزل الزوجية لا خارجها ..

فقال :

« لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ  
بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ  
ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا » (٨٣)

فاذا ما انتهت العدة ولم يراجع الزوج زوجته دل هذا على أن العداء  
مستحكم ولا حيلة في الرجوع والا كان الامساك مضارة وعدوانا ولهذا  
نبه القرآن على ما في هذا الامساك من ظلم الزوج لنفسه ولزوجته وما  
فيه من اعتداء على حدود الله وشريعته فقال :

« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ »

(٨٢) سورة الطلاق ١/٦٥ .

(٨٣) سورة الطلاق ١/٦٥ .

بِمَعْرُوفٍ أَوْ سِرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً  
لَّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ  
اللَّهِ هُزُوءاً وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ  
مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ  
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (٨٤).

فإذا ما تم الطلاق عن اقتناع كامل بوجوب انتهاء الحياة الزوجية  
بقي الود والمعروف والاحسان روابط تحيط بالمجتمع المسلم ولزم الزوج  
دفع ما عليه من مؤخر الصداق .. كما يدفع تعويضا ماليا سماه القرآن  
بالمُتعة ..

«وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ  
مَتَّعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ» (٨٥).

ولزمه الاثاق على الزوجة في أثناء الحمل • وأجر الرضاع إذا  
أرضعت طفلها :

«وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ  
حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَسَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا  
بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسْتَزْضِعْ لَهُ أُخْرَى» (٨٦).

(٨٤) سورة البقرة ٢/٢٣١ •

(٨٥) سورة البقرة ٢/٢٣٦ •

(٨٦) سورة الطلاق ٦/٦٥ •

وهذا هو التفسير بالمعروف الذى أمر به كتاب الله اذ قال :

« فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْفَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » (٨٧)

فهو فراق تأخذ فيه الزوجة حقها كاملا محاطة بالناية والرعاية دون تجريح أو اساءة حتى لا يكون الطلاق معول هدم ينشر العداوة بين الأسر ويفكك أواصر المجتمع .

ومن حق الزوجة أن تجعل عصمة الزواج بيدها .. وأن تشترط هذا فى أثناء العقد ، ولها أيضا أن تطلب فسخ العقد اذا أبى زوجها تطليقها مضارة وتضييقا .. وهو ما يعرف بالخلع فتفتدى نفسها بما أخذته منه من مال قال تعالى :

« وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (٨٨)

وهذا هو الطريق الذى جعله هدى الله منهجا يقوم به مجتمع الاسلام اذ جعل الطلاق حيلة من لا حيلة له وعده من أبغض الحلال الى الله ولعن

(٨٧) سورة الطلاق ٢/٦٥ .

(٨٨) سورة البقرة ٢/٢٢٩ .

الله كل ذواق مطلق وكل مزواج مطلق .. وجعله بعد أن استنفد كل وسائل العلاج والاصلاح بين الزوجين .. وحتى بعد أن وقع لهم يجعله نهاية للحياة الزوجية انما اعتبره مؤقتا مؤقتا بزمان ، ووضع له من الشروط وسن له من طرق الترغيب في الرجوع عنه وازالة أسبابه ما يجعله في أضيق الحدود .. ولم يجعله للزوج وحده يتحكم في زوجته انما جعل لها هذا ان اشترطته .. وأقر لها نظام المخالعة حتى لا تنطوى القلوب على البغضاء والعداء ..

والطلاق بهذه الصفة علاج لأمراض المجتمعات وميزة للشريعة الاسلامية يقول بنتام في أصول الشرائع ساخرا من حظر الطلاق : « ان القانون يتدخل بين المتعاقدين في الزواج حال التعاقد ويقول لهما : أتتما تقترنان لتكونا سعداء فلتعلما أنكما تدخلان سجننا سيحكم عليكما بابه وتصم الآذان دونكما وان علا منكما الصياح واشتد بكما الألم ولن أسمح بخروجكما ولو تقاثلتما بسلاح العداة والبغضاء ..

لو وضع قانون للنهي عن فض الشركات ورفع الوصايا وعزل الوكيل ومفارقة الرفيق لصاح الناس أجمعون : انها نهاية الظلم ، والزوج رفيق ووصى ووكيل وشريك - وفوق كل هؤلاء ومع ذلك حكمت قوانين أكثر البلاد المتمدينة بأن الزواج أبدي .. ان أقبح الأمور عدم انحلال ذلك الاتفاق ، لأن الأمر بعدم الخروج من حالة أمر بعدم الدخول فيها (٨٩) » ..

(٨٩) الفکر الاسلامی والتطور لفتحی عثمان ص ١٨١ ، ١٨٢ .

## ٩ - تعدد الزوجات :

## (١) الحرائر :

لا يستطيع باحث أن يعرض نظام الأسرة في الاسلام دون أن يبين عظمة منهج هذا الدين في مسألة التعدد وهو من المسائل التي يوجه اليها الحافدون سهامهم يحسبون أنهم أخذوا على دين الله مأخذاً يهزون به ثقة المؤمنين به في مبادئهم وقرآنهم .. وما درى هؤلاء ان التعدد الذي أباحه الاسلام لم يصل اليه في سمو مقصده وتقديره لكل دوافع الانسانية وحاجتها منهج سابق أو لاحق .. فلم يكن للزواج حدود في الشرائع الوضعية ولا في الشرائع الدينية قبل الاسلام ولو كان فيها ما يعتبر شريعة واقعية مقدرة لأحواله وضروراته عند المقارنة بينهما وبين الشريعة الإسلامية (٩٠) .. فقد أخرج مالك في الموطأ والنسائي والدارقطني في سننهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لغيلان بن أمية الثقفي وقد أسلم وتحتة عشر نسوة : « اختر منهن أربعاً وفارق سائرهن » وفي كتاب أبي داود عن الحارث بن قيس قال : أسلمت وعندى ثمان نسوة فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : اختر منهن أربعاً .. (٩١) ..

« وكان تعدد الزوجات مباحاً في الأديان الكتابية ولم يحرم - حين حرم - اكباراً للمرأة وتنزيهاً لها عن قبول المشاركة في زوجها بل كانت الفكرة الأولى في تحريمه : أن المرأة شريكتي منه بأقل ما يستطيع (٩٢) »

وحين جاء الاسلام ورأى ما عليه العالم كله من استكثار الرجال من النساء دون حد أو قيد أراد أمراً وسطاً يلبي به حاجات الانسانية ودواعيها الى التعدد ويحفظ به للمرأة حقها وعفتها فأباح التعدد لأربع واشترط لذلك

(٩٠) حقائق الاسلام واباطيل خصومه - للعقاد ص ١٧٦ .

(٩١) تفسير القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ص ١٥٨٧ .

(٩٢) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٦٠ .

القدرة على العدل بينهما فيما يمكن العدل فيه من القسم في الميتة والثقة  
ونحو ذلك ..

قال تعالى :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا  
مَاطَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَنِّي وَتِلْكَ وَرُبَّعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا  
تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا  
تَعُولُوا » (٩٣).

أى ان الاكتفاء بواحدة أقرب الى العدل وأبعد عن الجور فيما  
يسلكه الزوج من حق العدل بين زوجاته وهو أيضا بعد عن كثرة العيال  
— كما فسرہ الشافعى رضى الله عنه « لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم وفي  
ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الشرع وكسب الحلال والرزق  
الطيب (٩٤) » .. واذا كان هذا العدل في مقدور الزوج فان الميل القلبى  
غير مستطاع قال تعالى :

« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ  
فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا فَاَلْمُعَلَّقَةُ » (٩٥).

والزوج غير مكلف بالعدل فيه لأنه خارج عن ارادة الانسان لكن  
بشرط ألا يظهر عن الميل سلوك يؤدي الى الاضرار بالزوجة فتبقى كالمعلقة  
فلا هي متزوجة ولا هي مطلقة ..

(٩٣) سورة النساء ٣/٤ .

(٩٤) تفسير الكشاف للزمخشري ص ٣٧٦ .

(٩٥) سورة النساء ٤/١٢٩ .

وفي هذا الميل اللارادي يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » (٩٦) .

وما نحن بحاجة الى برهان بعد أن تبين العالم عمق النظرة الاسلامية في اباحة التعدد . اذ ماذا يصنع رجل أصيبت زوجته بمرض يمنعه من الاتصال بها أو بعقم حرمة نعمة الولد ?? وماذا تصنع أمة زادت فيها نسبة النساء على الرجال أو فقدت في حروبها كثيرا من شبابها فبقيت نساؤها دون عائل ??

« انه ان أغلق باب التعدد وأحكم اغلاقه بالمنع المطلق اقتحم الرجال الذين يصعب عليهم ذلك المنع أبواب الفسق .. لقد حرم الأوروبيون تعدد الزوجات ولكنهم فتحوا لأنفسهم باب الحرام على مصراعيه (٩٧) » .

والمجتمع الذي أنشأ منهج القرآن يعلق باب الحرام بكل شدة ويسر للناس طريق العفة والمعاشرة الحلال .. وماذا يضير امرأته ترضى أن تتزوج رجلا تعلم أن له أخرى ؟ وماذا يجبر الأولى أن تمكث في بيت تأتي له أخرى الا اذا علمت كل منهما أن المشاركة في رجل خير من حياة التأيم والبوار .. قال لوبون : « ان تعدد الزوجات المشروع عن الشرقيين أحسن من تعدد الزوجات الريائي عند الأوروبيين وما يتبعه من موابك أولاد غير شرعيين (٩٨) » .

(٩٦) يراجع دعائم السعادة فقرة ٥ ص ٢١٢ والخديث رواه الخمسة الا أحمد وصححه ابن حبان والحاكم .

(٩٧) الفكر الاسلامي والتطور لفتحي عثمان ص ١٨٤ .

(٩٨) أحكام الأسرة في الاسلام د. محمد سلام مذكور ص ١٦٨ .

ومع إساءة البعض لهذا الحق وما يتبعه من أضرار اجتماعية وذلك كما يقول الإمام محمد عبده : « ان الضرر ينتقل من كل ضرة الى ولدها والى والده والى سائر أقاربه فهي تغرى بينهم العداوة والبغضاء ولو شئت تفصيل الزوايا والمصائب المتولدة من تعدد الزوجات لأتيت بما تشعربه جلود المؤمنين - فمنها السرقة والزنى والكذب والخيانة والتزوير .. بل منها القتل<sup>(٩٩)</sup> مع هذا فلا يمكن اغلاق باب التعدد وخاصة أن نسبة من يعدد نادرة وقليلة ولا يلجأ اليها الا مضطر ومثل هذا المضطر ، حتى ولو كان الغرض من زواجه اشباع نهمه الجنسي لا يمكن قفل الباب في وجهه حتى لا يلجأ الى الحرام ..

واذن فالحل انما يكون برفع المستوى العلمى والثقافى والمعيشى فتقل نسبة المعددين أو تنعدم لا أن تفتح باب الشهوات الجامحة والعشيقات كما فعلت أمم منحرفة عن هدى الله .. « وهكذا كانت شريعة القرآن مطابقة لحقيقة الزواج فى معانيه الانسانية ومعانيه النوعية والاجتماعية فاستحسن الاكتفاء بالزوجة الواحدة ولكنها جعلته فضيلة يختارها الزوجان ولم تفرضها عليهما بغير فضل يرجع الى الزوج أو الزوجة ، وأباحت تعدد الزوجات مع اشتراط العدل لمن استطاعه وحسبت للدواعى النوعية والاجتماعية التى تبيح تعدد الزوجات فى بعض الأحوال كل ما ينبغى أن تحسبه شريعة تسوى بين أبناء البشر فى دنياهم هذه التى تتطلب المثل الأعلى ولا تصل اليه فى كل حين<sup>(١٠٠)</sup> » ..

#### (ب) ملك اليمين .. والرقيق :

واذا كان الاسلام قد أقفل باب الفوضى فى تعدد النساء وحدد العدد الذى يكون فى عصمة الرجل بأربع واشترط له القدرة على الانفاق

(٩٩) الفكر الإسلامى والتطور فتوى عثمان ص ١٩٢ .

(١٠٠) الفلسفة القرآنية - للعقاد ص ٧٢ .



والعدل بينهم وسما بمركز المرأة وأصلح لها شأنها ولم يتركها للضياع ..  
 فان هذا الدين أضاف اشراقا جديدة في تاريخ التشريع الانساني  
 لا يمكن لباحث يتعرض لموضوع تعدد الزوجات أن يمر دون أن يبين ماذا  
 يستطيع منهج آخر أن يقدم للمرأة بعد الذي قدمه لها الاسلام .. ذلك  
 هو اباحة التعدد دون قيد في جانب الاماء وملك اليمين : ذلك أن الاماء  
 كانت تعامل - شأن الرقيق قبل الاسلام - كأنها قطعة تباع لسيدها ليس  
 لها ما للانسان من حق الحياة التي تليق بالبشر .. ولما كان الغالب في  
 امتلاك الاماء هو : تمتع السيد بما ملكت يمينه فان الاسلام أراد أن يصيب  
 هدفين في وقت واحد :

الأول : هو رفع منزلة ملك اليمين والرقيق الى مرتبة تقرب من  
 مرتبة الزوجات ، فان بقيت مملوكة عاشت محاطة بعناية سيدها وتقديره  
 وليست كما مهملا ومتاعا ضائعا لا يساوى شيئا .

والهدف الثاني ، هو فتح باب جديد في تاريخ تحرير الانسان  
 وايجاد باب ضخم من أبواب العبودية يقذف كل يوم في مجرى الرق  
 مئات من العبيد والاماء بما ينتج عن اتصال السادة بامائهم .. لكن  
 الاسلام أبى الا أن تحرر مثل هذه الأمة التي حملت من سيدها فهي  
 « أم ولد » لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا يتصرف فيها الورثة بعد موت  
 أبيهم أو مورثهم .. انما تكتسب الحرية بذلك .

وجاءت آيات القرآن تبيح وتشجع الزواج من الاماء قال تعالى :  
 « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتن ألا تعدلوا  
 فواحدة أو ما ملكت أيما نكم » ..

ومع اقامة علاقة الزواج بين السيد وامائه والذي يفتح باب الحرية  
 لقطاع ضخم من الرقيق فهناك مراعاة فطرة هذا النوع من النساء وتلبية  
 رغباتهن والا أصبح مصدر انحلال خلقى ينشر الفاحشة في أرجاء

المجتمع ولهذا أباح القرآن التزوج بهن اذا لم يستطع الرجال الأحرار  
الزواج بالحرائر ..

وانما كن في المرتبة التالية للحرائر ، لأن الولد يتبع أمه في الرق  
والحرية .. والأمة لا تستقر على حال لأنها حائرة بين زوجها وسيدها .  
ومع ذلك فالزواج بها أهون جرماً من الوقوع في الفاحشة .. والفضل  
انما يعود الى الايمان لا الى الرق والحرية .. قال تعالى :

« وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ  
الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ  
أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ  
مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنْ أَتَيْنَ  
بِفَاحِشَةٍ فَلَعْنَيْنِ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ  
لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ » (١٠١)

وقال :

« وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ  
وَأِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ  
وَسِعٌ عَلِيمٌ » (١٠٢)

• (١٠١) سورة النساء ٢٥/٤

• (١٠٢) سورة النور ٣٢/٢٤

« فإله قد أمر جماعة المسلمين في هذه الآية أن يهتموا بتزويج من كان في مجتمعهم بدون نكاح من الرجال والنساء الأحرار ومن وجدوا فيهم الصلاح من عبادهم وامائهم .. (١٠٢) .. »

وهكذا تقوم الأسرة الإسلامية على مبادئ العفة والطهارة وتبقى خالدة على امتداد الحياة الأولى والآخرة وما يشوبها من نزعات الشيطان ووساوسه له علاجه .. فان انفصل هذا الرباط بالطلاق انفصل بالمعروف وبعد فشل كل محاولة للإصلاح .. والأسرة الإسلامية تسعد بزوج واحدة لرجل يقوم بأمرها فان دفعته ظروف خارجة عن ارادته وأراد زيادة عن واحدة وتأكد من عدله بين نسائه لبي الدين رغبته ، ولم يقف في طريقه ، حتى لا ينحرف سلوكه فيعيش على الخنا والفجور كالمجتمعات التي حرمت التعدد ، وأباحت الخليلات والعشيقات واعترفت بأولاد السفاح .. ويخطو كتاب الله خطوة واسعة وهو يؤصل للأسرة المسلمة بإباحة التعدد دون قيد من ملك اليمين والرقيق ، فان كانت المعاشرة بين السيد وما ملكت يمينه فالحرية هي المقصد الأسمى لتلك المعاشرة .. وان كانت لغير السيد فقد لبينا نداء الفطرة لهذا الجنس من النساء وكثيرا ما يعمل الزوج الذي تزوج بأمته على شرائها وتحريرها اذا ما وجد انشغال زوجته بسيدها .. فنصل بذلك - أيضا - الى الحرية .

فهي مسيطرة للطبيعة البشرية ودعوة الى تحرير الرقاب كما سيأتي بيانه حين نتحدث عن الحرية والمساواة في الفقرات القادمة من هذا الباب ..

## ١٠ - الأصول .. والفروع :

الأسرة الانسانية هي حقل التربية القرآنية : اذ يشعر الفرد الذى رباه القرآن أنه جزء من هذا الكيان الواسع الشامل وهو لذلك مأثور بأن يتقى ربه فى هذه الأسرة ..

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. » (١٠٤)

ولهذا يعطى المؤمن لاختوته فى الانسانية أكثر مما يأخذ ويبذل نفسه وماله من أجل اسعادهم .. حتى ما تشنه قوى الايمان على جيوش الكفر من حروب انما هى فى واقعها برهان عملى على حب المؤمن للانسانية وحمائته لها وسعيه لهدم معازل الظلم التى تحجب النور عن البشر ..

ومع هذا الحقل الواسع الذى تعمل فيه تربية القرآن فهناك الشجرة النامية وسط هذا الحقل والتى تتكون من الأصول والفروع .. فيكون مع الزوج وزوجته ثمرة هذا الزواج من الأبناء والحفدة ومعه كذلك الآباء والأجداد والأعمام والأخوال والعمات والخالات .. ولكل عضو من هؤلاء حقوق وواجبات تتفاوت مراتبها بمقدار قرب الشخص وبعده عن قريبه .. وبهذه الحقوق المتبادلة يقيم القرآن بناء المجتمع على أقوى الأسس وأعظمها شأنًا فى تاريخ الانسانية ويحيطها بنور الايمان الذى لا يخبو ضياؤه ولا يضع سناه ..

فما فرضه الأبناء من حق الطاعة والاحسان لوالديهم يصل فى نظر القرآن الى درجة قصوى من التعظيم والتقدّيس تلى العبودية لله سبحانه

قطاعة الله وطاعة الوالدين أمران مقتزمان لا يفترقان : الله سبحانه الموجد  
الحقيقي والوالدان هما سبب الایجاد الظاهري لذلك يقول القرآن :  
« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ  
إِحْسَانًا ... » (١٠٥)

ويقول :

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ  
شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » (١٠٦)

وهذه الطاعة هي نص الميثاق الذي أخذه الله على بنى إسرائيل  
اذ يقول :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا  
اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... » (١٠٧)

ويبين دوافع هذا الاحسان فيقول في سورة الأحقاف :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا  
وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » (١٠٨)

• (١٠٥) الاسراء ٢٣/١٧

• (١٠٦) الأنعام ١٥١/٦

• (١٠٧) البقرة ٨٣/٢

• (١٠٨) الأحقاف ١٥/٤٦

وقريب من ذلك قوله تعالى في سورة لقمان :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ  
وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ » (١٠٩)

ويحدد في وضوح ما يجب على الأبناء أن يعاملوا به الآباء فيقول :

« إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ  
لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا \* وَاخْفِضْ لَهُمَا  
جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي  
صَغِيرًا » (١١٠) .

أما الآباء فهم مدفوعون بفطرتهم الى حماية الأبناء والبر بهم ..  
لكن هذه الفطرة كثيرا ما تنحرف عن طبيعتها نتيجة اعتقاد فاسد ووهم  
باطل كما عرف في عرب الجاهلية من قتلهم لأولادهم وما أنبأ به التاريخ  
عن الرومان واليهود وكيف كان يعتبر الابن ملكا لوالديه يتصرف فيه  
كيف يشاء دون عقاب ..

فجاء كتاب الله يصلح هذه الفطرة الملتوية فيقول :

« قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » (١١١)

(١٠٩) لقمان ٣١/١٤ .

(١١٠) سورة الاسراء ١٧/٢٣ ، ٢٤ .

(١١١) سورة الانعام ٦/١٤٠ .

وينهى عن هذا القتل فيقول :

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ  
وِإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا » (١١٢).

وفي عهد المبايعة بين الرسول والمؤمنات وصية بالابتعاد عن هذا  
الجرم الشنيع يقول القرآن :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ  
لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ  
أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ  
وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ » (١١٣).

وقد تنحرف هذه الفطرة فيجرفها تيار الحب للأولاد فتقتل بهم  
وتنسى ربها وخالقها وهنا يكون تحذير القرآن :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ  
عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » (١١٤).

وقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ  
عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا

(١١٢) سورة الاسراء ٣١/١٧ .

(١١٣) سورة الممتحنة ١٢/٦٠ .

(١١٤) سورة المنافقون ٩/٦٣ .

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ  
وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١١٥).

ولقد بينت الدراسات الفقهية ما للأبناء على الآباء من حق الرضاة  
والحضانة والولاية على النفس والولاية على المال بما لا يتسع المجال  
لذكره وكل ما يعنينا في العلاقة بين الآباء والأبناء انما هو بيان ما في هذه  
العلاقة القوية من أثر فعال في اقامة بناء المجتمع الصالح المتواد المتراحم  
المتراط بأوثق رباط وهي علاقة تقوم على « الاحسان من جانب وعدم  
الافتتان من جانب آخر وهذا هو الطريق الأمثل الى التكافؤ والتعادل  
في صلة الأولاد بالوالدين والوالدين بالأولاد وتلك سنة القرآن في كل  
جوانب الحياة الانسانية (١١٦) » .

أما باقى أفرع الشجرة الأسرية وأصولها فلها حق الصلة والتواد  
والثقة اذا احتاج القريب اليها لأن أقارب الانسان حمايته وعشيرته  
وجيرانه وأهله تتصل مصالحه بهم مباشرة ولن تيسر هذه المصالح  
والمنافع المتبادلة والقلوب متباغضة ، والنفوس متنافرة ، لهذا كان للأقارب  
والأرحام حق الاتفاف المادى بما يتركه لهم من ميراث فيشعرون أن ما  
يجمعه ليس شيئا خاصا به وحده انما هو للجميع على حسب درجة قربتهم  
منه قال تعالى :

« وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » (١١٧)

(١١٥) سورة التغابن ١٤/٦٤ ، ١٥ .

(١١٦) الاسلام في حياة المسلم للدكتور محمد البهى ص ٧١ .

(١١٧) سورة الاحزاب ٦/٣٣ .



وحدد كتاب الله من يستحق الميراث ومن لا يستحق من أقارب الشخص . وفي حياة الانسان اتبع القرآن منهاجا خاصا في صلة القربى فجعلهم في الدرجة الأولى من الذين يستحقون الاحسان لا لأنهم فقراء أو مساكين ولكن لأنهم قريى اذ يقول :

«وَبِالْوَلَدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ  
وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ  
وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» (١١٨)

والوفاء والبر الذى يتصف به المؤمنون من علاماته بعد الايمان بالله ايتاء ذى القربى حقهم :

«لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ  
وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ  
وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ  
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ» (١١٩)

والعدل والاحسان وايتاء ذى القربى أمور ثلاثة يقوم عليها بناء المجتمع الصالح ولذلك يأمر الله بها فيقول :

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ  
وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ  
تَذَكَّرُونَ» (١٢٠)

(١١٨) سورة النساء ٣٦/٤ .

(١١٩) سورة البقرة ١٧٧/٢ .

(١٢٠) سورة النحل ٩٠/١٦ .

ومن أراد الفلاح فعليه بصلة الأقارب فذلك دليل الاخلاص يقول  
القرآن :

«فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ  
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (١٢١).

وحين يسأل الرسول عليه السلام عن وجوه الاتفاق في الخيرين  
أن أول عمل من أعمال الخير بعد بر الوالدين هو بر الأقربين - يقول  
القرآن :

« يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مِمَّا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ  
فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ  
وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » (١٢٢).

بل ان من أراد أن يوصى فأولى من تجب لهم هذه الوصية  
الوالدان والأقربون قال تعالى :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ  
خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى  
الْمُتَّقِينَ » (١٢٣).

(١٢١) سورة الروم ٣٠/٣٨ .

(١٢٢) سورة البقرة ٢/٢١٥ .

(١٢٣) سورة البقرة ٢/١٨٠ .

قال ابن المنذر : « أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين الذين لا يرثان والأقرباء الذين لا يرثون جائزة .. » وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم والأوزاعي وأحمد بن حنبل من أوصى لغير قرابة وترك قرابة محتاجين فبئسما صنع .. وهو معنى ما روى عن عمر وعائشة وهو قول ابن عباس « (١٢٤) قال تعالى :

«وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » (١٢٥) .

فهم أول من يعطون من التركة قال ابن عباس : « أمر الله المؤمنين عند قسمة موارثهم أن يصلوا أرحامهم ويتأملهم ومساكينهم من الوصية .. فان لم تكن لهم وصية وصل لهم من الميراث .. قال النحاس : وهذا أحسن ما قيل في الآية أن يكون على الندب والترغيب في فعل الخير والشكر لله عز وجل » (١٢٦) .

.. وهذه المودة تزيد على ما عرف من أثر الصدقات في اصلاح المجتمع لأنها بالنسبة للقريب : صدقة وصلة تتوثق بها عرى المحبة بين الفرد وأهله وتسرى الحياة في أصول الشجرة وفروعها فتورق وتنمو تعاونوا وتوثقا وترابطا يثرى الحياة بألوان من العمل الصالح الذي يدفع عجلة الحياة الى التقدم واليسر والرخاء ويعطيها ألوانا من المتع الروحية والراحة النفسية التي تغمر المجتمع بظلال من السعادة والطمأنينة والرضا .. روى النسائي والترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الصدقة على المسكين صدقة وهي على ذى الرحم ثنتان : صدقة وصلة .. » وهكذا

(١٢٤) تفسير القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ص ٦٤٠ ، ٦٤١ .

(١٢٥) سورة النساء ٨/٤ .

(١٢٦) تفسير القرطبي ص ١٨١٩ .

« أراد القرآن فيما أوحى به في منهج السلوك والمعاملة بين أفراد الأسرة بعضهم مع بعض أن يجنبهم الانحراف والقلق والنزاع .. أراد أن يوفق وأن يلائم بينهم في اتجاههم في الحياة وفي تفهمهم بالحياة أراد أن تكون الأسرة قوية صاحبة عزة وسيادة على نفسها وعلى غيرها .. طريق الضعف واضح وهو طريق الانسجام والمشاركة والمعاونة ومنهج القرآن للأسرة هو طريق القوة .. طريق النجاح والأمل في الحياة (١٢٧) » .

## الفصل الثاني

### التكافل الاجتماعي

- ١ - منابع التكافل وآفاقه
- ٢ - ألوان التكافل .. وضماناته
- أولا : التكافل الأدبي
- ثانيا : التكافل السياسي
- ثالثا : التكافل الدفاعي
- رابعا : التكافل الجنائي
- خامسا : التكافل الأخلاقي
- سادسا : التكافل الاقتصادي
- سابعا : التكافل العبادي
- ثامنا : التكافل العلمي
- تاسعا : التكافل الحضاري
- عاشرا : التكافل العائلي
- الحادي عشر : التكافل المعيشي



## التكافل الاجتماعي

### ٢ - منابع التكافل .. وآفاقه :

حين أشرق ضياء القرآن على هذا العالم وجد فيه ما رأينا من تقاطع وتدابر وعصبيات تقوم على رابطة الدم والنسب .. ووجد كل قوم قد تحزبوا تحت شعار مزيف موهوم من اللون ، أو الأرض أو الجنس مما أدى الى التعاسة والشقاء .. وبدل أن يكون اختلاف الناس في ألوانهم وأوطانهم ولغاتهم وأممهم وسيلة للتعارف وتبادل المصالح ، بتلوين الحياة بألوان شتى تتعاون كلها من أجل هدف واحد هو اسعاد الانسانية انقلب هذا التمايز الى انقسام خطير أدى الى التطاحن والتنازع والضياع ..

ولهذا أراد القرآن - وهو يبنى المجتمع - أن يجنب الانسانية هذا الشقاء وذلك التمزق : فحرر الانسان من كل هذه العصبيات وتلك التفاهات وأبى عليه أن يستعبد لأرض أو للون أو لجنس ، لأن الانسان صاحب عقل وادراك يسمو بهما على سائر المخلوقات وما يربطه بغيره يجب أن يقوم على الفكر الواحد والشعور الواحد ..

« فكرة الانسانية » هي التي تربط الانسان بأخيه الانسان مهما تباعدت الديار واختلفت الآراء - وعلى هذه الفكرة تقوم دعائم السلام العالمى والصلات الانسانية الرحيمة ..

« وأخوة الايمان » هي الفكرة التي يحتضنها مجتمع الاسلام فتعطيه مقومات الشخصية الاجتماعية المستقلة التي تجعله رائد البشر الى طريق الله بعيدا عن أمراض النفوس وأهوائها ..

والقرآن يقدم هذه الفكرة طاهرة نقية ويرتفع بها الى ألقها المشرق  
 فيجعل الايمان بالله أسمى عقيدة ينضوى تحت لوائها البشر جميعا فاذا بها  
 عميقة أصيلة ممتدة مع الزمن تحيط بالأولين والآخرين واذا بكل من  
 حمل راية الايمان ينادى ربه :

« رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ  
 وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ  
 رَحِيمٌ » (١)

واذا بها أخوة تفوق أخوة النسب والدم والعصبية حتى أنستهم ما  
 بينهم في الجاهلية من تارات وعداوات وقتل ولم يبق الا التناصر والتآلف  
 والمحبة والاخاء .. وهذا ما ذكره القرآن من حال المؤمنين اذ قال :

« وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا  
 نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ  
 فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ  
 فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ  
 تَهْتَدُونَ » (٢)

وهم حزب واحد ، صاحب فكر واحد ، ينصر من سالم جماعتهم  
 ويعادى من اعتدى على ايمانهم ودينهم ولو كان المعتدى أبا أو أخا

(١) سورة الحشر ٥٩/١ .

(٢) سورة آل عمران ٣/١٠٣ .



أو عما أو خلاا .. فقد قطع عداء الكفر للايمان ما بين الفريقين من صلات  
الدم .. قال تعالى :

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ  
مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ  
إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ  
وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ  
حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (٣)

وهؤلاء هم الأنصار والمهاجرون مثل فذ في تاريخ عمق هذه  
الأخوة التي جعلها المنهج القرآني نظام حياة بها توارثوا وتحابوا وتناصروا  
ومن نبعها فاض خير الأنصار على اخوتهم المهاجرين وبقيت شهادة الحق  
لهم على فخر وشرف اذ قال تبارك وتعالى :

« وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ  
مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا  
أُوتُوا وَيُوَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ  
يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (٤)

(٣) سورة المجادلة ٢٢/٥٨ .

(٤) سورة الحشر ٩/٥٩ .

وبقيت راية الايمان خفاقة يستظل بها كل من تشرق بالامتثال  
لتعاليم الله ودان بالفكرة التي ارتضاها مجتمع المؤمنين .. قال تعالى في  
المشركين :

« فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي  
الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (٥)

وهذه الحقيقة : حقيقة الاخاء في الله يعبر عنها منهج القرآن في  
كلمة واحدة فيقول :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا  
اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (٦) .

« وقد عبر عن المتخاصمين منهم بالأخوين اشعارا بأن من شأن العلاقة  
التي أساسها الايمان ألا تنفصم ، وألا تخرج بحال عن علاقة الأخ بأخيه  
والرفيق برفيقه والمشارك لمشاركه في الحياة ، وأن النزاع الذي يحدث  
هو شيء طارئ مصيره الى الزوال (٧) » ..

وبهذه الأخوة التي اشتملت على التراحم والتعاطف والاحساس  
بما للأخ على أخيه من واجبات ، خاض الاسلام معركة الحياة فانتصر على  
ما فيها من بؤس وشقاء يصيب بعض أفراد المجتمع فيعيش هؤلاء على  
الحرمان ويبدون علامة تقاطع وتظالم في المجتمع الذي ينتسبون اليه ..  
أما أمة القرآن فقد بدا المسلم فيها أخا للمسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا

(٥) سورة التوبة ١١/٩ .

(٦) سورة الحجرات ١٠/٤٩ .

(٧) الاسلام في حياة المسلم د. محمد البهي ص ٢٨٥ .

يسلمه .. فالكل متعاون متكافل متضامن في السراء والضراء في الداخل والخارج وهم جميعا كما عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا »<sup>(٨)</sup> .. و « كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »<sup>(٩)</sup> ..

بل ان المؤمن لا يكون مؤمنا حقا الا اذا شعر بحاجة أخيه وعمل على اسعاده كما يعمل على اسعاد نفسه .. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »<sup>(١٠)</sup> ..

ومن هذه المنابع الطاهرة التي تستمد نقاءها وطهرها من مصدر الخير كله وهو الله خالق كل شيء .. ورب كل شيء تسرى روح الحياة في أعضاء المجتمع فيتحرك باذن الله الى الغايات التي أراد الله تحقيقها من بنى الانسان ..

وهل بعد نبع الأخوة في الله والتراحم والمودة والشعور الذي يسيطر على كيان الانسان وحسه فيذبوب روحا وفكرا وعاطفة في أخيه المؤمن .. هل بعد هذا نبع ترتوى منه الانسانية فتسعد وترقى ??

ان التكافل القائم على تلك المبادئ والمثل ذو آفاق رحبية لا يقتصر على توفير الغذاء والكساء للمحرومين من الغذاء والكساء وانما يتسع لألوان لم تعرفها البشرية الا في ظل رسالات السماء ولم تستمتع بها الا في رحاب رسالة القرآن على وجه الخصوص .. « فان تقرير الاخاء بين اثنين هو تقرير للتكافل والتضامن بينهما في المشاعر والأحاسيس وفي المطالب والحاجيات وفي المنازل والكرامات .. أتري الأخ يحرص على طعام أخيه

(٨) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .  
 (٩) رواه البخارى فى الأدب المفرد وراى مسلم وأحمد .  
 (١٠) رواه البخارى ومسلم وأحمد والترمذى وغيرهم .

الجائع وكساء أخيه العريان وسقاء أخيه العطشان فحسب أم هو يحرس على حياته وحرته وثقافته وكرامته ومكائنه الاجتماعية أيضا ?? ألا تراه يحزن لحزنه ولو كان هذا الأخ طاعما كاسيا ?? ألا تراه يضطرب لمستقبله وحاضره ولو كان هذا الأخ مستقرا ثاويا .. (١١) .. »

## ٢ - ألوان التكافل .. وضماناته :

وعلى ضوء الهدى الالهى ترى ألوان هذا التكافل تلك التى اختلت فى البناء الاجتماعى منزلة رفيعة فأعطت أصدق صورة للمجتمع المثالى صاحب الرسالات والمبادئ وحامل لواء الحق للعالمين .. ولن نستطيع الاحاطة بكل هذه الجوانب .. فكل لون منها يحتاج الى دراسة مستفيضة وبحث خاص ولكننا نشير الى أهم هذه الألوان وضمانات تنفيذ كل لون منها حتى يؤدى ما هدف اليه من اسعاد المجتمع الانسانى ورفعته ..

## أولا - التكافل الأدبى :

وهو احساس كل فرد نحو اخوته فى الانسانية واخوته فى الدين بما يخالط مشاعرهم فيفرح لفرحهم ويأسى لمصائبهم ويتمنى لهم الخير ويكره الشر أن ينزل بهم .. وهذا التكافل يبدأ من تكافل الفرد مع ذاته يتولاها بالأصلاح والتهذيب ويؤدبها بأداب الدين ..

قال تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » (١٢)

وقال :

« فَأَمَّا مَنْ طَغَى \* وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا \* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ

(١١) اشتراكية الاسلام د. مصطفى السباعى ص ١٠٩ .

(١٢) سورة الشمس ٩/١٠٦ .

الْمَأْوَى \* وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ \*  
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ « (١٣)

فكان الانسان له في ذاته ذاتان : آمرة قوامة على التقصير ، وذات تقبل وتندفع للخير وبهذا الانسجام بين الفرد وذاته يفيض وجدانه حبا للناس وحرصا على ما ينفعهم ويشيع هذا الشعور الرفيق بين أفراد المجتمع فيجابوب كل منهم للآخر في صدق وود واخاء ..

#### ثانيا - التكافل السياسى :

وهو تحمل كل شخص لتبعة الحكم وتوجيه السياسة العامة للدولة وذلك بالمشاركة فى الرأى وابداء المشورة وقد يكون هذا التكافل عن طريق نواب يختارهم الشعب لابداء الرأى وتوجيه سياسة الحكم أو عن طريق المشاركة الفعلية والتجاوب الواقعى بين الحاكم والمحكوم .. اذ ليست الأمة ملكا لأحد بعينه وانما هى لواء يستظل به الجميع فلا استبداد برأى ولا اعتداد بمنصب انما يقوم مجتمع الاسلام على العدل والشورى والمساواة الكاملة بين الحاكم والمحكوم .. والمسلمون كما قال صلى الله عليه وسلم : « تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » (١٤) .. « ومن هنا أجمع الفقهاء على انه اذا أجاز مسلم رجلا حربيا وأعطاه الأمان ... فقد أصبح هذا الأمان محترما تلزم به الدولة مهما كان المجير عالما أو جاهلا قويا أم ضعيفا رجلا أم امرأة الا اذا اقضت مصلحة الدولة خلاف ذلك (١٥) » ..

(١٣) سورة النازعات ٣٧/٧٩ - ٤١ .

(١٤) رواه أبو داود وغيره .

(١٥) اشتراكية الاسلام د. مصطفى السباعى ص ١١٣ .

## ثالثاً - التكافل الدفاعي :

وهو مشاركة كل قادر في وجوب الدفاع والحماية لأرض الاسلام - وهذا تكافل من أجل المحافظة على بقاء الجماعة الاسلامية ووجودها وان كان من الواضح ان القتال في الاسلام انما يكون في سبيل الله وحده قال تعالى :

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا  
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَعْتَدِينَ » (١٦)

« ومعنى قوله : في سبيل الله : هنا تلك الغاية التي اجتمعت من أجلها جماعة المؤمنين فأصبحت مميزة بها وهي غاية الايمان بالله والعمل المستمر في الحياة لا من الوجهة المادية فقط ولكن من الوجهة النفسية والروحية قبل ذلك .. »

ولم تكن جماعة المؤمنين جماعة الا عند اجتماعها على هذه الأهداف اذ بدون هذه الأهداف هم أفراد عاديون .. هم أفراد متفرقون يتبعون سبلًا شتى واذن « سبيل الله » هو شعار جماعتهم واذن : بقاء جماعتهم رهن هذا الشعار فاذا لم يقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونهم ليصدوهم عن سبيله ذهب معنى الجماعة من نفوسهم وفي علاقة بعضهم ببعض .. (١٧) .. »

(١٦) سورة البقرة ٢/ ١٩٠ .

(١٧) الاسلام في حياة المسلم د. البهي ص ٢٧٩ .

ولهذا دعا القرآن المؤمنين الى النفير العام على أية حال فقال :  
 « أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ  
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (١٨)

فهب المسلمون يبيعون أنفسهم وأموالهم في سبيل دينهم وعقيدتهم  
 حتى رأينا هؤلاء الذين فاضت أعينهم من الدمع حزنا حين لم يجدوا  
 الوسيلة التي تعينهم على الجهاد قال تعالى :

« لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ  
 لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى  
 الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* وَلَا عَلَى الَّذِينَ  
 إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ  
 تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا  
 مَا يَنْفِقُونَ » (١٩)

فهذه الجيوش التي انطلقت غازية في الشرق والغرب تكافلت  
 وتعاونت وتضامنت في وجوب الدفاع عن هذا الدين وحماية المستضعفين  
 في أنحاء الأرض واسقاط معاقل الظلم في كل مكان تنفيذا لأمر الله القائل :

« فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا  
 بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ

(١٨) سورة التوبة ٤١/٩ .

(١٩) سورة التوبة ٩١/٩ ، ٩٢ .

نُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا \* وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ (٢٠)

وبهذا التكافل الدفاعي حفظت الجماعة الاسلامية كيائها وأثبتت وجودها وحقت غايتها ونشرت رسالتها فدان بها أهل الأرض ولم يخل مكان من أذان يرتفع كل صلاة وجياه ساجدة لله وألسنة ذاكرة وقلوب تعرف الله رب العالمين ..

#### رابعاً - التكافل الجنائي :

وهو مسئولية الجماعة متضامنة عما يقع فيها من جرائم فالقاتل عبداً يقتل الا أن يعفو أولياء القتل ، والقاتل خطأ يدفع الدية قال تعالى :

«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطْئًا وَمَنْ قَتَلَ  
مُؤْمِنًا خَطْئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ  
إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ  
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ  
مِثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ  
لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ  
عَلِيمًا حَكِيمًا (٢١)»

(٢٠) سورة النساء ٧٤/٤ ، ٧٥ .

(٢١) سورة النساء ٩٢/٤ .



والدية التي تجب على من عفا عنه أولياء القاتل أو على من قتل خطأ لا يتحملها وحده وإنما تتضامن معه عاقلته وهم أهله وأقاربه .. هذا إذا ما عرف القاتل والا اختار أولياء الدم من مكان القتل خمسين رجلاً يقسمون أنهم لا يعرفون القاتل ولا يؤونه عندهم وتحملوا دية المقتول متضامنين وهذا ما يعرف « بالقسامة » فإن عجز دفعها بيت المال « وفي الزام بيت المال بالدية عند العجز معنى واضح من معاني التكافل وتحمل آثار الجرائم لأن بيت المال هو خزانة الشعب ففي الزامه بدفع الدية تحميل لكل فرد في الأمة آثار تلك الجناية (٢٢) .. »

وضمائنا لهذا النوع من التكافل شرع الاسلام الحدود لكبح جماح المجرمين وحفظ الأمن في أرجاء الأرض وجعل المجتمع المسلم كله متضامنا في اقامتها ينوب عنه في تنفيذها حاكمه .. فمن حرم انسانا حق الحياة حرم حق الحياة قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (٢٣)

(٢٢) اشتراكية الاسلام د. مصطفى السباعي ص ١١٤

(٢٣) سورة البقرة ٢/ ١٧٨ ، ١٧٩ .

ومن اعتدى على عرض أقيم عليه حد الزنى : الرجم للمحصن والجلد  
لغير المحصن قال تعالى :

« الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ  
جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ  
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ  
الْمُؤْمِنِينَ \* الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ  
لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » (٢٤)

ومن اعتدى على شرف بالتجريح والقذف ضرب ثمانين جلدة  
وسقطت شهادته كما قال تعالى :

« وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ  
شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً  
أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ \* إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ  
ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (٢٥)

ومن اعتدى على أموال الناس بالسرقة قطعت يده قال تعالى :

« وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا  
نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٢٦)

(٢٤) سورة النور ٢٤/٢ ، ٣٠

(٢٥) سورة النور ٢٤/٤ ، ٥

(٢٦) سورة المائدة ٣٨/٥

ومن شرب خمرا ضرب أربعون جلدة ومن اعتدى على الأمن العام  
بوقطع الطريق عوقب عقوبة الخارجين على الدولة كما قال تعالى :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي  
الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ  
وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ  
خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ \* إِلَّا الَّذِينَ  
تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ » (٢٧)

وترك بعد هذه الحدود لولى الأمر حق التعزير يقرره على حسب  
الظروف والمناسبات ويقرر نوع العقوبة التى تليق بالجريمة من سجن  
أو ضرب أو تأنيب ..

وبهذا التكافل الجنائى يشيع الأمان والسلام فى ربوع أمة  
الاسلام ..

#### خامسا - التكافل الأخلاقى :

ويقصد به حراسة المبادئ الأخلاقية التابعة من عقيدة المؤمنين وتحمل  
كل فرد فى الأمة لمسئولية أى انحراف .. فالمجتمع الاسلامى فى مجموعه  
قوة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .. وليس معنى الحرية : أن تفعل  
ما تشاء دون حدود أو قيود وإنما ذلك مشروط بقيه عدم إيذاء الغير أو  
الاعتداء على نظام حياة الجماعة .. فان فعل أحد ذلك تكاثف المجتمع

وتعاون في القضاء على هذا الاعتداء حتى يظل مجرى الحياة هادئاً يسير الى غايته المنشودة التي ارادها له الله . . قال تعالى :

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » (٢٨)

« فقد آمنوا مشتركين فيما آمنوا به من مثل وقيم في هذه الحياة ، وشأن الاشتراك في الايمان بأهداف واحدة علياً أن يجعل الاخلاص والنصرة والرفعة بين المشتركين جميعاً في علاقة بعضهم ببعض أمراً لازماً (٢٩) » .

وهذا التكافل رسالة كل جماعة اسلامية يمكنها الله في الارض قال تعالى :

« الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » (٣٠)

وفي سبيل تكافل المجتمع في هذه المعاني يخوف الله كل من اعتزل الناس واهتم بامر نفسه ولم يحض غيره على البر والرحمة قال تعالى :

« خُلُوهُ فَعُذُّهُ \* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ \* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ

(٢٨) سورة التوبة ٧١/٩ .

(٢٩) الاسلام في حياة المسلم د. البهي ص ٢٨٢ .

(٣٠) سورة الحج ٤١/٢٢ .

ذَرُّهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ \* إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ  
الْعَظِيمِ \* وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ» (٣١)

وقال :

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ \* فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ  
الْيَتِيمَ \* وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ» (٣٢)

وقال :

« كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ \* وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى  
طَعَامِ الْمِسْكِينِ» (٣٣)

والسكوت عن المنكر يؤدي الى بوار المجتمعات وهلاكها قال  
تعالى :

«وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا  
فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا» (٣٤)

وأمة يشيع فيها الفساد فلا تأخذ على يد مرتكبيه تستحق هذا  
التدمير قال تعالى :

(٣١) سورة الحاقة ٣٠/٦٩ - ٣٤ -

(٣٢) سورة الماعون ١/١٠٧ - ٣ -

(٣٣) الفجر ١٨/٨٩ ، ١٩ -

(٣٤) سورة الاسراء ١٧/١٦ -

« وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً  
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » (٣٥)

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قاعدة أصيلة في منهج التربية القرآنية يقوم عليها مجتمع الاسلام برسالاته ويحفظ بها بقاءه فانها لا تقتصر على الدعوة الى التمسك بالأخلاق الكريمة من رحمة وكرم وسخاء وعطف ولين وتسامح وانما تتسع هذه الدعوة لتحيط بكل أركان الشريعة وآدابها ، والجماعة الاسلامية متكافلة متضامنة في الحث على ذلك والتذكير به ، والوقوف صفا واحدا في وجه المنكر تنهى عنه وتسد سبله ومنافذه قال تعالى :

« وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ  
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (٣٦)

وهذا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رأى منك منكر فليغيره بيده فان لم يستطع فليسله فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان (٣٧) » ..

#### سادسا - التكافل الاقتصادي :

وذلك بالتعاون الصادق في المحافظة على اقتصاد الأمة سليما يؤدي دوره الطبيعي في خدمة الحياة فانفاق الفرد له حدوده : فلا اسراف ولا تقتير ، كما قال عز وجل :

(٣٥) سورة الانفال ٢٥/٨ .

(٣٦) سورة آل عمران ١٠٤/٣ .

(٣٧) رواد مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم .

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ  
الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا » (٣٨)

ولا يحق له أن يمنع حق الفقراء وأرباب الحاجات قال تعالى في  
صفة المؤمنين الصادقين :

« وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ \* لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » (٣٩)

كما لا يجوز للمجتمع ان يفرط في ماله ويعطيه للسفهاء والمجانين.  
قال تعالى :

« وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ  
قِيَمًا وَآرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » (٤٠)

وفي خطاب الأمة بهذا النهى « لا توتوا » وفي اضافة الأموال اليها  
دلالة على أن المال في واقعه انما هو وسيلة وليس غاية وهو أمانة ووديعة  
في يد الفرد يستخدمه فيما أحل الله وشرع فان انحرف عن المنهج الاسلامي  
كان من حق المجتمع أن يسلب منه هذا المال ويتولى الاتفاق على المنحرف  
الى أن تثبت استقامته ويعود الى رشده . . والمجتمع كله مسئول عما  
يقع فيه من غش واحتكار وتلاعب بالأسعار مما يهز اقتصاد الأمة ويؤدي  
الى ضياعها . .

(٣٨) سورة الاسراء ٢٩/١٧ .

(٣٩) سورة المعارج ٢٤/٧٠ ، ٢٥ .

(٤٠) سورة النساء ٥/٤ .

قال تعالى :

« وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » (٤١)

وكان الصلة بين أكل أموال الناس بالباطل وقتل النفس أكيدة ظاهرة كما ترى فإن الأولى سبب لهلاك المجتمع وضعفه وانهياره وموته ..  
قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا » (٤٢)

والصفة بين أكل أموال الناس بالباطل وقتل النفس أكيدة ظاهرة فإن أكل أموال الناس بالباطل سبب هام في اهلاك المجتمعات وضعفها وانهيارها وموتها .. والواقع والمشاهدة خير دليل على ذلك ..

وفي هذا التكافل أوجب على المجتمع الاسلامى أن يوفر ما يحتاج اليه من صناعات وتجارات وأوجه النشاط المختلفة التى تخدم كل منها فاحية خاصة من فواحى الاقتصاد ..

وكلما جد جديد فى أنحاء العالم وكان المجتمع الاسلامى بحاجة اليه وجب على المجتمع أن يختار من بين أبنائه طائفة تتخصص فيه فلا يخلو عن زراعة وصناعة وتجارة وتعليم وطب وهندسة وغير ذلك مما يتكاتف

• (٤١) سورة البقرة ١٨٨/٢

• (٤٢) سورة النساء ٢٩/٤



فيه الناس ويتعاونون حتى لا يحتاج المجتمع الاسلامى الى غيره من المجتمعات مما يجبر عليه الشقاء ويتيح الفرصة ليد غريبة تكشف أسرارهم وتقوض بنيانه وتعمل على احتلاله وامتصاص خيراته .

#### سابعاً - التكافل العبادى :

فالعبادات فى الاسلام سمة بارزة من سمات المجتمع المسلم ومنهج القرآن يوجب تكافل الجماعة الاسلامية فى أداء هذه العبادات واطهار شعائرها .. فكم اجتذبت أصوات المؤذنين وصفوف الخاشعين فى الصلاة قلوباً فتحت لهذه النداءات الرطبة العذبة والوجوه المشرقة المستغرقة فى مناجاة الله .. ولذلك كان الأذان للصلاة واقامة صلاة الجماعة فى الأوقات الخمسة وتعاون المجتمع فى تجهيز الميت وتكفينه والصلاة عليه ودفنه .. كل ذلك من فروض الكفاية التى لو تركها المجتمع أثم كله ..

وربما نستطيع أن نفهم هذا من تعبير القرآن عن الصلاة وهو يطلب بها المسلمين ويجعلها صلة لازمة وعملاً أكيداً من صفات جماعتهم وأعمالها العظيمة وذلك اذ يقول : أقيموا الصلاة : بدل أن يقول صلوا .. فان صيغة الجمع ولفظ الاقامة لهما دلالتهم الخاصة وهى تكافل المؤمنين جميعاً فى اقامة شعائرها حتى يبدو المسلمون فى صورة المجتمع المسلم المعتز بما لديه من مبادئ الأخلاق والسمو الروحى ولن يكون هذا بالاستخفاء عن الناس وأداء تلك الشعائر فرادى وانما لا بد من الاعلان والجهر حتى يسرى تيار هذا الاشعاع الروحى فى القلوب ..

وهذه الصورة من تكافل المجتمع الاسلامى وتعاونه فى أداء العبادات والفروض الكفائية هو ما يعرف بالتكافل العبادى ..

## ثامنا - التكافل العلمى :

يرى المنهج القرآنى أن الانسان دون علم لا يساوى شيئا ولا يعتبر انسانا .. سئل عبد الرحمن بن المبارك : من الناس ؟ فقال : هم العلماء .. قال الغزالى رحمه الله فى شرح ذلك : « لم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التى يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم فالانسان انسان بما هو شريف لأجله وليس ذلك بقوة شخصه فان الجمل أقوى منه ولا بعظمه فان الفيل أعظم منه ولا بشجاعته فان السبع أشجع منه ولا بأكله فان الثور أوسع بطنا منه ولا ليجامع فان أخس العصافير أقوى على السفاد منه .. بل لم يخلق الا للعلم .. » (٤٣) ولهذا أوجب على العالم أن يعلم الجاهل وعلى الجاهل أن يتعلم من العالم فقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأتى على طوائف من المسلمين خيرا ثم قال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا ينهونهم . وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون أو لأعاجلنهم بالعقوبة .. (٤٤) وقد هدد القرآن من كتم علمه عن الناس تهديدا خطيرا فقال :

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّائِعُونَ \* إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (٤٥)

(٤٣) احياء علوم الدين للغزالى ٨٩/١ .

(٤٤) أخرجه الطبرانى فى الكبير ونقله الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٢٢ .

(٤٥) سورة البقرة ١٥٩/٢ ، ١٦٠ .

قال القرطبي رحمه الله « أخبر الله تعالى أن الذي يكتب ما أنزل من البينات والهدى ملعون • واختلفوا من المراد بذلك ؟ قيل : أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وقد كتم اليهود أمر الرجم وقيل ، المراد من كتم الحق فهي عامة في كل من كتم علما من دين الله يحتاج الى بثه وذلك مفسر في قوله صلى الله عليه وسلم : من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار • رواه أبو هريرة وعمر بن العاص أخرجه بن ماجه » (٤٦) •

فإذا كان من حق أى مجتمع أن يسمى نفسه « بالمجتمع المثقف » فمجتمع الاسلام أول من يطلق عليه هذا الوصف وذلك لتكافل أفرادها جميعا في القيام بواجب العلم وازالة آثار الجهل وانبعاث هذا التكافل كما هو شأن كل ألوان التكافل — من عقيدة راسخة ثابتة لا ترضى بالجهل وتعتبره هلاكا وضياعا :

قال تعالى :

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ  
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » (٤٧)

ويحتل العلم قمة الانسانية ومصادر الخير ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العالم والمتعلم شريكان في الأجر ولا خير في سائر الناس •• » (٤٨) وعن علي رضي الله عنه : « الناس ثلاث : فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة والباقي : همج رعاع أتباع كل ناعق » (٤٩) •

(٤٦) تفسير القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ص ٥٦٥ •

(٤٧) سورة الزمر ٩/٣٩ •

(٤٨) جامع بيان العلم لابن عبد البر ٣٤/١ •

(٤٩) جامع بيان العلم لابن عبد البر ٣٦/١ •

ومثل هذا اللون من التكافل يحتم على أمة الاسلام تيسير سبل العلم لكل طالب وتشجيع أهل العلم وحث الجبهة على التعلم واتاحة الفرصة لكل متفوق ، وتكاتف أفراد المجتمع فيما بينهم على ازالة آثار الأمية والجهل .. هذا اللون هو ما يعرف في منهج التربية القرآنية : بالتكافل العلمى ..

#### تاسعا - التكافل الحضارى :

وهذا التكافل يجمع الألوان السابقة ويزيد عليها أشياء كثيرة اذ يشمل كل عمل فيه صلاح للأمة ورفعتها ويتطلب تعاوننا انسانيا بناء فى الدعوة الى الخير وقرار دعائمه وتعاوننا انسانيا بناء فى الابتعاد عن الشر وسد منافذه قال تعالى :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ  
وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » (٥٠)

قال الماوردى : « ندب الله سبحانه الى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له لأن فى التقوى ارضاء الله تعالى وفى البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته » (٥١) .

يقول الأستاذ محمد الخضر حسين : « يتناول التعاون على البر والتقوى المؤازرة فى كل عمل ينتج عنه الخير سواء كان القائم به فردا أو جماعة وسواء كان الخير عائدا الى فرد أو أمة ، ولا فرق فى أصل طلب التعاون بين أن يكون الخير من مصالح الدنيا التى أذنت الشريعة باقامتها ، أو أن يكون من وسائل السعادة فى الأخرى ، ويدخل فى الاثم

(٥٠) سورة المائدة ٢/٥ .

(٥١) تفسير القرطبي ص ٢٠٤٤ .

والعدوان كل عمل يعطل شريعة من شرائع الدين أو يعود على النفس أو العرض أو العقل أو النسب أو المال بالفساد (٥٢) .

وحين يطلب المنهج القرآن من المؤمنين التعاون على البر والتقوى فانما يريد تعاونهم من أجل تحقيق مبادئ هذا الدين في واقع الحياة فإن البر الذي ورد في كتاب الله تناول أشياء كثيرة : فقد جاء بمعنى حسن المعاملة وطيب العشرة ومكارم الأخلاق . قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام : « وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا » (٥٣)

وجاء بمعنى الاتفاق في سبيل الله ، قال تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » (٥٤)

وجاء جامعاً للعقيدة والأخلاق والعبادات ، قال تعالى : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَمَلَئِكَةٍ وَآلْكِتَابٍ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » (٥٥)

(٥٢) الاسلام والتعاون للأستاذ عبد المنعم حماده ص ٣٦ .

(٥٣) سورة مريم ٣٢/١٩ .

(٥٤) آل عمران ٩٢/٣ .

(٥٥) سورة البقرة ١٧٧/٢ .

والتقوى كلمة جامعة أيضا قريبة من معنى البر ، بل ان البر هو أحد معانيها . . . و من مدلولاتها كذلك الوفاء بالعهد كما ترى في قوله تعالى :  
 « فَاتَّبِعُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » (٥٦)

وهي التي تدعو أصحابها الى الجهاد بالمال والنفس . قال تعالى :  
 « لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ » (٥٧)  
 ومن معاني التقوى خشية الله واناة القلب قال تعالى :

« وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ \* هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ \* مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ » (٥٨)

والابتعاد عن الظالمين وعدم توليهم والركون اليهم سمات لأهل التقوى ، قال تعالى :

« وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيٌّ لِّلْمُتَّقِينَ » (٥٩)

(٥٦) سورة التوبة ٤/٩ .

(٥٧) سورة التوبة ٤٤/٩ .

(٥٨) سورة ق : ق ٣١/٥٠ - ٣٣ .

(٥٩) سورة الجاثية ١٩/٤٥ .

ومن معانيها العفو والتسامح قال تعالى :

« وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا  
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ \* الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي  
السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُضُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ  
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » (٦٠)

ومن معانيها العدل وترك الظلم قال تعالى :

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ  
أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ » (٦١)

ومثل هذه القيم والتعاليم أساس الحضارة الإسلامية كما هي أساس  
كل حضارة تعمل على توفير الأمان والسلام للإنسان وهي ميزة انفردت  
بها حضارة الإسلام عما سواها إن أمكن أن نسمى التقدم في الصناعة  
والزراعة والتجارة دون هدايات السماء حضارة والأجدر أن نعتبرها تدميرا  
للإنسانية لا تجد فيها ما يسعدها إلا أن تحلق بقيم القرآن وتعاليمه .. تلك  
القيم التي طلب الله سبحانه من المؤمنين بما لديهم من المقومات الإيمانية  
أن يتعاونوا متكاتفين في سبيل إقرارها فقال :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ  
وَالْعُدْوَانِ » (٦٢)

(٦٠) سورة آل عمران ١٣٣/٣ ، ١٣٤ .

(٦١) سورة المائدة ٨/٥ .

(٦٢) سورة المائدة ٢/٥ .

## عاشرا - التكافل العائلي :

والاسلام يعتبر الانسان جزءا من أسرة قريبة تتكون من أصوله وفروعه ، فما هو جزء من الانسانية العامة وأخ للمؤمنين فاذا اجتمعت وفروعه ، كما هو جزء من الانسانية العامة وأخ من حق الاسلام عليه أن يربطه بأسرته وعائلته التي تجمت فيها كل هذه المعاني وأوجب على الجميع حق التكافل والتناصر (٦٣) .. وتبدو صورة هذا التكافل فيما شرعه الاسلام من التوارث بين الأقارب اذ قال :

« يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثُهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ لِأَبَائِكُمْ وَلِأُمَّاتِكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا \* وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ



الَّذِينَ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ  
وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ  
فَلَكَلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ  
فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ  
غَيْرِ مَضَارٍّ ، وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ <sup>(٦٤)</sup>

وقال تعالى :

« يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ  
هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ  
يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُن لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا  
الْثُلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَّكَرِ  
مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ  
شَيْءٍ عَلِيمٌ <sup>(٦٥)</sup> » .

هذا التوارث الذي استقر بقول الله تعالى :

« وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ  
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمُ  
مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا <sup>(٦٦)</sup> »

. (٦٤) سورة النساء ١١/٤ ، ١٢ ،

. (٦٥) سورة النساء ١٧٦/٤

. (٦٦) سورة الاحزاب ٦/٣٣

وفصلته الآيات هذا التفصيل المحكم الدقيق يؤدي الى تفتيت الثروة. ويبين مقدار نظرة الاسلام الى المال وهو كذلك مبدأ هام من مبادئ التكافل العائلي كما هو عدل الهى بين الجهد والجزاء : فان الولد الذى ورث عن أبيه أخلاقه وخلقه ونسبه من حقه أن يرث مما تركته أصوله نصيبه فيما جمعه من ثروات .. كما أن الأصول التى ورثت فروعها ما ورثتهم من عوامل نفسية وجسمانية تفرض عليهم أوضاعا معينة فى حياتهم .. من حق هذه الأصول أن ترث ما تركه الفرع من متاع ..

كما يبدو فى هذا اللون من التكافل أنه تكافل بين الجيل والأجيال السابقة واللاحقة وامتداد للحياة ودفع بها فى طريق الانتاج الصالح فان الوالد الذى يعمل وهو يشعر أن ثمرة عمله لأبنائه وحفدته ، وهم وجوده الذى لا ينقطع سوف يبذل كل ما يستطيع وفى هذا رفعة له ولأمته .

وهذا مثال للتكافل العائلي بين الآباء والأبناء فى قصة موسى مع عبد من عباد الله وقد أتيا على أهل قرية فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه هذا العبد الصالح فقال له موسى لو شئت لاتخذت عليه أجرا .. فبين له وجه الحقيقة فقال : ما نقرؤه فى سورة الكهف :

« وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ  
وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ  
أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ  
وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ  
صَبْرًا » (٦٧)

فاتتفع الولدان بصلاح الوالد وورثا ما خلفه لهما من مال وصلاح..

كما نرى من تشريعات هذا التكافل العائلى ما حمله الاسلام لعائلة القاتل واشتراكهم فى دفعها وما فرضه العرف والدين من مشاركة الأقربين فى سرائهم وضرائهم مشاركة فعلية واعطائهم من التركات اذا لم يكونوا من الوارثين الى غير ذلك من صور تكافل أفراد العائلة وتضامنهم فى كل نواحي الحياة ..

#### الحادى عشر - التكافل المعيشى :

وهو ما يرتبط بحياة الناس ومعيشتهم من طعام وغذاء وكساء ومسكن وحاجات اجتماعية لا يستغنى عنها انسان فى حياته ومعيشته ..

والقرآن - وهو يبنى مجتمعه - يرى أن التكافل المعيشى واجب لا يمكن للمجتمع المسلم أن يتخلى عنه : « ففى الحديث : أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تعالى .. » (٦٨)

وهذا اللون من التكافل هو ما أطلق عليه - خطأ - التكافل الاجتماعى والواقع أنه لون من ألوانه .. به تكمل صورة التكافل الاجتماعى ويكون بذلك شاملا لكل حاجات المجتمع الأدبية والسياسية والدفاعية والجنائية والاقتصادية والأخلاقية والعبادية والحضارية والمعيشية وينفرد مجتمع الاسلام بهذا التكافل العام الشامل فى تاريخ الانسانية دون أن يسبقه أو يلحق به فى تشريعه من أجل البناء الاجتماعى تشريع علمى الاطلاق ..

(٦٨) المسند للإمام احمد بن حنبل نشر الاستاذ احمد شاکر حديث

### تشريعات التكافل المعيشى :

وهى تشريعات محكمة واضحة لاتدع جانبا من جوانب المجتمع يسقط ويتداعى انما تبحث عن مواطن الخلل والعجز والحاجة فتسد هذه الحاجات وتفرض من الموارد مايكفل أداء هذا الحق لأصحابه وتبين المصارف والموارد فى دقة واعجاز .. ويؤدى التكافل المعيشى دوره فى خدمة المجتمع ويتضافر مع باقى ألوان التكافل فى سبيل توفير حياة كريمة تليق بالانسان الذى استخلفه الله فى الأرض .. والمستحقون لهذا التكافل نوعان :

١ - نوع يتميز بالعجز عن الكسب عجزا كليا أو جزئيا كالفقراء والمساكين والمكفوفين والمقعدين والشيخوخ والمشردين واللقطاء واليتامى والأسرى ..

٢ - وفرع لا يتصف بالعجز ولكنه يحتاج الى المساعدات المالية .  
ولهذين النوعين وضعت التشريعات الآتية :

١ - تشريع المساعدة : وهو يشمل المدين والغارم والقاتل خطأ وابن السبيل .

٢ - تشريع الاعفاف : وهو تيسير وسائل الزواج لكل من أراد العفة قال تعالى :

« وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (٦٩)

٣ - تشريع الماعون : قال تعالى :

« فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ \* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ \*  
الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ \* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » (٧٠)

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : أى لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا باعارة ما ينتفع ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم وعن مجاهد قال : الزكاة وكذا روى عن علي وابن عمر وبه يقول كثير من التابعين وقال عكرمة رأس الماعون : زكاة المال وأدناه المنخل والدلو والابرة وهذا الذى قاله عكرمة حسن فانه يشمل الأقوال كلها وترجع كلها الى شىء واحد وهو أى : منع الماعون - ترك المعاونة بمال ومنفعة (٧١)

٤ - تشريع المشاركة : وذلك فى المواسم الزراعية وجنى الثمار والفواكه قال تعالى :

« كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » (٧٢)

قال مجاهد فى هذه الآية :

إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل وإذا جذدت فألق لهم من الشماريخ وإذا درستهم وذريته فاطرح لهم منه وإذا عرفت كيله فأخرج منه زكاته (٧٣) .

وقد تقدم فى التكافل العائلى ما جعله الله للأقارب وغيرهم من الفقراء والمساكين إذا حضروا توزيع التركة قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين عند

(٧٠) سورة الماعون ١٠٧/٤ - ٧ .

(٧١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

(٧٢) سورة الأنعام ١٤١/٦ .

(٧٣) تفسير القرطبي ص ٢٥٣٦ .

تقسمة موارثهم أن يصلوا أرحامهم ويتأملهم ومساكينهم من الوصية  
فإن لم تكن وصل لهم من الميراث (٧٤) •

٥ - تشريع الضيافة : وهو اكرام الضيف وتقديم وسائل الراحة له  
قال صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه :  
جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام وما بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل  
أن يشوى عنده « يقيم » حتى يخرجه (٧٥) •

٦ - تشريع الجوار : وهو احساس الجار بحاجة جاره والاحسان  
إليه قال تعالى :

« وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا  
وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْقُرْبَىٰ وَأَلْيَتَمَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ  
وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ  
أَيْمَانُكُمْ » (٧٦)

وكلمة الاحسان • كلمة جامعة تشمل التكافل المادى وغيره .. قال  
صلى الله عليه وسلم : « ما آمن بى من بات شعبان وجاره الى جانبه طاو  
« جائع » (٧٧) •

(٧٤) تفسير القرطبى ص ١٦١٩ •

(٧٥) رواه البخارى ومسلم وغيرهم •

(٧٦) سورة النساء ٣٦/٤ •

(٧٧) اشتراكية الاسلام نقلا عن الاختيار شرح المختار ١٢٩/٣ •

•• وهذه تشريعات أخرى للتكافل في حالات نادرة وطارئة •• لكن التشريع الالهي الصالح لكل زمان ومكان لا يفوته شيء ولو كان حدوثه نادرا •• وذلك :

١ - تشريعات الاسعاف : وهو اسعاف من أشرف على الهلاك من جوع أو عطش أو مرض أو حلت بهم كارثة مفاجئة من فيضانات وزلازل وحوادث قال صلى الله عليه وسلم : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » (٧٨) .

٢ - تشريعات الطوارئ : وذلك اذا تعرضت البلاد لخطر هجوم العدو ولم يكن في خزانة الدولة ما يكفي تجهيز المقاتلين والاتفاق عليهم فمن حق الدولة أن تأخذ من أموال الناس بقدر ما يندفع به الخطر ، ودفع جزء يسير من المال أهون من اغارة المعتدى على البلاد وضياعهم لكل أموالهم قال تعالى :

« أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (٧٩) .

كما يجوز فرض هذا القانون اذا ما تعرضت الأمة للشورات الداخلية من أهل الشر ، قال تعالى :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ » (٨٠) .

(٧٨) رواه مسلم .

(٧٩) سورة التوبة ٤١/٩ .

(٨٠) سورة المائدة ٣٣/٥ .

قال الغزالي رحمه الله : اذا خلت الأيدي « أيدي الجنود » من الأموال ولم يكن في مال المصالح « أي خزينة الدولة » ما يفي بخراجات العسكر « أي نفقات الجيش » وخيف من ذلك دخول العدو بلاد الاسلام أو ثوران الفتنة من قبل أهل الشر « أي حدوث الفتنة الداخلية » جاز للامام أن يوظف على الأغنياء « أي يفرض » مقدار كفاية الجند لأننا نعلم أنه اذا تعارض شران أو ضرران قصد الشرع دفع أشد الضررين وأعظم الشرين وما يؤديه كل واحد منهم « الأغنياء » قليل بالاضافة الى ما يخطر به من نفسه وماله لو خلت خطة الاسلام أي « البلاد » عن ذي شوكة « أي الجيش » بحفظ نظام الأمور وقطع مادة الشرور وما يشهد لهذا أن لولى الطفل عمارة القنوات « قنوات الأرض الخاصة بالطفل » واخراج أجرة الطبيب وثمان الأدوية « أي العائدة للطفل » وكل ذلك تنجيز خسران لتوقع ما هو أكثر منه (٨١) .

٣ - تشريعات الاعانات العائلية : والاسلام بقدر حاجة الناس فلا يبخس أحدا حقه ولا يساوى بين من يعول أسرة كبيرة ومن يعيش عزبا وحده ولهذا أعطى المتزوج أكثر مما أعطى العزب وصاحب الأولاد أكثر من غيره « فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أتاه في قسمه من يومه فأعطى الأهل حظين وأعطى العزب حظا واحدا (٨٢) وكان عمر يفرض لكل مولود عطاء يزداد الى عطاء أبيه ( مائة درهم ) كلما نما الولد زاد العطاء وقد جرى عليه من بعد عثمان وعلى والخلفاء من بعدهم » (٨٣) .

(٨١) اشتراكية الاسلام د. مصطفى السباعي نقلا عن المستصفى للغزالي ج ١ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

(٨٢) الأموال لأبي عبيدة ص ٣٠٨ .

(٨٣) اشتراكية الاسلام د. مصطفى السباعي ص ١٢٥ نقلا عن الأموال لأبي عبيد ص ٢٣٧ .



وبذلك يتقرر مبدأ الإعانات العائلية على قدر حاجة الرجل وما يلزمه من نفقات وهذه الحقوق ليست من باب النوافل والتطوع فقط وليست متروكة لاحتساس الفرد بحاجة مجتمعه الى أن يتكافل ويتعاون معه انما هي حق « مفروض » •

صحيح أن القرآن في تربيته حين يسن للناس شريعة لا يلجأ في تنفيذها الى قوة الارهاق انما يتجه مباشرة الى داخل الانسان فيحرك فيه مشاعره ويستولى على قلبه ويدفعه في شوق وحب الى الامثال ، ومع ذلك لا يغفل جانب العقوبة لمن لا يؤدي ما وجب عليه .. ولهذا فاضت تعاليم الدين بالمفروض والمسنون .. بالواجب والتطوع وأدت في كلتا الحالتين دورا هاما في تربية المجتمع المسلم واسعاده ..

والتشريع الالهى حين يحدد المصارف والحالات التى تستحق العون والمساعدة يهيئ لها الموارد التى تكفيها حتى لا تبقى هذه الحالات أملا وحلما يداعب الخيال دون أن يكون لها واقع ملموس يتغير به نظام المجتمع ويعيش مستقرا آمنا .. وتلك الموارد تتلخص فيما يأتى :

#### ١ - الزكاة :

فريضة المسلمين الخالدة التى تجمع بين العبادة والمساعدة للمجتمع • وقد سبق أن بينا ما فيها من أوجه التربية الخلقية للنفوس البشرية وهنا تبدو فريضة الزكاة بابا من أهم أبواب تمويل التكافل الاجتماعى ••

وقد فرضها المولى سبحانه بنسب قليلة في أموال الناس وان كانت حصيلتها من مجموع هذه النسب عظيمة فقد جعلها - مثلا - في الأموال النقدية وعروض التجارة بنسبة  $\frac{2\frac{1}{2}}{100}$  وفي المواشى بنسبة قريبة من ذلك وفي الزروع والثمار نصف العشر التى يبذل فيها مجهود وتسقى بالآلة،

والعشر للتي لا تسقى بالآلات بشرط أن تصل في ذلك إلى نصاب الزكاة  
وقد أوضح القرآن من تصرف إليه هذه الزكاة فقال :

« إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا  
وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (٨٤)

## ٢ - زكاة الفطر :

وهي تجب على الرجل وعلى كل من تلزمه ثقته من زوجه وولده  
وخادمه وفي الحديث : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من  
رمضان صاعا من تمر أو صاعا من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى  
والصغير والكبير من المسلمين (٨٥) ..

## ٣ - الركاظ :

وهو ما يوجد في باطن الأرض وأعماق البحار من معادن وقهود -  
وفيه الخمس كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « في الركاظ  
الخمس » (٨٦) .

## ٤ - الفنائم والفيء :

والأولى ما حصل عليه المسلمون من الكفار بقتال .. والفيء : ما  
حصلوا عليه دون قتال . قال تعالى :

« وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ »

(٨٤) سورة التوبة ٦٠/٩ .

(٨٥) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٨٦) رواه ابن ماجه عن ابن عباس .. ورواه الطبراني في الكبير  
والأوسط عن جابر وعن ابن مسعود .

وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ <sup>(٨٧)</sup>

وقال :

« مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ  
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ  
كُنِيَ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » <sup>(٨٨)</sup>

#### ٥ - الوصية :

في ثلث ما يمتلك الانسان وأكثر من الثلث اذا أجاز الورثة ذلك ..  
ولا وصية لو ارث كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله قد  
أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لو ارث » <sup>(٨٩)</sup> ..

وهى باب من أبواب الخير يجرى بعد وفاة صاحبه يصل بها المؤمن  
أهله وأقاربه الذين لا يرثون يسعد به فقراء المسلمين ومسبكينهم ..  
والقرآن يجعلها قبل توزيع التركة فيقول بعد أن حدد نصيب كل صاحب  
قرض :

« مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ » <sup>(٩٠)</sup>

ويؤكد أن الوصية حق على المتقين فيقول :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ

(٨٧) سورة الأنفال ٤١/٨ .

(٨٨) سورة الحشر ٥٩/٧ .

(٨٩) أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح ..

(٩٠) سورة النساء ٤/١١ ، ١٢ .

خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى  
الْمُتَّقِينَ « (٩١)

#### ٦ - الوقف :

وقد أدى هذا المورد دورا بارزا في حياة المجتمع المسلم وشمل أوجه  
الحياة جميعها ووصل الى الغاية التي ترجوها الانسانية ..

وهو نوعان : وقف من أجل أقارب الواقف وذريته بشرط أن ينتهي  
الى جهة خير لا ينقطع عند انقراض الذرية ووقف خيري : لجهة من جهات  
الخير كالمساجد والمدارس والأيتام والعجزة والمستشفيات والمجاهدين في  
سبيل الله ..

#### ٧ - النفقات :

للأصول والقرع ، ولهم حق الطعام والكساء والسكن والخدمة  
والتعليم والتزويج وغيرها من الحاجات الاجتماعية ..

#### ٨ - النذور :

فمن نذر لله نذرا وجب عليه وفاؤه لأن هذا من صفات الأبرار  
الذين ..

« يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا » (٩٢)

والذين استجابوا لأمر الله حين دعاهم لذلك فقال تعالى :

« وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ » (٩٣)

• (٩١) سورة البقرة ١٨٠/٢

• (٩٢) سورة الانسان ٧/٧٦

• (٩٣) سورة الحج ٢٩/٢٢

وحين رغبهم في الانفاق وخوفهم من الشح والبخل فانه ظلم وما للظالمين من شفيع فقال :

« وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » (٩٤)

٩ - الأضاحي :

قال تعالى :

« فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ » (٩٥)

نزلت في صلاة عيد الأضحي ونحر الأضاحي في العيد وفي الحديث « يا أيها الناس على كل أهل بيت في كل عام أضحية » (٩٦) ..

١٠ - الكفارات :

وهذه - أيضا - تضيف الى حصيلة التكافل الشيء الكثير وقد جعلها الله في أمور كثيرة ..

فمنها : الحلف بالله والرجوع عما حلف عليه قال تعالى :

« لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتُكُمْ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا

(٩٤) سورة البقرة ٢/٢٧١ .

(٩٥) سورة الكوثر ١٠٨/٢ .

(٩٦) رواه احمد وابو داود والنسائي .

حَلَفْتُمْ وَأَخْفَضُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ  
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٩٧)

ومنها قتل المحرم للصيد قال تعالى :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ  
قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ  
بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدِيًّا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ  
مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ» (٩٨)

وفي كثير من مخالقات الحج ومنها ما ذكره الله بقوله :

«وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ  
مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ  
كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ  
أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى  
الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ  
أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ  
لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» (٩٩)

• (٩٧) سورة المائدة ٨٩/٥

• (٩٨) سورة المائدة ٩٥/٥

• (٩٩) سورة البقرة ١٩٦/٢

والذى لا يطيق الصوم فى رمضان عليه كفارة ، قال تعالى :

« وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ » (١٠٠)

وكفارة الظهار كما قال تعالى :

«وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ \* فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا » (١٠١)

## ١١ - الخزنة العامة :

وفىها يتجمع من أصناف الأموال الكثير .. يتجمع فيها الزكاة وخمس الغنائم والمعادن .. وخراج الأراضى .. وجزية الرؤوس وتركه من لا وارث له .. وهى بذلك تكفى حاجات الدولة كلها ولا تقتصر على المحتاجين للتكافل الاجتماعى لأنها تشمل المشروعات العامة فى البناء والتعمير وتسد حاجات الدولة من رواتب للموظفين والعاملين الى غير ذلك مما تحتاج اليه أمة فى حياتها تقنيا وتنظيما ورخاء ويسرا ..

## ١٢ - الكفاية :

وهى قفزة فى تاريخ التشريع يسبق بها منهج القرآن كل مناهج الإصلاح مهما بلغت مرونتها وعظمتها .. اذ أن تشريع الكفاية يتيح لولى

(١٠٠) سورة البقرة ١٠٤/٢ .

(١٠١) سورة المجادلة ٥٨/٣ ، ٤ .

الأمر حرية الحركة من أجل المحافظة على حياة الفقراء والمحتاجين ضماناً  
لا استقرارهم وسداً لاحتياجاتهم المادية والأدبية ..

فإذا لم تكف الموارد السابقة للقيام بهذا الواجب جاز للحاكم أن  
يفرض ما شاء من قوانين حتى يتمكن من كفاية المستحقين للتكافل  
الاجتماعي .. روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى  
الله عليه وسلم أنه قال : من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له  
ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له .. قال أبو سعيد :  
فذكر رسول الله من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد  
مننا في فضل (١٠٢) ..

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو استقبلت من أمرى ما  
استبدرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين (١٠٣)  
وعن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله  
يفرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بالقدر الذى يسع فقراءهم ، ولم  
يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنيائهم ألا وإن الله يحاسبهم  
حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً (١٠٤) ..

قال ابن حزم : « وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا  
بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ولا فى  
سائر أموال المسلمين بهم فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه  
ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبسكن يكنهم من المطر والشمس

(١٠٢) رواه مسلم .

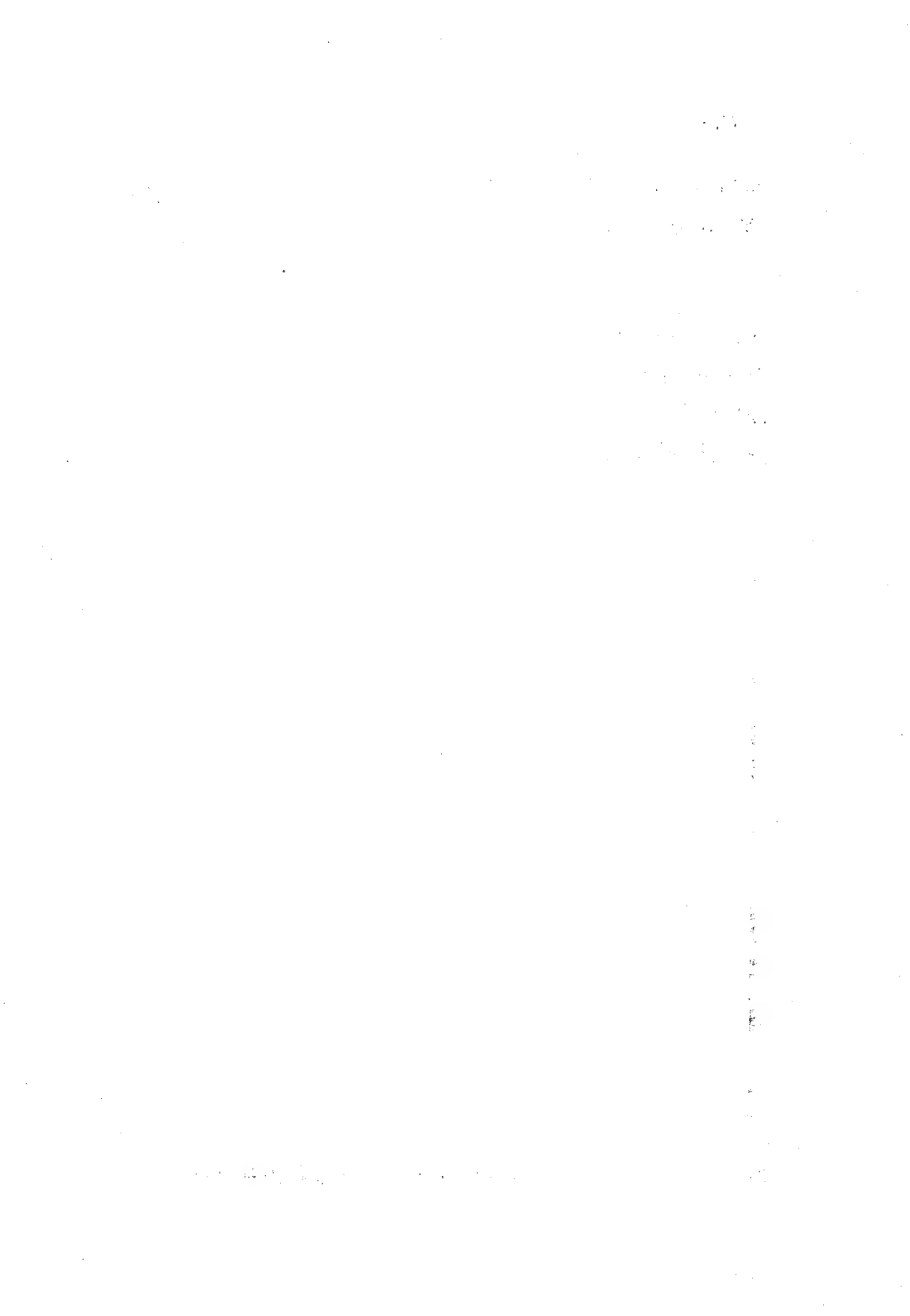
(١٠٣) رواه ابن حزم فى المحلى ج ٦ ص ١٥٨ وقال : هذا اسناد فى  
غاية الصحة والجلالة .

(١٠٤) المحلى لابن حزم ج ٦ ص ١٥٨ .



وعيون المارة (١٠٥) وقد سبق في تشريع الطوارئ والاسعاف ما أتاحه التشريع من حق التدخل لحماية المنكوبين والمعوزين وحماية بلاد الاسلام ان يعتدى عليها آثم باغ ..

وبهذه التشريعات المحكمة يصل التكافل المعيشي الى المستوى اللائق بحياة الانسان .. وبهذه الألوان المتعددة للتكافل يتبين لنا عظمة منهج القرآن في تربية المجتمع واقامته على العدالة والتعاون والاحساس الذى يدفعه أمل فى ثواب الله وخوف من عقابه ونظرة واقعية الى متع الحياة ووظيفة الانسان فى تلك الحياة ..



## الفصل الثالث

### المعاملات المالية

١٥ - صلة الدين بالمعاملات المالية

٣٣ - المال :

( أ ) مكاتته

( ب ) تحصيله

( ج ) تنميته

( د ) انفاقه

٣٤ - البيع - والشراء

٤ - مكانة المعاملات من الحياة



## المعاملات المالية

### ٢ - صلة الدين بالمعاملات :

الانسان اجتماعى بطبعه - هكذا خلقه الله - يحتاج الى الغذاء والكساء والمأوى وهى حاجات أساسية تتحكم فيه فيضطر من أجلها الى السعى وتحصيل الرزق والتعامل مع اخوته من بنى جنسه - ونظرا لما ركب فى البشر من حب الحياة - لأن حب الحياة هو الخلود - يحاول الناس الازدياد من المال وجمعه من كل طريق فيكون التنافس والتسابق ويكون المكر والدهاء .. ولا بد من عاصم يحمى الضعيف من كيد القوى ويحفظ العاجز من أهل الدهاء والحيلة ... وليس هناك من عاصم الا دين الله يربى النفوس ويروضها ويرغبها ويخوفها ويهديها الى الخير ويدلها على طريق الله الواضح المستقيم ..

وهذا الترابط بين الدين والمعاملات قديم قدم الانسان .. وبدونه يحيا الناس كالوحوش فى الآكام بل ربما حفظ الوحش لفصيلته حق الحماية والنصرة ، لكن البشر يدفعهم طمع وحرص وشراهة فاذا بالعهود ممزقة الأوصال .. والأخوة الانسانية أمل يداعب النفوس ليس لها برهان من الواقع ..

ولهذا كانت الوصية الأولى من الله لآدم وبنيه حين هبط هو وحواء من الجنة :

« فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى \* وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا \* وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى » (١)

(١) سورة طه ١٢٣/٢٠ - ١٢٤ -

وهذه الهداية الالهية تحيط بالمتهج العام للحياة في اعتقاداته وأخلاقه ومعاملاته .. الا أن المعاملات هي المحك الرئيسى الذى تبدو فيه قوة العقيدة في الله وعظمة الأخلاق المنبثقة من هذا الايمان ..

وهذه الصلة بين الدين والمعاملات نلسمها قديما في دعوة نبي الله شعيب عليه السلام : وذلك أن قومه فهموا أنه لا صلة بين الدين والدنيا وأن المعاملات أمور تنظمها المجتمعات بالطريقة التى تحلو لها وما الدين الا صلة روحية بين العبد وربّه وليس هناك ما يدعو الى ارتباط هذا بذاك قال تعالى :

«قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» (٢)

ولكنه يبين لهم الصلة الوثيقة بين الدنيا والآخرة .. بين معاملة الخالق ومعاملة المخلوق فيقول :

«يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ أَصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا» (٣)

(٢) سورة هود ٨٧/١١ ..

(٣) سورة الأعراف ٨٥/٧ - ٨٦ ..

وتوجز سورة العنكبوت هذه الحقيقة وما حل بقوم شعيب حين  
كذبوه في ذلك فنقول :

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ  
وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ \*  
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنَثِيمِينَ » (٤)

وقصة شعيب التي تكررت في أكثر من موضع من كتاب الله مثال  
للصلة الأكيدة بين المعاملة والايمان بالله .. وما حل بقوم شعيب عبرة لكل  
أمة تجعل حياتها في جانب ومعرفتها بالله في جانب .

لذلك اعتنى القرآن في وصاياه بمثل هذه الصلة فتجده في وصايا  
سورة الاسراء التي تبدأ بالوصية الأولى :

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » \*

نجد قول الله تعالى :

« وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ  
ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » (٥) .

وفي الوصايا العشر في سورة الأنعام قوله تعالى : « قل تعالوا آتِل  
ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً » .. ثم أمر بعدالة المعاملة لا رتباطها  
بالتوحيد المطلق لله : اذ يقول :

(٤) سورة العنكبوت ٣٦/٢٩ ، ٣٧ .

(٥) سورة الاسراء ٣٥/١٧ .

« وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا  
إِلَّا وُسْعَهَا » (٦) .

وفي سورة « الرحمن » بعد أن بين آثار الرحمن سبحانه الشاهدة  
ببوحدياته وقدرته يقول :

« وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ \* أَلَّا تَطْغَوْا فِي  
الْمِيزَانِ \* وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ » (٧) .

وسورة « المطففين » وما فيها من تخويف شديد لمن ساءت معاملته  
للناس دليل على الصلة المتينة بين المعاملة والدين وذلك اذ يقول :

« وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ \* الَّذِينَ إِذَا أَكْدَالُوا عَلَى النَّاسِ  
يَسْتَوْفُونَ \* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ \* أَلَّا  
يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ \* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ \* يَوْمَ يَقُومُ  
النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » (٨) .

واذا كان هذا الوعيد لمن أنقص حبات من كيل أو دراهم من وزن فان  
مدلوله أكبر وأعظم : اذ يشمل جوانب الحياة كلها وما فيها من معاملات  
وتطفيف الكيل والاتقصاء من الوزن دليل على مرض النفس وحاجتها الى  
العلاج ودليل على سوء الطوية والاجترأ على حدود الله ومن يجترىء على

(٦) سورة الأنعام ١٥٢/٦ .

(٧) سورة الرحمن ٧/٥٥ - ٩ .

(٨) سورة المطففين ١/٨٣ - ٦ .



مثل هذا يجره الى ما هو أعظم منه فيعتدى على حرمان الله .. واذن فلا انفصال بين واقع الحياة ومعاملات البشر اليومية وبين كتاب الله والمجتمع الذى أنشأه القرآن انشاء بعيدا كل البعد عن ملامح مجتمعات الأرض قديمها وحديثها التى فصلت بين عقيدتها وحياتها ، فقد أقام لأتباعه طريقا راشدا فى حياتهم وصلاتهم ومعاملاتهم كما حدد الصلة بين الخلق والخالق ولم يكن أمام دين الله غير هذا المنهج فى الحياة لأنه يصنع للانسانية مجتمعا فريدا متميزا عن المجتمعات الجاهلية بأوضاعها وأوزارها وعاداتها وتقاليدها وهذا شأن رسائل السواء التى جاءت تقيم مجتمعات جديدة مطهرة من مفاسد البشر ومهتدية بهداية الله ..

فهذا موسى عليه السلام « يقود شعبا بغير دولة الى أرض يقيمون فيها حكما غير الحكم الذى خضعوا له فى موطنهم الذى تركوه من أرض الدولة المصرية فلم تكن رسالته رسالة عقيدة وحسب ولم يكن قيام العقيدة مسهورا بغير قيام القانون ..

وجاء السيد المسيح مؤيدا لشرائع العهد القديم ولم يجرى مبطلا لها أو معطلا لأحكامها جاء متمما للناموس ولم يجرى هادما للناموس (٩)» ..

قال تعالى :

« وَقَفَيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ \*

وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْأَنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ  
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» (١٠).

وإذا كانت هذه منزلة المعاملات من دين الله وكانت وثيقة الصلة  
بمقيدة المؤمنين وأخلاقهم فإن المنهج الذي انتهجه القرآن لم يدع أمرا  
يختص بالمعاملة إلا وأوضحه وأرسى قواعده وأقام بناءه الاجتماعي على  
هذا الأساس المتين ..

## ٢ - المال :

### ( أ ) مكانته :

المال عصب الحياة وزيتها .. قدمه الله على الأولاد ولهم من الحب  
القطرى في نفوس الآباء ما لهم .. فقال :

« أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ  
الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » (١١).

قال العلامة أبو السعود : « وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز  
منه كما في قوله تعالى :

« أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » \*

وقوله تعالى :

« وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ » \*

(١٠) سورة المائدة ٤٦/٦ ، ٤٧ ،

(١١) سورة الكهف ٤٦/١٨ .

وغير ذلك من الآيات الكريمة لعراقته فيما يظ به من الزينة والامداد  
 موغير ذلك وعمومه بالنسبة الى الأفراد والأوقات فانه زينة وممد لكل واحد  
 من الآباء والبنين في كل وقت وحين ، وأما البنون فزيئتهم وامدادهم انما  
 يكون بالنسبة الى من بلغ مبلغ الأبوة .. ولأن المال مناط لبقاء النفس  
 والبنين لبقاء النوع .. ولأن الحاجة اليه أمس من الحاجة اليهم ولأنه أقدم  
 منهم في الوجود ولأنه زينة بدونهم من غير عكس فان من له بنون بلا مال  
 فهو في ضيق حال ونكال (١٢) » ..

لهذا كان فتنة لا ينجو منها الا من عصم الله .. قال تعالى :  
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا  
 أَمْوَالَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ  
 وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » (١٣) .

وقال تعالى :

« إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ  
 عَظِيمٌ \* فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » (١٤) .

ونادى المؤمنين :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ  
 عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » (١٥) .

(١٢) تفسير أبى السعود : ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن  
 الكريم ج ٣ ص ٢٥٣ .

(١٣) سورة الانفال ٢٧/٨ ، ٢٨ .

(١٤) سورة التباين ١٥/٦٤ ، ١٦ .

(١٥) سورة المنافقون ٩/٦٣ .

وما فتن قارون الا ماله اذ قال لقومه حين نصحوه :

« إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي » (١٦)

وما فسق المترفون وفجروا واعتدوا على حقوق الناس الا لأن المال أغواهم وأغراهم فكان لهم العذاب والدمار والهلاك ..

ولهذه المكانة الخطيرة والمنزلة الرفيعة للأموال وأثرها في حياة الأفراد ومستقبل الجماعات يقرر القرآن أن المال ابتداء ملك لله يستخلف فيه من يشاء من عباده :

قال تعالى :

« لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (١٧)

وقال تعالى :

« ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ »\* (١٨)

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » (١٨)

• (١٦) سورة القصص ٧٨/٢٨

• (١٧) سورة الشورى ١٢/٤٢

• (١٨) سورة الحديد ٧/٥٧ ، ١٠

وبهذه القاعدة يستقر في حس المؤمن أن ما بين يديه ملك لربه وما هو الا مستخلف في انفاقه حسبما أمر به ربه ..

ومعنى أن الملك كله لله أنه حق الناس جميعا لا يمتلك أحد منه شيئا الا بتمليك الشارع له ، ولذا جاء في بعض التعريفات للملكية : « ان الملك حكم شرعى مقدر في العين أو المنفعة يقتضى تمكين من يضاف اليه من انتفاعه بالشئ وأخذ العوض عنه .. وهذا المعنى هو أن الملكية لا تثبت الا باثبات الشارع وتقريره أمر متفق عليه بين فقهاء الاسلام لأن الحقوق كلها - ومنها حق الملكية - لا تثبت الا باثبات الشارع لها وتقريره لأسبابها ..

فالحق ليس ناشئا عن طبائع الأشياء ولكنه ناشئ عن اذن الشارع وجعله السبب منتجا لسببه شرعا (١٩) » .

وليس في هذا تشييط للهمم ولا الغاء لنوازع الفطرة وجبها للامتلاك . فديننا دين الفطرة يسايرها ويلبى رغباتها ويرتفع بها عن الرغبات المهلكة والآمال الخادعة لكنه يدل الإنسان على الطريق ويدفع المجتمعات الى الانتاج والسعى .. ولو شاء أن يجعلنا كالملائكة لا تحتاج الى طعام أو شراب لفعل ولكنه ربط الحياة بالعمل .. فلا كسب بلا عمل ولا يستحق الاستخلاف عن الله ولا ينال شرف التمليك الا لله الا من بذل وضحي وكافح وكابد الحياة ..

قال تعالى :

« فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » (٢٠)

(١٩) الفكر الاسلامى والتطور لفتحى عثمان ص ٢٨ .

(٢٠) سورة الملك ١٥/٦٧ .

وإذا أمر القرآن بالسعى الى الصلاة وترك العمل بعض الوقت فقال ٢٠

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ  
الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ  
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي  
الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ  
تُفْلِحُونَ» (٢١) .

وما أجمل تربية القرآن لمجتمعه وهو يجعل السعى في الأرض والعمل  
الدعوى من أجل الرزق ابتغاء من فضل الله ويمزج بين عمل الجوارح  
وخلجات الصدور فيطلب ممن يعمل ألا ينسى ذكر الله ، فذلك هو الفلاح  
المتجدد والنجاح في الدنيا والآخرة .. ومع الوجبات التي تتصبب عرقا  
والقلوب التي تفيض خشوعا في محراب الله يحيا مجتمع الاسلام في عزة  
وسيادة ورفعة .. من عمله الموصول دائما بالله يفيض المال بين يديه فلا  
يفتنن به ولا يستعبد له ، لكنه يضعه حيث وضعه الله : يجعله وسيلة لا غاية  
وسيلة يسعد بها الانسان نفسه وأهله ومجتمعه .. لا غاية تضيع من  
أجلها قيم الحق والعدل والخير وتنسى مبادئ الأخلاق الكريمة ..

#### (ب) تحصيله :

ولا يدع كتاب الله بابا للعمل الا وفتحه أمام المسلم : فتح له  
باب الصناعة ودله على ما فيها من مصادر القوة وذلك وهو يحدثنا عن  
داود وسليمان عليهما السلام :

فيقول :

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أُوبَىٰ مَعَهُ  
وَالطَّيْرَ وَالنَّارَ لَهُ الْحَدِيدَ \* أَنِ اعْمَلْ سَبِغًا وَقَدِّرْ فِي  
السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَاحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ \* وَلَسُلَيْمَانَ  
الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ  
وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ  
عَن أَمْرِنَا نُنْفِضْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ \* يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ  
مِن مَّحَرِّيبَ وَتَمْثِيلَ وَجِفَانَ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ  
اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ » (٢٢)

ولقد بلغ سليمان عليه السلام في صناعة البناء شأوا بعيدا سبق به حضارة اليمن وبلقيس فغاب عنها أن ما تراه أمامها ليس لجة ماء كما توهمت انما هو فن الصناعة ورقيا :

قال تعالى :

« قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً  
وَكَشَفْتُ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ  
قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ  
رَبِّ الْعَالَمِينَ » (٢٣)

(٢٢) سورة سبأ ١٠/٣٤ - ١٣ .

(٢٣) سورة النمل ٢٧/٤٤ .

وحين يحدثنا القرآن عن رسل الله وما معهم من هدايات يرشد الى الوسيلة التي ينتصر بها ما معهم من حق وذلك عن طريق القوة المادية التي تحصى هذا الحق من اعتداء أهل الباطل .. فنراه يجمع في آية واحدة بين ارسال الرسل وانزال الكتب وانزال الحديد فيقول :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » (٢٤)

وكان التعبير « بأنزلنا » في الكتاب والميزان والحديد دليل على ما بين الحق والقوة التي تزود عنه من قوة الصلة ووثاقة الرباط ..

وكيف ينتفع المسلمون بالحديد وما فيه من بأس شديد اذا لم يصلوا بصناعته الى قمة التقدم فيحمون حقهم ودينهم ؟

وكيف يستفيدون من هذا الحديد وما فيه من منافع للناس تيسر حياتهم في أسفارهم ومعاشهم اذا لم يرتقوا بالصناعات الأخرى الى أوج الحضارة والازدهار ؟ وهي حضارة تقوم على معرفة الله القوى العزيز وعلى احقاق هدايات السماء واقرار العدل بالميزان الذي لا يضل ، والحكم الالهي الذي لا يزيع ..

وفي باب الصناعة ترى الكثير : ترى صناعة اللؤلؤ والمرجان من

البحار ..

« يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » (٢٥)

• (٢٤) سورة الحديد ٢٥/٥٧

• (٢٥) سورة الرحمن ٢٢/٥٥



والارتفاع بما في البحار والأنهار من ثروات تراه حين تقرأ قول الله تعالى :

« وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلٌّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٢٦).

وباب التجارة : أحد الأبواب التي يسهها المولى الكريم ودل عليها وهو يمتن على عباده بتسخير الفلك والأنهار والبحار فيقول :

« وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ » (٢٧).

ويقول تعالى :

« وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٢٨).

ولا يستفيد من هذا التسخير الا من عرف البحار والأنهار وطرق التجارة ومسالكها .. وهذه قریش ألفت التجارة وأقامت عليها حياتها ومن هنا طالبها الله بشكر هذه النعمة وذلك بعبادة رب البيت فقال :

(٢٦) سورة فاطر ١٢/٣٥ .

(٢٧) سورة ابراهيم ٣٢/١٤ .

(٢٨) سورة النحل ١٤/١٦ .

« لَا يَلِدُ قَرِيْشٍ \* إِلَّا فِيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ \*  
فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ \* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ  
وَعَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » (٢٩).

كما أن القرآن يلفت النظر الى الجنات المفروشات والنخيل والزروع  
والحب والنبات فيقول :

« وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ  
كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا  
وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ  
وَالزَّيْتُونِ وَالرَّمَّانِ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ  
إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٣٠)

ويقول :

« وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ  
وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَّانَ مُتَشَبِهًا  
وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ » (٣١)

• (٢٩) سورة قريش ١٠٦ .

• (٣٠) سورة الانعام ٩٩/٦ .

• (٣١) سورة الانعام ١٤١/٦ .

ويقول :

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ \* يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (٣٢)

ويقول تعالى :

« وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكُلِ » (٣٣)

ويقول تعالى :

« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ \* أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا \* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا \* فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا \* وَاعْنَبًا \* وَقَضْبًا \* وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا \* وَحَدَائِقَ غُلْبًا \* وَآكِهَةً وَآبًا \* مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ » (٣٤)

(٣٢) سورة النحل ١٠/١٦ ، ١١ .

(٣٣) سورة الرعد ١٣/٤ .

(٣٤) سورة عبس ٨٠/٢٤ - ٣٢ .

وكثير من آيات الكتاب الكريم تذكر لنا أنواع الخير المبثوثة في  
مأرض الله والتي تحتاج في زراعتها واستنباتها وتعهدها الى قوة الإدراك  
وحسن الرعاية وتمام العلم بفنون الزراعة وخواص التربة والمحاصيل ..

ومع هذه الدعوة الواضحة للعمل والانتاج بكل أنواعه وأشكاله  
فإننا لا نعتبر كتاب الله مرجعا صناعيا أو تجاريا أو زراعيا إنما هي آيات  
يسوقها المولى سبحانه يلفت بها الأنظار الى مظاهر قدرته وإبداعه ليقوم  
صرح الايمان على أساس من الاقتناع العقلي الذي لا يضل ولا يزيف  
فيكون شكر المنعم على جميل عطائه وفيض احسانه نابعا من وجدان  
المؤمنين بما لخالقهم ورازقهم من صفات الكمال والجلال كما نستطيع أن  
ندرك - أيضا - من هذه الآيات ما فيها من هدى لأمة الاسلام ، وارشاد  
الى أن كمال الاستخلاف عن الله لا يكون الا باكتشاف أسباب القوة  
والسيطرة على مصادر الثروة والانتفاع بكل ما في الكون قال تعالى :

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ  
يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ \* إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ  
عَابِدِينَ » (٣٥)

وليست الصناعة والزراعة والتجارة هي طرق الحصول على المال  
بوحدها فقد يأتي المال عن طريق الجهاد في سبيل الله أو العمل بأجر للآخرين  
أو ما شابه ذلك .. وقد يأتي عن طريق الهبة أو الوصية ولا يهب الانسان  
أو يوصي عادة الا لمن كان جديرا بذلك لصداقته أو قرابته .. وقد يكون  
المراء مستحقا للمال لأنه من الأنواع التي فرض الله لها نصيبا من الصدقات  
والاعانات .. كذلك يأتي المال عن طريق الميراث جريا على سياسة القرآن

في تفتيت الثروة وانتقالها بعد موت الانسان الى وراثته في نظام معروف  
ومفصل دون ظلم أو جور ..

### (ج) تنميته :

هذا المال الذي أصبح بين يدي الانسان قابل للزيادة والتنمية بالطرق  
المشروعة فان حاد عنها كان ماله حراما يستحق عليه أشد العقاب .. ينمو  
المال ويزيد بالكسب الحلال والمعاملة الشريفة القائمة على رعاية المصلحة  
وتحقيق العدالة للجميع والمبنية على المودة والرحمة .. وما منع الاسلام  
قط معاملة بين الناس تنفهم وتخلو من الضرر بهم والذين على فريق منهم  
وأساس التحريم كله في الاسلام أن يكون في العمل المحرم ضرر أو اجحاف  
أو حطة في العقل أو الخلق .. (٣٦) ..

لذلك حرم الغش اعتبر من غش خارجا عن جماعة المسلمين : « من  
غشنا فليس منا .. (٣٧) .. » وذلك لأنه قوض بناء الاخلاص والتقوى  
والاخاء التي يقوم عليها مجتمع الاسلام وتنبثق منها علاقات أفراد ..

« ان من غش في رطل من الرطب أو من اللحم أو غش في متر من القماش  
عن طريق تقديم الخبيث باسم الطيب والردىء باسم الجيد أو عن طريق  
انتقاص الكيل أو الميزان لا بد أن يكون نزاعا في نفسه الى انتقاص الحقوق  
أيا كانت وكيفما كانت .. وان انتقاص الحقوق اساس كبير لزعزعة الثقة  
في المجتمع وسبيل الى قطع الصلات واثارة الأحقاد والبغضاء بين الناس  
ولذلك ينتشر الفساد في الأرض وتضيع المصالح (٣٨) » .

(٣٦) حقائق الاسلام واباطيل خصومه : للعقاد ص ١١٦ .

(٣٧) رواه اصحاب السنن .

(٣٨) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص ٢٨٠ .

### والرشوة :

أحد أوجه تنمية المال عن طريق استغلال حاجات الناس  
أو إعطاء الحق لمن لا يستحق .. وهى من أكل أموال الناس بالباطل :  
« وما وجدت في المجتمع إلا أفسدت موازينه وإذا فسدت الموازين اضطرب  
أمره ولذا قال تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى  
الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » (٣٩) ..

### والاحتكار :

تضييق على الناس ، وإغاث لهم وهدم لقاعدة التنافس الشريف في  
التجارة ، وقد يكون ذلك عن طريق شراء السلعة من السوق والتحكم  
في سعرها ، أو تخفيض السعر مضارة في تاجر ناشئ ليخلو الطريق أمام  
المحتكر فيفرض ماشاء له هواه على الناس من أسعار : .. وفي كلتا  
الحالتين يتعد أمثال هؤلاء عن ركب جماعة المؤمنين ليكونوا أداة قسر  
تلهب ظهر المجتمع وتستغله أسوأ استغلال لذلك قال صلى الله عليه وسلم:  
« من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد برىء من الله وبرىء الله منه » (٤٠) .

وكل كسب فيه اضرار بالفرد أو المجتمع هو من الوسائل غير  
المشروعة لتنمية المال .. فالالتجار في الأعراض عن طريق البغاء وإثارة  
الشهوات وانتهاز ضعف الإنسان ودفعه إلى ارتكاب الفاحشة ..  
والالتجار في العقول عن طريق المخدرات والخمور وما أشبههما كل ذلك  
وسائل غير نظيفة ولهذا حرمها الاسلام ..

(٣٩) تنظيم الاسلام للمجتمع للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٧ ، والآية  
من سورة البقرة ١٨٨/٢ .  
(٤٠) حديث رقم ٤٨٨٠ مسند الامام أحمد شرح الأستاذ أحمد شاكر .

## والربا :

أحد الأبواب التي يقيقض بها المال دون جهد أو عمل .. والقرآن يشن عليه هجوما عنيفا فيوصد كل أبوابه ولا يدع ثغرة ينفذ منها من أراد التعامل به الا اذا خلع المرابي عن نفسه رداء الايمان وأصر على ارتكاب المحرم وجاهر الله بالعداء فاستحق اعلان الحرب عليه من الله ورسوله ..

ولقد تناول الباحثون في القديم والحديث موضوع الربا بالشرح والبيان وأفاضوا فيه بما لا يترك زيادة لمستزيد وذلك لأن التعامل الدولي والاقتصاد العالمي يقوم في ينائه على المعاملات الربوية .. وكأن العالم في شرقه وغربه يصر على عصيان الله ومخالفة أمره .. وربما كان للأمم التي لا تدين بالاسلام بعض العذر في اقامة اقتصادها وحياتها على مثل هذا التعامل .. لكن الأمة التي يرتفع فيها لواء الاسلام ماعذرها وما حجتها ؟ ..

والأمم التي لا تدين بالاسلام لها بعض العذر لا العذر كله لأن الربا محرم في كل الشرائع لم تقره ديانة ولم يعترف به مصلح : « حرم الربا تحريما باتا في الكتب المنسوبة الى موسى عليه السلام فجاء في الأصحاح الثاني والعشرين من سفر الخروج : ان أقرضت فضة الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي » وجاء في الأصحاح الثالث والعشرين من سفر التثنية : لا تقرض اخاك ربا : ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يقرض ربا » وفيه أيضا « للاجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكي يباركك الرب الهك في كل ما تمتد اليه يدك (٤١) » ..

(٤١) هذا النص يبين كذب الكتب المنسوبة الى موسى عليه السلام وكيف حرف اليهود الكتب المنزلة لتوافق أهواءهم .. فما كان لموسى أن يقر ظلما واعتداء .. وما كان لشريعته أن تبيح العدالة للاسرائيليين =

واتفقت الكنائس جميعا على تحريم الربا واشتد « لوثر » في هذا التحريم حتى وضع رسالته عن التجارة والربا وحرم فيها كثيرا من البيوع الربوية (٤٢) الا أن فساد حملة لواء المسيحية ، وسوء استغلالهم للدين واتخاذهم وسيلة للارهاب والتخلف ، وجمعهم الأموال من حلال أو حرام ويقظة أوربا وثورتها على هذا الضلال .. كل هذا جعلها ترفض الدين جبلة وتغزله عن حياتها وتخطط بتفكيرها منهجا يلائمها .. ولما لم يكن الدين هو الحاكم والمهيمن على كل تصرف فان النتيجة الطبيعية لذلك هي الانحراف ..

وهو انحراف خطير شمل جوانب الحياة كلها وفي مقدمتها المعاملات المالية وساد التعامل بالربا وفرض المربون سلطانهم على العالم كله .. وانجرف المسلمون مع هذا التيار الزاحف فكانت الديون وما تحمله من فوائد ربوية هي المخلب القوى الذي أسقط الأمم الاسلامية في براثن الاستعمار .. ولم تتخلص منه الا بعد أن قدمت من أبنائها وشبابها وقوتها كل غال ونفيس .. وأفادت لتخلق بركب التطور العلمى لكنها تحتاج الى مجهود شاق وعمل دائب يشيد فى أساسه على وحي من تراثها وقيمها التى انبثقت من هدايات السماء فتصل الى مقدمة هذا الركب المتطور تحميه وتنقذه من الهوة السحيقة التى يتردى فيها ، وتقوده الى

.. وتحرمها على سائر الشعوب .. قال تعالى فى بيان كذب هؤلاء وافترائهم على الله : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » ( البقرة ٧٩/٢ ) ويقول : « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الامين سبيل ويقولون على أن الكذب وهم يعلمون وأن منهم لفرقا يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ( آل عمران ٧٥/٣ ، ٧٨ ) .

(٤٢) حقائق الاسلام واباطيل خصومه للعقاد ص ١١٧ ، ١١٨ .



الحضارة بمفهومها الواضح المستقيم .. حضارة الانسان الذى كرمه  
الله وأعلى قدره ..

أما العالم الاسلامى فلا عذر له أبدا فى أن يبنى حياته على هذا  
التعامل : فكتابه العظيم يأمره أمرا لا هوادة فيه بترك الربا يقول تعالى :  
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ  
الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* » .

ويهدده تهديدا خطيرا فيقول :

« فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن  
تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ » (٤٣)

ويناديه ببدء الايمان ويذكره بتقوى الله ويخوفه النار التى أعدها  
للكافرين ، وكيف يرضى مؤمن أن يكون مع الكافرين ؟ فيقول :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً  
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ \* وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ  
لِلْكَافِرِينَ \* وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (٤٤)

وفى قوله تعالى « أضعافا مضاعفة » بيان لبشاعة ما كانوا يصنعون  
وليس قليل الربا جائزا فالربا « كله حرام لم يقل بحله أحد .. » والقرآن  
أذ يتحدث عن كثير من المحرمات يضع الربا فى مقدمتها ويوجه اليه

(٤٣) سورة البقرة ٢/٢٧٨ ، ، ٢٧٩ .

(٤٤) سورة آل عمران ٣/١٣٠ - ١٣٢ .

حملة ضخمة وذلك لما فيه من ظلم واجحاف بحقوق المجتمع ولما فيه من جشع وقسوة وامتصاص لدماء الناس وحين يعرضه القرآن يضعه بين أمرين هامين : بين الانفاق في سبيل الله وما فيه من سخاء النفس واستقرار المجتمعات وما في الانفاق من أجر عند الله واسعاد للنفس بانتفاء الخوف والحزن عنها في الدنيا والآخرة :

قال تعالى :

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٤٥)

وبين التعامل الصحيح القائم على الشعور بحاجة الآخرين وتقدير ظروفهم قال سبحانه :

« وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »

وترغيب في وعد الله و ثوابه وتخويف من هول المرجع والحساب حين تبحث كل نفس عن رصيدها من العمل الصالح ..

كما قال عز وجل :

« وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » (٤٥)

ومع هذا الشعور الجميل بيان دقيق واعجاز محكم لا يصل اليه الا كتاب الله وهو يمزج بين الدراسات المالية والأسلوب القرآني والدعوة الى الايمان والمحافظة على القيم والأخلاق .. بيان مفصل يحفظ الحقوق فلا تضيع وذلك وهو يدعو الى كتابة الدين قل أو كثر ويبين شرط الكاتب ومن يملئ عليه وكيفية الاشهاد وواجب الشهود ومتى يجوز ترك كتابة الدين وأخذ الرهن ضمانا للحقوق وكل هذا مع تقوى الله والاحساس باطلاعه سبحانه على خلجات الصدور وذلك حتى ينبثق التعامل بين الناس من داخل النفس لا من خارجها .. فالتحليل على القوانين مشهور ومن لا يزعه ايمانه لا يرده عن غيه قانون مفروض الا أن يجد له أساسا في أعماق النفس يحميه وينفذه .. وهذا ما صنعه منهج القرآن .. قال تعالى في بيان هذه المعاملات :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ

صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ  
لِلشَّهَادَةِ وَأَذْنَىٰ آلَا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً  
تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا  
وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ  
تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُقُوكُمْ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ  
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا  
فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُودِ الَّذِي  
أَوْثَمَنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ  
يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٤٥)

بين الانفاق الكريم والمعاملة الصحيحة يحدثنا القرآن عن الربا  
باعتباره وسيلة لزيادة الثروات فيبدو هذا الربا كالحا شاحبا لا معنى له  
وتبدو المفارقة عظيمة بينه وبين الانفاق في سبيل الله وبينه وبين المعاملة  
الكريمة للبشر ، ويظهر من يتعامل بالربا كمن به مس من الشيطان :

قال تعالى :

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَرْبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ  
الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » (٤٦)

(٤٥) سورة البقرة ٢/٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٤٦) سورة البقرة ٢/٢٧٥ .

والمفسرون على أن القيام انما هو يوم البعث ولكن أسلوب الآيات لا يمنع وقوع هذا في الحياة الدنيا فاكل الربا لا يستقر له قرار ، ولا يشبع من مال وهو دائما خائف نهم .. مصاب بسعار الجشع والطمع وانتهاز الفرص ..

ولعل حال المجتمعات التى تقوم فيها مؤسسات الربا المالية تضيف تأكيدا لذلك .. فرغم جريان نهر الأموال فى أيديهم من أنحاء العالم الا أن القلق والخوف سيطر على هذه المجتمعات ، ولم ينفعها ما تعاطت من خمور ومخدرات وما اصطنعته لنفسها من وسائل اشباع الشهوات وما أثارته من فوضى جنسية ودعارة علنية .. كل هذا لتتصر على قلقها وخوفها لكن دون جدوى ، فكان الانتحار واللصوصية والخروج على قيم المجتمع علامات خطر فى تلك الأمم التى أصابها مس من الشيطان . ومن أجل هذا الفساد : أحل الله البيع وحرم الربا .. فمن التزم ذلك نجا ومن انحرف استحق عذاب الله ..

قال تعالى :

« فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٤٧)

وإليعلم الأفراد ولتعلم المجتمعات أن الربا نذير خطر لأن الله يحقه ويهلك أصحابه فالتعامل به كفر بنعمة الله الذى جعل المال وسيلة تيسير لا تعسير تقضى به المصالح ولا تستغل به الحاجات .. والتعامل به اثم كبير ، أما الصدقات فانها زيادة فى المال ونور فى القلب واشراق فى الحياة وكشف الكرب وتيسير فى الطريق ..

قال تعالى :

« يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ  
كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ »<sup>(٤٧)</sup>

وقال تعالى :

« وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا  
يَرْبُوَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ  
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ »<sup>(٤٨)</sup>

وقد كان يكفي الشعوب التي تدين بالاسلام أن يقول لها قرآنها وأحل الله البيع وحرم الربا .. لترفض هذا التعامل من حياتها الا أن التيار الآسن جرفها ، وكان يكفيها لترفضه ما جره عليها من فقد حريتها واستعمار بلادها وما أصابها بسببه من نكبات وويلات الا أنها تناست كل هذا وتغفل الربا في حسها ووجدانها وأصابها ما أصاب العالم من شقاء تمزق ..

ونظرة الى الواقع ترينا أن تطبيق المعاملات الصحيحة والغاء النظام الربوى من أساسه لن يضرنا في شىء فلن تغلق المصارف والشركات ودور النقد انما سيلغى نظام الفائدة فقط فان المال لا يلد المال .. وتستطيع الدولة أن تتحمل نفقات هذه المصارف كما تتحمل غيرها وهى نفقات سهلة : « فان جملة الفوائد التى أخذتها البنوك فى سنة ١٩٥٦ فى الاقليم

(\*) سورة البقرة ٢٧٦/٢

(٤٨) سورة الروم ٣٩/٣٠

المصرى ١٥ مليون جنيه وكان دخلنا القومى ١٣٥٠ مليون جنيه « لكنها رغم قلتها » لا تمثل الا ثمن الانتظار و ثمن التبدل ثم انها فريضة على المقترض : فالمقترض الذى يريد أن يقرن عمله ببعض موارد الطبيعة يلتزم برد الأصل ورد الثمرة سواء أربح أو لم يربح « والفكرة فى الغاء الفائدة هى رفع السدود عن الدم الذى يجرى فى الشرايين لأن النقود فى حد ذاتها لا تشبع حاجة • والرأى تركز فى النقود فالقوائد التى تضعها المصارف الخاصة - مجبرة - لتغطى مصروفاتها هى تماما كالضريبة الدخولية التى كانت تفرضها بعض الامارات فى القرون الوسطى والتى فرضها ( اسماعيل صدقى ) فى فترة على التنقل بين مديرية ومديرية هذه كلها حواجز تضر بنشاط الاقتصاد القومى وما يعود على البلد من دررة النقد وتنشيط الحركة الاقتصادية فى صورة مكرر استعمال الدخل وفى صورة ربح يعود على رأس المال وأجر يعود على صاحب العمل وضريبة تعود على الدولة يفوق اضعافا ال ١٥ مليون جنيه التى سيفقدوها المجتمع (٤٩) » ..

يقول ابو الأعلى المودودى أمير الجماعة الاسلامية بباكستان فى دراسته القيمة التى تضمنها كتابه « الربا » لا شك أن الدين من حاجات الحياة الانسانية يحتاج اليه الأفراد فى حاجاتهم الشخصية ويكثر عليه الطلب دائما فى التجارة والصناعة والزراعة وغيرها من الشؤون الاقتصادية كما أن المؤسسات الاجتماعية وفيها الحكومة نفسها تكون دائما فى حاجة شديدة اليه ولكن من الخطأ القول بأن حصول الدين بغير ربا أمر مستحيل لأن الأمر لم يؤل الى هذا الوضع السيئ الذى لا يحصل فيه الدين بغير

(٤٩) من محاضرة الدكتور عيسى عبده ابراهيم فى ندوة لواء الاسلام بملحقاتها عن الربا فى ٢٩ نوفمبر ١٩٦٠ فى عددها الحادى عشر السبنة الرابعة عشرة عدد رجب ١٣٨٠ هـ .

ربا للأفراد ولا للأمم الا لأنكم أبغتم الربا بموجب القانون - حرموه أولا وتبنوا مع الاقتصاد ذلك النظام الذى قد جاء به الاسلام للاخلاق تجدوا كيف ينهال القرض بكل سهولة وبكل كثرة للحاجات الشخصية والاجتماعية بدون الربا بل وكيف تنهال العطايا والمنح على الأفراد والأمم من كل جانب وقد برهن الاسلام على ذلك فعلا .. فقد ظل المجتمع الاسلامى لقرون عديدة يسير شئون اقتصاده على أحسن ما يتصور من الطريق بدون ربا وما جاء عليه قبل هذا العصر الربوى النجس حين من الدهر يكون قد مات فيه رجل مسلم ثم بقى بدون كفن ولا دفن لأن وراثته مآل بالقرض بدون ربا أو تكون صناعة المسلمين وتجارتهم وزراعتهم قد باءت بالخسارة والبوار لا لشيء الا لأنه ثبت ان حصول القرض الحسن حسب حاجاتهم التجارية والصناعية والزراعية مستحيل أن تكون الحكومات الاسلامية مآلات الأموال لمشاريع كانت تنويها للمصلحة العامة أو للاتفاق فى الجهاد ولا لشيء الا لأن الأمة مارضيت أن تقرضها بدون شيء من الربا .. فاذن لا تحتاج دعواكم هذه - أى أن القرض الحسن شيء مستحيل لا يمكن تحقيقه والعمل به وأنه لا يمكن أن يقوم بناء الاقراض والاستقراض الا على أساس الربا فقط - الى رد منطقى فاننا قد أثبتنا خطأه بتعاملنا الاجتماعى الى عدة قرون متوالية (٥٠) » .

هذه أهم الوسائل التى وقف المنهج القرآنى فى طريقها وجعلها وسائل دينية وخيرية فى تنمية الأموال وزيادة الثروات .. وحرمها لأنها تتنافى مع مبادئه ونظراته الى وظيفة الانسان وصلته بالمجتمع الذى يعيش فيه ..



## ( د ) انفاقه :

الانسان ليس حرا في ماله ينفقه كيف يشاء لأنه في جمعه للمال وتنميته وانفاقه يتعامل مع مجتمع له حق في هذا المال فان أداه المرء كان جديرا باستخلاف الله ، وان منعه وجعله أداة ظلم ووسيلة ارهاب وانحرف عن غايته سلب هذا الشرف وحرّم ذلك الخير ..

فليس من حقه أن يكثره لأنه يعطل وظيفته ولذلك ورد التهديد الخطير لمن فعل ذلك قال تعالى :

« وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ \*يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » (٥١)

قال ابن عباس والسدى : نزلت في مانعي الزكاة من المسلمين وذلك أنه لما ذكر قبح طريقة الأعبار والرهبان في الحرص على أخذ الأموال بالباطل حذر المسلمين من ذلك وذكر وعيد من جمع المال ومنع حقوق الله منه .. (٥٢) ..

و ليس للانسان أن يبعثر الأموال كيفما شاء له هواه — فذلك هو الاسراف الذي يفسد الحياة ويهلك المجتمعات وينذر بالخطر ولذلك شى القرآن حملته على الاسراف والمسرفين والمترفين فجعلهم اخوان الشياطين

(٥١) سورة التوبة ٣٤/٩ ، ٣٥ .

(٥٢) حاشية الجمل : الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين

للدقائق الخفية ج ٢ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

قال تعالى :

« إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا » (٥٣)

وجعلهم دعاة التخلف والتبذير والجهالة والداعين الى القعود عن الجهاد فقال :

« وَإِذْ أَنْزَلْتُ سُورَةَ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نْكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ \* رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » (٥٤)

والمترفون عبدة التقاليد ، والمعاندون لكل دعوات الإصلاح ..

قال تعالى :

« وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ \* قِيلَ أَوْلَوْجِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ \* فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ » (٥٥)

(٤٣) سورة الاسراء ٢٧/١٧ .

(٥٤) سورة التوبة ٨٦/٩ ، ٨٧ .

(٥٥) سورة الزخرف ٢٣/٤٣ - ٢٥ .

وهم لا يكتفون بحرمان أنفسهم من هدايات الله انما يضلون غيرهم  
ويصرفونهم عن الحق ..

قال تعالى :

« وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا  
بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا  
بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ \*  
وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ » (٥٦)

وبالمال الذى يجرى بين أيدي المترفين يشيعون الفساد فى الأرض  
ويوجهون الحياة كما يريدون فيستحقون التدمير .. وهو تدمير يهلكهم  
ويهلك معهم أمهم التى رضيت بوجودهم وفسوقهم ..

قال تعالى :

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا  
فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا » (٥٧)

وهذا شأن كل من ظلم وفجر واتخذ المال للمتعة الرخيصة والمآرب  
الدنيئة ..

قال تعالى :

« وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا  
قَوْمًا آخَرِينَ \* فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأُسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ \*

(٥٦) سورة المؤمنون ٣٣/٢٣ - ٢٤ .

(٥٧) سورة الاسراء ١٦/١٧ .

لَا تَرْكُضُوا وَأَرْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ  
تُسْأَلُونَ \* قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ \* فَمَا زَالَتْ  
تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِدِينَ ﴿٥٨﴾

والتقتير والبخل والشح هي الوجه المقابل للاسراف والترف ، ومن  
أجل هذا حاربها القرآن أيضا لأنه يريد أمرا وسطا وانفاقا معتدلا ..  
قال تعالى :

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ  
الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا » ﴿٥٩﴾

وهذا الاتفاق المعتدل من صفات عباد الرحمن كما قال سبحانه :  
« وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ  
بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » ﴿٦٠﴾

والفلاح لمن وقاه الله شح نفسه ..

قال تعالى :

« وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ﴿٦١﴾

(٥٨) سورة الأنبياء ١١/٢١ - ١٥ -

(٥٩) سورة الاسراء ١٧/٢٩ -

(٦٠) سورة الفرقان ٢٥/٦٧ -

(٦١) سورة الحشر ٥٩/٩ ، التغابن ٦٤/١٦ -

ولا يجوز أن يحرم مؤمن نفسه عن المتاع الحلال .  
قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ \* وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ » (٦٢)

« قال علماؤنا رحمة الله عليهم : في هذه الآية وما شابهها والأحاديث الواردة في معناها رد على غلاة المتزهدين وعلى أهل البطالة المتصوفين اذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه وحاد عن تحقيقه .. قال الطبرى : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح اذا خاف على نفسه باحلال ذلك بها بعض العنت والمشقة ولذلك رد النبى صلى الله عليه وسلم التبتل على ابن مطعون فثبت أنه لا فضل فى ترك شيء مما أحله الله لعباده وأن الفضل والبر انما هو فى فعل ما ندب عباده اليه وعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وستة لأئمة واتبعة على منهاجه الأئمة الراشدون اذ كان خير الهدى هدى نبينا صلى الله عليه وسلم فاذا كان كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان اذا قدر على لباس ذلك من حله وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حذرا من عارض الحاجة الى النساء .. » (٦٢) ..

وهذا التمتع بنعم الله هو ما يسأل القرآن عن من حرمه بعد أن أحله الله .. يسأل عنه فى لهجة انكارية ويبين انه حلال خالص فيقول :

(٦٢) سورة المائدة ٨٧/٥ ، ٨٨ -

(٣٦) تفسير القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ص ٢٢٥٩ .

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ  
 مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* قُلْ  
 إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ  
 وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ  
 سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (٦٤)

ولهذا جعل للفقراء والمساكين حقا في الزكاة وقد قال الفقهاء بأن  
 المسكين هو من يزيد انفاقه على دخله وأن الفقير هو من يملك ما دون  
 نصاب الزكاة .. وذلك حتى تتوافر لهؤلاء حياة انسانية كريمة ..

أما دعوة القرآن للزهد وترك الدنيا فانما ذلك لخراج حجبها من  
 القلب والتحرر من فتنها وزينتها حتى لا تتحكم في حس المؤمن ووجدانه  
 وحتى لا يسيطر حب المال على ما وهب الله للانسان من رصيد الايمان  
 فينقلب وحشا ضاريا لا يبالي بجمع المال من حلال أو حرام ولا يفىء الى  
 معاملة رحيمة ومنهج مستقيم .. والا فقد كان الكثيرون من صحابة  
 رسول الله ومن بعدهم من الصالحين على جانب عظيم من الثراء فيما منعهم  
 هذا أن يكونوا في مقدمة المنفقين والباذلين والمضحين بما ملكت أيديهم  
 في سبيل الله .. والأمثلة على ذلك كثيرة مشهورة ..

## ٢ - البيع والشراء :

هذه مكانة المال ووسائل تحصيله وطرق تنميته واتفاقه كما رسمها المنهج القرآني وصلة كل هذا بالمعاملات المالية وبقي أن نعرف أبرز مظهر للتعامل المالي وذلك هو البيع والشراء ..

والأساس الذي يقوم عليه البيع والشراء هو الأساس الرئيسي الذي تقوم عليه حياة المجتمع المسلم كلها من الوفاء بالعهود وحفظ المواثيق وأداء الحقوق وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ..

« ان الجفاف طبيعة القانون وشئون التشريع تكاد تكون شيئا مقابلا لشئون الروح وأعمال القلوب وحركات العواطف لكنك اذا تتبعته أسلوب الاسلام في علاجه لما يدور بين الناس من معاملات وجدته يرقى بها وينفث فيها من طبيعته السماوية فاذا هي تستحيل من نصوص صلبة خشنة الى وصايا أدنى ما تكون الى شرائع الأخلاق ومناهج الأدب » (٦٥)

وأول خطوة علمي الطريق هو النية الصادقة لمن باع أو اشترى في قضاء مصالح الناس وتسهيل حياتهم فهذه النية ينال أجرى الدنيا والآخرة، وبها يتعد عن مزالق الخطر .. فلا يخون ولا يحلف باطلا ليزيد في سلعته فعن عبد الله بن أوفى رضى الله عنه : أن رجلا أقام سلعة وهو في السوق فخلف بالله : « لقد أعطى بها مالم يعط ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت : ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزيكهم ولهم عذاب اليم » (٦٦) وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : اليمين الكاذبة منفقة للسلعة محقة للبركة (٦٧) ..

(٦٥) هذا ديننا للشيخ محمد الغزالي ص ٢١٩ .

(٦٦) رواه البخارى .

(٦٧) متفق عليه .

ولا يغش في بيعه فقد مر النبي صلى الله عليه وسلم برجل يبيع طعاما فسأله كيف يبيع؟ فأخبره .. فأوحى إليه : ان أدخل يدك فيه فأدخل يده فإذا هو مبلول فقال صلى الله عليه وسلم : ليس منا من غش (٦٨) ..  
وفي رواية مسلم فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يارسول الله قال : أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ؟ ثم قال : من غش فليس منا ..

وهذه النية الصادقة تدفعه أن يصدق صاحبه ويبين له ما في سلعته من عيوب لأن ذلك وسيلة القربى من الله وزيادة الفضل والخير فيما باع أو اشترى : عن حكيم بن حزام رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وان كذبا وكتما محقت بركة بيعهما (٦٩) ..

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال تعالى : أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه فان خانه خرجت من بينهما (٧٠) ..

وكيف يكذب المؤمن في معاملته ويظلم أخاه ويحتكر قوته ويعامله معاملة الوحوش الضارية لفرائسها فيتحين الفرص للكسب غير الشريف؟ والقرآن والرسول المبلغ لهذا القرآن - وهو يقيم ذلك المجتمع - قضى على كل هذا الفساد وجعل من فعل ذلك خائنا لأخوانه ودينه دعى للإيمان ..

(٦٨) رواه أبو داود ..

(٦٩) رواه البخارى ..

(٧٠) رواه أبو داود ..



أخرج الترمذى وابن حبان فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى المصلى يوما فرأى الناس يتبايعون فقال يا معشر التجار .. فاستجابوا ورفعوا أعناقهم وأبصارهم اليه فقال : ان التجار يبعثون يوم القيامة فجارا الا من اتقى الله وبر وصدق . وأخرج ابن حبان فى صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم قال : ان التجار هم الفجار قالوا : يا رسول الله : أليس قد أحل الله البيع ؟ قال : بلى .. ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون ..

ان السماحة فى البيع والشراء أدب اسلامى رفيع يتقرب به المؤمنون لربهم فينالون رحمته .. روى جابر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى واذا قضى واذا اقتضى (٧١) ..

» يدعو الاسلام الى أدب السماحة فى البيع والشراء لأنه وسيلة لاثارة الراحة والاطمئنان فى نفوس المتعاملين .. ولا شيء أقوى فى توطيد العلاقات بين الناس من اشاعة الراحة والاطمئنان النفسى ولا شيء يوتر هذه العلاقات من القلق والتذمر - السماحة التى يطلب الاسلام ان يتأدب بها المسلمون هى بمثابة وقاية من اندفاع المتعاملين وراء المنفعة المادية المترتبة فى البيع والشراء فيتركونها تطغى على العلاقات الأخوية الانسانية وبذلك ينزلون فى التعامل الى الغش والخداع أو الكذب والتحايل ويتوصلون بذلك حتما الى الاضرار وهو ما أسماه القرآن الكريم بأكل أموال الناس بالباطل (٧٢) ..

(٧١) رواه البخارى .

(٧٢) الاسلام فى حياة المسلم د. محمد البهى ص ٣٧٧ ..

وهذا الارتباط الوثيق بين الايمان والتعامل اليومي هو حال جماعة المؤمنين التي حدثنا القرآن عنها فقال :

« فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ \* رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ \* وَالْأَبْصَارُ \* لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ \* وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (٧٣)

فالتجارة وذكر الله عملان متصلان يهدفان الى غاية واحدة : يتاجر باسم الله فلا يلهمه الصفق في الأسواق وصخب الحياة عن مساجد الله واقام الصلاة فهو مدفوع في تجارته وصلاته وانفاقه بايمانه بالله الذي يخاف منه دائما ومن هنا كانت حياته كلها عبادة لله وحده ..

وعلى هذا الأساس العظيم لا يبيع ولا يشتري الا ما أحل الله .. أما ما حرمه كالخمر والخنزير والنجاسات والميتة والأصنام والمخدرات وكل ما فيه ضرر بالفرد أو المجتمع فربحه حرام وسحت .. روى الجماعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : ان الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام فليل يارسول الله : أرأيت شحوم الميتة يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس ؟ قال : لا .. هو حرام .. ثم قال : قاتل الله اليهود ان الله لما حرم شحومها جعلوها ثم باعوها فأكلوها .. ثمها ..

وعلى هذا الأساس - أيضا - لا يعتدى تاجر على تاجر ولا ينافسه منافسة غير شريفة حرصا على الأخوة التى تجمع المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يبيع أحدكم على بيع أخيه ولا يشتري على شراء أخيه ولا يخطب على خطبه أخيه .. (٧٤) إنما هو الشعور الأخوى الرحيم الذى يغمر كيان مجتمع الاسلام فيحيا فى رحاب الأمان والاستقرار وتبدو معاملات أفرادها فى بيعهم وشرائهم جزءا لا ينفصل عن عقيدتهم وقيمهم وتعاليم دينهم ، وتتجمل الحياة بانسراح الصدور وسعة الخلق ورحابة العفو وجمال الاشارة وكرم الاخاء وصدق المودة فى الله .. وليس يعد هذا مطلب للانسانية تحيا فى ظله آمنة مستقرة تحوطها رعاية الله وتشملها رحماته وتنزل عليها بركاته ..

#### ٤ - مكانة المعاملات من الحياة :

وهذه العناية بكل جوانب المعاملات المالية وبيان الصلة الوثيقة بينها وبين عقيدة المجتمع المسلم تبين منزلة المعاملات من الحياة .. لأن الاسلام دين الحياة يوجهها ويهيمن عليها ويرشدها الى أقوم سبيل .. وما الحياة الا معاملة .. : معاملة بين الانسان وخالقه ومعاملة بين الانسان وأخيه الانسان .. وما دام الانسان مدنيا بطبعه يحتاج الى من حوله ويؤلف معهم وحدة لا تتجزأ فهو مضطر الى أن يتعامل مع اخوانه والا انزل بنفسه وعاش وحيدا وهذا مالا يتييسر لأحد .. ومن فعله كان مخالفا لطبيعة البشر .. ومن يستغنى عن الأخذ والعطاء والبيع والشراء وهى معاملة يومية تسير بها قافلة الحياة ?? ..

« فالزارع لا بد له من البيع والشراء وكل عامل في عمله يبيع ويشترى حتى الموظف في ديوانه والمدرس في درسه والواعظ في وعظه والمجاهد في ميدانه والحاكم في حكمه .. كل هؤلاء يبيعون ويشتررون ويبدلون العمل ويتسلمون البذل .. فمن أخلص في عمله وقدمه على الوجه الذي يحقق الغرض المقصود منه ويرضى به ربه كان ما يتقاضاه في مقابل العمل محفوظا بالخير والبركة مشمرا في نفسه وأسرته وكان هو محل ثقة عند من يعامله فتعظم مكانته في النفوس ويقبل الناس عليه ويزداد خيره .. أما من أساء في عمله وخدع وغش وجعل همه أن يأخذ البذل ويستوفي الثمن على الوجه الذي يرضى شهوته فقط غير مكترث بالمصلحة العامة ولا بفائدة المجتمع وغير مقدر لغضب الله وسخطه كان فيما يتقاضاه من الذين يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا .. سيكتشف أمره ويفتضح شأنه ويعرف بالغش والخديعة فتسوء سمعته بين الزملاء والرؤساء ولا يلبث حتى ينبذ من المجتمع نبذ النواة أو يرمى كالشوب الخلق (٧٥) .. »

## الفصل الرابع

### الحرية

١ - أساس الحريات

٢ - حرية الانسان

٢ - في سبيل الحرية

٤ - السرقة :

( أ ) ظروفه وروافده

( ب ) منافذ الحرية

( ج ) معاملة كريمة

( د ) معاملة ومعاملة



## الحرية

### ١ - أساس الحريات :

كم يتوق الانسان الى الحرية ويضحى من أجلها .. وكم يتلاعب السياسة بعواطف الناس وهم يلوحون اليهم بهذا الأمل العذب ..

والحرية ليست شعارات ترفع وأعلاما تخفق ولكنها احساس ينبع من داخل المرء فاذا به وهو سجين الاضطهاد ورهن التعذيب والتتكيل حريسخ من جلاديه ويرى فى أعينهم معنى المذلة والهوان : يحركهم ويفرض سلطانه عليهم والتاريخ أصدق شاهد، فهؤلاء هم المرسلون جميعا وأتباعهم طوردوا وعذبوا فما لانوا ولا استكانوا بل وقفوا فى وجه المتكبرين قائلين : ما حكى الله عنهم :

« وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا  
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » (١)

وهذا هو بلال - رضى الله عنه - يصمد أمام وطأة التعذيب وهوله ومازاد على أن قال أحد .. أحد .. يهزبها أركان الظلم ويسم أمية بن خلف وأبا جهل وأتباعهما من الظالمين بالذل والصغار ..

وهذا هو ياسر وزوجه سمية أول شهيدين فى الاسلام ، تلك الأسرة التى سخرت من قوة الشرك واحتملت العذاب فى سبيل المبدأ ، وكان عزائها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : صبرا آل ياسر فموسعكم الجنة ..

ولقد حاولت قوى العدوان في مكة أن تفتن المؤمنين في دينهم ..  
وما تركتهم في المدينة بل طاردتهم وقاتلتهم الى أن من الله عليهم بفتح معقل  
الوثنية ، ودانت لهم بلاد العرب بالطاعة وما استطاعت هذه القوى بكل  
ما لديها من عدة وعتاد أن تحول أحدا عن دين الله .. وما يمكن لقوة  
أن تحطم قلبا عرف الحرية وعشقها وتحرر من كل ضغوط الحياة فبقى  
عزيزا لا يعرف الذل ، كريما لا يرضى بالهوان ، قويا لا يستكين ولا يذل  
ولا يهون ..

وهذا الأساس المتين هو الذى أرسى قاعدته الكبرى منهج القرآن  
وهو ينشئ مجتمعا جديدا وفق تعاليمه الربانية وهديه الالهى .. بدأ  
بالإنسان من الداخل فحرره من العبودية لكل ما فى الحياة وجعل العبودية  
لله وحده .. حرره من الحرص على الحياة والخوف من الموت :

فقال :

« أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ  
مُشِيدَةٍ » (٢)

وحرره من المذلة للقوت ولم يطلب منه لتحصيل قوته وقوت من  
يعولهم الا السعى وبذل المجهود .. أما الرزق : سعة وضيقا فمرده الى  
الله سبحانه ..

قال تعالى :

« اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ » (٣)

(٢) سورة النساء ٧٨/٤ .

(٣) سورة العنكبوت ٦٢/٢٩ .



وقال تعالى :

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ  
مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » (٤).

وحرره من التملق والنفاق من أجل حفظ مكانة أو منزلة عند  
الناس فقال :

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ  
يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* وَهُوَ الْغَايُ  
فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » (٥)

وقال :

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ  
وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ  
عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (٦).

وحرره من أن يستعبد لوضع اجتماعي فاسد فدعاه الى النظر  
والتأمل وعاب التقليد والمقلدين ووصف من يقلد غيره دون وعي أو  
إدراك يميز به بين الحق والباطل بأسوأ صفة فقال :

(٤) سورة هود ١١/٦ .

(٥) سورة الأنعام ٦/١٧ ، ١٨ .

(٦) سورة يونس ١٠/١٧ .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ  
 مَا آَلَفَيْنَا عَلَيْهِ ؕ أَبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ؕ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ  
 شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ \* وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي  
 يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ؕ صُمُّ بَكُمْ عَمَىٰ فَهْمٌ  
 لَا يَعْقِلُونَ » (٧).

ولم يتركه عبدا لنفسه وشهواتها وملذاتها فترديه وتطغيه ، انما  
 حرره من هذه الشهوات ودعاه الى زهد القادرين الواجدين لا العاجزين  
 المحرومين : أباح له الاستمتاع بما في الدنيا من ألوان المتع ، ولكنه بين له  
 أن هذا المتاع قليل والآخرة خير لمن اتقى •

فقال تعالى :

« وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا  
 وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » (٨)

وقال تعالى :

« أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ  
 بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ  
 الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا

(٧) سورة البقرة ١٧٠/٢ ، ١٧١ •

(٨) سورة القصص ٦٠/٢٨ •

وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا  
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ \* سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن  
 رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ  
 لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ  
 وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ <sup>(٩)</sup>»

ووازن - مرة أخرى - بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة تحريرا للنفس  
 من شهواتها وأطماعها فقال جل شأنه :

« زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ  
 وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَطَّرَةِ مِنَ الزَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ  
 وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ  
 حُسْنُ الْمَبَاقِ \* قُلْ أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ  
 اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ  
 فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » <sup>(١٠)</sup>

وانبثاقا من هذا المنهج العظيم فرض عليه الصلاة : تدريبا للنفس  
 على التواضع والخشوع .. والزكاة : تحريرا من عبودية المادة وطغيان  
 المال .. والصوم : كسرا لشهوة الطعام والجسد ، وتعويذا على قوة

(٩) سورة الحديد ٥٧/٢٠ ، ٢١ .

(١٠) سورة آل عمران ٣/١٤ ، ١٥ .

العزيمة ، وغرسا لخلق الخشية والخوف من الله .. والحج : ليجمع هذا  
الخير كله ..

وبين له أن الفلاح — كل الفلاح — في تزكية النفس وتطهيرها ،  
والخيبة والخسران في تركها تفسق وتفجر فقال تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » (١١)

وذلك كله بناء للانسان المؤمن من الباطن حتى يرتفع به الى القمة  
العالية فلا يركع أمام ظلم ، ولا يسجد تحت أقدام الملذات ، ولا تستعبده  
منزلة أو مكانة .. وكيف يستعبد لشيء من ذلك وهو يعلم أن الأمر كله  
الله : فهو واهب الحياة .. وباسط الأرزاق يؤتي الملك من يشاء وينزع  
الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل  
شيء قدير ..

وهو الغنى والكل اليه فقير ..

قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ  
الْحَمِيدُ \* إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ \* وَمَا ذَلِكَ  
عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » (١٢)

(١١) سورة الشمس ٩/٩١ ، ١٠ .

(١٢) سورة فاطر ١٥/٣٥ — ١٧ .

وهذه الحرية - وحدها - هي أساس عزة المؤمنين المستمدة من عزة الله سبحانه ..

قال تعالى :

« وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » (١٣)

وقال تعالى :

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا » (١٤)

وهي أساس الحريات التي أعطتها القرآن للمؤمنين فعاش مجتمعهم حرا لا سلطان لأحد عليه ، لأن منهج القرآن بنى المؤمنين به من الداخل قبل الخارج ، ورباهم من الباطن قبل الظاهر فلم تستطع قوة في الأرض أن تنزع تلك الحرية التي وهبها الله لهذا المجتمع أبدا ..

## ٢ - حرية الانسان :

والحرية التي أعطتها القرآن لمجتمعه عميقة الجذور بأسقة الأغصان ممتدة الفروع : شملت الحريات بكل أشكالها وألوانها وظلالها .. وانفتح الطريق أمام الانسان الى عالم النور فاذا به طليق يغرد ويشدو للحياة ، ليعيد بناء الحياة .. لم يعد عبدا لشيء ولا أسيرا لأحد ، انما هو عبد الله وحده .. هكذا ولد حرا ، ويجب أن يبقى حرا .. من حقه أن يختار ماشاء من عقائد وديانات : فان الايمان أساسه الاقتناع العقلي ، وما تستطيع قوة في الأرض أن تجبر انسانا من داخله على اعتناق مذهب أو دين الا اذا

(١٣) سورة المنافقون ٨/٦٣ .

(١٤) سورة فاطر ١٠/٣٥ .

كانت تمتلك من نفاسة مبدئها ووضوح غايتها ما يشد القلوب الى هذا المبدأ وتلك الغاية ، وهذا ما صنع القرآن .. بدأ بالعقل فحرره من الأوهام والخرافات ، ودعاه الى التأمل والنظر ، وجعل التفكير أعلى وأشرف وأعظم أنواع العبادة ، وعرض على هذا العقل المتحرر مبادئه وقيمه دون قسر أو إجبار قال تعالى :

« لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (١٥)

فأمنت العقول واستجابت النفوس ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .. ولم يفرض القتال الا لتحطيم وثنيات الجاهلية في أنحاء الأرض تلك التي تحول بين الشعوب ونداء الله .. ولهذا خاض المسلمون المعارك في أنحاء العالم ، وحطموا معازل الظلم وفتحوا نوافذ الأشعة الالهية على عقول المستضعفين والمستذلين من أبناء الأمم وتركوهم وما يدينون به .. بل دفعوا عنهم كل اعتداء وما حالوا بينهم وبين الوصول الى أرقى المناصب وحافظوا على دور عبادة القوم ليؤدوا شعائر دينهم كما يريدون .. ولما اتضح وجه الحق والتقت القلوب على مائدة الهدى الرباني ، نسيت هذه الشعوب أديانها ، وتحولت الى الاسلام ونسيت لغاتها وتكلمت العربية لغة القرآن .. ولن تجد أعظم من هذه الحرية التي منحها القرآن للانسانية في اعتناق ما شئت من دين ، لأنه واثق من الحق الذي بين يديه .. لذلك يقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا \* وَقرءانا فرقناه  
لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا \* قُلْ ءَامِنُوا  
بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا » (١٦)

ويقول :

« وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ  
فَلْيُكْفُرْ » (١٧)

بل ان هذا المشرك — يستجيب للمؤمن فلا يفرض عليه المؤمن دينه انما  
يسمعه كلام الله ، ثم يتركه وما أراد ويبلغه مأمنه ..

قال تعالى :

« وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى  
يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا أَمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ  
لَا يَعْلَمُونَ » (١٨)

ومع هذه الحرية الدينية حرية علمية أحاطت بفروع العلم وأنواع  
المعارف ولم يحرم منها أحد يمتلك من مواهب العقل والنبوغ ما يؤهله  
الى أعلى درجات الصدارة العلمية .. وهذا النوع من الحرية هدية  
أخرى من هدايا القرآن لم تظفر بها الانسانية في تاريخها الطويل الا مع

• (١٦) سورة الاسراء ١٧/١٥ - ١٠٧ .

• (١٧) سورة الكهف ١٨/٢٩ .

• (١٨) سورة التوبة ٩/٦ .

بزوغ شمس هذا الكتاب الخالد الذي جعل العلم حقاً مشاعاً لجميع البشر، فامتلات حلقات المساجد والمدارس ودور العلم بطلاب المعرفة من كل جنس وكل لون . واستطاع العقل في هذا الجو العلمي أن ينطلق في ميادين الآداب والفلسفة والعلوم ، وأن يجتهد ويستنبط من نصوص الشريعة ما تؤهله لذلك وسائل الاجتهاد والاستنباط ، وان يتدبر الكون وأحداثه وأن يناقش الآراء ويفاضل بينها ويختار منها ما يراه أقرب الى الصواب وأوفق للعقل ، مهتدياً في ذلك كله بقوله تعالى:

« فَبَشِّرْ عِبَادِ \* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ » (١٩)

وفي هذا الجو العلمي الحر والجو الفكري المنطلق نشأت المذاهب وتعددت الآراء وكثرت المدارس الفكرية ، وتنوعت الحلقات العلمية وكان لكل ذي رأى أتباعه ولكل أمام مؤيدوه .. (٣٠) ..

ومع انطلاقة العقل من ربة الأوهام واستشارته بالعلم تحرير الانسان من طغيان الساسة والحكام : فمن حقه أن يختار من يراه أصلح للحكم ، ومن حقه أن يناقشه ويعارضه في الرأي ويشكو له ما وقع عليه من ظلم ، ويخالف أمره ويقف في وجهه لا يهاب اذا أمره حاكمه بمعصية : فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .. وللانسان حريته في النقد والبناء ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فلا يقف مكتوف اليدين وسفينة الحياة يخرقها الطغاة والمنحرفون ، انما يندفع حراً طليقاً يقيم الحق ويأمر بالعدل ويحارب المنكر بكل ما يستطيع ..

(١٩) سورة الزمر ٣٩ / ١٧ ، ١٨ .  
(٢٠) اشتراكية الاسلام د. مصطفى السباعي ص ٤٨ .



ولم لا يؤدي هذا الواجب تجاه حاكمه ومجتمعه .. ودينه قد أعطاه حريته في كل شأن وكل أمر ?? أعطاه حرية القول والفعل وتحقيق ما شاء من رغبات ولم يشترط عليه الا أن يكون ذلك وفق المبادئ والأخلاق الكريمة ، وأعطاه حرية اختيار ما شاء من العلم والعمل : يعمل ما يتناسب مع مواهبه ويخصص فيما يراه قادرا على النبوغ فيه .. ومن حقه أن ينتقل من مكان لآخر دون حيز عليه ، أو اضرار به مادام لا يعارض مصلحة ولا يعتدى على الحرمات ..

وماذا يبقى للإنسان من ألوان الحرية بعد أن أعطاه هذا الدين كل ما يعشق من هذه الألوان ؟ وماذا يبقى لأمة ترنو الى الحرية من ضمانات تحفظ عليها حياتها وحريتها بعد هذه الضمانات التي منحها إياها منحج القرآن .. ??

### ٣ - في سبيل الحرية :

وفي سبيل هذه الحرية تناثرت أشلاء الضحايا ، وسالت دماء الأبرياء عبر ممر التاريخ ، تحاول أن تصل الى واحة الحرية الظليلة تلتقط عندها أنفاسها المكدودة المكروبة فما قطعت في هذا الطريق غير خطوات .. وما نالت الا الفتات المتناثر من أنياب الطغاة المستبدين ، الى أن أضاء نور القرآن فبدد هذا الظلام ومنح المجتمعات الانسانية حقها في الحرية كاملا فكان هذا ميلادا جديدا للإنسان توج به كفاحه الطويل ، وكان تحريره من كافة الضغوط والحاجات وتحطيم كل القيود من حوله منحة الهية تستحق الشكر والثناء الجميل ..

ومن يوم أن طوعت لقاييل نفسه قتل أخيه هابيل ليحرمه من حرية الزواج بمن شرع الله وأحل له .. وجهاد الانسان لم يتوقف . هذا نوح

عليه السلام « لبث في قومه ألف سنة الا خمسين عاما » فأذوه ومن معه وحرموهم حق الحياة الآمنة المطمئنة وقالوا ما حكى الله عنهم :

« مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ \* إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ » (٢١)

وقالوا :

« مَا نَرَبُّكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَبُّكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » (٢٢)

وقال تعالى :

« وَكَلَّمَا مَرْءً عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ » (٢٢)

ولما وقفوا في وجه رسالة الحق حقت عليهم كلمة الله ..

قال تعالى :

« فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ » (٢٣)

• (٢١) سورة المؤمنون ٢٣/٢٤ ، ٢٥

• (٢٢) سورة هود ١١/٢٧ ، ٣٨

• (٢٣) سورة الأعراف ٧/٦٤

وما حدث لنوح وأتباعه نسخة تتكرر دائما في تاريخ المرسلين ..

قال تعالى :

« كَلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رَّسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ  
بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ » (٢٤)

وقال تعالى :

« فَكَلَّا أَتَيْنَا بِدَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا  
وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ  
وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا  
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (٢٥)

لكننا نتوقف عند جهاد الرسالة الخاتمة العامة لنرى عون الله لها  
وتأييده لرسولها وكيف لم يعاجل رب العزة من بعث فيهم رسول الله صلى  
الله عليه وسلم بما عاجل به الأمم السابقة برغم طول الأمد وقسوة التعذيب  
وشدة المطاردة التي لحقت بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ..  
نتوقف قليلا نأخذ بعض الزاد لرحلة الحياة من موائد الله التي ربي عليها  
رسول الله وأتباع رسول الله ..

فقد بعث رسول الله الى هذا العالم وحده فبدأ بعشيرته الأقربين ،  
ثم بأهل مكة ثم بسائر العرب الى أن استقر دين الله ودانت الجزيرة ،  
فأرسل الى ملوك الأرض يدعوها الى الاسلام .. فهل ترك رسول الله

(٢٤) سورة المؤمنون ٢٣/٤٤ .

(٢٥) سورة العنكبوت ٢٩/٤٠ .

وما يدعو له ?? وهل ترك أصحابه ?? أو أن الخطر أحق بهم والعذاب  
حل عليهم ؟ ..

لقد رأى السادة وأصحاب السلطان في هذا الدين هجوما عنيفا على  
كل ما لديهم من موارث الجاهلية ، ورأوه دعوة الى تحرير العقول من  
رق الاستعباد والاستغلال .. وتبع أصحاب السلطان ضعاف النفوس ممن  
تعصبوا لسادتهم عن جهل دون تفكير رشيد .. ووقف هؤلاء جميعا في  
وجه دعوة الله وحاولوا أن يطفئوا مصدر النور بالتضييق على رسول الله  
وايذائه مرة ، وبإغرائه بأعراض الحياة ومفاتها مرة أخرى ، وهو ثابت في  
موقفه يقول : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على  
أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته .. » .. حاصروه  
في شعب أبي طالب وحرموه ومن معه الطعام والشراب ، ونفروا منه القبائل  
 واجتمعوا على قتله الى أن نجاه الله ، فهاجر الى أنصار الله في المدينة ..  
أما أصحابه فقد تركوا ديارهم مرتين الى الحبشة وأخيرا الى المدينة، وهناك  
أقام رسول الله مجتمع الاسلام العظيم فلاحقوه بالعدوان .. لكن ثورة  
الحرية سارت في طريقها الى أن بلغت هدفها المرسوم ، ولم ترهبها قوة  
الباطل ، فانطلقت بأمر الله في كل مكان لا تهدأ لأنها ثورة من أجل الحق  
يكسبه لنفسه ولمجتمعهم وللإنسانية جمعاء .. ان التأثير لضيق نزل به  
يهدأ اذا انفرج ذلك الضيق وانه ليثور كما تثور الريح المحجوزة والحيوان  
الحبيس ما هو الا أن يرتفع الحجاب وينفتح الباب حتى تهدأ الثورة  
ويسكن التأثير والمثير ، ولكنه اذا وثب وثبته في سبيل حق يؤمن به لا  
يرجع عنه أو يظفر به كما يطلبه ، واذا ظفر به لنفسه لم يكف عن الطلب  
وهو يراه مضيعا عند غيره ، ويكاد يلمس في كل شيء نذيرا له بضياح  
الحق وحافزا له على حمايته أن يضيع فانما الثورة الباطنة هي محض

الثورة الظاهرة .. وطالب الحق هو المطلوب الذى لا ينأى عن طلبه وهو الرقيب على سريره قبل كل رقيب .. (٢٦) ..

هذا المسلم الذى رباه القرآن ، يرى مصاييح الهدى بين يديه فيحس من أعماقه بحاجة الانسانية كلها الى هذا الضياء .. ويرى أن الظالمين يطاردونه — دائما — ليطفئوا نور الله ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ..

والقرآن فى سبيل الحرية يرفض الظلم ويجعل من يرضى به شريكا فيه يستحق عذاب الله فى الآخرة ، فمن واجبه أن يدفع الظلم عن نفسه بكل ما يستطيع ، فان قتل فهو شهيد وان عاش حرا كريما .. ان ضاقت به أرض فأرض الله واسعة فليهاجر فيها ، فان استكان للذل ورضى بالدون كان ظالما لنفسه لم يعطها حقها من الحرية وهى زاد الفطرة السليمة ..

قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا \* إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا » (٢٧)

(٢٦) حقائق الاسلام واباطيل خصومه — للعقاد ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢٧) سورة النساء ٩٧/٤ — ٩٩ .

وقال تعالى :

« يٰعِبَادِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِىَّ وَاسِعَةٌ فَإِىَّ  
فَاعْبُدُونِ \* كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا  
تُرْجَعُونَ \* وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ \* الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ  
رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » (٢٨)

وقال جل شأنه :

« قُلْ يٰعِبَادِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا  
فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى  
الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (٢٩)

وهو صبر فى مجال الدعوة الى الله ورفض للذلة حيثما كانت وكيفما  
كانت وشعار المؤمنين دائما :

قال تعالى :

« وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ  
دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا » (٣٠)

(٢٨) سورة العنكبوت ٥٦/٢٩ - ٥٩ .

(٢٩) سورة الزمر ١٠/٣٩ .

(٣٠) سورة البقرة ٢٤٦/٢ .

وإذا كان المظلوم الذى رضى بالظلم قد استحق هذا العقاب الالهى  
فان الظالم له العذاب الأكبر ..

قال تعالى :

« وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ \* مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ \* وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ \* وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ » (٣١)

وفى سبيل هذه الحرية - وحتى تأخذ المجتمعات نصيبها الأوفى منها -  
سن القرآن من التشريعات ما يضمن الحفاظ عليها بعد أن أحيائها حقيقة  
تستشعرها القلوب ، وتجاهد فى سبيلها بالعالى والنفيس حتى يتحقق  
لها ما تريد : فجعل للأمة حقها فى الأمن من اعتداء الغير وفى تقرير مصيرها  
وحياتها وفق مبادئها ، فان اعتدى عليها معتد هبت فى وجهه وفاجأته قبل  
أن يفاجأها ..

قال تعالى :

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا  
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » (٣٢)

ولذا تقرير المصير كان يثبت حتى في ميدان القتال . « يروى أن قتيبة  
ابن مسلم فتح بعض أقاليم سمرقند من غير أن يخبرهم بين القتال أو الاسلام  
أو المعاهدة ، فشكا أهل هذا الاقليم الى الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز  
أن قتيبة لم يخبرهم ذلك التخيير ليقرروا مصيرهم ، فأرسل الخليفة الى  
القاضي ليستمع الى هذه الشكوى ويحققها ، فتبين له صدقها فأصدر أوامره  
الى جند المسلمين بأن يخرجوا من البلد الذي فتحوه ويعودوا الى ثكناتهم  
ويخبروا أولئك بين هذه الأمور الثلاثة ويقرروا مصيرهم .

فاختاروا العهد ومنهم من اختار الاسلام دينا » (٣٣) .

كما جعل للانسان حقا في حياة الأمان والاستقرار ، ولم يقبل توبة  
الظالم الا اذا رد الحقوق الى أصحابها أو عفا المظلوم عنه . . وأوصى  
بالاستئذان عند دخول المنازل فقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ  
حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ  
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ \* فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا  
حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى  
لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » (٣٤)

(٣٢) سورة البقرة ١٩٠/٢ .

(٣٣) تنظيم الاسلام للمجتمع للشيخ محمد ابو زهرة ص ١٩٩ .

(٣٤) سورة النور ٢٧/٢٤ ، ٢٨ .



وحرم السخرية من الناس والتعالى عليهم وهمزهم ولزهم ، كما حرم التجسس .. وهتك العورات ، والظن السيئ بالآخرين ، ونهى عن غيبتهم ونقل أسرارهم .. وهو في ذلك يسير على خطته في ايقاظ معنى الايمان واستجاشة مشاعر الخوف من الله وروابط الأخوة وما تقتضيه من واجبات فيقول :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ » (٣٥)

الى غير ذلك من المبادئ التي ترسم حدود الأدب مع الغير والمحافظة على حقوقهم ومنع الاعتداء عليهم والرفق بهم والاحسان اليهم ومراعاة حقوق الجوار المؤقت في سفر أو طريق ، والدائم في المسكن والأسرة .. وكلها مما انفرد بها المنهج القرآني وهو يبنى مجتمعا حرا يقدر للناس حريتهم ويحافظ عليها بالتشريع الحكيم والثقة في رصيد الايمان الذي يحمي المبادئ من أن تزيف أو تفسخ أو تشوه ..

فما أكرم هذا الجهاد في سبيل الحرية .. وما أجدر الحرية التي  
أرادها الله للناس أن يضحي في سبيلها بالأرواح والدماء ..

#### ٤ - السرقة :

##### ( أ ) ظروفه وروافده :

أتى هذا الدين الى الحياة فوجد عمود الاقتصاد فيها يقوم على  
الرقيق ، ووجد وضعاً اجتماعياً سائداً في أنحاء الأرض تعترف به الشرائع  
ويقره الفلاسفة من قديم الزمان : « فالفيلسوف أفلاطون قد اعتبر نظام  
الاسترقاق نظاماً ملازماً للجمهورية الفاضلة أو للحكومة الانسانية ففى  
مثلها الأعلى ، وحرّم على الرقيق حقوق المواطنة والمساواة ، وقضى على  
الرقيق الذى يتناول على سيد غريب غير سيده بتسليمه الى ذلك السيد  
للاقتصاص منه على هواه، ولا يجوز فكّاه من العقوبة الا بمشيئته ورضاه  
واذا وجهت الرحمة بالرقيق فانما تجب الرحمة به من قبيل الترفع عن الاساءة  
الى مخلوق حقير لا يحسن بالسيد أن يهتم بالاساءة اليه » .

والفيلسوف أرسطو .. جعل الرق نظاماً من الأنظمة الملازمة لطبائع  
الخليقة البشرية ، فلا يزال فى العالم أناس مخلوقون للسيادة ، وأناس  
مخلوقون للطاعة والخضوع وحكمهم فى ذلك حكم الآلات الحية التى  
تساق الى العمل ولا تدرى فيهم تساق اليه ، وغاية ما أوصى به أن يتفضل  
السادة بتشجيع هذه الآلات على الترقى من منزلة الآلة المسخرة الى منزلة  
الآلة المتصرفة كلما بدت فيها بوادر الفهم والتمييز ...

ولما ظهرت المسيحية فى بلاد اليونان كتب القديس « بولس » الى  
أهل « أفسس » رسالة يأمر فيها العبيد بالاخلاص فى اطاعة السادة كما  
يخلصون فى اطاعة السيد المسيح ، وكان الحوارى بطرس يأمر العبيد  
بمثل هذا الأمر ، وجرت الكنيسة على منهجه وقبلت نظام الرق وزكاه

الفيلسوف « توما الأكويني » أكبر حكماء الكنيسة لأنه أخذ فيه بمذهب أستاذه أرسطو ، وزاد عليه أن القناعة بأخس المنازل من المعيشة الدنيوية لا تناقض فضائل الايمان (٣٦) ..

هكذا كان نظام الاسترقاق : أصلا معترفا به ولم يكن من الممكن إلغاؤه دفعة واحدة ، لأن ذلك يؤدي الى توقف عجلة الحياة نفسها .. واذن ماذا يصنع القرآن وهو الذى جاء يعطى الانسان حريته وكرامته وانسانيته ؟ ماذا يصنع وروافد الرق تقذف كل يوم فى مجرى الحياة بالآلاف الرقيق ، وأبواب العتق موصدة بقيود من حديد ؟؟ .. لقد كان انتماء الفرد الى شعب معين أو طبقة معينة يجعله رقيقا فى نظر كثير من الشعوب ، وكانت الحروب والقرصنة والخطف والسبي وارتكاب بعض الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة والزنى ، بل عجز المدين عن دفع دينه فى الموعد المحدد لسداده كلها روافد للرق ويزيد عليها أن النظام الانسانى أباح للانسان أن يبيع أولاده أو يبيع نفسه .. هذا زيادة على المورد الرئيسى من تناسل الرقيق فكان ولد الأمة يولد رقيقا مملوكا لسيدها ولو كان أبوه حرا ولو كان أبوه السيد نفسه .. ولهذا زاد عدد الرقيق على عدد الأحرار زيادة كبيرة .. « ففى أثينا مثلا بلغ عدد الرقيق زهاء مائة ألف ، فى حين كان عدد الأحرار من الرجال لا يتجاوز عشرين ألفا ، وقد كان من الأمور العادية على حسب ما يذكره أفلاطون أن يملك الفتي الأثينى خمسين رقيقا أو أكثر من ذلك » (٣٧) ..

(٣٦) الفلسفة القرآنية - للمقداد ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٣٧) الحرية فى الاسلام د. على عبد الواحد وافي ص ١٦ .

## (ب) منافذ الحرية :

.. ولقد عمد الاسلام الى هذه الأبواب فأوصدها جميعها وحرّمها كلها ولم يبق منها الا رق الحرب والوراثة تمشياً مع طبائع الأشياء واقراراً للواقع من أجل اصلاحه وتعديله ..

ولذلك لم يترك رق الحرب هكذا انما قيده بالحرب المشروعة التى يعلنها امام المسلمين ، والتى تقع بين جيش الاسلام والكفر .. اذ ليس من المعقول أن يسترق أسرى المسلمين ، ويفرض على الاسلام وحده تحرير من يقع فى يد أبنائه من المعتدين الآثمين ..

وليس الرق وحده هو مصير الأسير بل الامام مخير بين هذا أو المن أو الفداء أو القتل ، ان القرآن لم يذكر الا المن والفداء لأنهما أصل المعاملة التى يعامل بها الأسير .. قال تعالى :

« فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَمَا مِنَّا بَعْدُ وَإِمَادًا حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » (٣٨)

.. أما رق الوراثة فانه مقيد بالأ يكون الولد من سيدها والا فهى أم ولد : لها ولولدها الحرية الى يوم القيامة وقد وسع على السيد الثرى بمن شاء من امائه دون عقد أو عدد ، وابتغى كل فرصة لانتقاء السيد بأمته لأن ذلك وسيلة التحرير الأبدى .. ولما لم يكن شراء الاماء الا لقصد التسرى بهن - فى الغالب - كان هذا الباب الذى فتحه القرآن للحرية كفيلاً بنضوب هذا المورد وسد باب من أهم أبواب الرق ..

.. ولقد فتح الاسلام أبواب التحرير على مصاريعها وتلمس  
أوهى الأسباب ليحرر العبيد من رق العبودية .. فجعل مجرد صدور  
لفظ من السيد يفيد العتق أو التديير ( أى تحرير العبد بعد وفاة  
سيده ) سببا فى اعطاء العبد حريته .. كذلك اذا طلب الرقيق مكتابة  
سيده وجب عليه اجابته : وقد سأل ابن جريج عطاء بن أبى رباح  
عقال : أوجب على اذا طلب مملوكى الكتابة أن أكتبه ؟ بقوله : ما أراه  
الا واجبا واستدل بقوله تعالى :

« وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ  
إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ »

والأمر بإيتاء المكاتب مالا يستعين به على الحرية للوجوب قال  
البيضاوى : « أمر الموالى بأن يبذلوا لهم شيئا من أموالهم وفى معناه  
حط شئ من مال الكتابة وهو للوجوب عند الأكثر ويكفى أقل ما يتمول  
.. وعن على رضى الله عنه ، يحط الربع ، وعن ابن عباس رضى الله  
عنهما الثلث ، وقيل : أمر لعامة المسلمين باعانة المكاتبين واعطائهم سهمهم  
من الزكاة ، لأنه لا يأخذه صدقة كالدائن والمشتري .. » (٣٩) بل ان  
مجرد ضرب السيد لعبده أو لطمه يؤدي فى صورة تلقائية الى عتقه عند  
بعض الفقهاء ..

كما أن تحرير الرقاب كفارة لكثير من الأخطاء ، كالقتل الخطأ  
والظهار والحنث فى اليمين والافطار عمدا فى رمضان .. ومن وجبت عليه  
كفارة من هذه الكفارات ولم يكن يملك عبدا وجب عليه أن يشتري  
عبدا ويعتقه متى كان قادرا على ذلك ..

ولقد خصص القرآن سهمًا من الزكاة لتحرير الأرقاء قال تعالى :  
 « إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا  
 وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (٤٠)

« ذكر يحيى بن سعيد أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد بعثه على صدقات أفريقيا — أى على جمع الزكاة من أهلها — فاقترضها وطلب فقراء يعطيهم منها فلم يجد ، لأن عمر بن عبد العزيز كان قد أغنى الناس فاشترى بها كلها رقابا وأعتقها .. » (٤١) .

وما بقى من هذه الأبواب مغلقة فتحة القرآن بالايمان ودعا القلوب المؤمنة الى استنقاذ أصحابها من النار بفك الرقاب .. ورغبتها فى المنازل العالية عند الله بتحرير العبيد قال تعالى :

« فَلَا أَقْتَحَمَ الْعُقْبَةَ \* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ \* فَكُ  
 رَقَبَةً » (٤٢)

وقال فى أوصاف البررة :

« وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ  
 وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ » (٤٣)

(٤٠) سورة التوبة ٦٠/٩ .

(٤١) سيرة عمر بن العزيز لابن عبد الحكم ص ٥٩ .

(٤٢) سورة البلد ١١/٩٠ - ١٣ .

(٤٣) سورة البقرة ١٧٧/٢ .

بأن يشتريها ويعتقها أو يساعد المكاتبين على أداء ما عليهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار .. » (٤٤) وجعله عليه السلام من أفضل الأعمال التي يتقرب بها الى الله ، فكثيرا ما كان يقول : من فعل كذا كان كمن أعتق رقبة .. الى غير ذلك من المنافذ التي فتحتها الاسلام وهو واثق أن عامل الزمن سوف يقضى على أسواق الرقيق ويعيد للمستعبدين حريتهم بعد أن أوصد كل الأبواب التي كانت تأتى بالرقيق الى الحياة ، وترك باب الحرية مفتوحا الى أن ينتهى رصيد القرون دون أن يحدث هزة فى حياة المجتمعات التي يقوم اقتصادها وحياتها الاجتماعية كلها على أساس ما يتحملة الرقيق فى خدمة سادتهم ..

#### (ج) معاملة كريمة :

والى أن ينتهى هذا الرق الذى فرضته أوضاع المجتمعات . جاء القرآن بمنهجه ليعدل تلك الأوضاع ، فلم يترك العبيد لرحمة سادتهم وعنفهم وقسوتهم ، انما أوصى بهم خيرا ورفعهم الى مرتبة الآدمية الحققة وأعطاهم من المميزات والحقوق ما يحسن اليه كثير من أحرار هذا الزمان ..

جعل العبد عضوا فى أسرة سيده : يأكل مما يأكلون ويلبس مما يلبسون ليس لأحدهم ميزة عليه فى ذلك .. اذا كلف بعمل شاق وجبت معاوته لأنه أخ لسيدة : أخ فى الايمان وأخ فى الانسانية وهذا يقتضى الاحسان الذى أوصى به الله فى قوله تعالى :

«وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا \* وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ

قِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ  
السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» (٤٥)

وفيه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم .. فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم .. » (٤٦) .

ومنع السيد أن يجرح احساس عبده بأن يناديه ، بعبدى أو أمتى :  
« لا يقل أحدكم عبدى أو أمتى وليقل فتاتى وغلामى .. » (٤٧) وكانت  
آخر وصاياہ قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى : الصلاة .. وما ملكت  
أيديكم .. (٤٨) وضرب صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في هذه  
المعاملة : فقد كان يتورع عن تأديب وصيفته ضربا بالسواك .. وقال  
لوصيفته أرسلها فأبطأت في الطريق : « لولا خوف القصاص لأوجعتك  
بهذا السواك » (٤٩) .. وجعل ضرب العبد سببا في اعتاقه فحماه بذلك  
من سيده .. كما جعله بعد عتقه مولى للأسرة التى حررتة : له مالها  
وعليه ما عليها يرثها وترثه .. ولم يحرمه بعد عتقه حقا من حقوق الأحرار  
حتى لو كان خلافة المسلمين ، وفي ذلك يقول عمر وهو يوصى بالخلافة  
من بعده : « لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لوليتة » فليسالم الذى  
كان عبدا لأبى حذيفة ما لسيده الحر القرشى من حق الامامة والخلافة ..

(٤٥) سورة النساء ٣٦/٤ .

(٤٦) متفق عليه .

(٤٧) البخارى .

(٤٨) رواه أحمد في مسنده والنسائى وابن ماجه وابن حبان في صحيحه عن انس .

(٤٩) رواه أحمد والطبرانى بإسناد جيد .



كما أعطى دين الله للعبيد حقهم كاملا فى الزواج والطلاق دون  
إكراه من أحد وجعل لهم أهليتهم فى الملك والتصرف اذا ما كوتبوا أو  
فوضوا من سادتهم فى المال والتجارة ، وما صنعه الاسلام حيال الرقيق  
يعتبر قفزة فى تاريخ البشرية لم تحلم بها ولم تخطر لها على بال .. لأن  
أمم الأرض تنظر الى الرق على أنه من الأمور العادية التى تجرى بها  
حياتها لم يفكر فى التخلص منها السادة ولا العبيد - لكن الدين العظيم  
» لم يتركها ولم يغفلها ولم يؤجلها بين الاغضاء والاستحسان لهوانها  
وقلة جدواها ، بل جرى فيها على دأبه فى علاج المساوىء الاجتماعية  
والأخلاقية يصلح منها ما هو قابل للإصلاح فى حينه ويمهد للتقدم الى  
المزيد من الإصلاح مع الزمن كلما تهيأت دواعيه .. « (٥٠)

#### ( د ) معاملة .. ومعاملة :

هذه المعاملة الانسانية الرحيمة هى التى فرضها منهج القرآن دون  
أن يسبق بها فى تاريخ البشر ، لأنه دين الحرية لا يرى فى أمر فساد  
الا أصلحه ولو كان هذا الفساد من المسلمات الاجتماعية والأوضاع  
العالمية .. وهو فى بنائه لمجتمع جديد لا يقلد غيره انما يبينه بالوحي  
الالهى والتخطيط الربانى ، وحسبه أنه ألغى الرق وشرع العتق فى عصر  
أقيمت كل مجتمعاته على نظام الرق يؤيدها فى ذلك الفلاسفة المفكرون  
وأصحاب الديانات المساوية من اليهودية والنصرانية ..

فاذا وضعنا ما شرعه كتاب الله وسنة رسوله من معاملة عادلة ردت  
على هذا النوع من البشر كرامته ورفعته الى مرتبة الانسان .. اذا  
وازننا هذا بما كان يعامل به الرقيق قبل هذا الدين وبعده فى أمم الحضارة  
الآن بعد أن ادعت هذا الأمم أنها ألغت الرق وحررت الانسان وأقامت

المنظمات العالمية تحمى هذه الحرية فى أنحاء الأرض لظهر لنا وجهه الحق مضيئاً مشرقاً ، ولرجحت كفة التشريع الالهى ، بل لما كان هناك وجه للمقارنة على الاطلاق بين منهج أساسه حرية الانسان بكل ما فى الحرية من معان ، وخطة تقوم على سلب الأمنين أمنهم وحياتهم وانزالهم الى مرتبة أقل من مرتبة الحيوان ..

ومن حق حملة لواء المنهج القرآنى أن يواجهوا ادعاء الحرية وأن يشهروا سلاح الحق فى وجوههم بعد أن رموا دين الله بالبهتان واتهموه بأنه دين العبيد والرقيق ..

.. ويكفى أن الرق الذى سد الاسلام كل أبوابه وفتح كل طريق للقضاء عليه كان معترفاً به فى تلك الأمم الى عهد قرب ، وان أول قرار بالغاء الرق وتحريم التجارة فى البشر أصدرته الأرجنتين فى ١٦ يوليو عام ١٨٢١ م أى بعد أن قضى عليه الاسلام من قبل بأكثر من ألف ومائتى سنة ، ومن بعد الأرجنتين كانت المكسيك فى ١٥ سبتمبر عام ١٨٢٩ م ، وكانت أولى الدول الأوروبية فى ذلك المضمار انجلترا ألغت الرق فى ٢٨ أغسطس عام ١٨٣٣ ، وتلتها فرنسا فى أغسطس عام ١٨٤٨ ، ثم هولندا فى عام ١٨٦٣ ، والولايات المتحدة فى ديسمبر عام ١٨٦٥ . وفى مؤتمر بروكسل عام ١٨٩٠ ألغيت تجارة الرقيق بقرار عالمى .. لكن هذا المؤتمر حين ألغى رق فرد أباح رق الشعوب واستلاب حريتها باسم الحضارة والرقى ؟ ..

«وكانت الخطوات الحاسمة فى تسويق الاستعمار وجعل استرقاق الشعوب للشعوب نظاماً مشروعاً تحميه كل القوانين الغربية قرارات مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ التى جعلت جريمة الاستعمار عملاً حضارياً » .

يقول الدكتور حسين مؤنس في دراسته « صيد البشر » التي قدمها لجريدة الأهرام في ١٩/٢/١٩٧١ وأيدها بالصور التي تبين بشاعة ما ارتكبه الأوربيون : « .. لم يحدث قط الا على يد هؤلاء الأوربيين أن تخصص ناس في عملية صيد البشر وبنيت سفن خاصة لشحنهم ، وأنشئت مخازن للاحتفاظ بالبضاعة البشرية فيها حتى يتم شحنها ، وحدث أكثر من ذلك صنع تجار الرقيق الغربيون أدوات وقيودا وأغلالا خاصة لاستعمالها في تقييد البشر أو تكميمهم .. وصنعت أقفاص لوضعهم فيها وأختام حديدية تحسى في النار ثم تختتم بها أيدي العبيد وظهورهم كما يفعل الناس بالماشية ، وحددت الأسعار لكل فئة من فئات الرقيق ، ووضعت المواصفات اللازم توافرها في كل فئة منهم ، وظهرت في الصحف اعلانات عن بيع الرقيق أو ايجارهم - كل ذلك صنعه الغرب وجرى العمل به بصورة قانونية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر على الأقل .. وكانت الخطوة الأولى في تشجيع الناس على الاقبال على شراء العبيد هي اذاعة الرأي القائل ، بأن السود الأفريقيين ليسوا من البشر ، وأنهم أقرب الى البهائم ، وعلى هذا الأساس يمكن استغلالهم واستغلالهم والمتاجرة فيهم كالماشية سواء بسواء .. وكانت عملية الصيد رهيبية كانوا يقتلون ويحرقون دون رحمة ، كانت تسليتهم أن يهاجموا قري الأفريقيين في الليل ويلقوا النار في الأكواخ التي ينام فيها أولئك الأبرياء ويقفوا لهم بالمرصاد على مداخل القرى ومخارجها : تخرج النساء مروعات يحملن أطفالهن على صدورهن ، وأولادهن يجرون خلفهن - اذا كانت المرأة شابة أخذوها وقتلوا رضيعها في الحال .. الأطفال الضغار دون السابعة يقتلون أيضا - الباقون يكبلون ثم يساقون الى الحظائر .. لكى يصطادوا عشرين أفريقيا كانوا يبيدون أهل قرية كاملة يقدر « جون هنريك كلارك » أن أفريقيا خسرت في هذه العملية ما بين ٦٠ ، ١٠٠ مليون أفريقي ، وقد جرت العادة أن يموت في الغارة

سته أضعاف من يؤسر فيها ويؤخذ رقيقا .. وهؤلاء الأسرى يساقون الى القلاع في انتظار شحنهم الى الأسواق .. وفي أثناء احتجاز الرقيق في القلاع كانوا يضربون ضربا مبرحا ويعذبون تعذبا شديدا حتى تذلل نفوسهم ويسأل الرعب قلوبهم من الأوربيين ويصيروا لهم أطوع من البنان ..

وكانوا يهتمون بأن ينقلوا على السفينة أكبر عدد ممكن من الرقيق : كانوا يرصونهم رصا في غرف سيئة التهوية ، الغرفة التي سعتها ثلاثة أمتار في أربعة يحشرون فيها خمسين أفريقيا .. كانوا يعطونهم أقل قدر من الطعام . لقمتين من الخبز وقطعة من البطاطس للواحد منهم في اليوم واللييلة .. . الماء أيضا كان يعطى لهم بحساب دقيق .. نصف كوب للشخص في اليوم .. لم تكن هناك دورات مياه أو أى تنظيم صحى .. النتيجة ، كثيرون من الأفريقين كانوا يصابون بالمرض في أثناء الرحلة الطويلة من شاطئ أفريقية الى شواطئ البحر الكاريبي .. كان المرض اذا اشتد بأحد الأفريقين ألحقوا به في البحر حيا .. هذه الرحلة كانت تعتبر أسوأ ما يصيب الأفريقين بعد وقوعهم في الأسر ، اذا تراخت الرياح أو تأخرت أرغم الأفريقون على التجديف باستمرار .. والويل لمن يتراخى أو يتوقف : كان يجلد بالسياط أو يضرب بالرصاص .. وفي العادة كان يموت ثلث حمولة السفينة في أثناء هذه الرحلة .. وبعد الوصول كان الباقون أحياء يوضعون في حظائر ويقدم لهم شئ من الطعام والماء ليستردوا قواهم ويظهروا في صورة رجال ونساء أصحاء قادرين على العمل .. هكذا يصل هؤلاء التعساء كعبيد لا فرق بينهم وبين الماشية أو المتاع .. وبمجرد أن تتم عملية الشراء يصبح العبد ملكا تاما لصاحبه ، لا يسأله القانون عن حياته أو ما يصنع به ، لأنه كان مجرد شئ .. وكان

الأنجلو ساكسون يجتهدون في تحطيم كل المقومات الانسانية والثقافية للأفريقي الذي يشترونه .. كانوا يبدءون بتفريق العائلات ينتزع الأطفال من أمهاتهم ، وتباع الزوجة في بلد والزوج في بلد آخر ، وكانوا يحرمون عليهم التحدث بلغتهم وكل ذلك لكي يقطعوا كل صلة لهم بأصلهم ، وقد عرف الأنجلو ساكسون كيف يصنعون أدوات للتعذيب خاصة بالأفريقيين، بل صنعوا لهم كمادات من الحديد هي أشبه بأقفاس في حجم الرأس يلبسونهم اياها في أثناء العمل حتى لا يجرؤ الأسود على الهرب ، لأنه اذا هرب بها لا يستطيع اخراج رأسه منها ووضعت القيود على تنقلاتهم فلم يكن من الممكن أن ينتقل أفريقي وحده أبدا .. لا بد أن يصاحبه أبيض (٥١) » .

فهل بعد هذا الاعتداء الصارخ على الانسان وكرامته وحرية اعتداء ؟

وهل ما يقع من ظلم على الزوج في أمريكا وما يلقي أسرى الحرب العالمية في الدول المنتصرة من مذلة وهوان يتناسب مع عصر الحضارة والتقدم ؟

وهل يحق لتلك الأمم أن تدعى أنها حاملة لواء الحرية ، وأنها وصلت الى قمة الحضارة الانسانية ؟!

ألا ما أبعد الفرق بينها وبين ما أعطاه القرآن للمجتمع الانساني من الحرية مما يحق لأتباع هذا القرآن أن يفاخروا به وأن يرفعوا رءوسهم

(٥١) من مقال د. حسين مؤنس تحت عنوان : صيد البشر - جريدة الأهرام في ١٩٧١/٢/١٩ م .

عالية ، لأنهم وحدهم سدنة الحرية ودعاتها .. استمتعوا بها في ظل  
كتابهم الخالد ومنحوها للإنسانية على اختلاف أجناسها وألوانها وأديانها  
وبلادها ..

وليس بعد هذه الكرامة فضل يفاخر به أتباع دين ما يفاخر أتباع  
دين الاسلام فان دينهم دين الحرية والحق والعدل والسلام ..

## الفصل الخامس

### المساواة

- ١ - وحدة الجنس البشرى ..
- ٢ - مساواة عادلة ..





## المساواة

### ١ - وحدة الجنس البشرى :

إذا كانت الحرية أمل الأمم والشعوب ، وجاء منهج القرآن ليقيم المجتمع على أساسها ، فإن المساواة هي الجزء المكمل لبناء هذا المجتمع .. وتلتقى الحرية مع المساواة لتعطى الصورة الوضيئة لما وهبه القرآن للمجتمعات من هذه المعاني الانسانية الرفيعة .. ومساواة القرآن أساسها وحدة الجنس البشرى : آدم عليه السلام أبو البشر ومن العنصر الذى خلق منه آدم خلقت حواء ومنهما تناسل جميع البشر .. وليس هناك .. اذن - مجال لادعاء أن هذا خلق من فم الاله وذاك خلق من رجليه كما يدعى البراهميون .. وليس هناك فصائل خلقت مزودة بالعقل والارادة ، والأخرى محرومة من هذا العقل كما زعم فلاسفة اليونان ..

وليس هناك شعب مختار بحسب خلقه ، وآخر وضع كما افترى الاسرائيليون .. انما هي وحدة الانسانية فى منشئها ومصيرها .. فى محياها ومماتها .. فى حقوقها وواجباتها .. لا فضل الا بما يقدمه المرء من عمل صالح .. ولا اختيار لأمة الا بمقدار ما تبذل فى سبيل رسالتها وما تعطيه لغيرها ولنفسها ولأبنائها من خير ..

وان هذا الذى أقره كتاب الله لهو الهداية الالهية ، يؤكدتها فى أسلوبه المشرق البديع فيقول :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ \* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ \* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَاهَا

أَعْظَمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ  
الْخَالِقِينَ» (١)

ويقول جل شأنه :

« وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ  
أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ  
مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ  
اللَّهِ يَسِيرٌ » (٢)

ويقول عز من قائل :

« أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ \* فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ  
مَكِينٍ \* إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ \* فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ » (٣)

ويقول رب العزة :

« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ \* خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ \*  
يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ » (٤)

(١) سورة المؤمنون ١٢/٢٣ - ١٤ .

(٢) سورة فاطر ١١/٣٥ .

(٣) سورة المرسلات ٢٠/٧٧ - ٢٣ .

(٤) سورة الطارق ٥/٨٦ - ٧ .

يقول تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » (٥)

فهى اذن رحم واحدة .. متواصلة لا تتعاضى ولا تتناكر .. وما اختلفت أسماؤها وعناوينها وأسمها الا من أجل امداد الحياة بشتى المواهب لينتظم أمرها ، وتستقر أوضاعها وتتعاون فيما بينها على تيسير مصالحها وقضاء حاجاتها ..

قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » (٦)

وفى هذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : « أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد .. كلكم لآدم و آدم من تراب ، وليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على

(٥) سورة النساء ١/٤ .

(٦) سورة الحجرات ١٣/٤٩ .

أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل الا بالتقوى .. ألاهل بلغت ؟ اللهم  
فاشهد .. ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب .. (٧) » ..

## ٢ - مساواة عادلة :

هذه النظرية السهلة الميسرة في حقيقة المنشأة الأولى أثرت الحياة  
بإلخاء والتواضع والعمل الصالح ولم تترك للأحساب والأنساب ومن  
ادعوا أنهم من نسل الآلهة أو من جنس كريم والناس جميعا من جنس  
واحد .. لم تترك لهؤلاء بابا الا أوصدته وتركت باب السبق في الخيرات  
ميدانا فسيحا يتنافس فيه المتنافسون ، وأقرت بذلك مبدأ التفاوت في  
المواهب والقدرات، مما ترتب عليه التمايز في الأرزاق والدرجات ومناصب  
العلم والجهاد ، لكن هذا التفاوت لم يكن في نظر منهج القرآن وسيلة  
للاستعلاء والسيطرة واستلاب الحريات وفرض الارادات ، انما هو  
لخدمة المجموع في جو من المودة الانسانية والأخوة الرحيمة والمنبعثة من  
إيمان المؤمنين :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » .

وبإقرار التفاوت أقر القرآن الكريم أصلح النظم التي تستقيم  
عليها حياة الفرد والجماعة . لأن سنة الاختلاف بين الأحياء أعمق من حياة  
البشر وأعمق من نظم الاجتماع أو نظم الاقتصاد .. وحكمة التفاوت  
ظاهرة وآفة التشابه والتساوى أظهر ، لأن الحياة تفتقر الى المزايا اذا  
قصرت حركتها على تكرير صورة واحدة في كل فرد من الأفراد ، وجعلتهم  
كلهم نسخة واحدة لا فضل لبيئة منهم على بيئة ولا لمجموعة منهم على  
مجموعة ولكنها تزخر بالمزايا المتجددة وتستزيد من الملكات المتعددة ..

كلما طرأ بينها التفاوت في الصفات والتفاوت في الأنصبه ، وكان للتفاوت بين أحادها فضل يحرصون عليه ويتطلعون الى بلوغه والتقدم فيه (٨) .

.. وعلى هذا تفاوت الأنبياء في درجاتهم :

قال تعالى :

« وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » (٩)

وقال تعالى :

« تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » (١٠)

وتفاوت الناس بعلمهم ..

قال تعالى :

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » (١١)

وقال تعالى :

« يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » (١٢)

(٨) الفلسفة القرآنية : للعقاد ص ٤١ ، ٤٢ .

(٩) سورة الاسراء ١٧/٥٥ .

(١٠) سورة البقرة ٢/٢٥٣ .

(١١) سورة الزمر ٣٩/٩ .

(١٢) سورة المجادلة ٥٨/١١ .

ولم يتساووا في حظوظهم من الأرزاق ..

قال تعالى :

« نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا » (١٣)

وقال تعالى :

« وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ » (١٤)

أى فاضل وفاوت بينكم في الرزق فبسط على واحد وضيق على واحد وقرر على واحد وكثر لواحد وقلل على واحد .. وكما فضل بعضهم على بعض في الرزق كذلك فضل بعضهم على بعض في الخلق والخلق والعقل والصحة والسقم والحسن والقبح والعلم والجهل وغير ذلك .. فهم متفاوتون ومتباينون في ذلك كله وهذا مما تقتضيه الحكمة الالهية والقدرة الربانية (١٥) ..

وتلك هى المساواة العادلة التى يسعد بها المجتمع الانسانى .. وبدونها يكون الصراع بين الطبقات سمة بارزة فى كل جماعة انسانية ضلت طريق الاسلام .. ولئن تحول دون صراع هذه الطبقات العمل على ازالتها ومحوها فذلك مستحيل ، انما يكون بالاعتراف بالتفاوت مع اعطاء كل ذى حق حقه مهما كانت مكائته من العلم وأغراض الحياة .. « فالعالم بخير مادام فيه أنواع الكفايات وفوارق المزايا والصفات ، ومادامت هذه الأنواع والفوارق فيه يتم بعضها بعضا ، ويجرى بعضها على معرفة

(١٣) سورة الزخرف ٣٢/٤٣ .

(١٤) سورة النحل ٧١/١٦ .

(١٥) تفسير حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٥٨٥ .

بعض .. والعالم على شر ما يكون اذا زال فيه كل خلاف يزاول الأداة  
المختلف عليها. يتنازع الناس الأموال فتزول الأموال ، ويتنازعون الحكم  
فيزول الحكم ، ويتنازعون الحرية فتزول الحرية ، وما هم في الحق  
بقادرين على ازالة شيء واحد يتنازعون عليه فلو أزالوا فوارق الأرزاق  
لم يزيلوا الفوارق بينهم على الذكاء والغباء ، أو على القوة والضعف ، أو  
على الجاه والخمول ، أو على الوسامة والدمامة ، أو على الذرية والعقم ،  
ولو أنهم أزالوها لزالوا أجمعين ولكنهم باقون برحمة الله ولا يزالون  
مختلفين » (١٦) ..

وهذه المساواة العادلة التي أشرق بها منهج القرآن على الدنيا أعطت  
للإنسانية حقها الكامل في المساواة الحقيقية .. وما دام الناس متساوين  
في الأصل الذي منه انشقوا فلا مكان بينهم للعصبية والتعالى والتفاخر .  
لذلك رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرر أنه بشر وفرد  
كسائر الأفراد الا أنه تحمل أمانة الدعوة الى الله ..

قال تعالى :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ  
إِلَهُ وَاحِدٌ » (١٧)

وقال تعالى :

« قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » (١٨)

(١٦) حقائق الاسلام اواباطيل خصومة للعقاد ص ١٠٠ .

(١٧) سورة الكهف ١٨/١١٠ .

(١٨) سورة الاسراء ١٧/٩٣ .

وهو عليه السلام - دائما - يؤكد هذا المعنى حتى لا يكون تقديره واجلاله داعية تقديس وعبودية فكان يقول : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم فانما أنا عبده فقولوا : عبد الله ورسوله (١٩) » ..

ويقول وقد خرج على جماعة فوقفوا له تبيلا : « من سره أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار (٢٠) » .. بل عشيرته وأهله متساوون مع كل البشر .. لن ينفعهم الا ما قدموه بين أيديهم من صالح الأعمال .. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر قريش لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا عباس ابن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت محمد سلىنى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا (٢١) » ..

الكل بشر : لا فرق بين أسودهم وأبيضهم ولا بين فقيرهم وغنيهم ولا بين رجالهم ونسائهم هم جميعا متساوون : فى حق التبعد والنسك ولهم من الأجر والجزاء على جهد كل منهم ..

قال تعالى :

« إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِينَ وَالْقَنَاتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ

(١٩) رواه البخارى .

(٢٠) رواه ابو داود والترمذى .

(٢١) متفق عليه .



وَالصَّامِينَ وَالصَّامِتِ وَالْحَنَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَنَفِظَاتِ  
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً  
وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٢)

وقال تعالى :

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ  
مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا  
وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا  
لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلْنَاهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ  
الثَّوَابِ » (٢٣)

وقال تعالى :

« وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَى وَهُوَ  
مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا » (٢٤)

وقال تعالى :

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ »

(٢٢) سورة الاحزاب ٣٣/٣٥ -

(٢٣) سورة آل عمران ١٩٥/٣ -

(٢٤) سورة النساء ١٢٤/٤ -

فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

وهم متساوون في العقوبة على أخطائهم ..

قال تعالى :

« وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ » (٢٦)

وقال تعالى :

« الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ » (٢٧)

والرسول صلى الله عليه وسلم يضرب المثل الأعلى في تطبيق ذلك فيقول لأسامة بن زيد - جبه وابن جبه - مستنكرا شفاعته للمرأة المخزومية التي سرقت قطيفة وحليا : « أئشفع في حد من حدود الله ؟ » ثم قام فخطب الناس فقال : « انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (٢٨) ..

• (٢٥) سورة النحل ٩٧/١٦

• (٢٦) سورة المائدة ٣٨/٥

• (٢٧) سورة النور ٢/٢٤

(٢٨) رواه الجماعة

والناس متساوون في حق العمل لا يمنع واحد من عمل مشروع ولا يعاب عليه مهما يكن هذا العمل ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه (٢٩) » ..

وعن المقدام بين معديكرب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده (٣٠) » ..

وهذا عبد الرحمن بن عوف كان يتاجر في السمن والجبن في سوق المدينة . وهذا أبو بكر رضى الله عنه - وقد بوع بالخلافة يخرج حاملا أثوابه الى السوق يتجر فيها فلقبه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما ققلا : كيف تصنع هذا وقد وليت أمور المسلمين ؟ فقال : فمن أين أطعم عيالى ؟ قال : يفرض لك في بيت المال .. ففرض له في بيت المال ما يسد حاجته وحاجة من يعولهم حتى يتفرغ لشئون الخلافة ..

واذن فالباب مفتوح لكل فرد ليعمل ويستمتع بما اكتسب من عمله بعد أن يؤدى حق الله وحق المجتمع فيما اكتسبه من مال .. وبذلك لا يضيع فقير ولا يحرم مسكين ولا يطغى صاحب مال ولا يحرم أحد ثمرة كفاحه ..

.. **حق العلم والثقافة مباح للجميع** .. ولقد أضواء في أفق تاريخ الاسلام علماء من الموالى والعييد وأهل البلاد المفتوحة .. لم يحرمهم

(٢٩) رواه البخارى .

(٣٠) رواه البخارى .

الاسلام من العلم للونهم أو جنسهم ، انما أحيا فيهم انسانيته الرحيمة فتفوقوا وبرزوا في مجالات العلم وفروعه وتولوا الفتيا وتدوين العلوم والفنون وتأصيل القواعد لكثير من علوم العربية والاسلام : « كان عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه موله عكرمة وكان عبد الله بن عمر كثيرا ما يذكر ومعه موله نافع وأنس بن مالك ومعه موله ابن سيرين وأبو هريرة ومعه موله عبد الرحمن بن هرمز، بل كانت دولة الفقه للمولى في بعض الأمصار بالبصرة ، حيث كان على رأسهم الحسن البصري ، وفي مكة كان مجاهد ابن جبر وعطاء بن أبي رباح وطاووس بن كيسان ، وهذا الليث بن سعد كان أهل بيته يقولون: نحن من الفرس من أصبهان ، وهذا ابن حنبل أصله من مرو، والطبري: من آمل بطبرستان وابن جريج: رومي المنبت وربيعة الرأي : فارسي الأصل . والشعبي علامة التابعين : كانت أمه من جلولاء . وهذا سيبويه الفارسي الأصل يضع قواعد النحو والكسائي وارث علماء البصرة في اللغة فارسي الأصل وتلميذه الفراء ، كان ديلميا كمهيار وابن مسكويه وابن سينا والفارابي كانوا فرسا أجمعين . ومن قبلهم كان ابن المقفع الفارسي الأصل سيد النقلة الى العربية (٣١) .»

ولا منافاة بين صاحب حرفة وما يكسبه من ألوان العلم والمعرفة ، بل ان المنهج الذي تربى عليه المسلمون مزج بين السعى في طلب الرزق والنبوغ في ألوان المعرفة . « كان الامام أبو حنيفة خازا ، كما كان كثير من رجالات الفقه بعده تجارا وصناعا . هذا الامام الخفاف : أحمد ابن عمر بن مهرب أبوه تلميذ محمد والحسن صاحب أبي حنيفة ، وكان الخفاف يؤلف للمهتدي بالله كتاب الخراج ويصنف كتبه العظيمة في الفقه ، في حين كان يعيش من خصف النعال ، وهذا الكرايسي يبيع

(٣١). أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الاسلام للأستاذ /

عبد الحلیم الجندی ص ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٣ .

الكرايس أو الثياب الخام ، وهذا القفال يخرج يده فاذا على ظهر كفه  
آثار فيقول : هذا من أثر عملي في صناعة الأقفال ..

وهذا ابن قطلوبغا يعمل خياطا ، والجصاص شيخ زمانه ينتسب الى  
العمل في الجص ، ثم هؤلاء : الصفار : من بيع الأواني الصفرية (النحاسية)  
والصيد لاني ( من بيع العطر ) ، والحلواني (الذي كان أبوه يبيع الحلوى)  
والدقاق والصابوني والتعالى والبقالى والقدرى وغيرهم كثيرون  
يشهدون من خلال حقب التاريخ ، وبمجرد أن انفجر فجر الحضارة  
الاسلامية أن هذه الأمة حققت في العصور الأولى ما جاهد العالم  
الغربي عشرات القرون لتحقيقه ولما يكده يحققه ، أن ليس ثمة مهن رفيعة  
وأخرى وضيعة ، انما ثمة رجال رفيعون وآخرون لا رفعة فيهم (٣٢) .

ولقد سوى الاسلام بين الناس جميعا في هذه الحقوق وغيرها من  
أنواع النشاط الانساني لا فرق بين حاكم ومحكوم ، أو شريف ووضع .  
ومناط الشرف والضعفة هو تقوى الله : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وها هو ذا أبو بكر يخطب الناس بعد أن ولى الخلافة فيقول : أيها  
الناس لقد وليت عليكم ولست بخيركم ان رأيتموني على الحق فأعينوني ،  
وان رأيتموني على الباطل فقوموني .. كما كرر عمر هذا المعنى فقال له  
بعض الحاضرين : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فقال :  
الحمد لله الذى جعل في أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر ..

ولقد شملت هذه المساواة ما بين الرجال والنساء : فالمرأة كالرجل  
في سائر تلك الحقوق وان كان لها من الأعمال ما يتناسب مع أنوثتها  
ورقتها ، ولها في الميراث نصف ما للرجل لكثرة أعبائه ، فهو المكلف  
بالاتفاق عليها وعلى أولاده منها ، وعليه من المسؤوليات المادية تجاه بيته

(٣٢) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الاسلام للأستاذ عبدالحليم  
الجندي ص ٥٣٠ ، ٥٤٣ .

ومجتمعهم مالم تكلف به المرأة ، وفي الشهادة : لا تمس كرامتها الانسانية ، لأن جعل شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد في الأمور المالية لما جبلت عليه من عطف الأمومة والبعد عن الحياة العملية ، وقد تنسى فتذكرها الأخرى كما قال القرآن ..

وتلك المساواة التي منحها كتاب الله للمرأة لا تدانيها مساواة السى وقتنا الحاضر في أى حضارة سابقة أو لاحقة ، فهي صاحبة الرأى فى اختيار زوجها ، ولها حق الميراث والهبة والوصية ، لها حق التصرف فى مالها دون تدخل زوجها ، تحتفظ باسمها واسم أبيها ولا تذوب شخصيتها فى أسرة الرجل ، وهى على قدم المساواة مع الرجال فى كافة الحقوق والواجبات ، لأنها شقيقة الرجال ..

قال تعالى :

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » (٣٣)

وما هكذا المساواة التى حصلت عليها المرأة فى أمم الغرب فانها ما خرجت للعمل وتساوت بالرجل الا لأن الرجل تخلى عنها ولم يحفظ لها أنوثتها وعفتها .. ووجد أرباب المال ذلك فرصة سانحة يضربون بها كرامة الرجل وحقه فى أجره كاملا فى مساواة مادية اقتصادية .. ومن أجل تحقيقها طلبت المرأة بحقها فى الانتخاب ، ولا تزال المرأة فى فرنسا مجردة من صفة الأهلية فى كثير من الشؤون المدنية : « فلا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ، ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته موافقة كتابية ، وعلى الرغم مما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد فان كثيرا من

آثارها لا يزال ملازما لوضع المرأة الفرنسية المتزوجة من الناحية القانونية الى الوقت الحاضر» (٣٤) ..

ولن تقارن المساواة التي أهدها المنهج الالهى للانسانية بما يسود من تفرقة عنصرية بغیضة يحمل وزرها اليهود ويدعون أنهم شعب الله المختار ، ويستبيحون قتل شعب ومسحه من الوجود والاستيلاء على أرضه ، وينزلون بالشعب العربى ما يملیه هذا الحق من ألوان الطرد والتشريد ..

ولا بما يسود من تفرقة عنصرية بين البيض والسود فى أمريكا التي أذلت الرجل الأسود وحرمته من حق الحياة .. مجرد الحياة ، ومنعته من حقه فى العلم والمأكّل والملبس والسكن والعمل ، وفرضت عليه عبودية قاتلة فان ثار أو طالب بحقه نزل به من العذاب ما يخرس لسانه والا فالموت والدمار له ، وما هذا التمزق الذى أصاب المجتمع الأمريكى بخاف على أحد ، ولم تستطع القوانين أو الدساتير أن تسوى بين البيض والسود ، لأن التفرقة التي أصابته نابعة من وجدانه وضميره ..

وما هكذا المساواة التي أقرها الاسلام ، لأنها مساواة نافذة مطبقة من أول يوم فى بناء المجتمع الاسلامى ، فهي احساس من الأعماق بالاخاء الانسانى الذى يربط قلوب البشر ، وعلى أساسه كان بلال رضى الله عنه العبد الحبشى مؤذن الرسول وخازنه ، ومن نبع هذا الاخاء .. أخى الرسول بين المهاجرين والأنصار أحرارا وعبيدا وموالى، فكان حمزة ومولاه زيد أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين وخالد بن رويحة الخثعمى وبلال بن رباح أخوين ، وهى أخوة عميقة لأنها صلة النفس والمال وسائر مظاهر الحياة ..

ومن فيض هذا الاحساس كان زيد بن حارثة أهلا للزواج من زينب بنت جحش بنت عمّة رسول الله عليه السلام ، وكان جديرا بقيادة المسلمين في مؤتة • ومن بعده ابنه أسامة الشاب الذي قاد جيشا عظيما لغزو الروم يضم كثرة المهاجرين والأنصار •

انها روح المساواة الحقّة •• روح هذا الدين الذي لم يشهد العالم له مثيلا وانها الحرية في أوسع معانيها يبنى على أساسها منهج القرآن مجتمع الرحمة والعدالة بعيدا عن التعصب للون أو جنس وشعاره دائما: يا أيها الناس ان الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية وتعاضلها بآبائها •• فالتناس رجالان بر تقى كريم على الله ، وفاسق شقى هين على الله (٣٥) •  
ودستوره دائما :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » (٣٦)

(٣٥) الجامع للترمذى ومشكاة المصابيح : باب المفاخرة ص ٦٥٨



## الفصل السادس

### نظام الحكم

- ١ - قواعد ثابتة
  - ( أ ) العدل
  - ( ب ) الشورى
  - ( ج ) مسؤولية الحاكم وطاعة المحكومين
- ٢ - بين النظرية والتطبيق
- ٣ - نظام الهى فريد



## نظام الحكم

### ٢ - قواعد ثابتة :

يمتاز منهج القرآن في تربية المجتمع بأنه منهج عملي واقعي يواجه الحياة بما يصلحها ويقومها ويمدها بعناصر القوة والبقاء .. عاش هذا المنهج في مكة يربى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان والثبات والصبر والأخلاق الطاهرة .. وبهذه التربية واجهت الثلاثة المؤمنة ارباب الكفر وجبروت الشرك ، ولم تكن للمؤمنين حكومة قائمة بولا دولة لها من البطش والقوة ما يردع هؤلاء المعتدين الظالمين ، فلما أذن الله لرسوله والمؤمنين معه بالهجرة الى يثرب ، تكونت من هذا المجتمع دولة سارت على درب النور الالهي ، واسترشدت في حياتها بهدى الله فكانت خير أمة أخرجت للناس .

وكان لايد لهذا المجتمع الجديد من مبادئ ثابتة يسير عليها في حياته ، هل يخترع هذه المبادئ حسيما يمليه الهوى والغرض على أفرادة؟! هل ينفرد رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضع هذه الأسس من عند نفسه ؟ كلا ! فليس لهذا المجتمع الناشئ أن يخترع ماشاء له هواه من قواعد الحكم ونظم الاجتماع ، وليس لرسوله عليه السلام أن ينفرد بهذا التخطيط أبدا ، انما هو مجتمع يتلقى أوامره ونظام حياته من ربه رب السموات والأرض ، وما الرسول الا مبلغ عن ربه :

قال تعالى :

« وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ » (١)

واذن فنظام الحكم كسائر تشريعات الحياة بكل ما تشمله الحياة :  
 أساسها كتاب الله وسنة رسوله .. وسنة رسول الله هي التنفيذ العملى  
 والتطبيق الواقعى والتفسير الكامل لما جاء فى كتاب الله .. والمبادئ التى  
 أقرها لهذه النظم الاجتماعية تتناسب مع عالمية هذا الدين ، فهى صالحة  
 لكل زمان ومكان .. وبعبارة أدق : هى مصلحة لكل زمان ومكان ..  
 بل هى جهاز دقيق التركيب لا يقبل شائبة ولا يستطيع أحد أن يزيد فيه  
 أو ينقص منه ..

قال تعالى :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ  
 نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (٢)

ومن هنا تبدو خطورة عملية « الترقية » التى تقوم بها الأمم التى  
 تنسب لدين الاسلام ، لأنها تعطل عمل هذا الجهاز الدقيق الذى صنعه  
 رب هذا الوجود ، كما تبدو خطورة المحاولة التى يقوم بها كثير من  
 حملة الأقلام الاسلامية وهم يحاولون أن يجدوا نظاما تعتنقه أمم الغرب  
 أو الشرق ، ويدين به فلاسفة العالم ليلحقوا به نظام الاسلام فى الحكم  
 وغيره ويضعوه تحت لافتات تلك الأمم ..

ان نظامنا وحياتنا - باعتبارنا أمة مسلمة - تسير مع أنوار كتاب  
 ربنا الخالد لتصل الى ما ينشده الانسان من سعادة واطمئنان ..

ومثل هذا النظام الذى يسيره الجهاز القرآنى ليس بحاجة الى  
 « ترقية » أو استيراد « قطع غيار » تصلحه وتقويه ، ولأن يشرفه أن

يوضع تحت اطار بشرى وتفكير انساني ، فقلما سلم تفكير البشر من الخطأ والزلل ..

وهذه قواعد الاسلام مرنة كل المرونة ، صالحة للتطبيق على حسب حالة المجتمعات ، وذلك لأنها قواعد عامة ليس فيها حجر على النشاط البشرى فيما يراه كفيلا باستقرار حياته وانتظام مجتمعه ..

ومن حق أنظمة الحكم أن تتغير وتتشكل على حسب حاجة المجتمع ، لكنها فى منهج القرآن يجب ألا تخرج عن الأسس الرئيسية فى هذا المنهج والتي يمكن تلخيصها فى أمور ثلاثة :

- ١ - العدل
- ٢ - الشورى
- ٣ - مسؤولية الحاكم و طاعة المحكومين ..

#### ١ - العدل :

هدف نبيل تتوق اليه الشعوب ويحققه - واقعا ملموسا - نظام الحكم الاسلامى الذى يعتبر العدل دعامة قوية من الدعائم التى يقوم عليها البناء الاجتماعى .. فهو الغاية التى تسعى اليه الحكومة الاسلامية ، وبلونه تحكم على نفسها بالفناء والزوال ، كما هو غاية كل فرد فى أمة الاسلام : يحققه لنفسه ولمجتمعه وللانسان حيثما كان قال تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا » (٣)

قال على بن أبي طالب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب وابن زيد :  
هذا خطاب لولاية المسلمين فهي للنبي صلى الله عليه وسلم وأمرائه من  
بعدهم .. قال القرطبي :

والأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس ، فهي تتناول الولاية  
فيما اليهم من الأمانات في قسمة الأموال ورد الظلمات والعدل في  
الحكومات ، وهذا اختيار الطبرى ، وتتناول من دونهم من الناس في  
حفظ الودائع والتحرز في الشهادات وغير ذلك (٤) ..

والاحسان : قرين هذا العدل وكلاهما أمر به الله اذ قال تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » (٥)

وما أجمل العدل مع الاحسان : لأن الاحسان يلقي ظلال الرحمة  
والمودة على العدالة التي تشمل كل جانب من جوانب النفس وتحيط  
بكل ما في المجتمع ..

والعدل واجب حتى على الأنبياء : « روى عن بعض خلفاء بنى  
مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز : هل سمعت ما بلغنا أن الخليفة لا  
يجرى عليه القلم ولا يكتب عليه معصية ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : الخلفاء  
أفضل أم الأنبياء ؟ ! ثم تلا قول الله لداود :

« يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ  
النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

(٤) تفسير القرطبي ص ١٨٢٦ -

(٥) سورة النحل ١٦/٩٠ -

إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا  
نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ» (٦)

قال صاحب الكشاف : فى تفسير قوله تعالى :

« فاحكم بين الناس بالحق »

أى بحكم الله • ثم أضاف : ولا تتبع هوى نفسك فى فضائلك وغيره  
مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا فىضلك الهوى فىكون سببا  
لضلالك •• « عن سبيل الله » عن دلائله التى نصبها الله فى العقول وعن  
شرائعه التى شرعها وأوحى بها (٧) ••

أمر الله داود بالعدل كما أمر به محمدا عليه السلام ، وجعل ذلك  
من دعائم رسالته وأسس دعوته اذ قال :

« فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ  
وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ  
بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَأَحْجَةَ  
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » (٨)

(٦) تفسير الرازى ج ٢٦ ص ٢٠٠ .. والآية من سورة : ص  
٢٦/٣٨

(٧) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٢٦ .

(٨) سورة الشورى ١٥/٤٢ .

وهو الهدف الذى من أجله أرسلت الرسل ونزلت الشرائع ..

قال تعالى :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ » (٩) .

والعدالة التى ينشدها نظام الحكم هى التى لا تحيف ولا تظلم أحداً ، انما تعطى كل صاحب حق حقه ، فالجميع أمام قانون الاسلام سواء ، والا كانت الفوضى والاضطراب وأدى ذلك الى ضياع الأمة وهلاكها .. قال الامام الماوردى : « وأما القاعدة الثالثة أى من القواعد التى تصلح بها الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتزمة ، فهى عدل شامل يدعو الى الألفة ويبعث على الطاعة وتعمر به البلاد وتنمو به الأموال ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان ، فقد قال الهرمزان لعمر حين رآه وقد نام متبذلاً : عدلت فأمنت فنت . وليس شئ أسرع فى خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور ، لأنه ليس يقف على حد ولا ينتهى الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل » (١٠) .

والعدل الذى يقوم عليه نظام الحكم فى الاسلام عدل من الحاكم : يحكم فى رعيته بشريعة الله وعدل من المحكومين فى ذات أنفسهم وفيما بينهم ، فلن تتحقق عدالة الحكم الا اذا تربت الرعية على الصلح فى القول والاعتدال فى السلوك ..

(٩) سورة الحديد ٢٥/٥٧ .

(١٠) أدب الدنيا والدين ص ١٢٩ .



وهنا يكون عدل الحاكم حقا يستمتع به سائر الناس .. وهذا ما صنعه منهج القرآن .. اذ طلب العدل في القول من الناس جميعا .. قال تعالى :

« وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا » (١١)

والعدل في أداء الشهادة دون زيف أو تضليل .

قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » (١٢)

ولن يحول بين هذا العدل المطلق عداء العدو كما لم يحل بينه حب قريب أو خوف جاه أو شفقة على فقير قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا

(١١) سورة الانعام ١٥٢/٦ .

(١٢) سورة النساء ١٣٥/٤ .

هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (١٣)

قال الامام القرطبي : « دلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه ، وأن يقتصر على المستحق من القتال والاسترقاق ، وأن المثلة بهم غير جائزة وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك فليس لنا أن نقتلهم بمثلة قصدا لا يصل الغم والحزن اليهم » (١٤) .

فهل في تاريخ البشرية مثل هذه الصورة المشرفة وتلك العدالة التي وصلت عالم المثل والقيم ، وكانت حلم فلاسفة أصحاب المدن الفاضلة ولو عاشوا لرأوها حقيقة وضعتها بين أيدي الناس جميعا منهج القرآن؟ والعدل من المجتمع كله - أيضا - في معاملاته ..

قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلََّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ » (١٥)

(١٣) سورة المائدة ٨/٥ .

(١٤) تفسير القرطبي ص ٢١٠٧ .

(١٥) سورة البقرة ٢/٢٨٢ .

وما ورد في القرآن من التحذير والارهاب للظالمين وبيان مصائرهم في الدنيا والآخرة انما هو لتحقيق العدل المطلق .. والآيات والآثار في ذلك أكثر من أن تحصى : قوم نوح وهود وصالح وشعيب وفرعون وقارون وغير هؤلاء وأولئك ..

يقول فيهم ربنا :

« فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (١٦).

ويقول سبحانه :

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » (١٧).

ويقول تعالى :

« وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ \* وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ \* إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ

(١٦) سورة العنكبوت ٤٠/٢٩ .

(١٧) سورة القصص ٥٩/٢٨ .

يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (١٨)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله يملئ للظالم فاذا أخذه لم يفلته ثم قرأ :

« وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » (١٩)

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم ان كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه (٢٠) »

وبهذا العدل الذى شع ضياؤه فى المجتمع الذى تعهده المنهج الربانى يتحقق لنظام الحكم الاسلامى ما يروجوه من عدالة يؤديها الحاكم ويفرضها عليه هذا الدين ويحرص عليها المجتمع حرصه على الحياة وينتزعها من يد حكامه لأنه حقق العدالة فى كل أمر وجعلها حقا مشاعا بين الناس ينزل عليها الأقوياء رغبة فى ثواب الله وخوفا من بطشه ، ويرتفع اليها أصحاب الحقوق فى عزة وثقة ويلتقيان معا على هذا العدل الكامل . . ومثل هذا المجتمع لا يظلم ولا يظلم : فحقه يحميه حكم عادل وامام عادل وأمة عادلة . .

(١٨) سورة الشورى ٤٢/٤٠ - ٤٢ .

(١٩) متفق عليه .

(٢٠) رواه البخارى .

## (ب) الشورى :

هى المبدأ الملازم للعدل ، وبدونه يصبح العدل مفصوص الجناح  
لا يستطيع أن يخلق الى آفاق الحكم الصحيح النزيه ..

وحكم دون مشاورة بين الحاكم والمحكوم استبداد وانحراف ،  
لذلك أمر الله بالشورى وجعلها صفة من صفات المؤمنين فقال :

« وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ  
شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ » (٢١)

ففى هذا أمر ملزم للمسلمين بالشورى فى أمورهم حيث اقترن  
قوله تعالى : «وأمرهم شورى بينهم» بركنين من أركان الدين ،  
وتوسطهما وهما اقام الصلاة وايتاء الزكاة ، والمأمور بهما شرعا ، فكان  
حكم الشورى حكمهما من حيث الوجوب والالزام ، وهذا يعنى أن  
يكون المسلمون على كلمة سواء فيما بينهم من شئون ، فتكون طريقتهم  
واحدة ووجهتهم واحدة ويدهم واحدة وموقفهم فى مواجهة الأحداث  
واحدا فلا يذهب كل واحد منهم مذهبا لا ترتكب كل جماعة منهم  
طريقا (٢٢) ..

وفى سورة آل عمران أمر صريح لرسوله بالمشاورة تأليفا للقلوب  
وجمعا للنفوس قال تعالى :

« فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنِتَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ

(٢١) سورة الشورى ٣٨/٤٢ .

(٢٢) الشورى فى الاسلام : تشريعا وتطبيقا مقال للأستاذ :  
عبد الكريم الخطيب بمجلة الوعي الاسلامى العدد ٦٩ - رمضان ١٣٩٠ هـ  
السنة السادسة .

الْقَلْبَ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ  
وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ  
يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (٢٣)

قال ابن عطية : « والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام  
من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب ، هذا ما لا خلاف عليه »  
وقال ابن خوزين منداد : واجب على الولاة مشاوراة العلماء فيما لا  
يعلمون وما أشكل عليهم من أمور الدين ، ووجوه الجيش فيما يتعلق  
بالحرب ، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ، ووجوه الكتاب والوزراء  
والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها .. (٢٤) ..

ومنهج القرآن لا يريد لمبدأ الشورى أن يكون « محمّدية  
اختيارية » يقصد بها مجرد تأليف القلوب وتطبيب النفوس دون العمل  
به كما يذهب الى ذلك صنائع الملوك المستبدين ، ولا يريد « صورة  
مفتعله » يبرر بها أرباب الطغيان طغيانهم . وانما يريد « أمرا ثابتا مقرا  
بأمورا به ، هو حق للامة تأخذه بالقوة وواجب عليها ، تأثم جميعها  
بتركه ، وحقيقة لها أثرها العملى فى الحكم وسياسة الجماعة .. واذن  
فالشورى التى تنسج خيوطها بكثرة العدد أو عن طريق الاغراء والارهاب  
لا قيمة لها عند الله ، والشورى التى تجعل من الفرد المفسد أو الذى  
لا يعقل حاكما بأمره فى الأمة لا قيمة لها عند الله .. والشورى التى  
لا يجد المخلصون فى جوها متنفسا يكشفون فيه عن عبث العابثين وفساد  
المفسدين لا قيمة لها عند الله .. والشورى التى يلبس المنافقون فى جوها

(٢٣) سورة آل عمران ١٥٩/٣ .

(٢٤) تفسير القرطبي ص ١٤٩١ ، ١٤٩٢ .

«مسوح الصدق والاخلاص ويكتمون عن الحاكم المخلص بذور الشر  
والفساد لا قيمة لها عند الله (٢٥)» ..

والشورى التى أمر الله بها فيما لم يرد فيه نص قاطع من كتاب  
أو سنة ، والا فلا رأى لأحد ولا استشارة - ولهذا كان صلى الله عليه  
وسلم يستشير فيما لم ينزل فيه وحى فى مكائد الحروب وعند لقاء العدو  
وأموال الحياة العامة ، فاذا نزل حكم السماء خضع له الجميع طائعين ..

كما جعلها المنهج القرآنى صالحة للتطبيق والتنفيذ وليست على  
نظام معين فقد أمر الله بالشورى وسكت عن تفصيلها ليكون ولاية الأمر  
فى كل أمة فى سعة من وضع نظامها بما يلائم حالهم ، فهم الذين يقررون  
نظام انتخاب رجالها والشرائط اللازمة فيمن ينتخب وكيفية قيامهم  
بواجبهم وغير ذلك مما تحقق به الشورى ، وكذلك نظام المسؤولية  
وكيف يؤدي رجال الشورى واجب النصح - وتقدير ما يمكن أن يطرأ  
ترك تفصيله لتراعى فيه المصلحة ومقتضيات الزمن ، ومثله البيعة ومن  
يتولاها وشرائطها وكل ما يتعلق بها مما يحقق الغرض منها .. واذن  
لا يمكن القول بأن فى الاسلام قصورا عن مسايرة الزمن فى شكل  
الحكومة الملائمة ، لأن الاسلام أقر أسسا عادلة لا تختلف فيها أمة  
عن أمة ، وأفصح للناس ان يقرروا على هذه الأسس ما يرونه من التفصيلات  
كفيلا بمصالحهم وملائم لأحوالهم (٢٦) . وأمانة ابداء رأى حق لكل  
صاحب رأى كما هو حق عليه ..

(٢٥) الاسلام عقيدة وشرعية للشيخ شلتوت ص ٤٥٤ .

(٢٦) السياسة الشرعية للأستاذ عبد الوهاب خلاف ص ٢٨ ، ٢٩ .

قال تعالى :

« وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ  
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (٢٧)

« وهذه الجماعة التي وقفت حارسة للحق آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر هي التي لا تتوانى عن تقديم مشورتها الصادقة ، ولذلك جعل الامام محمد عبده هذه الآية أدل على أصل الشورى من قوله تعالى : « وشاورهم في الأمر » فان أمر الرئيس بالمشاورة يقتضى وجوبها عليه ، ولكن اذا لم يكن هناك ضامن يضمن امثاله للامر فماذا يكون اذا هو تركه ؟ وأما هذه الآية فانها تفرض أن يكون في الناس جماعة متحدين أقوياء يتولون الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو عام في الحكام والمحكومين ، ولا معروف أعرف من العدل ولا منكر أنكر من الظلم (٢٨) » ..

وبهذا الأصل الذي أقيم عليه نظام الحكم في الاسلام تتلاقى الأفكار وتتوحد المشاعر وتتقارب القلوب وتبتعد الأمة عن الخطر ..

#### (ج) مسئولية الحاكم .. وطاعة المحكومين :

وليست قيادة الأمة والاشراف على شئونها وتولي أمورها بمغرم يحرض عليه أحد من المسلمين ، انما هي مغرم ومسئولية خطيرة .. ليست للاستكثار من أعراض الحياة والتمتع بطيباتها ، بل للتجرد من زينة الحياة والاعراض عن ملذاتها .. وليست كبرا أو تطاولا على خلق الله ، ولكنها تواضع ورحمة واحساس رقيق .. فمن وجد في نفسه

(٢٧) سورة آل عمران ١٠٤/٣ .

(٢٨) تفسير المنار للسيد / رشيد رضا ج ٤ ص ٤٤ .



قدرة على البذل والتضحية والايثار وأحس بما لديه من مواهب القيادة والرئاسة وارتضته أمته لسياستها كان جديرا بهذا المنصب الخطير والا عرض نفسه للخسارة الأبدية .. ومن تولى هذا فاعتر وخان وغش أضاع نفسه .. وفقد منزلته عند الله والناس .. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحة الا لم يجد راحة الجنة (٢٩) » ..

ويقول لأبي ذر رضى الله عنه : « يا أبا ذر : انك ضعيف وانها أمانة وانها يوم القيامة خزى وندامة الا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها (٣٠) » ..

انما يجب عليه العدل والشفقة وعدم الاحتجاب عن رعيته ومشاورتهم وحينذاك تجب له الطاعة من المحكومين ..

فالعدل ميزان دقيق فى يد الحاكم لا يحيف على أحد ولا يظلمه ولا يمنعه حقا من حقوقه ولا يستأثر لنفسه وأهله وأقاربه بمال أو منصب وفى المسلمين من هو أحق بذلك ..

أخرج ابن الجوزى عن عمر أنه قال : من استعمل رجلا لمودة أو قرابة لا يستعمله الا لذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ..

وروى الحاكم فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » ..

(٢٩) رواه الشيخان .

(٣٠) رواه مسلم .

قال ابن تيمية : « فان عدل عن الأحق الأصلح الى غيره لأجل قرابة بينهما أو ولاء عتاقة أو صداقة أو موافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية ، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة أو غير ذلك من الأسباب أو الضغينة في قلبه على الأحق أو عداوة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى عنه في قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْدَانِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (٣١)

ثم قال تعالى :

« وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » (٣١)

فان الرجل لحبه لولده أو لعتيقه قد يؤثره في بعض الولايات أو يعطيه مالا يستحقه فيكون قد خان أماتته .. كذلك قد يؤثر زيادة ماله أو حفظه بأخذ مالا يستحقه أو محاباة من يداهنه في بعض الولايات فيكون قد خان الله ورسوله وخان أماتته (٣٢) » ..

والعدل المطالب به الحاكم عدل مطلق تحققه الأمة في ذات نفسها وتقرضه على حاكمها وتعيش من أجل هذا الحق حياتها ..

دخل أبو مسلم الخولاني على معاوية بن أبي سفيان فقال : السلام عليك أيها الأجير ، فقالوا قل أيها الأمير فقال : السلام عليك أيها الأجير

(٣١) سورة الأنفال ٢٧/٨ ، ٢٨ .

(٣٢) السياسة الشرعية : لابن تيمية ص ٣٠ ، ٣١ .

فقالوا : قل أيها الأمير قال معاوية : دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول •  
فقال : إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها ، فإن أنت هنأت  
جرباها وداويت مرضاها وحبست أولاها على أخراها وفاك سيديك  
أجرك ، وإن أنت لم تهنا جرباها ولم تداو مرضاها ولم تحبس أولاها  
على أخراها عاقبك سيدها ..

كذلك يجب على الحاكم أن يكون رحيما بأمرته حريصا على ما  
ينفعها شفوفا عطوفا فهو أب للصغير وأخ للكبير يؤثرهم على نفسه  
كما يؤثر ولده وأهل بيته على نفسه وفي ذلك يقول الله لرسوله صلى  
الله عليه وسلم :

« وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » (٣٣)

ويقول :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ  
الْقَلْبِ لَآنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ  
وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » (٣٤)

وروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه  
وسلم قال : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه  
ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به » ..

(٣٣) سورة الشعراء ٢٦/٢١٥ .

(٣٤) سورة آل عمران ٣/١٥٩ .

وليس من حقه أن يحتجب عن الناس إنما يفتح بابه لكل صاحب

حق :

روى أبو داود والترمذي وصححه الحاكم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلفتهم وفقروهم إلا احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة... »  
وليس له أن يستأثر بالأمر دونهم إنما يشاورهم ويأخذ برأيهم  
والا كان حكما استبداديا ظالما ، ومن حق الأمة التي اختارته لهذا المنصب  
أن تخلعه وتختار من تراه أهلا لذلك ..

فإن قام بما وجب عليه تجاه أمته فحمى لها دينها وحقق ما تصبو  
إليه من عدالة وكرامة ولم يقدم هواه وشهوته على مصلحتها ولم ينفرد  
بالرأى دونها وجبت له النصيحة والنصرة والطاعة على كل أبناء هذه  
الأمة ..

والنصح للحاكم مقياس الأمم الناضجة والشعوب الراقية :  
وبالنصيحة يعتدل المعوج وينتظم مجرى الحياة .. والمنهج الإلهي يدفع  
المسلمين إلى تقديم هذه النصيحة ويجعلها أعلى منزلة في الإيمان ..  
يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب  
ورجل قام إلى امام جائر فأمره ونهاه فقتله » (٣٥) ..

ويجعلها الدين كله فقد روى مسلم عن تميم الداري أن النبي  
صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين  
النصيحة .. قلنا لمن يا رسول الله قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة  
المسلمين وعامتهم » ..

قال الامام النووى فى شرح هذا الحديث : النصيحة لأئمة المسلمين معاوتتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به ونهيهم عن المحرمات وتذكيرهم برفق واعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين وعدم الخروج بالسيف عليهم اذا ظهر منهم حيف وتأليف قلوب المسلمين لطاعتهم والصلاة خلفهم والجهاد معهم ، وألا يغروا بالثناء الكاذب عليهم وأن يدعى لهم بالصلاح ..

كما بين الرسول عليه السلام : أن النصيحة للحاكم من الأمور التي يرتضيها الله لنا اذ قال : « ان الله يرضى لكم ثلاثة : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم (٣٦) » ..

وجعلها من الأمانة الواجبة على كل مسلم فقال : « ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين (٣٧) » ..

ولن يستطيع حاكم أن يجابه الأحداث والمحن والفتن وحده فلا بد من مناصرته وشده أزره والوقوف معه فى وجه كل معتد فى الداخل والخارج حتى يضمن الاستقرار والأمن لكل فرد ..

كما لا يستطيع أن يقوم بواجبه دون طاعة من الحكوميين ولهذا أمر الله بها فقال :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ» (٣٨)

(٣٦) رواه مسلم .

(٣٧) رواه أصحاب السنن .

(٣٨) سورة النساء ٥٩/٤ .

وطاعته واجبة اذا لم يأمر بمعصية ، ولذلك لم يجعلها القرآن طاعة مستقلة انما هي تابعة لطاعة الله وطاعة رسوله ، وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر مرفوعا : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره الا أن يؤمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة (٣٩) » ..

وفي حديث البخارى : « اسمعوا وأطيعوا - وان استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى (٤٥) » ..

وإذا ما اختلف الحاكم والمحكوم في شئ فسييل حسم هذا الخلاف هو الرجوع الى كتاب الله لا الرضوخ لهوى الحاكم وسلطانه ..

قال تعالى :

« فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ نَأْوِيًّا » (٤١)

وليس له بعد النصح والنصرة والطاعة حق على الناس أكثر من أى واحد فيهم : « يقتص منه ويقام عليه الحد الا أن يعفو صاحب الحق ، ويأخذ من المال راتبا يكفيه كسائر الناس لا يزيد في ذلك شيئا .. وليس له أن يعتدى على أموال الناس أو أرواحهم أو أجسادهم أو أعراضهم ، « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه (٤٢) » ..

(٣٩) الشيخان .

(٤٠) رواه البخارى .

(٤١) سورة النساء ٥٩/٤ .

(٤٢) رواه الشيخان .

فليس لرجل أو طائفة أن تستبد بالأمر أو تتسبب عرش الديكتاتورية لأن كل فرد من أفراد هذا المجتمع خليفة ولا تجوز لطائفة أو فرد من أفرادها أن ينتزع حق الخلافة من جمهور المسلمين وينصب نفسه مسيطرا عليهم والذي يتولى هذا الأمر في الاسلام منزلته الحقيقية أن جمهور المسلمين أو الخلفاء - ان آثرنا الكلمة الاصطلاحية - قد فرضوا خلافتهم المير رجل منهم وجعلوها مركزة في ذاته لتنفيذ الأحكام وتسيير دفة الأمر بسهولة وذلك عن رضا منهم واتفاق كلمتهم ، فهو مسئول عند الله في جانب وبجانب آخر مسئول عند عامة الخلفاء أى المسلمين الذين فوضوا اليه أمر الخلافة ، فان استبد بالأمر ونصب نفسه ديكتاتورا مطاعا على الاطلاق فهو غاصب وليس بخليفة ، لأن الديكتاتورية بحقيقتها ضد الخلافة العمومية (٤٣) » ..

#### ٣ - بين النظرية والتطبيق :

ما أكثر النظريات التى تتناول نظم الاجتماع .. ولكن هل ترجمت تلك النظريات الى واقع ملموس ??

وهل بقيت نظرية القرآن فى نظام الحكم حلما عذبا وخيالا هائما كهذه النظريات أو كانت نظرية صاغ جزئياتها حقيقة قائمة مجتمع أنشأ منهج القرآن ??

التاريخ يقول لم أشهد تطابقا بين النظرية وواقعها كما شهدت فى رحاب القرآن .. وذلك لأن جماعة المؤمنين عاشت حياتها تترسم الهدى الربانى فى كل حركاتها وسكناتها ، فلم يكن لها هاد ولا مرشد سوى وحى الله وهدى رسوله الكريم ، فطبقت مبادئ الاسلام فى يسر وسهولة ، وهى تواصل مسيرة الحياة فى صنع الحياة يقول الأستاذ

ستروتمان : الاسلام ظاهرة دينية وسياسية اذ ان مؤسسه كان نبيا وكان حاكما مثاليا خيرا بأساليب الحكم . ويقول توماس أرنولد : « كان النبي صلى الله عليه وسلم رئيسا للدين ورئيسا للدولة » ويقول الأستاذ الايطالى المعروف « نلينو » : « لقد أسس محمد فى وقت واحد ديننا ودولة كانت حدودهما متطابقة طوال حياته (٤٤) » ..

فماذا نرى فى التطبيق ??

نرى النبي عليه السلام مثالا للحاكم العادل الذى رسم للحكام من بعده كيف تكون العدالة فى أرقى صورها والتواضع والثقة فى فى الرعية وطلب مشورتها وتنفيذ رأيها واحترام مشورتها .. وأعطى أصدق صورة لكل من أراد قيادة شعبه فى جو من الاخاء والمودة والحب ولكل من أراد أن يصوغ من أمته قوة تجابه الخطر وتقف فى ميدان المحن فلا تحنى هامتها ولا تتنازل عن مبادئها وكرامتها ..

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر يقف قبل المعركة قائلا : أشيروا على أيها الناس .. فيصمون على لقاء العدو ، وقبيل المعركة يتقدم اليه الحباب بن المنذر متسائلا عن الموقع الذى هم فيه .. « أهذا منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا تتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال محمد : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .. فقال لرسول الله : فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزل ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبثى عليه حوضا فملاؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ونفخذ الرسول ما أشار به الحباب . كما أشار سعد بن معاذ ببناء عريش لرسول الله يكون فيه

(٤٤) نظام الحكم فى الاسلام د: محمد يوسف موسى ص ١١

(٤٥) حياة محمد : محمد حسين هيكى ص ٢٦٠



حتى إذا لم يكن النصر في جانبه وجانب أصحابه لم يقع في يد عدوه  
واستطاع اللحاق بأصحابه في المدينة ..

وفي أحد غلب الشباب ومن لم يحضر بدرا برأيهم في الخروج  
على من رأى انتظار العدو داخل المدينة ، وكان أن دخل الرسول بيته فليس  
عدة الحرب وخرج الى الجهاد . وفي الأحزاب أشار سلمان الفارسي بحفر  
خندق حول المدينة واستجاب الرسول لمشورته ، وفي هذه الغزوة اتفق  
الرسول مع أهل الطائف أن يرجعوا عن المدينة ولهم ثلث ثمارها وسأل  
سعد بن معاذ رسول الله عما إذا كان للوحي دخل في هذا الاتفاق فقال له  
الرسول انما هو أمر صنعته لكم رجوت من ورائه الخير فأخذ سعد  
المعاهدة ومزقها وقد كانت معدة للتوقيع قائلا : انهم لم ينالوا منا ثمرة  
الا قرى ( كرم ضيافة ) أفبعد أن أعزنا الله بك يأخذون ثلث ثمار المدينة  
عنوة لا والله .. فلم يغضب الرسول وسر بذلك المسلمون جميعا . الى  
غير ذلك مما لا يمكن حصره حتى قال أبو هريرة : « ما رأيت أحدا  
قط أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » ..

وحسبنا في شفقتة ورحمته أنه رحمة للعالمين وأنه كما قال الحق  
سبحانه :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ  
حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (٤٦)

وحسبنا في عدله مع نفسه أنه كانت تأتيه الغنائم والأموال الكثيرة  
فيوزعها على فقراء المسلمين وينام على حصير وقد أثر في جنبه الشريقه  
بومات ولم يورث من بعده دينارا ولا درهما ، وأنه كان يرهانا عطيا

وتطبيقا واقعيًا لكتاب الله حتى قالت عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن خلقه : « كان خلقه القرآن (٤٧) » ..

ومن بعده كان أبو بكر مثال الحاكم الصالح والمؤمن الذى ارتوى من نبع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقف عقب انتهائ البيعة بالسقيفة فقال : « أما بعد أيها الناس فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندي حتى أريح عليه حقه ان شاء الله والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ان شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله الا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم الا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » ..

وكان الى يوم بيعته تاجرا فلما أصبح أراد أن يغدو على تجارته لولا أن منعه المسلمون حتى يتفرغ لشئون الخلافة وفرضوا له ما يكفيه وأهله في بيت المال وومع ذلك فقد أوصى عندما حضرته الوفاة أن يحصى ما أخذه من بيت المال فيدفع من ماله وأرضه تورعا وتعففا عن مال المسلمين ..

ولن تجد كهذه الرحمة لحاكم في الأرض وأنت ترى أبا بكر يحلب للضعفاء ممن حوله أغنامهم قبل أن يتولى الخلافة ، فلما شغل بها سمع جارية تقول : اليوم لا تحلب لنا منائح دارنا ! فقال : بلى لعمري لأحلبنها لكم . فكان يحلبها وربما سأل صاحبها يا جارية أتجيبين أن أرغى لك أم أصرح ؟ فربما قالت : أرغ وربما قالت : صرح فأى ذلك قالته فعل ..

وكان عمر بن الخطاب في خلافة أبي بكر يتعهد امرأة عمية بالمدينة ويقوم بأمورها ، فكان اذا جاءها ألفاها قد قضيت حاجتها .. فترصد عمر يوما فاذا أبو بكر هو الذى يكفيها مئوتتها لا تشغله عن ذلك الخلافة وتبعاتها عندئذ صاح عمر حين رآه : أنت هو لعمرى ..

فاذا ما انتقلنا الى عهد الفاروق عمر وجدنا صورة مضيئة لمبادئ الاسلام ، ورأينا خليفة فهم ان الأمر تكليف شاق لا منحة يستزيد بها من ملذات الحياة ، لذلك قال في أول خطبة له : « أيها الناس ما أنا الا رجل منكم ولولا أننى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم » وفى خطبته الثانية قال : « ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها : لكم على ألا أجتبى شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم الا من وجهه .. ولكم على اذا وقع فى يدي ألا يخرج منها الا فى حقه . ولكم على ألا أبغضكم فى المهالك ولا أجمركم فى ثغوركم <sup>(٤٨)</sup> وان غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال » ..

وكان يشتد على نفسه ويتخرج حتى مما يراه الناس حلالا .. اشتكى يوما فوصف له العسل وفى بيت المال عكة منه فلما كان على المنبر قال : ان أذنتم لى فيها والا فانها حرام .. فأذنوا له ..

وهو الذى فهم أنه لن يشعر بشعور الرعية الا اذا عاش حياتها ، ففى عام الرمادة آلى على نفسه ألا يذوق سمنا ولا لحما حتى يجيا الناس وظل على ذلك حتى اسود جلده وبسر من أكل الزيت ، ثم جاءت السوق عكة من سمن ووطب من لبن فاشترهما غلام له بأربعين درهما .. وذهب اليه ينبئه أن الله أحله من يمينه وأنه قد قدمت السوق عكة من سمن

(٤٨) لا أجمركم فى ثغوركم : أى لا أحبسكم فى ارض العدو فلا أرجعكم الى اهلكم .

ووطب من لبن (٤٩) وقد اشتراها له ، فلما علم الثمن قال له : أغليت  
فتصدق بهما فاني أكره أن آكل اسرافا .. وأطرق هنيهة ثم قال : كيف  
يعينني شأن الرعية اذا لم يمسنى ما يمسه ..

وهذه صورة من صور العدالة حققها عمر الذي تربى على منهج  
القرآن : اذ يروى أنه ساوم رجلا على فرس ثم ركب ليخرجه فعطب فأراد  
أن يرده الى صاحبه فأبى فتحاكما الى شريح القاضي فسمع حجة كل منهما  
ثم قال : يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت .. فقال عمر ..  
وهل القضاء الا هكذا ؟ ثم أقام شريحا على قضاء الكوفة جزاء ما قضى  
بالحق والعدل ..

ولم يكن عمر ليحابي أحدا على حساب دينه لقراءة أو منزلة ..  
لهذا أقام الحد على ابنه عبد الرحمن لأنه تناول الخمر واقتص من ابن  
عمرو بن العاص لأنه ضرب المصرى ، وكاد أن يصل السوط الى عمرو  
نفسه لأن ابنه فعل ما فعل اعتمادا على جاه أبيه .. وهو الذى خطب  
الناس فقال : انى لم استعمل عليكم عمالى ليضربوا أبشاركم وليشتموا  
أعراضكم ويأخذوا أموالكم ، ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم  
وسنة نبيكم فمن ظلمه عامل بسظمة فلا اذن له على ليرفعها الى حتى  
أقصه منه ..

وهذا الشعور هو الذى أملى عليه أن يحرم ابنه من الخلافة بعده  
وله من المنزلة العالية ما لا يخفى على أحد ، وقال قولته المشهورة : لا أرب  
لنا فى أموركم .. وما حسدتها فأرغب فيها لأحد من بيتي ان كان خيرا  
فقد أصبنا منه وان كان شرا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل  
واحد ..

(٤٩) العكة : « بضم العين » آنية السمن أصغر من القربة .

والوطب : سقاء اللبن .

وجاء عثمان بن عفان وكان شيخا كبيرا فتولى الأمر من دونه بنو أمية وتغيرت المعاني النبيلة التي أقرها واقع الاسلام في عهد أبي بكر وعمر .. وما ان جاء علي بن أبي طالب حتى أخذ نفسه بالحزم ليرد الأمر الى نصابه فلم يأكل الا الشعير تطحنه له زوجته بيديها ويختم على جراب الشعير ويقول : لا أحب أن يدخل بطني الا ما أعلم .. وكره أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة مؤثرا عليه الخصاص التي يسكنها الفقراء ، وضرب أروع مثل في الزهد والتعفف .. روى عن النضر بن منصور ابن علقمة قال : دخلت على علي عليه السلام فاذا بين يديه لبن حامض أذنتي حموضته وكسر يابسة فقلت : يا أمير المؤمنين أأأكل مثل هذا؟ فقال يا أبا الجنوب : كان رسول الله يأكل أبيض من هذا ويلبس أخشن من هذا وأشار الى ثيابه فان لم آخذ بما آخذ خفت ألا ألحقبه .. وروى عن هارون ابن عنترة عن أبيه قال : « دخلت على علي بالخورق — وهو فصل شتاء — وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه .. فقلت : يا أمير المؤمنين ان الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيبا وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ فقال والله ما أرزؤكم شيئا وما هي الا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة» .

وكان من حقه أن يستمتع بالطيبات لكنه أراد أن يضرب المثل من نفسه للأفق العالي والزهد العظيم ، وهو الذي علم أن الحاكم لا يتميز على أحد ، فهو فرد من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم يعطى الحق من نفسه لا يحول بين ذلك اختلاف دين أو علو منزلة .. وجد درعه عند رجل نصراني فأقبل به الى شريح قاضيه يخاضه مخاضة رجل من عامة رعاياه وقال : انها درعي ولم أبع ولم أهب .. فسأل شريح النصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال النصراني : ما الدرع الا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب .. فالتفت شريح الى علي يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة فضحك علي وقال : أصاب شريح — مالى بينة قضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر

اليه الا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد  
 أن هذه أحكام أنبياء — أمير المؤمنين يدبني الى قاضيه فيحكم عليه ..  
 أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .. الدرع — والله  
 — درعك يا أمير المؤمنين اتبعت الجيش وأنت منطلق الى صفين فخرجت  
 من بعيرك الأورق فقال علي : « أما اذا أسلمت فهي لك » (٥٠) ..

ووضع نصب عينيه أن يعيد للحكم الاسلامي جلال العدل وعظمة  
 المبادئ التي تحكم المجتمع فقال عقب بيعته : أيها الناس انما أنا رجل  
 منكم لى مالكم وعلى ما عليكم واني حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ  
 فيكم ما أمرت به .. ألا ان كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من  
 مال الله فهو مردود في بيت المال فان الحق لا يطله شيء ولو وجدته تزوج  
 به النساء وملك به الاماء وفرق في البلدان لرددته .. ان في العدل  
 سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق ..

ولم يصل الى غايته فقد عاجلته يد الغدر وقتل على باب المسجد  
 بيد عبد الرحمن بن ملجم ، وتفرد معاوية بالحكم فجعله ملكا عضوا  
 توارثه بنمو أمية فأنحرفوا عن مبادئ الاسلام — الا أنه من حقنا ونحن  
 نرى واقع التطبيق لنظرية القرآن في نظام الحكم أن نقف عند خامس  
 الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز وارث الخلافة عن سليمان بن عبد الملك  
 وبرغم أنه من بيت الملك : أبوه عبد العزيز بن مروان وزوجه فاطمة  
 بنت عبد الملك بن مروان وله من الثراء الواسع الشيء الكثير فانه ما كاد  
 يتولى الخلافة حتى أعاد لمبادئ الاسلام في الحكم رونقها وبهاءها ، فبدأ  
 برد الأمر للأمة تختار من تراه أهلا لهذا المنصب الجليل اذ قال للناس :  
 أيها الناس اني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان مني فيه ولا طلبته

له ولا مشورة من المسلمين ، واني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي  
فاختاروا لأنفسكم .. فصاح الناس : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا  
بك فل الأمر باليمن والبركة .. وخطب الناس فقال : أيها الناس انه قد  
كان قبلي ولاية تجترون مودتهم بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ألا لا طاعة  
لمخلوق في معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله  
فلا طاعة له .. أطيعوني ما أطعت الله فيكم فاذا عصيت الله فلا طاعة لى  
عليكم ..

وبدا حكمه يرد المظالم فبدأ بنفسه وقال : انه لينبغى ألا أبدا بأول  
من نفسى .. فنظر الى ما فى يديه من أرض أو متاع فخرج منه حتى نظر  
الى فص خاتم كان فى يده فقال : هذا أعطانيه الوليد من غير حق مما جاء  
من أرض المغرب فردده .. وخرج مما كان فى يده من القطائع وكان فى  
يده قطائع باليمامة والمكيدس وجبل الورد باليمن وفدك فخرج من ذلك  
كله ورده الى المسلمين الا أنه ترك عينا بالسويداء وكان استنبطها بعطائه  
فكانت تأتية غلتها كل سنة مائة وخمسون دينارا أو أقل من ذلك أو أكثر .

ثم ثنى بزوجه فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وكان عندها جواهر  
أمر لها بها أبوها لم ير مثلها ، فقال لها اختارى اما أن تردى حليك الى  
بيت المال واما أن تأذن لى فى فراقك فانى أكره أن أكون أنا وهو فى بيت  
واحد ، قالت : لا .. بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لى  
كان لى ، فأمر به فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين ، فلما مات عمر  
واستخلف يزيد بن عبد الملك قال لأخته فاطمة : ان شئت رددته عليك  
قالت : فانى لا أشاؤه ، طبت عنه نفسا فى حياة عمر وأرجع فيه بعد موته  
لا والله أبدا . فلما رأى ذلك قسمه بين أهله وولده ..

وحمل بنى مروان على رد ما فى أيديهم .. » وتتابع الناس فى رفع المظالم اليه فما رفعت اليه مظلمة الا ردها سواء كانت فى يده أو فى يد غيره حتى أخذ أموال بنى مروان وغيرهم مما صار اليهم ظلماً ، وكان يرد للمظالم الى أهلها بغير البيئة القاطعة وكان يكتفى باليسير فاذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البيئة لما يعرف من ظلم الولاية قبله للناس وقد ذكروا أنه أنفذ بيت مال العراق فى رد المظالم حتى حمل اليها من الشام (٥١) .

هذه مجرد أمثلة من واقع المجتمع الذى صنعه القرآن تتبين منها بجلاء - على قلة ما ذكرناه منها - بأن هذا الدين فى نظام الحكم - كسائر تشريعاته - لم يكن كلاماً يقال أو فلسفة نظرية ليس لها من الواقع نصيب ، انما كان منهج حياة يسير عليه الحاكم والمحكوم مدفوعاً بالروح التى سرت فى أوصال هذا المجتمع ، فاذا به خلق جديد لا يحتاج الى قوة القانون وسياسة الشدة وسلطان الجند انما ينفذ هذا القرآن فى خلوته وجلوته ايماناً منه باله عظيم يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ..

ومع ذلك ففقه الجند وسلطان الحكم والقانون الالهى الذى يحدد خطوات الطريق كل ذلك موجود يرد لكل صاحب حق حقه ويفرض على الراعى والرعية نفسه فيتحاكم اليه الجميع عن رضا واقتناع ، لأن ذلك عنوان الايمان .. قال تعالى :

« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيْٓ أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » (٥٢)

(٥١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٥٢) سورة النساء ٦٥/٤ .



### نظام الهى فريد :

نظام الحكم كما أوضحه القرآن وطبقه المسلمون يتلخص فى أن أمر التشريع كله لله وحده وما الحاكم الا منفذ وحارس لهذه الشريعة وليس له امتياز على سائر الناس فى أى شأن الا أنه أثقل الأمة حملا ، والحكم الاسلامى قائم على العدل والشورى وطاعة المحكومين لحاكم ملتزم بوحى الله ، لم يأمر بمعصية ولم يتعد حدود الله ، فهل فى النظم التى عرفتھا البشرية ما يشابه هذا النظام ؟

وهنا نبادر الى القول بأننا لا نتلمس لنظام الحكم فى منهج القرآن عنوانا نضعه تحت لوائه .. فحسب نظامنا أنه من صنع الله وحده وما عداه من صياغة البشر وأفكارهم ، والفرق بين هذا وذاك كالفرق بين الخالق والمخلوق والعابد والمعبود ..

لقد عرفت البشرية فى نظم الحكم : النظام الديكتاتورى ، وهو الذى يستبد فيه الحاكم برأيه ويفرض على شعبه ما يميله هواه دون محاسب أو رقيب ، والحكم الاسلامى بعيد عن هذا الظلم ، لأنه يفرض على حاكم المسلمين المشاورة والعدالة بما تشمله من مساواة فى الحقوق والواجبات العامة . صحيح أن بعض الحكام المسلمين قد تجاوز حده واستبد بالسلطة حتى أعطى لأعداء الله برهانا يرمون به نظام الاسلام فى الحكم ومن هؤلاء الأعداء موير ، فى كتابه « الخلافة » اذ يقول : المثال والنموذج للحكم الاسلامى هو الحاكم المستبد المطلق .. ومنهم « ماكديونالد » الذى يقول : انه يمكن أن يقال ان مبدأ الحكومة الاثوقراطية أى الاستبدادية قد ظل مسلما به لا يجادل فيه فى الأقطار الاسلامية حتى القرن التاسع عشر ، وذلك حين وصلت الموجة التى صدرت عن الثورة الفرنسية عن طريق تركية الى المنطقة الحارة .. ثم يقرر أن ملائمة « المنطقة الحارة للمبادئ الدستورية موضع شك » (٥٣) ..

وما ذكره هؤلاء لا يحتاج الى مناقشة اذ ماصلة المناطق الحارة بالمبادئ الدستورية وما ذنب الاسلام اذا انحرف بعض الحكام المنتسبين اليه ؟ وهل المنهج القرآني يتحمل تبعة ظلم هؤلاء الحكام وخروجهم عن قواعد الحكم الاسلامي الصحيح ؟

كما عرفت البشرية الحكم الوراثي ملكيا أو غيره ، وليس في الاسلام توارث للحكم انما الأمر شورى بين المسلمين يختارون من يروونه أهلا لذلك لا يحول بينه وبين الخلافة حائل من نسب أو لون أو جنس ..

ولعل في وفاة الرسول من غير عقب ذكر حكمة الهية سامية • ففي هذا اشارة الى عدم موافقة النظام الملكي للاسلام ، فان أغلب الظن أنه لو ترك الرسول ابنا لاختاره المسلمون رئيسا للدولة بعد أبيه صلى الله عليه وسلم ثم اختاروا من بعد هذا الابن ابنه وهكذا (٥٤) ..

وعرف الناس - أيضا - النظام « الشيوقراطي » : وهو ذلك النظام الذي يدعى فيه الحاكم أنه يستمد سلطانه من الله وليس عليه من شعبه رقيب ، وبذلك يفرض ما شاء من أحكام ويسن ما أراد من قوانين دون نقاش أو حساب ، يقول لويس الرابع عشر ملك فرنسا : « ان سلطة الملوك مستمدة من تفويض الخالق فانه مصدرها وليس الشعب وهم مسئولون أمام الله وحده عن كيفية استخدامها (٥٥) » ..

ومن بعده أصدر لويس الخامس عشر سنة ١٧٧٠ قانونا جاء في مقدمته : « اتا لم تتلق التاج الا من الله فسلطة سن القوانين من اختصاصنا وحدنا لا يشاركنا في ذلك أحد ولا نخضع في عملنا لأحد (٥٦) » ..

(٥٤) نظام الحكم الاسلامي د . محمد يوسف موسى ص ١٤١ .

(٥٥) نظام الحكم الاسلامي د . محمد يوسف موسى ص ١٤١ .

(٥٦) المرجع السابق ص ٢٥٣ .

وفي هذا النظام أيضا يكون رجال الدين طبقة تتولى التشريع على حسب ما تقتضيه شهوات أنفسهم ثم ينفذونها في البلاد مدعين أنها من عند الله ، ومثل هذا النظام بعيد عن ساحة الاسلام فليس لأحد في نظام الحكم الاسلامي حق التشريع أو الانفراد بالسلطة ، انما ذلك كله لله وحده وما البشر الا منفذون لأوامر الله ..

يقول عفيف طيارة : « ان الحاكم في الحكومة الشيوقراطية يستمد سلطاته من الله وترجع جذور الشيوقراطية الى الأفكار الدينية القديمة ، حيث كان رجال الدين والملوك يدعون لأنفسهم بأن سياستهم مستمدة من الله فيشرعون للناس قانونا من أنفسهم على حسب ما شاءت أهواؤهم . وتبنت المسيحية ذلك لأنه لم يكن فيها شيء من التشريع الا مواعظ خلقية مأثورة عن المسيح ، أما الدولة الالهية الاسلامية فتشتمل على التشريع المدني والديني الذي جاء به القرآن والذي لا يستبد به طبقة من رجال الدين ، بل يقوم على تنفيذ الشعب ولأهل الحل والعقد الحق في عزل الخليفة ولا يملك أحد عزل البابا - والبابا بيده النقض والابرار والغفران والحرمان والخليفة ليس بيده شيء من ذلك ولا يخصه الدين في فهم القرآن والعلم بالأحكام بمزية ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء انما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الاصابة في الحكم (٥٧) » ..

وربما اشتبه على بعض الناس أن نظام الاسلام نظام ديمقراطي ، وذلك لأن الشعب يحكم نفسه بنفسه في النظام الديمقراطي وذلك قريب من الاسلام في فرضه رقابة الأمة على حاكمها ، وجعل الأمور شوري بين المسلمين وتحقيق العدالة للجميع .. لكن النظرة الفاحصة ترينا أن الاسلام غير ذلك أيضا فجميع ما تؤمن به الأمة من فضائل وما تسير عليه

في علاقات أفرادها وما تدّين به في تعاملها مع غيرها مصدرة هدى الله وسنة رسوله لا الشعب ولا أية سلطة أخرى ، وإنما تفرض إرادة الشعب نفسها إذا سارت منهج القرآن ولم تخرج عنه ..

وفي النظم الديمقراطية يحدد لرئيس الدولة مدة يتولى فيها الرئاسة وبعدها يتولى غيره أو يعاد انتخابه إذا كان دستور دولته يجيز ذلك أما في نظام الاسلام فإن للحاكم أن يبقى في منصبه مادام صالحا له مؤديه واجباته ..

يقول أبو الأعلى المودودي : « الديمقراطية عبارة عن منهاج للحكم تكون السلطة فيه للشعب جميعا فلا تغير فيه القوانين الا برأى الجمهور ولا تسن الا على حسب ما توحى اليه عقولهم فلا يتغير فيه من القانون الا ما ارتضته أنفسهم وكل ما لم تسغه عقولهم يضرب به عرض الحائط ويخرج من الدستور وهذه الديمقراطية الغربية الموهة التي يتشدقون بها وبأن فيها حاكمية أو سيادة شعبية اذا سبرت غورها وأنعمت النظر في دخالها علمت أن الذين تتكون منهم لا يسن كلهم القوانين ولا ينفذونها جميعا ، بل يضطرون الى تفويض سلطانهم الى رجال يختارونهم من بينهم ليشرعوا قوانين ينفذونها ولأجل هذا الغرض يضعون نظاما للانتخاب خاصا ولا ينجح فيه الا من يغرى الناس ويستولى على عقولهم وألبابهم بماله وعلمه ودعائه ودعايته الكاذبة ، ثم ينفذون ذلك القانون الجائر على العامة بتلك القوة نفسها التي خولتهم اياها العامة ثم يصبح هؤلاء الناجحون بأصوات العامة آلهة لهم يشرعون ما يشاءون من القوانين لا لمصالح الجمهور ، بل لمنافعهم الشخصية ومصالح طبقاتهم المخصوصة التي ينتمون اليها فهذا هو الداء العضال الذي أصيبت به أمريكا وانجلترا وسائر البلاد التي تدعى اليوم بأنها جنة للديمقراطية ومأوى لها ، وبقطع النظر عن هاتيك المفاسد ان سلمنا أن القوانين تشرع في تلك البلاد عن رضا

« العامة فقد أثبتت لنا التجارب بأن العامة لا يستطيعون أن يعرفوا مصالحهم فان البشر قد خلقهم الله على ضعف فطرى كامن فى نفوسهم فيرون فى أكثر أمور الحياة بعض جانب من الحقيقة ولا يرون بعضها الآخر ولا يكون حكمهم مرتكزا على نقطة العدل عموما وهم فى الغالب يكونون مغلوين على أمرهم من العواطف والميول فيرفضونها لأجل غلبة العواطف والشهوات على أنفسهم (٥٨) » •

واذن فنظام الحكم فى منهج القرآن ليس له شبيه أو مثيل ، انما هو نظام الهى فريد فى نوعه « فهو النظام الاسلامى وكفى ، النظام الذى غايته حفظ الدين وحراسته وسياسة أمور الأمة بحسب شريعة الله ورسوله وذلك ليصل بأبناء العروبة والاسلام ، بل بالناس جميعا الى خيرى الدنيا والآخرة معا ، ويقوم فيما يقوم عليه على الشورى والعدالة وضمان الحرية والحقوق لكل من أبنائه ولغيرهم ممن يقيمون بدار الاسلام ، ويحرس المجتمع والأمة من الظلم والبغى والعدوان ، ويكفل للجميع الحياة العزيزة الكريمة المجيدة (٥٩) » ••

•• وبعد

فتلك لبنات فى البناء الاجتماعى وليست كل اللبنة •• لبنات قوية اخترناها فسلطنا عليها الأضواء فتبينت لنا قوة هذا البناء الذى شاده منهج القرآن على العقيدة والأخلاق ، فاذا بنظام الأسرة خلية نابضة بالحياة والمودة واذا بالمجتمع المسلم يسوده الاخاء والتعاون ويتكاتف أفراده فى سبيل حياة أفضل •• واذا بهذا المجتمع فى معاملاته

(٥٨) نظرية الاسلام السياسية لآبى الاعلى المودودى ص ٢٩ ، ٣٣ ،

(٥٩) نظام الحكم فى الاسلام د. محمد يوسف موسى ص ١٤٥ .

على خير ما تطلبه الانسانية من حسن المعاملة ونزاهة الضمير ، واذا الحرية والمساواة شعار تحس به القلوب وتعشقه النفوس فتترجمه واقعا ملموسا .. واذا بهذا المجتمع يسير على منهج واضح في نظام الحكم فلا يحيف حاكم على محكوم ولا يتخلف محكوم عن نصره حاكم وطاقته ، واذا به بناء من طراز جديد لم تشهد له الانسانية مثيلا في متانة بنائه وجمال صنعه وتكوينه .. وحسبنا أن تملينا هذا الجمال ودقة الصنع في بعض جوانب هذا الصرح الشامخ .. أما الجوانب كلها بما فيها من روعة واتقان ، وأما سائر اللبانات بما لها من متانة واحكام فهذا ما ليس في وسع أحد أو طاقته أن يحيط به . ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ..

## الباب الرابع

### تنظيم القرآن لعلاقة المجتمع الاسلامي بالمجتمعات الأخرى

الفصل الأول : العلاقات الدولية في القرآن

الفصل الثاني : القرآن وأهل الكتاب

الفصل الثالث : القرآن وأهل الشرك





## الفصل الأول

### العلاقات الدولية في القرآن

- ١ - كيان دولي لأمة القرآن.
- ٢ - الجهاد في سبيل الله.
- ٣ - علاقة حرب أم علاقة سلام؟
- ٤ - الجزية والخراج.
- ٥ - المعاهدات.
- ٦ - الوفاء بالعهود في العلاقات الدولية.
- ٧ - الاسلام دين السلام.



## العلاقات الدولية في القرآن

### ١ - كيان دولي لأمة القرآن :

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هذا العالم وحده يحمل بين يديه نورا وكتابا مبينا ، ولم تكن مهمته سهلة لأنها مهمة التغيير العالمى فى الأفكار والمشاعر والعادات والتقاليد ونظم الحكم والسياسة حتى يتحقق الهدف من رسالته ..

يقول تعالى :

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً  
الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى  
وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُوْمِنُ بِاللَّهِ  
وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (١)

ومع ضخامة هذه الرسالة كانت ضخامة التوضيحات والمسئوليات .  
وهل يستطيع فرد أن يحول الناس جميعا من الضلالة الى الهداية  
ومن الشقاء الى السعادة .. ومن الكفر الى الايمان الا أن يكون  
نموذجا فريدا وطرزا عظيما فى بذله وتوضيحته ؟!

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال الحق فيه :

« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » (٢)

(١) سورة الاعراف ١٥٨/٧ .

(٢) سورة القلم ٤/٦٨ .

ولهذا تحمل من يوم أن جهر بدعوته صنوفا من الاضطهاد وألوانا من المطاردة ، وهو ما يفتأ ينادى قومه للإيمان ويرشدهم الى طريق الله وتبعته ثلة مؤمنة - أيضا - طاردها قوة الكفر وجبروت الاستعلاء حتى اضطروا الى الهجرة الى الحبشة مرتين .. وعلى نار تلك المحن التى ابتليت بها الصفوة المؤمنة ربي رسول الاسلام رجالا عمر الايمان قلوبهم وحررهم من ذات أنفسهم فصبروا على الايذاء وتقبلوا هذا الألم بصبر مشرق بالأمل والثبات واليقين ..

ولما لم يجد مع الرسول والمؤمنين به ما أنزله الكافرون بهم أرادوا أن يطفئوا نور الله ويقتلوا الرسول العظيم والنبي الطاهر .. الا أن الأمر كانت تدبره يد القدرة الالهية ..

كما قال سبحانه :

« وَيَمَكُرُون وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ » (٣)

وفات المتآمرين أن أشعة القرآن قد اخترقت الحواجز والحدود، وأصبح للمسلمين بعد بيعة العقبة الكبرى ييثرب أهل ودار ..

وخرج الرسول وأصحابه الى اخوانهم الأنصار مهاجرين الى الله بدينهم ، فأصبح لهم بالهجرة هيكل اجتماعي ووجود دولي .. « وصارت لهم بها وحدة لها شعارها الخاص ونظامها الخاص وهدفها الخاص وقيادتها الخاصة .. صار لهم بها جوار غير الجوار الأول عقدوا معه معاهدة الأمن وعدم الاعتداء .. وبهذا وذاك كملت لهم عناصر الوجود الدولي فيما بينهم بعضهم مع بعض بتشريعاتهم الداخلية وفما بينهم وبين غيرهم بتشريعاتهم الخارجية (٤) » ..

(٣) سورة الأنفال ٣٠/٨ .

(٤) الاسلام والوجود الدولي للمسلمين للشيخ محمود شلتوت .

وهذا الكيان الدولي ألقى ثقله في مجرى الأحداث العالمية فغيرها وبيدها ، بل غير خريطة العالم فزالت ممالك وسقطت عروش ودالت دول أمام زحف أمة القرآن ، وما كان لمثل هذا الوجود الاسلامي أن ينجح هذا النجاح وأن يحوز قصب السبق في مضمار الدعوة الى الله الا لأنه امتلك مقومات الوجود الدولي : سياسية وتشريعية فكرية وتطبيقية ، وكان له من وضوح الرؤية ما أصاب به الهدف .. والأمة التي تشمل فيها هذا الكيان تقوم في بنائها الاجتماعي على الأخوة الرحيمة في الله والصلة الوثيقة بالخالق العظيم ، والتخلق بالصفات الكريمة والفضائل العالية ، والمساواة ، والحرية ، والعدالة لكل البشر ، ومع كل الناس والتزام كل فرد فيها وحى السماء : فلا يجوز حاكم ولا يهمل محكوم . وبهذا الاعتزاز الكامل بمبادئ القرآن تحولت الأمة الى طاقة جبارة استمدت خلودها وبقاءها وكيانها من الطاقة الهائلة التي يحملها كتاب الله ، وبها يحول مجرى الحياة - دائما - الى طريق الله وحده .. ونبت هذا الكيان غضا طريا ، فتما وعظم كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار .. قال صاحب الكشاف : « وهذا مثل ضربه الله لبدء الاسلام وترقيه في الزيادة الى أن قوى واستحكم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قام وحده ثم قواه الله بمن معه كما يقوى الطبقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها » (٥) .. والقرآن يصور هذا الكيان كيف اشتد أزره وقوى ساعده فيقول :

« وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ إِنْ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٦)

(٥) الفتوحات الالهية للعلامة الجمل ج ٤ ص ١٧٢ .

(٦) سورة الانفال ٢٦/٨ .

فقد كانوا قلة مستضعفة مهددة بالضياع لكنها قويت بالايمان واشتدت بالاسلام وتربت على منهاج الله فأواهم الله وأييدهم بنصره وحقق لهم وعد الله لعباده المؤمنين ..

حيث قال :

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا » (٧)

يقول العلامة أبو السعود في بيان هذا الأمان : « كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بعشر سنين بل أكثر خائفين ، ثم هاجروا الى المدينة وكانوا يصبحون في السلاح ، ويمسون كذلك حتى قال رجل منهم : ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لا تعبرون الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في المأى العظيم محتيا ليس معه حديدة فأنزل الله عز وجل هذه الآية وأنجز وعده وأظهرهم على جزيرة العرب ، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب ، وصاروا الى حال يخافهم كل من عداهم » (٨) ..

وجاء فتح مكة تنويجا لهذا الأمان وبفتوحها سقط أكبر معقل للوثنية فدخل الناس بعدها في دين الله أفواجا وتحقق بذلك وجود متكامل وكيان دولي لأمة القرآن .. وان كان هذا الوجود قد أخذ مكاتته الدولية بعد عهد الحديبية وحين أرسل صلى الله عليه وسلم الى ملوك الأرض يدعوهم

(٧) سورة النور ٥٥/٢٤ .

(٨) تفسير أبى السعود : ارشاد العقل السليم ج ٤ ص ٧١ .

الى الاسلام ويحملهم مسئولية أمهم التي حجبوا عنها ضياء الدين الحق فأحس العالم روحا تتحرك في كيان جديد ليأخذ وضعه العالمى بل ليؤسس أسرة عالمية تتعالى على روابط الأرض والجنس ، وتؤلف أمة على فكرة الايمان بالله وما يفرضه هذا الايمان على اتباعه من سلوك تجاه البشر جميعا ويحقق بذلك حلم الفلاسفة في قيام النظام العالمى الذى يحمى مبادئ الخير والحب والسلام ..

## ٢ - الجهاد في سبيل الله :

هل ترك المسلمون يبلغون رسالة الله ؟؟

لو كانت رسالتهم دعوة الى الرهينة والنسك لهان أمرها ولما كان لها أدنى خطر .. لكنها رسالة الاصلاح العقلى والاجتماعى ورسالة التحرير الكامل للبشر من المذلة والهوان والاستعباد لغير الله .. ولا بد لهذه الرسالة بحكم هدفها أن تصطدم بقوى الكفر وأن تتسلح لها بما يكسر هذه القوة ويفل من حدها ويجبرها على التسليم المطلق حتى ينفتح الطريق أمام الشعوب فترى اشراقة الحق وضياء التوحيد ونور الحرية والعدل ..

ولهذا لم يترك المسلمون يبلغون رسالة الله ، وما كان للطاغوت أن يتركهم يحطمون قيده وينزلونه عن عرش الألوهية والسيطرة والاستعلاء ، فأنزل بهم ما يشهد به التاريخ من ألوان العنت والتضييق محاولا اخماد هذه الشعلة ، ولكن هيهات ..

ومنهج القرآن في تحديد علاقة المجتمع المسلم بغيره يقابل كل مرحلة بما يناسبها ويتدرج مع أطوار الدعوة فيلزم المؤمنين في كل مرحلة بسلوك خاص تجاه المعتدين الى أن استقر الأمر وأصبح الدين كله لله : فهو يأمر بالصفح والصبر على الايذاء في فترة طال أمدتها في مكة وكان كلما

جاء واحد من أصحاب الرسول - عليه السلام - شاكياً متأثراً على قوة الباطل يود أن يأذن له الرسول في قتال الأعداء يقول : اصبروا فاني لم أؤمر بقتال .. الى أن حررهم من أنفسهم ونزع منها عنجهية العرب وتعظمها وكبرها ، وأصبح الفرد المسلم لا يثور لضر نزل بيده انما يثور لما يصيب دينه واسلامه .. وما ان تمت الهجرة وأصبح للمسلمين مجتمع ذو قيادة حتى أذن الله لهم بالقتال ..

فقال تعالى :

« أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ \* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوْمِعُ وَبَيْعُ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ \* الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » (٩)

وهو اذن من الله عن علم بما تحمله المؤمنون من ظلم ، وقرار لحقيقة هامة في باب الجهاد هي أن القوة لا تسكنها الا القوة .. وما يجدى البلاغ والانذار مع قوم يصدون عن سبيل الله ويقفون في طريقه ؟



انه لو ترك المفسدون في الأرض ينفذون خطتهم لهدمت أماكن  
العبادة ولضاعت مبادئ الحق ولكنها سنة الله في خلقه ..  
قال تعالى :

« وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ  
الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » (١٠)

فهو يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق .. وتستقر  
تعاليم السماء على أرض الله متمثلة في المجتمع المسلم حامل هذه التعاليم  
اقامة شعائر العبادة في الصلاة وتكافل المجتمع وتسانده بالزكاة ، وحمايته  
من الانحراف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واندفاعه الى كل ذلك  
خوفا من الله وحده الذي له عاقبة الأمور .. وهذا الاذن بالدفاع عن  
دينهم ووجودهم أعقبه أمر بقتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقل  
لهم :

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا  
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » (١١)

ولما تألبت عليهم الجزيرة العربية واتضح أن الكفر لا يلقي سلاحه  
ألا بالهجوم المسلح وازالة الطواغيت من طريق النور أمرهم الله بقتال  
المشركين كافة فقال :

« وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » (١٢)

(١٠) سورة البقرة ٢٥١/٢ .

(١١) سورة البقرة ١٩٠/٢ .

(١٢) سورة التوبة ٣٦/٩ .

وقال :

« قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ  
وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ  
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن  
يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » (١٣)

« فاستقر أمر الكفار مع الرسول بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام :  
محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة ، ثم آلت حال أهل العهد والصلح  
الى الاسلام فصاروا معه الى قسمين : محاربين ، وأهل ذمة ، والمحاربون  
له خائفون منه فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ،  
ومسلم له آمن وخائف محارب .. فكان القتال محرما ، ثم مآذونا فيه ،  
ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأمورا به لجميع المشركين (١٤) » ..

وليس هذا نسخا .. فما في آيات الجهاد نسخ انما هي مراحل  
صالحة للتطبيق تفاعل بها المنهج القرآنى مع الظروف المحيطة به ولبنى  
حاجات المجتمع الناشئ في تحديد علاقته بغيره .. وبقي الهدف  
الذى يسعى اليه الجهاد نبراسا مضيئا ، فهو ليس جهادا للمغنم أو  
الاستمتاع بمتع الحياة ، وليس تحكما وتسليطا على خلق الله وفرض  
عقيدة الاسلام على الأمم ، انما هدفه لله وفي سبيله وهى غاية نبيلة مبرأة  
من الأطماع والأهواء .. غايته فتح الطريق أمام الشعوب وازالة طواغيت

(١٣) سورة التوبة ٢٩/٩ .

(١٤) زاد المعاد : لابن القيم في الفصل الذى عقده باسم : فصل في  
ترتيب هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث الى حين لقي الله عز وجل  
ج ٢ ص ٨١ .

الأرض ، ومن فرضوا ألوهيتهم على البشر .. فهو حرب للحكومات الظلمة والملوك الفاسدة ، لا حرب للأمم والأفراد اذ لا يعترف الاسلام بايمان المكره ، لأن الايمان اقتناع وكيف يقتنع مضطر ؟ ..

قال تعالى :

« لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (١٥)

وقال تعالى :

« وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا » (١٦)

وقال تعالى :

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » (١٧)

وفرق بين فرض الاسلام على عقول الناس وقلوبهم واسقاط معاقل الظلم التي تحصى الفساد .. فالاسلام لا يفرض على أحد دون اقتناع . واسقاط معاقل الظلم فرض يؤديه حملة الرسالة الالهية للانسانية حتى ترتوى من نبع القرآن المصفى ..

• (١٥) سورة البقرة ٢٥٦/٢

• (١٦) سورة الكهف ٢٩/١٨

• (١٧) سورة يونس ٩٩/١٠

وهذا ما فهمه المسلمون المجاهدون الذين أسعدوا العالم بالاسلام  
وبذلوا أرواحهم وأموالهم وأولادهم في سبيل الله ، لم يقل واحد منهم  
أنا أدافع عن وطن أو قوم ، انما قال أنا أدافع عن فكرة .. عن عقيدة  
عن مبادئ الرحمة ، وهذه لا وطن لها الا القلوب المفتحة ، ولا يختص  
بها العرب وحدهم ولا الفرس أو الروم أو غير هؤلاء وأولئك ، انما هي  
للأخوة الجامعة التي تربط بين القلوب في أنحاء الأرض ..  
« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. » (١٨)

فهم اخوة مهما تباعدت ديارهم وتناعت مسافاتهم ، وهم شركاء  
في حمل راية الجهاد والانطلاق بها الى حيث شاء الله أن تصل ..

وشعار المجاهدين كما أوضحه ثلاثة من أصحاب رسول الله هم :  
ربيع بن عامر ، وحذيفة بن محصن ، والمغيرة بن شعبة ، وقد أرسل  
اليهم رستم قائد جيوش الفرس في القادسية وسألهم الواحد تلو الآخر  
ما الذي جاء بكم ؟ فكان جوابهم : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة  
العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور  
الأديان الى عدل الاسلام ، وأرسل رسوله بدينه الى خلقه فمن قبله منا  
قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه ، ومن أبى قاتلناه حتى نفى الى  
الجنة أو الظفر (١٩) » ..

والذين يحاولون اليوم أن يقيسوا هذا الجهاد المطهر بحروب  
اليوم يقومون في خطأ عنيف ، فان الجهاد الاسلامي له بواعث ودواعيه  
المنبثقة عن فكرة شاملة عن الكون والحياة وعن الفهم لمدى ما يجب على

(١٨) سورة الحجرات ١٠/٤٩ .

(١٩) تاريخ الفتح الاسلامي في عهد الرسول عليه السلام وعصر الخلفاء  
للراشدين وبنى أمية للأستاذ / محمد فخر الدين ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

الانسان المسلم تجاه اخوانه في الانسانية ، وحروب اليوم استغلال  
لشعوب ونهب لخيراتهم أو دفاع عن فكرة اقليمية محدودة بالأرض  
والقوم .. فاذا كنا نحاول أن نجعل الاسلام في حروبه وقتاله في أنحاء  
الأرض دين الدفاع لننفي عنه أنه قام بالسيف وانتشر على الأسنة فهذه  
خطورة على المنهج القرآني نفسه ، وبها يصل العدو الخبيث الى مبتغاه  
من صرف الناس عن فسادهم وضلاله وكيف استشرى في كل مكان ،  
وجعل بلاد الله نهبا مباحا يأخذ خيراتها ويستذل أبناءها ويفرض عليهم  
الفاقة والحرمان .. وما تقتيل الأبرياء والشيوخ والعجزة وتدمير الحرث  
والنسل واشاعة الخراب الا ظاهرة مصاحبة لحروب دول تدعى الحضارة  
والتقدم وتجند كتابها للحملة على منهج القرآن في بنائهم للمجتمعات  
ونظرتهم الى الواقع الانساني بجملته وكيف يتم اصلاحه ..

وأمام هذه الحملة يقف أبناء الاسلام يتمحلون الأعذار لدينهم  
ويصفونه بأنه دين مظلوم اضطر الى الدفاع عن نفسه لتأمين وجوده ،  
وفاتهم - أولا - فساد هذه الحملة وكيف اختلط عليها الجهاد العام  
لأركان الظلم ووجوب انهيارها حتى يرى الانسان ببصيرته ما في هذا  
الدين من عزة وسعادة ، وهو بعد ذلك حر في ايمانه بما شاء من أديان  
ومذاهب ، اختلط هذا بالفهم الخاطيء لطبيعة هذا الدين ، وخيل الى  
القوم انها حرب لاكره الناس على الدخول في الاسلام . وفات أبناء  
الاسلام - ثانيا - أن هذه الحملة انما هي لصرفهم عن عتو دول العالم  
الحديث وحروبها وما فيها من بوار وهلاك ..

وفاتهم - ثالثا - أن الجهاد في سبيل الله متعدد المراحل .. وكل  
مرحلة لها دواعيها ومقتضياتها وأنه قد استقر الأمر فيه على اعلان الحرب  
على كل من يحمي الفساد ويقيم له دولة تنشره وترعاه ..

فليس من حق المسلم أن يقف عند مرحلة خاصة ليقول : هذا منهج القرآن وذاك طريقه فليس له أن يقف عند مرحلة الصبر والعفو والتسامح ليقول للمسلمين : هذا دينكم فلا تقاتلوا أحدا ودعوا ما لقيصر لقيصر وما لله الله .. دعوا الظلم يرخي سدوله على الحياة وتحملوا ما ينزل بكم من هوان وارضوا بما يفرضه عليكم قانون البغى والضلال ولا تشوروا على شيء من ذلك ..

ولا أن يتورط في الدفاع عن المتكاسلين والقاعدين عن الجهاد ويقف عند الاذن بالقتال ليقول : ان الجهاد غير مفروض وانه مأذون فيه فقط .

أو يقف عند الأمر بقتال من قاتل المسلمين ليقول : انتظروا هجمات العدو ولا تزعجوه أنتم بالهجوم المفاجيء .. اتركوه وشأنه لأنه لم يعتد عليكم ولم يقدم لكم اساءة .. انما يجب على الباحث المنصف أن يفهم كل مرحلة وظروفها ، ويعرف أنه لا تعايش بين الاسلام وأنظمة الكفر الفاسدة التي تحجب عن الرعايا أنوار الله التي تخترق حجب القلوب فتصل الى الفطرة ، فاذا بها تعود - سريعا - في شوق الى دين الله كما قال تعالى :

«فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (\*)

ولهذا وجب الجهاد لاجراج العباد من عبودية بعضهم لبعض الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام كما قال أصحاب سعد لرستم ..

فاذا أردنا أن نقول ان دين الاسلام دين الدفاع فانما هو دفاع عن الحق وعن حرية الانسان وكرامته ، يقول أبو الأعلى المودودي : «الجهاد الاسلامي اذا أردت الحقيقة - هجومي ودفاعي معا : هجومي : لأن الحزب الاسلامي يضاد ويعارض الممالك القائمة على المبادئ المناقضة للإسلام ، ويريد قطع دابرها ولا يتحرج في استخدام القوى الحربية لذلك .. وأما كونه دفاعيا : فلأنه مضطر الى تشييد بنيان المملكة وتوطيد دعائمها حتى يتسنى له العمل وفق برنامج وخطته المرسومة . وغير خاف عليك أن الاسلام « حزب » فليس له من هذه الوجهة دار محدودة بالحدود الجغرافية يزود ويدافع عنها ، وانما يملك مبادئ وأصولا يذب عنها ويستتيت في الدفاع عنها ، وكذلك لا يحمل على « دار » الحزب الذي يعارضه ويناقضه ، وانما يحمل ويصول على المبادئ التي يتمسك بها ولا يغيين عن بالك أنه لا يريد بهذه الحملة أن يكره من يخالفه في الفكرة على ترك عقيدته والايان بمبادئ الاسلام وانما يريد الحزب الاسلامي أن ينتزع زمام الأمر ممن يؤمنون بالمبادئ والنظم الباطلة حتى يستتب الأمر لحملة لواء الحق ، ولا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » (٢٠) ..

وقول أبي الأعلى بأن الجهاد الاسلامي هجومي ودفاعي معا : لا تناقض فيه ، لأن الاسلام لا يترك فرصة لعدو الله كي ينقض عليه ويسلب الحق الذي بين يديه ، انما يفاجأ بقواته الحربية حتى يجبره على التسليم ولا شك أن هذا الهجوم دفاع عن الحق أيضا لا اعتداء فيه على حريات الشعوب ولا انتقاص فيه لحقوقهم في الحياة الحرة الكريمة ، انما هو تأمين للعدل واحقاق للحق وانطلاق بالانسان الى الآفاق العالية من حرية الفكر والوجدان ليختار الانسان بنفسه طريق الهداية كما أودعها الله فيه ..

ويتمسك بالنور الالهي عن يقين واقتناع بعيدا عن سوط الارهاب والقسر  
بعد أن حطم الاسلام قيود الاستعباد من حوله .. وأسقط قلاع الظالمين  
فداسها تحت قدميه وتطلع الى ضياء الحق الذي يشع سناه مع حملة  
كتاب الله العظيم فعانق هذا الضياء في شوق ومودة وحنين ..

### ٣ - علاقة حرب أم علاقة سلام ؟ :

كثيرا ما يتساءل الناس عن علاقة الأمة الاسلامية بغيرها من دول  
العالم : هل هي علاقة حرب أو علاقة سلام ؟ والعلماء أمام هذا التساؤل  
فريقان تبعا لفهم كل منهم لروح الاسلام ونصوصه ..

فمن قال انها علاقة الحرب الدائمة وانه لا يجوز للمسلمين أن  
يضعوا سلاحهم أبدا انما يشهرونه في وجه كل مخالف لدينهم .. من  
قال هذا اجتج بالآيات التي تدعو الى القتال وتحث عليه وترغب فيه ..  
ومنها قوله تعالى :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن  
تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ  
شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (٢١)

ومنها قوله :

«فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا  
بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ  
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » (٢٢)

• (٢١) سورة البقرة ٢/٢١٦ .

• (٢٢) سورة النساء ٤/٧٤ .



ومنها :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ » (٢٣)

الى غير ذلك من الآيات التى تدعو الى القتال وترغب فيه .. كما أوضح الرسول عليه السلام الغاية التى ينتهى اليها القتال فقال : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحق الاسلام وحسابهم على الله (٢٤) » ..

وموالاة غير المسلمين لا تجوز قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُم فإِنَّهُ مِنهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » (٢٥)

وقال عز وجل :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي

(٢٣) سورة الانفال ٦٥/٨ .

(٢٤) رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما .

(٢٥) سورة المائدة ٥١/٥ .

تُسِرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ  
وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» (٢٦)

وقال جل شأنه :

« لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ  
الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ  
تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» (٢٧)

وما دام الاسلام قد اتضح أمره وبلغت رسالته بالحكمة والموعظة  
الحسنة أولا ولم يستجب له هؤلاء ، فالحرب هي الدواء واجبارهم على  
الهداية هو الطريق ، وذلك لخيرهم وسعادتهم ، أما من قال انها علاقة  
السلام الدائم وما الحرب الا ضرورة ألجأت اليها الظروف حين لم يعد  
بديل سواها : فرأى أن آيات الجهاد جاءت تبين السبب الذي من أجله  
شرع القتال وهو دفع الظلم عن المسلمين في بلادهم أولا وتأمين الدعوة  
وحمايتها - ثانيا - والقضاء على فتنة الناس في دينهم وعقائدهم ثالثا ..

ومما يؤكد علاقة السلام : أن المنهج الالهي لا يحل قتل النساء  
والأطفال والرهبان والشيخ الكبير والزمين ومن لم يشترك في القتال ..  
فمن يجوز قتله هو من حارب المسلمين ، وترك هؤلاء دون قتال دليل على  
أن المقصود هو تحطيم القوة التي تحمي الباطل وتدافع عن الطاغوت -  
ويزيد ذلك تأكيدا أن الاكرام على الدين لا يجوز ولا يعترف به القرآن  
في نصوصه الصريحة ..

• (٢٦) سورة المتحنة ١/٦٠

• (٢٧) سورة آل عمران ٢٨/٣

وتحديد علاقة الأمة الاسلامية بغيرها على كلا الوجهين - في رأينا -  
 أصابت بعض الحقيقة لا كلها .. فهي ليست علاقة حرب دائم ولا يمكن  
 أن تكون علاقة سلام دائم .. فللحرب دواعيها وللسلام دواعيه .. وما  
 يظن عاقل أن القوى المسيطرة المتحكمة في رقاب العباد .. تنزل عن  
 سلطانها بكلمة تقال أو موعظة بليغة ، انما تردعها القوة المسلحة فان ألقى  
 العدو سلاحه وطلب الأمان فقد أعلن انقياده لحكم الله وتولت القيادة  
 الاسلامية صياغة الحياة بمنهاج الله الذي خرجت تجاهد البشرية عليه لتردها  
 اليه ومن حقها - حينئذ - أن تمنح الأمان لكل طالب .. فما ابتغى  
 الاسلام القتال الا ليصل الى هذا الهدف .. والأمان الذي يمنحه  
 الاسلام للمقاتلين نوعان : مؤقت ومؤبد .. والمؤقت خاص وعام ..  
 فالخاص : ما يمنحه فرد من المسلمين لواحد أو جمع محصورين وهو حق  
 لأي انسان مسلم يمنحه لمن يشاء وعلى القوات المجاهدة التزام ذمة  
 أخيهم .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المسلمون تتكافأ دماؤهم  
 ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم» (٢٨) « والأمان العام :  
 ما يبذله الامام لكافة غير المسلمين نظير الجزية التي يدفعونها اعلانا لطاعتهم  
 للجيوش المنتصرة وبرهاناً على قائمهم السلاح ، فاذا تخوف الامام منهم  
 ورأى في عيونهم الغدر نبذ اليهم عهدهم الى مدتهم وانتظر حتى يصل  
 الخير اليهم ثم حاربهم .. فما كان لمن تربوا على المنهج القرآني أن  
 يغدروا ..

والأمان المؤبد هو عقد الذمة الذي يبرمه الامام أو نائبه مع الأمة  
 المغلوبة ، ولا يجوز نقضه بحال والذي يمتلك نقضه هم أهل الذمة  
 بدخولهم الاسلام أو بانضمامهم الى معسكر الأعداء المحاربين أو بشورتهم  
 على النظام الاسلامي ، ومثل هؤلاء لا عهد لهم ولا ذمة .. وهذه العلاقات

الدولية لا يجوز أن يقال : انها علاقة حرب فقط أو علاقة سلام فحسب ،  
 انما هى حالات تتجدد بتجدد الأحداث والمناسبات .. ولمنهج القرآن  
 فيها حرية الحركة التى يواجه بها واقع دنيا الناس .. يقول المرحوم العقاد :  
 « واتقضى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون يعلمون حدودهم  
 فى كل علاقة تعرض لهم بين أنفسهم وبينهم وبين جيرانهم : علاقة المودة  
 والوئام وعلاقة الشعب والفننة وعلاقة الحرب أو علاقة التعاهد أو علاقة  
 المودعة والمهادنة ، أو علاقة الأمان والاستئمان .. وهذه العناية باقامة  
 الحدود وبيان واجباتها هى وحدها حجة قائمة للإسلام على خصومه الذين  
 يتهمون به بأنه دين الاكراه الذى لا يعرف غير شريعة القوة أو شريعة السيف  
 فمن كان لا يعرف غير السيف فما حاجته الى بيان لكل حالة من حالات  
 السلم والحرب بأحكامها وواجباتها وحدودها وتبعاتها ؟ لا حاجة به الى  
 حد من هذه الحدود مادام معه السيف الذى يجرده متى استطاع ، ولا  
 حاجة به الى حد من هذه الحدود مادام عزلا من السيف مغلوبا على كل  
 حال ، فانما يبحث عن تلك الحدود من يضع السيف فى موضعه ويأبى  
 أن يضعه موضع المسألة والاقتناع » (٢٩) ..

#### ٤ - الجزية .. والخراج :

منهج الاسلام فى فرض الجزية على الرءوس والخراج على الأرض  
 المفتوحة عنوة ولم تقسم على الفاتحين أو المفتوحة صلحا دليل على  
 ربانية هذا المنهج وسموه وتحقيقه للعدل فى أجل صوره وأجل معانيه :

فالجزية انما هى جزاء حماية المسلمين لغيرهم واعفائهم من الخدمة  
 العسكرية ، والخراج ضريبة الأرض المادية خالية من معنى العبادة يتساوى  
 فيه الذمى بالمسلم اذ هو « أجرة عن الأرض لأن مالكيها هم مجموع الأمة  
 الاسلامية وتبقى الأجرة وان انتقلت الأرض من أيدي أهل الذمة الى

أيدى المسلمين فيجب على المسلمين دفع الخراج لأنه مؤبد مع الأرض ..  
وهكذا بقى الخراج طوال العهود الاسلامية (٢٠) » ..

والمسلم حين يشارك في بناء أمته انما يتحرك بمنطق الايمان ،  
ويتصور الحياة لحظة عبادة وطاعة : فهو يدفع الزكاة التماسا لفضل الله  
ويدفع الخراج ان كانت أرضه من أرض الخراج ويتصدق بما شاء  
من صنوف المال حبا في العطاء وأملا في الثواب ويذل نفسه وروحه  
في سبيل نصرة الحق ، ومثل هذا التصور الذي يسيطر على حياة المسلم  
لا يفرضه على غيره لأنه لا يؤمن به كما لا يكلفه بالجهاد ، فذلك مجال  
الاستشهاد في سبيل الله والاندفاع بالمبادئ الطاهرة الى اعماق  
الوجود ..

وهذه الساحة في معاملة غير المسلمين وتلك العدالة التي حلت  
المسلم تبعات دينه ولم تطالب غير المسلم الا بقدر ضئيل من المال هو  
الجزية بلغت القمة ، وهي تقرر اسقاط هذه الجزية عن الشيوخ والعجزة  
والصبيان والنساء ، انما يدفعها القادرون من الرجال على حمل السلاح  
وحسبنا أن العلماء متفقون على أن الجزية « لا تؤخذ من المسكين الذي  
يتصدق عليه ولا من مقعد ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل (٢١) » ..  
بل ان تطوع من الرجال القادرين أحد للدفاع عن بلده أو شارك المسلمين  
في الجهاد سقطت عنه الجزية : هذا كتاب العهد الذي كتبه سويد بن مقرن  
أحد قواد عمر لرزيان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان ونصه :  
« هذا كتاب سويد بن مقرن لرزيان صول بن رزيان وأهل دهستان  
وسائر أهل جرجان : ان لكم الخدمة وعلينا المنعة على أن عليكم من  
الجزء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حال ، ومن استعنا به منكم

(٢٠) الخراج في الدولة الاسلامية حتى منتصف القرن الثالث  
الهجرى د . ضياء الدين الرئيس ص ١١٧ .

(٢١) كتاب الخراج : لأبى يوسف ص ١٢٢ .

قله جزاؤه ( أى جزيته ) فى معوته عوضا عن جزائه ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ولا يغير شىء من ذلك » ..

شهد : سواد بن قطبة وهند بن عمر ، وسماك بن مخرمة ، وعقبة ابن النهاس سنة ١٨ هـ (\*) ..

وهذا كتاب عقبة بن فرقد أحد عمال عمر بن الخطاب — أيضا — لأهل أذربيجان يقول فيه : هذا ما أعطى عقبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان : سهلها وجبلها وحواشيها وشعارها وأهل مللها لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا جزية على قدر طاقتهم .. ومن حشر منهم فى سنة ( أى جند منهم فى سنة ) وضع عنهم جزاء تلك السنة ، ومن أقام فله مثل من أقام من ذلك (٣٢) ..

وان عجز المسلمون عن الدفاع عن أهل الذمة ردوا عليهم ما أخذوه منهم . هذا كتاب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه : « انى عاهدتكم على الجزية والمنعة فلك الذمة والمنعة وما منعناكم فلنا الجزية والا فلا .. كتب سنة اثنتى عشرة فى صفر (٣٣) » ..

وهذا أبو عبيدة بالشام لما تجمعت الروم لقتاله أمر أمراءه أن يردوا ما كانوا أخذوه من الجزية وقال لأهل البلاد : « انما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم قد اشتريتم أن نمنعكم وانا لا نقدر على ذلك الآن وقد رددنا ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم .. » فكان أن قال أهل البلاد:

(\*) الدعوة الاسلامية دعوة عالمية / محمد الراوى ص ٤٥٢ .  
(٣٢) تاريخ الامم والملوك للطبرى ج ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .  
(٣٣) المرجع السابق ص ٤٥١ .

« ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم » (٣٤) .  
وما شهدت الانسانية في حياة الفاتحين مثل هذا التسامح في أخذ الجزية ، فقد أوصى عمر من بعده بأهل الكتاب خيرا بأن « يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم » (٣٥) .

بل أكثر من ذلك : اجراء عطاء من بيت المال للفقراء والمحتاجين من أهل الذمة : كتب خالد بن الوليد رضى الله عنه في عهد ذمته الذى كتب لأهل الحيرة : « وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله » (٣٦) .

وأبصر عمر رضى الله عنه شيئا كبيرا من أهل الذمة يسأل فقال : مالك ؟ قال : ليس لى مال وان الجزية تؤخذ منى فأسقط عنه الجزية وأجرى له من بيت المال ، وكتب الى أمينه : « والله ما أنصفناه : آكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم » انما الصدقات للفقراء والمساكين « والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه » (٣٧) .

وان مات أحد من الذميين وعليه شيء من الجزية فلا يؤخذ من تركته ولا يكلف ورثته بأدائه .. كتب الامام أبو سيف : « ان وجبت عليه الجزية فمات قبل أن تؤخذ منه أو أخذ بعضها وبقي البعض لم يؤخذ بذلك ورثته ولم تؤخذ من تركته » (٣٨) ..

- (٣٤) فتوح البلدان : للبلاذرى ص ١٤٣
- (٣٥) كتاب الخراج : لأبى يوسف ص ١٤
- (٣٦) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٤٤
- (٣٧) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٢٦
- (٣٨) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٢٣

وهذا الرفق في جباية الخراج من أصحاب الأرض المفتوحة برهان على عالمية منهجنا الالهى وكيف مكن الله لحملة هذا المنهج ..

هذا على بن أبى طالب يكتب الى بعض عماله : اذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفا ولا رزقا يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ولا تضربن أحدا منهم سوطا واحدا فى درهم ولا تغمه على رجله فى طلب درهم ولا تبع لأحد منهم عوضا فى شئ من الخراج فانا انما أمرنا أن نأخذ منهم العفو فان أنت خالفت ما أمرتك به يأخذك الله به دونى وان بلغنى عنك خلاف ذلك عزلتك (٣٩) ..

وكتب مرة أخرى الى بعض عماله : « لا تبيعن لهم فى خراجهم حمارا ولا بقرة ولا كسوة شتاء ولا صيفا (٤٠) » ..

ولعلنا ونحن نقرأ قول الله تعالى :

« قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » (٤١)

نعرف — بعد أن رأينا مدى تكريم منهج القرآن للانسان وكيف يعامل المعاملة الرحيمة — أن غاية القتال انما هى استسلام العدو وتخليه عن العدوان والبعى .. والجزية اعلان عن قبول المودة وتقبل الصلح

(٣٩) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٦ .

(٤٠) فتح البيان ج ٤ ص ١١٣ .

(٤١) سورة التوبة ٢٩/٩ .



وتقرير المسألة ، ولهذا كانت هذه الآية وما قبلها في تحالف المشركين مع أهل الكتاب واجتماعهما على تقض العهود المتوالية بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم ومثل هذه الفئة المعتدية لا يردعها الا القوة فتخزي وتذل وتنتقاد لحكم الاسلام وتعلن ولأهها وطاعتها في برهان واقعى بدفع ما يفرض عليها الاسلام من ضريبة مالية تسمى « الجزية » ..

### - المعاهدات :

اعطى المنهج القرآني للمسلمين حرية الحركة في علاقاتهم الدولية فلم يجعل الحرب وسيلة لاجبار الناس على الايمان بالله وحده ، بل جعلها تحطيا لقوى الشر في أنحاء الأرض . وارتفع عن التعصب الدينى وأراد للمجتمع الانسانى أن يحيا فى سعادة وهدوء ومودة وتراحم لا يفرق بين الناس مذهب أو دين فذلك شىء يرجع الى اختيار الانسان وحده والاسلام واثق من نفاسة بضاعته ورواج عقيدته وعظمة بنائه ، وأنه اذا ما سمعت به الفطر المستقيمة أجابته ولبت ندائه فلتحى الأديان متجاورة ولتتقدم أصحاب كل فلسفة الى الناس ، ودين الله الحق منتصر بعد ذلك لا محالة ولهذا كانت المعاهدات وما تفرضه من تبعات على المسلمين وغيرهم لا تتدخل فى دين القوم ولا ترهبهم بقوة السلاح على اعتناق مبادئ الحق، وكانت دليلا واضحا على عالمية هذا الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان وما يحمل من سباحة ويسر وما فيه من عناصر البقاء والخلود ..

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب لأهل المدينة معاهدة جوار ينصهر بها المجتمع فى وحدة قوية تجابه الأحداث ويتفق فيها المسلمون واليهود وغيرهم على وجوب الدفاع عن أرضهم ، ومما جاء فى تلك الوثيقة التاريخية : « ان اليهود ينفقون ماداموا محاربين وان يهود

بنى عوف أمة مع المؤمنين : لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ ( يهلك وينفسد ) إلا نفسه وأهل بيته وإن لليهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جشم ويهود بنى الأوس ويهود بنى ثعلبة والجفنة ولبنى الشطيبة مثل ما لليهود بنى عوف ، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم وإن بطانة يهود كأنفسهم وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإنه بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإن النصر للمظلوم وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأنهم وأن الله جار لمن بر واتقى (٤٢) ..

هذه الوثيقة التاريخية من قرابة ألف وأربعمائة عام فتح جديد في العلاقات الدولية لم تصل إليها مناهج الدراسات الدولية إلا من عهد قريب ..

وهذا هو عهد الحديبية بين المسلمين وقريش دليل على حب السلام القائم على العدل ، فقد خرج الرسول في العام السادس الهجري بألف وأربعمائة إلى زيارة بيت الله الحرام لا يتغى حربا ، وإنما ينشد سلاما وقد ساق الهدى أمامه وسلاح أصحابه في غمده ، وما إن سمعت قريش بهم حتى أقسمت وتعاهدت على منعه من دخول البيت فلم يشعلها ناراً عليهم وكان في مقدوره ذلك ، إنما عسكر في الحديبية يود أن يدخل مكة دون قتال .. وجاءت رسل قريش تستوضح الأمر فقال لهم عليه السلام : أنا لم نجى لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخاؤا بينى وبين الناس ، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد

حموا وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي وينفذن الله أمره ..

وأرسل رسول الله رسله اليهم ومنهم عثمان بن عفان الذي احتبسته قريش وأشيع أنه قتل وأثار هذا الغدر خواطر المسلمين فبايعوا الرسول على الموت في سبيل الله تحت الشجرة وفي ذلك يقول القرآن :

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » (٤٣)

ونجا عثمان وأرسل أهل مكة سهيل بن عمرو فاتفق مع الرسول على أن يرجع النبي وصحبه فلا يدخلوا مكة تلك السنة ، فإذا كانت السنة القادمة دخلوها فأقاموا فيها ثلاثا بعد أن تخرج منها قريش ، وأن توضع الحرب عشر سنين ومن أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده اليهم ، ومن أتى قريشا من المسلمين لم يردوه وأنه من أحب من العرب مخالفة محمد فلا جناح عليه ومن أحب مخالفة قريش فلا جناح عليه ، وبلغ من ساحة الاسلام ورسول الاسلام في كتابة هذا العهد ما لا يتيسر الا لمن يوحى اليه من السماء : فقد بدأ الرسول يملأ على بن أبي طالب شروط العهد فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : أمسك لا أعرف الرحمن الرحيم بل اكتب باسمك اللهم .. قال رسول الله : اكتب باسمك اللهم ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : أمسك لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أييك . وما ان تم هذا العقد حتى

جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في القيود قرمى بنفسه بين المسلمين فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه وأخذ بتلايب ابنه ليرده الى قريش وابن سهيل يصيح بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ فطمأنه الرسول قائلاً : يا أبا جندل اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجاً ، انا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله وانا لا نغدر بهم (٤٤) ..

وعاد أبو جندل الى قريش تنفيذاً لعهد النبى ووعده ..

ولقد سمى الله هذا الصلح فتحاً مبيناً فقد نزلت على رسول الله حين رجع من الحديبية سورة الفتح حتى لقد قال بعض الصحابة : ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت ، فقال صلى الله عليه وسلم : بل هو أعظم الفتح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا اليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا .. وقال الزهرى : « لقد كان فتح الحديبية أعظم الفتح وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء اليها فى ألف وأربعمائة فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم الى بعض وعلموا وسمعوا عن الله فما أراد أحد الاسلام الا تمكن منه فما مضت تلك الستتان الا والمسلمون قد جاءوا الى مكة فى عشرة آلاف (٤٥) » ..

وهذا لون آخر من ألوان المعاهدات مع البلاد المفتوحة تتبين فيه عمق العلاقات الدولية التى خطط لها المنهج القرآنى فأسعدت البشرية جمعاء واستظل الناس — على اختلاف منازلهم وأديانهم وعقائدهم

(٤٤) حياة محمد : لهيكل ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

(٤٥) الفتوحات الالهية للعلامة الجمل ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ ج ٢ .

جلواء الاسلام الرحيم .. انه أشهر العهود في صدر الاسلام بعد عهد  
الحديبية ذلك هو عهد بيت المقدس الذي كتبه الخليفة عمر بن الخطاب لأهل  
ايلياء وفيه يقول رضى الله عنه : « انه أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم  
وكنائسهم وصلبانهم وسقيسها وبريئها وسائر ملتها .. وأنه لا تسكن  
كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا من  
شئ من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار على أحد منهم ولا  
يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية  
كما يعطى أهل المدائن وأن يخرجوا منها الروم واللسوت ومن خرج منهم فهو  
آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام معهم فهو آمن وعليه  
مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير  
بنفسه وماله مع الروم ويخلى بينه وبين صلبهم فانهم آمنون على أنفسهم  
وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم » (٤٦) .

ولقد ضرب عمر مثالا عاليا لأخلاق الاسلام وحرصه على السلام  
والأمان ، فقد حان موعد الصلاة والخليفة العظيم في كنيسة بيت القدس  
وكان من حقه أن يصلى حيث هو ولكنه أبى وصلى بجوار الكنيسة ،  
ولما سئل في ذلك بين أنه خشى ان صلى في الكنيسة أن يتخذها المسلمون  
بعده ذريعة للاستيلاء عليها ..

ولقد جرت هذه المعاهدات في تاريخ الاسلام سواء بين الأمم التي  
فتحت بلادها ففرضت عليها الجزية أو الخراج أو في البلاد التي طلبت مودة  
المسلمين ومساعدتهم دون قتال .. وما خرجت هذه المعاهدات عن  
الأهداف التي أرادها منهج القرآن أساسا لعلاقات الشعوب لذلك اشترط  
فيها ألا تمس قانون الاسلام وشريعته العامة قال صلى الله عليه وسلم :

« كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل .. » وأن تكون مبتسقة على التراضي من الجانبين ومن هنا لا يرى الاسلام قيمة لمعاهدة تنشأ على أساس من القهر والغلبة وأزيز النفاثات ، وهذا شرط تمليه طبيعة العقد ، وإذا كان عقد التبادل في سلعة ما يباع أو شراء لا يد فيه من عنصر الرضا « الا أن تكون تجارة عن تراض منكم » فكيف بالمعاهدة وهي للأمة عقد حياة أو موت .

كما اشترط فيها أن تكون بينة الأهداف واضحة المعالم تحدد الالتزامات والحقوق تحديدا لا يدع مجالا للتأويل والتخريج واللعب بالألفاظ قال تعالى :

« وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسُوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » (٤٧)

والدخل هو : الغش الخفى يدخل في الشيء فيفسده (٤٨) وبهذا حفظ على المسلمين وحدتهم وجعل لهم شخصية مميزة في الصعيد العالمى .

## ٦ - الوفاء بالعهود في العلاقات الدولية :

وإذا كان العالم قد عرف في تاريخ العلاقات الدولية تريف الحقائق والتخريف بالضعفاء والاعتداء على حق الشعوب وعرف ذلك - عن يقين - حين رأى دول الاستعمار الحديث وقد أصابها سعار السيطرة على امتلاك الأسواق والمواد الخام ، وفي سبيل ذلك هانت المبادئ والقيم ولم يعد الوفاء بالعهود والوعود الا نوعا من السذاجة لا يتناسب مع عصر التقدم

(٤٧) سورة النحل ٩٤/١٦ .

(٤٨) الاسلام عقيدة وشريعة لشلشوت ص ٤٦٩ .

والحضارة التي أقيمت على بحر من دماء الأبرياء .. اذا كان العالم قد عرف كل هذا في معاملاته فقد جاء المنهج الرباني يرسم للناس الطريق ويعرف الدنيا أن الحياة لا تطيب بالغدر ، انما تجمل بالوفاء ..

والوفاء بالعهد ينبع من حقيقة الايمان بالله الذي قال في كتابه :

أَخَذَ « مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ \* أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ » (٤٩)

وعلى هذا الايمان أقام الاسلام دعوته في الوفاء بالعهد فأمر به فقال :

« وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » (٥٠)

وقال :

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » (٥١)

(٤٩) سورة الاعراف ١٧٢/٧ ، ١٧٣ .

(٥٠) سورة الاسراء ٣٤/١٧ .

(٥١) سورة النحل ٩١/١٦ .

وجعل ذلك من صفات الصادقين البررة في آية البر :

«وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ  
وَالضَّرَآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ  
الْمُتَّقُونَ» (٥٢)

وقال في سبب فلاح المؤمنين :

«وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ» (٥٣)

وبين أن هذا الوفاء من صفات أصحاب العقول السليمة :

« إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ \* الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ  
اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ » (٥٤)

وعلى طريقة القرآن ومنهجه في التربية يرغب ويخوف فيصل الى  
ما يريد من خلق الانسان الفاضل والمجتمع الفاضل لذلك بين مغبة الغدر  
وخطورة الخيانة فهذا دليل على سخط الله والبعد عن ركب الايمان  
قال تعالى :

«وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ  
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ  
لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» (٥٥)

(٥٢) سورة البقرة ١٧٧/٢ .

(٥٣) سورة المؤمنون ٨/٢٣ ، سورة المعارج ٣٢/٧٠ .

(٥٤) سورة الرعد ١٩/١٣ ، ٢٠ .

(٥٥) سورة الرعد ٢٥/٥ .



وصور نقض العهد بهذه الصورة : صورة التي تنقض غزلها بعد قوته واحكامه فهي حياة الضياع والضعف ، يقول القرآن بعد أن أمر بالوفاء بعهد الله :

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » (٥٦)

ولا يعرف الاسلام وسيلة للغدر ولو كانت الدنيا بأسرها فانها عرض زائل ومتاع قليل ..

قال تعالى :

« وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (٥٧)

ويتحدث عن أهل الكتاب ونقضهم للعهد حديثا يشمل كل من سلك طريقهم فيقول :

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (٥٨)

(٥٦) سورة النحل ٩٢/١٦ .

(٥٧) سورة النحل ٩٥/١٦ ، ٩٦ .

(٥٨) سورة آل عمران ٧٧/٣ .

ويحدثنا القرآن عن سر اهلاك القرى فيقول :

« وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ

لَفَسَّاقِينَ » (٥٩)

والوفاء بالعهود والمواثيق ينبع عن هذا المصدر الكريم ، وكيف يغدر المسلمون ويخونون عهودهم ، وايمانهم بربهم حارس أمين يأبى عليهم ذلك ؟؟ انه يلزمهم احترام غيرهم مهما خالفهم في عقيدة أو دين ، وهل بعد أن يعتبر المشركين القاصدين الى بيت الله الحرام أصحاب شعائر يتغنون فضلا من ربهم ورضوانا ويجب أن يتركوا وشعائرهم .. هل بعد ذلك وفاء ؟ انه لا يرجو القتال ولا يتغنى اسالة الدماء ولكن الاسلام ينشد الأمان ..

يقول ربنا عز وجل :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرَ  
الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَئِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ  
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا  
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ  
أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى  
الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » (٦٠)

• (٥٩) سورة الاعراف ١٠٢/٧ .

• (٦٠) سورة المائدة ٢/٥ .

وما دام العدو قد استقام على العهد فلا يحل نقضه بحال قال تعالى :  
 « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا  
 لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ » (٦١)

فان بدأ هو بالخيانة أهدر دمه ولم يعد لعهدده معنى ..

قال تعالى :

« وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي  
 دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّكُمْ  
 يَنْتَهُونَ \* أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ  
 الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ  
 أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٦٢)

فان توقع منهم الخيانة نبذ اليهم عهدهم وأعلمهم بأنه سيعاملهم  
 بالمثل ..

قال تعالى :

« وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ  
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْخَائِنِينَ » (٦٣)

(٦١) سورة التوبة ٩/٧ .

(٦٢) سورة التوبة ٩/١٢ ، ١٣ .

(٦٣) سورة الأنفال ٨/٥٨ .

والرسول يقول مؤكداً ذلك : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن لهم عهدا ولا يشدن حتى يمضى أمره أو ينبذ إليهم على سواء » (٦٢)

وهذه قفزة في تاريخ التشريع الدولي لم تصل إليها أمة من الأمم .. بل ان كان بين المسلمين وغيرهم ميثاق وكان تحت حكم هؤلاء مسلمون ووقع عليهم ايداء فلا يجوز للمسلمين نقض العهد ، وانما يصبر هؤلاء المستضعفون حتى يجعل الله لهم فرجا ومخرجا قال تعالى :

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلَئِيهِمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا »

أى لا تنتظروا منهم ان يوالوكم بالنصرة وهم بدار الكفر .. « وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٦٥)

والاسلام بهذا المنهج واثق أن العدو لن يدوم طويلا على وفائه بعهده .. وهؤلاء المؤمنون لا بد منتصرون ..

وهنا نحب أن نسأل : فى أى شريعة غير الشريعة الاسلامية السمحة تحترم المعاهدات الى هذا الحد ؟ ان أرقى الحكومات فى هذه الأيام أى بعد قرابة أربعة عشر قرنا من الزمان ، تنقض المعاهدات لمجرد الاعتداء على فرد منها فى الدولة المعاهدة ولو لم يكن هذا الاعتداء بسبب الدين أو المبدأ السياسى ، بل كان شخصا بحتا وفى هذا العصر لا تنظر الدولة

(٦٤) رواه الترمذى وأبو داود .

(٦٥) سورة الأنفال ٧٢/٨ .

القوية الى المعاهدات التي تربط بها الدول الضعيفة الا كما تنظر الى قصاصة من الورق فلا احترام لهذه المعاهدات في نظرها بل هي تعتدى أحيانا على الدول الضعيفة التي وقعت معها هذه المعاهدات ، لتتخذ من هذا الاعتداء وسيلة الى الغائها ممثلة مع هذه الدول دور الذئب مع الحمل ..

وعلى أن هذا الاستثناء (٦٦) الذي قرر مبدأ احترام المعاهدات في الاسلام واضح لا غموض فيه قوى لا يتطرق الضعف اليه عام لا يخص حالا دون حال ولا قوما دون قوم ، فان الله عز وجل يعقبه بقوله : « والله بما تعملون بصير » وهو ترغيب في الطاعة بقدر ما هو تحذير من العصيان وتهديد للمخالفين ، وبهذا الذي تنبه الآية اليه في فاصلتها من تذكير المؤمنين بأن الله يطلع على كل ما يعملون ، مدرك كل الادراك خفيا ما يدبرون وينفذون ، تمتاز أحكام الشريعة الاسلامية بالمسلمون هم أبعد الناس عن الخيانة وهم أوفى الناس بالعهود لأنهم يؤمنون بالله، والله بما يعملون بصير (٦٧) . انها العدالة والوفاء في علاقات أمة الاسلام بغيرها ، والتزام كامل بما عاهدوا عليه دون ظلم أو اجحاف قال صلى الله عليه وسلم : « لعلكم تقاتلون قوما فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم ( وفي رواية فيصالحونكم على صلح ) فلا تصيوا منهم فوق ذلك فانه لا يصلح لكم » وقال محذرا من ظلم المعاهدين : « الا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة (٦٨) » .

(٦٦) اى الذى فى قوله : الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق .

(٦٧) سورة الأنفال : عرض وتفسير د . مصطفى زيد ص ١٦٥ .

(٦٨) رواهما ابو داود فى كتاب الجهاد .

وقال : من قتل نفس معاهد لم يرح رائحة الجنة وان ريحها ليوجد  
من مسيرة أربعين عاما (٦٩) .

فهو - اذن - وفاء بالعهود حقا وفاء لا شبهة فيه . لم يجعله  
الاسلام تدييرا من تدييرات السياسة أو ضرورة من ضروراتها التي  
تجوز فيها المراوغة عند القدرة عليها ، بل جعله أمانة من أمانات العقل  
والضمير ، وخلقاً شريفا يكاد الخارج عليه أن يخرج من آدميته ويسلك  
في عداد السائمة التي لا ملامة عليها :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ \*  
الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ  
لَا يَتَّقُونَ » (٧٠)

#### ٧ - الاسلام دين السلام :

هذا الوضوح الذي اتسم به منهج القرآن في تحديد العلاقات  
الدولية يبين أن الاسلام دين السلام ، وأنه ما فرض الجهاد جبا في السلطة  
والاستعلاء ، انما فرضه اقرارا لمبادئ السلام في وقت ضاع فيه السلام  
بين شعوب الأرض وحرفت الديانات والكتب السماوية ، فجاءت دعوة  
التوراة والانجيل داعية الى الاعتداء على حق الشعوب منادية باعلان  
الحرب الدائمة على الأمم : جاء في سفر التثنية في الأصحاح العشرين منه  
عدد ١٠ « حين تقرب مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصلح فان أجابتك  
الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير

(٦٩) رواه الشيخان والترمذى .

(٧٠) حقائق الاسلام واباطيل خصومه للعقاد ص ٢٢٠ ، ٢٢١ والآية -

من سورة الأنفال ٨/٥٥ ، ٥٦ .

« يستعبد ذلك وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها  
 الرب الهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء  
 والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك  
 التي أعطاك الرب الهك » ..

وفي انجيل « متى » في الأصحاح العاشر عدد ٢٥ يقول ، « لا  
 تظنوا أنني جئت لألقى سلاماً على الأرض بل سيفاً فأننى جئت لأفريق  
 الإنسان ضد ابنه والابن ضد أبيه والكنة ضد حمايتها وأعداء الإنسان  
 أهل بيته » ..

وما بهذا أمر الله ولا نزلت كتب السماء ..

وكانت شريعة الرومان : « من جررك فهو عدوك تخضعه أو يخضعك  
 وتبدؤه بالحرب متى استطعت أو يبدؤك بالحرب متى استطاع » وعلى  
 منوالها كانت شريعة الدول الغربية في القانون الدولي ..

لكن الاسلام خاتم الرسالات يجعل حياة المرء مع نفسه سلاماً ومع  
 اخوانه حباً واءاءاً ، ومع العالم كله مودة ورحمة ، أليست تحية المؤمن  
 عند كل لقاء أو فراق « السلام عليكم ورحمة الله » ؟ أليست هذه  
 التحية هي ختام صلاته دائماً يلقي بها عن يمين وشمال ويستقبل بها  
 الدنيا وقد زودته الصلاة بأسباب السلام والرحمة ؟ ان القرآن نزل في  
 ليلة وصفت بأنها سلام :

« سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ » (٧١)

والدار التي يعمل المؤمن ليظفر بها هي دار السلام ..

« لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (٧٢)

والنحية التي تتردد فيها يرددها المؤمنون فيما بينهم والملائكة كلما دخلوا عليهم سلام :

« تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ » (٧٣)

ويقول عز وجل :

« وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ \* سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » (٧٤)

بل انك تسمع بين أسماء الله التي ذكرت في كتابه « السلام » ..

« هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ  
الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » (٧٥، ٧٦)

والسلام الذي ينشده منهج القرآن ليس هو الاستسلام والهوان وقبول المذلة انما هو سلام تحميه القوة ولذلك أمر الله باعدادها فقال :

(٧٢) سورة الانعام ١٢٧/٦

(٧٣) سورة الاحزاب ٤٤/٢٣

(٧٤) سورة الرعد ٢٤/١٣

(٧٥) سورة الحشر ٢٣/٥٩

(٧٦) الدعوة الاسلامية دعوة عالمية / محمد الراوى ص ٤٣٤ ..



« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ  
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ  
لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » (٧٧)

ومن منطق القوة يأمر القرآن بالميل الى السلام مادام العدو قد  
جنى اليه ..

« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ  
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (٧٨)

وحتى لو كان ذلك خداعا من العدو :

« وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي  
أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ » (٧٩)

ويقبل من الاعداء السلام ولو كان فى أثناء القتال ماداموا قد  
طلبوه :

« وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا  
تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ  
كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ  
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » (٨٠)

(٧٧) سورة الأنفال ٨/٦٠ .

(٧٨) سورة الأنفال ٨/٦١ .

(٧٩) سورة الأنفال ٨/٦٢ .

(٨٠) سورة النساء ٤/٩٤ .

ويدعو الى دخول المؤمنين في السلم كافة :

« يَنَاقِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ اِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » (٨١)

ويقيمها علاقة بروح بين مختلف الأديان والأجناس :

« لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » (٨٢)

انما ينهى فقط عن مولاة العدو الذي بغى وتجبر :

« إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (٨٢)

ومع شدة حرص الاسلام على السلام العالمى الى هذا الحد الذى تراه لا يريد للمسلمين أن يستذلوا في سبيله ، بل يجب عليهم أن يحافظوا على السلام وعلى كرامتهم معا يقول الله جل شأنه :

« فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ » (٨٣)

(٨١) سورة البقرة ٢٠٨/٢ .

(٨٢) سورة الممتحنة ٨٠/٩ ،

(٨٣) الاسلام في حياة المسلم د . محمد البهى ص ٤٧٨ والآية من

سورة محمد ٣٥/٤٧

والحرب التي يشعلها على أعداء الله حماية للسلام من عدوانهم  
 وغدرهم .. وهو حين يدخل المعركة ملتزم بمبادئ السلام يده ممدودة  
 لكل من أرادته لا يبدأ بسفك دم إنما ينتظر ويتريث ويعرض مبادئه  
 الخالدة ، فإن قبلها العدو كان في عداد جماعة المؤمنين له مالهم وعليه  
 ما عليهم وإن أبى دفع الجزية عنوانا للتسليم والقاء السلاح والا فآخر  
 الدواء الكى ولا بد من خوض المعركة .. وهى معركة ضد من حملوا  
 السلاح فحسب لا يتجاوزها الى غير ذلك مما عرفه العالم في حروبه من  
 الدمار والخراب ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه  
 فقال : امض ولا تلتفت . فقال يارسول الله كيف أصنع بهم ؟ قال : اذا  
 نزلت بساحتهم فلا تقاثلهم حتى يقاتلوك ، فان قاتلوك فلا تقاثلهم حتى  
 يقتلوا منكم قتيلا ، فان قتلوا منكم قتيلا فلا تقاثلهم حتى تربهم اياه ثم  
 تقول لهم : هل لكم الى أن تقولوا لا اله الا الله ، فان قالوا : نعم فقل  
 لهم : هل لكم أن تصلوا ، فان قالوا : نعم . فقل : لهم هل لكم أن  
 تخرجوا من أموالكم الصدقة ، فان قالوا : نعم . فلا تبغ منهم غير ذلك ..  
 والله لأن يهدى الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس  
 وغربت (٨٤) ، ويوصى عليه السلام جيشه قائلا : انطلقوا باسم الله لا  
 تقتلوا شيئا فانيا ولا طفلا ولا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا ولا تغدروا ولا  
 تملوا (٨٥) ..

وهذه وصية الصديق لأسامة بن زيد وهو يتولى قيادة الجيش قال:  
 لا تخونوا ولا تغدروا ولا تملوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا  
 امرأة ولا تعفروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا  
 شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا للأكل ، وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا  
 أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون

( ٨٤ ) البخارى

( ٨٥ ) رواه أحمد وأبو داود

على قوم قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب  
فأخفقوهم بالسيف خفقا (٨٦) ..

ان الاسلام لا يطلب مغنما ماديا ولا كانت المغانم هدف الجيوش  
الغازية ، انما كان مطلبها تأمين الدعوة واخماد الفتنة بعيدا عن التعصب  
الدينى فلا عجب أن يقاتل المسلمون غيرهم من المؤمنين اذا ما انحرفوا  
عن طريق الايمان وابتغوا الفتنة ولم يستجيبوا لرأى الجماعة قال  
تعالى :

«وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا  
فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ  
تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ  
وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (٨٧)

وما عرف المؤمنون الاعتداء على حق الشعوب لأنهم حملة راية  
الايمان ، به حاربوا وبه اقتصروا وبه أمنوا الخائفين في ربوع الأرض .  
وايمانهم تحميه قوة السلاح وشجاعة الرجال دون تقصير أو تفريط وما  
صنع أحد صنيعهم وما أخلص انسان اخلاصهم . هذا قول عتبة الغلام  
وقد رآه مغلد بن الحسين يحضر الى الميدان وقد أضنته العباداة  
والسهر قال عتبة لمغلد :

يا مغلد لو أنا نقاتل القوم بمثل ايمانهم لكان من أحق الحق  
أن نخرج اليهم وعددا قليل وسلاحنا قليل ولكن شتان ما بين ايمان  
روايان ..

(٨٦) تاريخ الأمم والملوك ح ٣ ص ٢١٣

(٨٧) سورة الحجرات ٩/٤٩

ويارب نفس ومقت جلال الله فأرحض عنها غرورها فلم تشهد الا حاجتها اليه وفقرها بين يديه فأمدّها بسر من بأسه وأيدها بكوكبة من جنده ، فاذا هي في الميدان يصول فيها سر الله ويجول - فوالله لأن يصبر الكافر لجبل ينقض عليه أهون من أن يصبر لضربة من ضرباتها ..

يا مخلد انك لن تنصر الله في معركة حتى تنصره في نفسك بتغليب أمره على هواك ، وانظر ماذا يغني شححك ولحمك ان أنت خذلت في الأولى ثم جئت تطلب نصره في الأخرى وهو الذي جعل هذه بتلك وعدا حقا وجزاء صدقا :

« إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (٨٨ ، ٨٩)

وهذا سعد بن أبي وقاص يرسل الى عمر بن الخطاب بسلوك جند المسلمين : كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم أساد الناس لا يشبههم الأسود ولم يفضل من مضى منهم من بقى الا بفضل الشهادة (٩٠) فهل بعد هذا يتهم الاسلام - وهؤلاء رجاله الأبطال - بأنه دين السيف والقتال والحرب ؟ نعم انه كذلك لمن وقف في طريقه وسد عليه المسالك وابتغاه فسادا في الأرض وعلوا كبيرا وما يمكن لحق أن يقوم دون أن تحرسه قوة المجاهدين • وذلك هو السلام العالمى الذى أراده الاسلام للناس طريقا ودعا اليه البشرية جمعاء ..

( ٨٨ ) سورة محمد ٤٧/٧

( ٨٩ ) الدعوة الاسلامية دعوة عالمية / محمد الراوى ص ٤٤٨

( ٩٠ ) المرجع السابق ص ٤٤٩



## الفصل الثاني

### القرآن وأهل الكتاب

- ١ - دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام
- ٢ - موقف النصارى
- ٣ - موقف اليهود
- ٤ - أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي :  
« حقوقهم وواجباتهم »





## القرآن وأهل الكتاب

### ٢ - دعوة أهل الكتاب الى الاسلام :

ليل الكفر قد اشتد ظلامه وبسط أرديته على دنيا الناس فقد تاهت بأهل الكتاب من اليهود والنصارى السبل حين حرفوا الكتب المنزلة وأضاعوا تعاليم السماء ، كما ضل العقل الانساني وهو يمرغ جبهته أمام حجر أصم لا يسمع ولا يبصر ، وتوزعت الانسانية في أنحاء الأرض الأهواء حين غاب عنها حاديها وهاديها ، وفي وسط هذه المحنة بدا مصباح مضى وسراج منير حمله الى العالم الانساني محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من أول لحظة تلقاه فيها في جبل النور في غار حراء ، فاندفع به في ثقة أكيدة ، وإيمان ثابت لا يتزعزع ، حتى أضاء ما بين الخافقين الى يوم القيامة ..

والنف حول هذا النور أمة أخذت في النمو والازدياد شأن الكائن الحي ، الى أن وصلت الى ما شاء الله لها أن تصل ، واستظل بظلمتها القاصي والداني في أنحاء الأرض ، وكان لابد لهذه الأمة وتلك الجماعة أن تعرف غيرها وأن تحدد علاقاتها بهم : أخبرها كتاب ربها أن :

« أَلْتَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ » (١)

وأن عيسى جاء :

« مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ أَلْتَّوْرَةِ وَعَاطِيَنَّهُ الْإِنْجِيلَ »

فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى  
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٢)

وَأَن بَنَى إِسْرَائِيلَ أَخْتَارَهُمُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ..

قال تعالى :

« وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا  
وَكَانُوا بَيِّتِنَا يُوَفِّقُونَ » (٣)

لكنهم ما لبثوا أن خانوا اليهود وتقضوا المواثيق فلعنهم الله وأبعدهم  
عن رحمته :

« لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ  
دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ \*  
كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » (٤)  
وسلط عليهم من لا يرحمهم :

يقول سبحانه :

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ  
يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ  
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » (٥)

( ٢ ) سورة المائدة ٤٦/٥

( ٣ ) سورة السجدة ٢٤/٣٢

( ٤ ) سورة المائدة ٧٨/٥ ، ٧٩

( ٥ ) سورة الأعراف ١٦٧/٧

وشتتهم في الأرض وكتب عليهم الذلة والمسكنة ..

يقول ربنا :

« وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِأَحْسَنَتِ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » (٦)

واذن فتاريخهم مشرق في بدايته ، مظلم في نهايته وقد عاشوا في هذا الظلام قرونا وأجيالا حتى جاءهم محمد عليه السلام مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه . يقول رب العزة :

« يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبُ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ » (٧)

وتوجهت دعوته اليهم في لطف ولين ورفق يذكرهم بأيام الله ويقلب لهم صفحة مضيئة في تاريخهم يوم أن كانوا دعاة هدى وأعلام رحمة ومنارة حق وإيمان ، وصفحة أخرى كالحجة يوم أن انحرفوا عن دين الله وطمسوا حقائقه ومعامله . وهو يدعوهم الى الصفحة المضيئة والبحث فيها : فيجدون رسول الله مكتوبا عندهم في التوراة والايجيل « روى البخارى قال : حدثنا محمد بن سنان قال حدثنا فليح قال حدثنا هلال عن عطاء بن يسار : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة قال : أجل .. والله .. انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يأياها النبي انا أرسلناك

( ٦ ) سورة الاعراف ١٦٨/٧

( ٧ ) سورة الاعراف ١٥٧/٧

شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للأمين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة - ولكن يعفو ، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله ويفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا • قال عطاء ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك فما اختلفا حرفا (٨) ••

وسيجدون عيسى يناديهم :

«يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ» (٩)

فمحمد ليس بدعا من الرسل ولم يأت ليهدم مافى التوراة والانجيل ، انما جاء خاتما للمرسلين وداعيا الى الله على طريقهم ، وهو يكشف النقاب عما أصاب أهل الكتاب وما اعترى كتبهم من ألوان التشبيه والتبديل ، لذلك كانت دعوته اليهم وجداله معهم ليردهم الى الحقيقة الناصعة من التوحيد الكامل لله وتنزيهه عن مشابهة خلقه واثبات صفات الألوهية والربوبية له وحده ••

فناداهم كما أمر الله بقوله :

«قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (١٠)

(٨) تفسير القرطبي ح ٣ ص ٢٧٣٥

(٩) سورة الصف ٦/٦١

(١٠) سورة آل عمران ٦٤/٣

وحين حاولوا جر المؤمنين واقناعهم باليهودية أو النصرانية :

« وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا »

أمر الله المسلمين ان يرشدوا هؤلاء الى الحق وأن يردوهم الى الحقيقة السحاء :

« قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \*  
قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ  
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى  
وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ  
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (١١)

فهذا هو طريق الهداية الصحيح ..

قال تعالى :

« فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ  
تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ  
الْعَلِيمُ » (١٢)

وهذه صبغة الايمان التي طهرت النفوس عبر تاريخ الرسالات لا  
ما يدعون من المعمودية التي يغمسون فيها أولادهم تطهيرا لهم ، فيصير  
بذلك ولهم نصرانيا حقا ..

( ١١ ) سورة البقرة - ١٣٥/٢ ، ١٣٦

( ١٢ ) سورة البقرة ١٣٧/٢

قال جل شأنه :  
 « صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ  
 عِبْدُونَ » (١٣)

ويأمر القرآن رسول الله أن يسألهم :  
 « قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا  
 وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ » (١٣)

ويناقشهم في حقيقة نبوة ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب  
 والأسباط ، وهل كانوا هودا أو نصارى !! فيبين لهم أنهم كانوا حنفاء  
 على دين الاسلام ..

يقول تعالى :

« أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ  
 وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ  
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ  
 عَمَّا تَعْمَلُونَ » (١٣)

نعم .. كان رهط الأنبياء على دين الاسلام .. هكذا يخبر عنهم  
 ربهم وهو الذي أرسلهم وهو أعلم بهم وبما كانوا عليه لا ما يدعيه  
 اليهود والنصارى لهؤلاء الأنبياء : ابراهيم عليه السلام يرفع القواعد من  
 البيت واسماعيل ويجاران الى الله :

« رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* رَبَّنَا

وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا  
مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ<sup>(١٤)</sup>»

ويعلم إسلامه المطلق استجابة لأمر الله :

« إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسَلَّمْتُ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(١٤)</sup> »

ويوصى بها الأنبياء أبناءهم ..

قال تعالى :

« وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَىٰ إِنَّ اللَّهَ  
أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ \* أَمْ  
كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ  
مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ  
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ<sup>(١٤)</sup> »

وموسى عليه السلام على هذا الطريق ينادى قومه :

« يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن  
كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ<sup>(١٥)</sup> »

وعيسى يقول لقومه حين أحس منهم الكفر :

(١٤) سورة البقرة ١٢٧/٢ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣

(١٥) سورة يونس ٨٤/١٠

« مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ  
اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ » (١٦)

ومن قبل هؤلاء نوح يقول لقومه :

« فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا  
عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » (١٧)

ومحمد عليه السلام يأمره ربه بقوله :

« قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ \* لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » (١٨)

فدين الاسلام دين الرسل جميعا ودين اتباع هؤلاء الرسل الكرام  
لا يقبل الله سواه :

« وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي  
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (١٩)

(١٦) سورة آل عمران ٥٢/٣

(١٧) سورة يونس ٧٢/١٠

(١٨) سورة الانعام ١٦٢/٦ ، ١٦٣

(١٩) سورة آل عمران ٨٥/٣



والى هذا الاسلام كانت دعوة أهل الكتاب : اسلام الوجه لله  
والعبودية له وحده والاعتراف له بالكمال المطلق ، فهذا ما جاء به موسى  
وعيسى وهذا ما شرعه الله للأنبياء على اختلاف مراحل الحياة الانسانية .

قال تعالى :

« شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي  
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ  
أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ  
مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ  
مَن يُنِيبُ » (٢٠)

أما عبادة البشر وادعاء الألوهية لهم فهذا ما لم يقل به أحد من  
رسل الله عليهم السلام ومن قال ان عزيزا ابن الله أو ان المسيح ابن الله  
أو انه هو الله أو انه ثالث ثلاثة فقد ضل سواء السبيل .. اذ كيف يكون  
لله ولد وليست له زوجة ؟ وكيف يكون له ولد وهو خالق كل شيء ؟  
وهل يحتاج الخالق العظيم الى الولد ؟

قال تعالى :

« بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ  
تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٢١)

(٢٠) سورة الشورى ١٣/٤٢

(٢١) سورة الانعام ١٠١/٦

وما عيسى الا بشر كسائر البشر :

يقول سبحانه :

« مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ  
الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ » (٢٢)

ويقول :

« إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ  
أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ » (٢٣)

ولهذا يتوجه القرآن بالأمر لأهل الكتاب :

« فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُوا خَيْرًا  
لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ  
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » (٢٤)

وبيّن لهم أن المسيح عبد لله والعابد لا يعبد وحسبه شرفا أن يكون  
عبدا لله وحده ..

فيقول :

« لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا  
الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

(٢٢) سورة المائدة ٧٥/٥

(٢٣) سورة النساء ١٧١/٤

فَسِيْخْشُرْهُمْ اِلَيْهِ جَمِيْعًا \* فَاَمَّا الَّذِيْنَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ اُجُوْرَهُمْ وَيَزِيْدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَاَمَّا  
الَّذِيْنَ اَسْتَنَكَفُوْا وَاَسْتَكْبَرُوْا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا اَلِيْمًا وَلَا  
يَجِدُوْنَ لَهُمْ مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيْرًا» (٢٤)

وانها لدعوة هادئة فيها اقناع للعقل ومخاطبة للوجدان واستشارة  
لكوامن النفس يوجهها القرآن الى اهل الكتاب ويطالبهم بالعودة الى  
حقيقة الايمان بالله دون التواء أو تزيف ، ويوصى المسلمين أن يجادلوهم  
بالرفق واللين والاقناع القائم على البرهان العقلي ، وتجلية الحقائق  
واستقراء تاريخ الرسالات :

فيقول :

« وَلَا تُجَادِلُوْا اَهْلَ الْكِتَابِ اِلَّا بِالَّتِيْ هِيَ اَحْسَنُ اِلَّا  
الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا مِنْهُمْ وَقُولُوْا ءَامَنَّا بِالَّذِيْ اُنْزِلَ اِلَيْنَا وَاُنْزِلَ  
اِلَيْكُمْ وَاللّٰهَنَا وَاللّٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (٢٥)

فهم شركاء المؤمنين في الايمان — وهو رحم بين أهله — ولكن  
ايمان أهل الكتاب يحتاج الى تصحيح وتنقيح واعتدال .. يحتاج الى  
اتمامه بالاعتراف بنهاية الرسالات وختام النبوات .. يحتاج الى الايمان  
بمحمد وما جاء به ، فبذلك تكمل الحلقة ويتم الايمان ويعتدل الطريق

ويتشرف أهل الكتاب بالاسلام ، وما أكرمه من دين شامل كامل لا يفرق بين أحد من رسل الله ولا كتاب من كتبه . فهؤلاء مصابيح الهداية الى الخلق وما معهم نور يهدي الى الحق والى طريق مستقيم ..

## ٢ - موقف النصارى :

هذه الدعوة الرقيقة الهادئة التى دعا بها القرآن أهل الكتاب ، وقامت فى أساسها على البرهان المستقيم والنظر الصحيح ، كانت جديرة أن تجد طريقها الى قلوبهم ، وأن تلقى منهم التأييد والتسليم والايمان .. لكن الواقع أثبت غير ذلك :

اذ أن البراهين التى أقامها القرآن على ما وصل اليه أهل الكتاب من انحراف وأنهم كغيرهم فى حاجة الى الاسلام لم تلبث أن وجدت مقاومة عنيفة لا باللسان فقط ولكن بالمكر والكيد وعلان الحرب على المسلمين ورسول الاسلام . وان كان الوضع قد اختلف بالنسبة لليهود والنصارى على حسب ظروف الدعوة العالمية والمحلية واصطدام الاسلام بأحقاد القوم وأضعافهم تبعاً لمجاورته لكل الفريقين أو بعده عنهما .

« فالمسيحية انتشرت فى الجنوب عن طريق الحبشة ، وفى الشمال عن طريق سورية وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديرة والصوامع ، وكانت النسطورية منتشرة فى الحيرة ، واليعقوبية فى غسان وسائر قبائل الشام » (٢٦) ..

« واليهودية انتشرت بالجهات ولا سيما الحجاز ونواحيها خيبر والمدينة بين قبائل قريظة والنضير ذات الشوكة المتأصلة هناك من زمن مديد ، كما اشتهر هذا الدين بجزء عظيم من قبائل اليمن بعد أن نقله

«التبابعة الى مساكنهم في سنى ٢٥٥ ، ٣٠١ ، ٤٩٥ بعد الميلاد» (٢٧) ..

فلم يكن بمكة أو المدينة من النصارى الا أفراد قلائل لا ذكر لهم، أما اليهود فقد كانوا قوة اقتصادية واجتماعية في المدينة ، وهى منطلق الاسلام الى بناء المجتمع الجديد وفيها قامت دولته ..

ونظرا لهذه الظروف لم يصطدم الاسلام - في مراحله الأولى - بالنصارى ، لأنه لم يعايشهم ، ولكن ذلك لم يدم طويلا بعد أن استقر نظامه وثبتت أركانه وبدأ صلى الله عليه وسلم يرأس ملوك الأرض يدعوهم الى دين الله ، فوجدوا فيه الخطر على ما ادعوه من ألوهية كاذبة وسلطان يفرض جبروته ، وعنفوانه على الشعوب ، وتجردت الجيوش الكثيفة والقوى الجبارة لتقضى على الاسلام في مهده ، فكانت غزوة تبوك آخر غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها انسحب جيش الروم وأصابه الخوف من قوة المسلمين .. ولم ير الرسول القبائل والبلاد الواقعة على تلك الحدود ..

ومن «تبوك» الى «اليرموك» وفتح بلاد الشام وما وراءها لم يخب أوار المعركة الدائرة بين الاسلام والنصرانية ، وتعبير أدق : بين الاسلام ومن اتسبوا الى دين المسيح زورا ، وكانت الحروب الصليبية التى امتدت لقرنين من الزمان ، وحملات التبشير والتنصير فى العصر الحديث كلها أدلة بارزة على هذا الحقد وتلك الكراهية للاسلام وأهله والتى بنيت على أساس من الجهل والتعصب الأعمى . وعدم تفتح عقول هؤلاء القوم الى ما جاء به الاسلام من تكريم لعيسى ورفع لمقام

الأنبياء وما فيه من جدل هادئ ودعوة صادقة الى وحدة الدين على مر  
الأجيال .. لكن الأمر كان أكبر من ذلك وأعظم .. كان ملكا وسلطانا  
وحكما وجهلا مفروضا على أتباع الملوك والحكام ، واندفاعا لصد تيار  
الاسلام دون روية أو نظر ، مما اضطر المسلمين الى خوض غمار الحروب  
الدائمة حتى أزاحوا من طريقهم قوة الباطل ، وأسقطوا ملك الظالمين .  
قرأت الشعوب نور الله فتحوّلت الى دين الاسلام ونظقت ألسنتها باللغة  
العربية لغة القرآن ..

أما قبل أن يتسع مد الاسلام ويواجه الحكام الذين جندوا الشعوب  
لصد تيار الاسلام ، فقد كان الكثيرون من النصارى يأتون الى رسول  
الله صلى الله عليه وسلم يجادلونه ويجادلهم ، ومنهم من كان يعلن  
اسلامه ويقتنع بما جاء به كتاب الله : ذكر البهقي عن ابن اسحاق قال :  
قدم على النبي صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا وهو بمكة أو قريب  
من ذلك من النصارى حين ظهر خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد  
فكلموه وسألوه ورجال من قريش في أندية حول الكعبة ، فلما  
فرغوا من مسئلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم  
رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن ، فلما  
سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه  
وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا من عنده  
اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقالوا : خيكم الله من ركب ، بعثكم  
من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل فلم تطل  
مجالستكم عنده حتى فارقت دينكم وصدقتموه بما قال لكم ، ما نعلم  
ركبا أحق منكم فقالوا : سلام عليكم لانجاهلكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم  
لا نألو أنفسنا خيرا فيقال انهم النفر النصارى من أهل نجران ، ويقال  
ان فيهم نزلت هؤلاء الآيات ..

« الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ »

الى قوله :

« وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا »

وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » (٢٨)

ومن النصارى من كان يقتنع بالحق ولكنه يصّر على ما معه من الباطل ، ومن هؤلاء من دعاهم الرسول عليه السلام الى المباحلة أى الابتهال الى الله والتضرع اليه أن يهلك الكاذبين ، فأبوا وخافوا على أنفسهم من مقت الله وغضبه ، ورجعوا على أن يسالموا الرسول ويدفعوا الجزية ، وفى هذه المباحلة يقول القرآن :

« فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ »

تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا

وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ \*

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ

لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » (٢٩)

« روى أنهم لما دعاهم الى المباحلة قالوا : حتى نرجع وننظر فلما

تخالوا قالوا للعاقب — وكان ذا رأى فيهم — يا عبد المسيح ما ترى ؟ فقال :

والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبى مرسل ، ولقد جاءكم

بالفصل من أمر صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا

(٢٨) تفسير القرطبي ح ٣ ص ٢٢٥٢ ، ٢٢٥٣ والآيات من سورة :

القصص ٥٢/٢٨ - ٥٥

(٢٩) سورة آل عمران ٦١/٣ - ٦٣

تبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لتهلكن فان أيتهم الا الف دينكم والاقامة على ما أتمم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها وهو يقول اذا أنا دعوت فأمنوا ، فقال أسقف نجران : يا معشر النصارى انى لأرى وجوها لو شاء الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها ، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى الى يوم القيامة فقالوا : يا أبا القاسم رأينا ألا نباهلك وأن نترك على دينك وثبت على ديننا . قال : فاذا أيتهم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم . فأبوا . قال : فانى أنا جزكم . فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على ألا تغزونا وتخيفنا ولا تردنا على ديننا على أن نؤدى اليك كل عام ألفى حلة فى صفر وألفا فى رجب ، وثلاثين درعا عادية من حديد . فصالحهم على ذلك وقال : والذى نفسى بيده ان الهلاك قد تدلى على أهل نجران وابولاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى نارا ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رعوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا<sup>(٣٠)</sup>

والقرآن يحدثنا عن طائفة خاصة من النصارى استجابت للحق وفاضت أعينها بالدمع مما عرفت من الحق ، فامتدحها الله وأثنى عليها كما ذم اليهود ولعنهم فقال :

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَهُوَدَ  
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا  
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْيسِينَ وَرُهْبَانًا  
وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ \* وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ



تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ \* وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ \* فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَزَاءً تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣١﴾

قال الامام القرطبي في تفسيره : « وهذه الآية نزلت في النجاشي وأصحابه لما قدم عليهم المسلمين في الهجرة الأولى - على حسب ما هو مشهور في سيرة ابن اسحاق وغيره - خوفا من المشركين وفنتتهم ، وكانوا ذوى عدد ثم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة بعد ذلك فلم يقدروا على الوصول اليه ، حالت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب ، فلما كانت وقعة بدر وقتل الله صناديد الكفار قال كفار قريش : ان تأركم بأرض الحبشة فاهدوا الى النجاشي وابعثوا اليه رجلين من ذوى رأيكم لعله يعطيكم من عنده فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر . فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة بهدايا فسمع النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري وكتب معه الى النجاشي فقدم على النجاشي فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين وأرسل الى الرهبان والقسيسين فجمعهم ثم أمر جعفر بن أبى طالب أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة « مريم » فقاموا تفيض أعينهم من الدمع فهم الذين أنزل الله فيهم « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا »

«الذين قالوا : انا نصارى ..» وقرأ الى الشاهدين .. رواه أبو داود  
قال : حدثنا محمد بن سلمة المرادى قال : حدثنا ابن وهب قال : أخبرني  
يونس عن ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ،  
وعن سعيد بن المسيب وعن عروة بن الزبير أن الهجرة الأولى هجرة  
المسلمين الى أرض الحبشة وساق الحديث بطوله .. وقيل : أن جعفرا  
وأصحابه قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلا عليهم ثياب  
الصوف فيهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام وهم بحيرا  
الراهب وادريس وأشرف وأبرهة ، وثمانية وستمائة ودريد وأيمن ، فقرأ  
عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة يس - الى آخرها فبكوا حين  
سمعوا القرآن وآمنوا ، وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على  
عيسى ، فنزلت فيهم : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود  
والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا  
نصارى » يعنى وفد النجاشي ، وكانوا أصحاب الصوامع . وقال سعيد  
ابن جبير وأنزل الله فيهم أيضا : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به  
مؤمنون » الى قوله : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين » الى آخر الآية ،  
وقال مقاتل والكلبي : كانوا أربعين رجلا من أهل نجران بن الحارث بن  
كعب واثنا وثلاثون من الحبشة وثمانية وستون من أهل الشام .

وقال قتاده : « نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من  
الحق مما جاء به عيسى ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم آمنوا  
به فأثنى عليهم (٣٢) » ..

كما ساق القرطبي في سبب نزول هذه الآيات حديث البيهقي عن  
ابن اسحاق في المباهلة وقد سبق ذكره .

واذن فهؤلاء جماعة خاصة أثر فيها ما أنزل الله على رسوله ، ووصلت إلى درجة الاحسان في ايمانها .

قال تعالى :

« فَأَثْبَتَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ » (٣٣)

وليس كل من قال : انا نصارى « أقرب مودة » ورحما للمؤمنين .. فالتاريخ شاهد صدق على ما لقيه المؤمنون من ألوان النكران والجحود من هؤلاء الذين قالوا انا نصارى وانهم ما سحت لهم فرصة الا انتهزوها لاستئصال الاسلام وأهله ، وما زالت مأساة الأندلس وما حل بالمسلمين فيها نذير خطر لكل من فهم أن موالاة أعداء الله تفيد المسلمين شيئا ، انهم كما قال القرآن للمؤمنين :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » (٣٤)

لكنها المعاشة والاكرام والاحسان من جانب المسلمين لمن عايشهم وسالمهم ، أما أن تقف هذه المعسكرات تناوىء الاسلام وتشن عليه حملة شعواء ، وتجنّد رجالها وشبابها وأموالها لصد تيار الاسلام وللقتضاء على منهج القرآن ويأتى من المسلمين من يدعى أن النصارى أقرب مودة للذين آمنوا ، فهذا جهل بالقرآن وسياق آياته وما ترشد اليه من تحديد أكامل لوضع المجتمع المسلم وعلاقته بالمجتمعات الأخرى ..

ولا أظن أننا في حاجة الى اثبات ما وصلت اليه النصرانية من التعصب ضد الاسلام امتد على مر التاريخ من يوم أن التقى بهما الاسلام وبمعسكراتها الى يومنا هذا ، بعد أن أصبح ذلك أمرا معترفا به تعلنه الأمم المسيحية وتجاهر به في عصر يدعى فيه هؤلاء النزاهة العلمية وخدمة الانسانية .. وهذا تقرير تقدمه بعثة من الأزهر مؤلفة من الأستاذين الفاضلين : عبد الله المشد ومحمود خليفة الى بلاد الصومال وأرتيريا وعدن والحبشة لدراسة أحوال المسلمين بهذه البلاد ، واستغرقت رحلة البعثة ثلاثة أشهر ما بين يوم ٢٦ من شعبان سنة ١٣٧٠ هـ الموافق أول يونيو سنة ١٩٥١ م الى يوم ٢٩ من ذى القعدة الموافق أول سبتمبر سنة ١٩٥١ وكتبت تقريراً مفصلاً يقع في ستين ومائة صفحة كبيرة يتسم بالدقة والاعتدال والواقعية ..

ومما جاء في هذا التقرير : « أن نسبة المسلمين في الحبشة بصفة عامة لا تقل عن ٦٥٪ من مجموع السكان ، وأنها ترتفع في بعض المناطق الى ٨٥٪ وتهبط في بعضها الى ٢٥٪ ، وهي في مجموعها أغلبية أكيدة مع انقسام البقية من السكان الى مسيحيين ويهود ووثنيين » ..

ويعتمد التقرير في هذا على الاحصاء الايطالى الدقيق الذى قام به الايطاليون في سنة ١٩٣٦ واحصاءات القنصليات الأجنبية في الحبشة ..

ثم يذكر التقرير هذه الحقائق المفجعة العجيبة :

أولاً : ان الحكومة الحبشية بعد انتهاء الاستعمار الايطالى قد اغتصبت من المسلمين ثلثى أملاكهم العقارية وسلمتها للمسيحيين من الرعايا ، مع بقاء الضريبة الفادحة على الرعايا المسلمين حرصاً على افقارهم وانحلالهم !

ثانيا : ان الحكومة الحبشية تمنح ارساليات التبشير المسيحية كل العناية والرعاية ، في الوقت الذي تحرم فيه على المسلم أن ينتقل من محله الى محلة أخرى لارشاد المسلمين ووعظهم ، وتقضى على كل محاولة ترمى الى ذلك ، وقد جاء في تقرير لهذه الارساليات أنه يمكن تنصير جميع المسلمين في هذه المناطق خلال خمس سنوات نظرا لجهلهم وفقرتهم وعدم وجود من يعلمهم دينهم أو يحثهم على التمسك بعقيدتهم !

ثالثا : ان أكثر المسلمين في الحبشة اهتماما بنشر علوم الدين هم مسلمو قطاعات : كفا جيما واللوه هرر ، وأنه كان في « جيما » وحدها أكثر من ستين مدرسة لتعليم أبناء المسلمين ، ولكن بعد أن أعلن ضمها الى الامبراطورية الحبشية واعتقل سلطانها الأمير عبد الله بن السلطان محمود بن داود المشهور باسم جيفار وزج به في غيابة السجن استولت الحكومة الحبشية على هذه المدارس ثم أغلقت أكثرها وغيّرت مناهج ما بقى منها ، ولم تجعل للغة العربية ولا للدين الاسلامي أثرا فيها ..

رابعا : ان السلطة الحبشية جاهدة في سبيل نشر التعليم بين أبناء المسيحيين في البلاد بقدر ما تسمح لها مواردها ، وأنها أنشأت لذلك حوالى مائتي مدرسة ابتدائية وثانوية للبنين والبنات ليس من بين تلاميذها وتلميذاتها أكثر من ثلاثة في المائة من مسلمي الحبشة الذين لم تجد الحكومة بدا من قبولهم لظروف خاصة ، وأنه على الرغم من زيادة عدد المسلمين عن المسيحيين لا تقوم الحكومة بالاتفاق على تعليمهم بأكثر من خمسة في المائة من ميزانية التعليم .. هذا الى أن برامج المدارس الحكومية ليس للغة العربية ولا للدين الاسلامي نصيب فيها حتى في المناطق الاسلامية المحضة ! ..

خامسا : ان المسلمين قد ألحوا على وزارة المعارف في هذه المناطق بتقرير دراسة الدين الاسلامي واللغة العربية في المدارس التي بها ،

فعينت مدرسين في بعض هذه المدارس باسم تعليم الدين الاسلامى ،  
ورفضت طلب تدريس اللغة العربية واختارت مدرس الدين الاسلامى  
من بعض الجهلة الذين لا يدرون شيئا من تعاليم الاسلام ، ولم تحدد  
لحصة الدين زمنا خاصا كغيرها من حصص الأهرية والانجليزية وسائر  
العلوم التى تدرس فى المدرسة ، بل كلفت مدرس الدين الاسلامى أن  
يجمع التلاميذ فى الأوقات المخصصة لراحتهم ليعلمهم فيها المبادئ التى  
لا تخرج عن أوقات الصلاة المفروضة وعدد ركعاتها وأركانها وشروطها  
وما شاكل ذلك ، فكان ذلك المدرس لا يجد من أوقات راحة التلاميذ  
ما يسمح بتعليمهم ويمر العام كله دون أن يلقي عليهم درسا واحدا !!  
سادسا : ان الحكومة اختارت فى العام الماضى بعثات من المتخرجين  
فى بعض المدارس وأوفدتها الى المعاهد المختلفة فى الخارج ليعودوا  
فيتولوا المناصب الكبيرة فى الدولة ، وقد كان من بين المبعوثين اثنان  
من المسلمين بحكم تفوقهما البارز ، ولكن بعد أن تمت اجراءات سفرهما  
حيل بينهما وبين السفر لأسباب غير معروفة ! ..

سابعا : انه كان للمسلمين ثمانى مدارس وكانت الدراسة فيها  
قائمة على أساس اللغة العربية والدين الاسلامى ومواردها تأتي من  
التبرعات والهبات بواسطة جمعيات لهذا الغرض ، وكانت تقوم بتعليم  
ثلاثة آلاف من أبناء المسلمين ، وقد ظلت تؤدي مهمتها برغم جميع المتاعب  
الى سنة ١٩٤٩ ، ولكن الحكومة أرادت اخضاعها لبرامجها الخالية من  
اللغة العربية والدين ، فلما رفض القائمون عليها هذا الأمر سلكت الحكومة  
مع هذه الجمعيات مسلكا اضطر أعضاؤها بسببه الى التخلّى عن  
مساعدة هذه المدارس والتنازل للمعارف عن ثلاث مدارس منها وعندئذ  
حزفت منها مادتا اللغة العربية والدين الاسلامى ! ..

ثامنا : ان المدارس الباقية فى طريقها الى هذا المصير البائس ، لأن الوسائل التى اتبعت بشأن المدارس الثلاثة ماضية فى طريقها .. وقد تركت البعثة الحبشية ومدرسة رابعة تلاقى مصيرها ..

تاسعا : ان احدى المدارس الباقية طلبت من المعارف أن تسمح لبعض المدرسين المصريين بالحبشة أن يقوموا بتدريس بعض العلوم فى أثناء فراغهم نظرا لحاجة المدرسة الى بعض المدرسين الأكفاء ، ولكن المعارف الحبشية رفضت هذا الطلب ! ..

عاشرا : ان الكتب العربية لا يسمح بدخولها الى أثيوبيا ولا تداولها ، أما الجرائد والمجلات العربية فيسمح بدخولها تحت المراقبة الشديدة (٣٥) ..

وما يحدث فى الحبشة سياسة عامة يلقاها المسلمون فى كثير من البلاد التى يتولى الحكم فيها زمرة أتباع المسيح ..

وانها لمأساة حقا أن يكون هذا موقف النصارى من الاسلام ومن أتباع هذا الدين المبرأ من التعصب والداعى الى التسامح ، وهو موقف يتسم بالعداء الصارخ ويحتاج من مجتمع الاسلام الى يقظة ووعى وتبصر ..

### ٣ - موقف اليهود :

أما اليهود فقد كان اصطدام الاسلام بهم فى وقت مبكر نظرا لوجودهم فى المدينة ، وكان جوار المسلمين لهم جديرا أن يجعلهم مع المسلمين قوة واحدة ، بل كان كفيلا أن يبادر أهل الكتاب من اليهود

الى الدخول في الاسلام والدفاع عنه وحمل رايته والتشرف بالانتساب اليه ، وهم الذين كانوا ينتظرون مبعث محمد عليه السلام ويتوعدون الأوس والخزرج كلما اختلفوا واياهم قالوا لهم : « ان نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم » (٣٦) ..

فلما هاجر الرسول الى يثرب عقد معهم معاهدة أمن ودفاع ، وحمى لهم دينهم وأموالهم وأعراضهم ، وجعلهم مع أهل المدينة يدا واحدة تصد كل عدوان ..

لكن نظرة اليهود الى الشعوب واعتقادهم أن بنى اسرائيل شعب الله المختار وأن الرسالة والقيادة يجب أن تكون منهم ، جعلتهم يكفرون بهذا الرسول الذى بعث من العرب روى ابن اسحاق بسنده عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بنى سلمه : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته ، فقال سلام بن مشكم أحد بنى النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذى كنا نذكره لكم ، فأنزل الله في ذلك من قولهم :

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ » (٣٧)

(٣٦) حياة محمد : لهيكل ص ٢٠٢ .

(٣٧) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٦ .. الآية من سورة البقرة .



واليهود ضعاف أينما حلوا لا يستطيعون المواجهة الصريحة ففى ميدان قتال وحدهم ، ولقد صنع بهم التعذيب على يد فرعون فى مصر ، والسبى فى بابل والاضطهاد الرومانى وتفريقهم فى أنحاء الأرض عقدة نقص وحقد ، فكانت وسيلتهم لتدمير أى مجتمع مكرا أو وقية وتفرقا للصف .. لذلك سالموا الرسول عند مقدمه أرض يثرب وانطوت قلوبهم على الكيد له .. تقول السيدة صفية بنت حى بن أخطب أم المؤمنين : « لم يكن أحد من ولد أبى وعمى أحب إليهما منى ، ولم ألقهما فى ولدهما ولم أهش إليهما الا أخذانى دونه ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء قرية بنى عمرو بن عوف - غدا اليه أبى وعمى أبو ياسر ابن أخطب مغلسين ، فوالله ماجاءنا الا مع مغيب الشمس فجاءنا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى ، فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما ألتفت الى واحد منهما ، فسمعت عمى أبنا ياسر يقول لأبى : أهو هو ؟ قال : نعم والله . قال : تعرفه بنعته وصفته ؟ قال : نعم والله . قال : فماذا فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت (٣٨) ..

وبقيت هذه العداوة مستترة لفترة قصيرة من الزمن خيل الى اليهود فيها أن باستطاعتهم ضم محمد الى صفهم والانتصار به على أعدائهم فجاملوه وجاملهم ، وبقي يصى الى بيت المقدس كما كان يصى من يوم أن فرضت الصلاة ، فربما كان فى اتحاد وجهة العبادة اتحاد للفكرة وجمع للشمل والايان بالآله واحد ، والانضواء تحت لواء الدين الحق وجاءت آيات القرآن تذكر من تاريخهم الشئ الكثير وتبين أن منهم من يدرك الحق ويعرف الطريق فهم .. كما قال الله تعالى :

« لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ

ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ \* يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ  
فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ \* وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ  
فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٣٩)

عن ابن مسعود : المعنى ليس المؤمنون والكافرون من أهل الكتاب  
سواء ، وعن ابن عباس : لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية  
وسيد بن سعية وأسد بن عبيد ، ومن أسلم من يهود فآمنوا وصدقوا  
ورغبوا في الاسلام ورسخوا فيه قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم :  
ما آمن بمحمد ولا تبعه الا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين  
آبائهم وذهبوا الى غيره ، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قوله :

« لَيْسُوا سَوَاءً إِلَى قَوْلِهِ : وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ » (٤٠)

وعلمائهم في قمة من يحتج بهم القرآن لدى المشركين على صحة  
ما جاء فيه اذ يقول : ( أى القرآن وما جاء فيه من أحكام ثابتة لا تتغير ) .

« وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ \* أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ  
أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ » (٤١)

وعلمائهم شهداء على صحة رسالته عليه السلام بعد الله سبحانه.

(٣٩) سورة آل عمران ١١٤/٣ - ١١٥

(٤٠) تفسير القرطبي ص ١٤١٧

(٤١) سورة الشعراء ١٩٦/٢٦ ، ١٩٧

وتلك منزلة عالية لعلماء أهل الكتاب .. يقول القرآن :

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » (٤٢)

وامتد جبل المودة — شأن المنهج الالهي في تحديد علاقة المسلمين  
بمن سالمهم — فأباح الله للمؤمنين طعام أهل الكتاب ونكاح بناتهم فقال :

« الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا  
الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ  
الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ  
قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ  
وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ » (٤٣)

وأفاض عليهم رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — من كرم عطفه  
وجمال عفوه وحسن أدبه وعظيم أخلاقه ما يجذب اليه القلوب ويستل  
منها بغضها وحقدها ، لكنهم ما ان رأوه يزداد في المدينة وما حولها كل  
يوم قوة وأن الأمل في اجتذابه الى صفهم وخدمهم والاستئثار به لن  
يكون ، وأن هذا النبي ليس نبي بنى اسرائيل أو العرب ، انما هو رسول  
رب العالمين الى الناس كافة ، ما ان رأوا ذلك وتحققوه حتى تغيرت معاملتهم  
للمسلمين وبدعوا حملة من التشكيك في الرسالة والرسول ، وأثاروها

حكيدة يفرقون بها الصف الاسلامي الذي وحده الايمان والتجأوا الى  
معسكر الشرك وتحالفوا معه على حرب المسلمين والقضاء عليهم ، وبدأ  
أنهم على استعداد لمحاربة الشيطان لاطفاء نور الله ..

يقول القرآن :

« وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ »

وتظاهر بعضهم بالاسلام - وهو بين الحين والآخر يسدى من  
الشكوك والريب ويلقى على محمد من الأسئلة ما يحسبه يززع في أنفس  
المسلمين عقيدتهم به وبرسالته الحق التي يدعو اليها .. قال تعالى :

« وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي  
أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامِنُوا وَجِهَ النَّهَارِ وَٱكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ  
يَرْجِعُونَ \* وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى  
هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ  
عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ  
وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (٤٤)

قال القرطبي : معنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض : أظهروا  
الايمان بمحمد في أول النهار ثم اكفروا به آخره ، فانكم ان فعلتم ذلك  
ظهر لمن يتبعه ارتياب في دينه فيرجعون عن دينه الى دينكم ويقولون :  
ان أهل الكتاب أعلم به منا (٤٥) ..

(٤٤) سورة آل عمران ٧٢/٣ ، ٧٣

(٤٥) تفسير القرطبي ص ١٣٥٣ .

وهم الذين أوعزوا من قبل الى نفر من المشركين أن يسألوا الرسول  
 خيسا ظنوه له محرجا ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن قريشا اجتمعوا  
 وقالوا : ان محمدا نشأ فينا بالأمانة والصدق وما اتهمناه بكذب ، وقد  
 ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فانهم أهل  
 الكتاب ، فبعثوا جماعة اليهم فقالت اليهود : سلوه عن ثلاثة أشياء فان  
 أجاب عنها كلها أو لم يجب عن شيء منها فليس بنبي ، وان أجاب عن اثنين  
 ولم يجب عن واحد فهو نبي . . فاسألوه عن فتية فقدوا في الزمن الأول  
 ما كان أمرهم فانه كان لهم حديث عجيب ، وعن رجل بلغ شرق الأرض  
 وغربها ما خبره ، وعن الروح . فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال :  
 أخبركم بما سألتكم غدا ولم يقل ان شاء الله . قال مجاهد : فلبث الوحي  
 اثني عشر يوما وقيل خمسة عشر يوما وقيل أربعين يوما وأهل مكة يقولون :  
 وعدنا محمد غدا وأصبحنا لا يخبرنا بشيء حتى حزن رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم من مكث الوحي وشق عليه ما يقول أهل مكة ثم نزل جبريل  
 عليه السلام بقوله تعالى :

« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا \* إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ »

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا \* إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ »

الآيات ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا »

الآيات ونزل في الروح قوله تعالى :

«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» الآية

وأزعجهم اتحاد المسلمين واجتماع كلمتهم فحاولوا تفريقهم «روى أن نفرا من الأوس والخزرج كانوا جلوسا يتحدثون فمر بهم شاس بن قيس اليهودي ، وكان عظيم الكفر شديد الحسد للمسلمين ، فغاضه ما رأى منهم من تآلف القلوب واتحاد الكلمة واجتماع الرأي ، بعد ما كان بينهم من العداوة والشقاق ، فأمر شابا يهوديا كان معه بأن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعث ، وكان ذلك يوما عظيما اقتتل فيه الحيان وكان الظفر للأوس ، وينشد لهم ما قيل فيه من الأشعار ففعل ، فتفاخر القوم وتغاضبوا حتى تواءبوا وقالوا : السلاح ، السلاح . فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم فعند ذلك جاءهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقالوا : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله تعالى بالاسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بينكم ؟! فعلموا أنها نزعة من الشيطان وكيد عدوهم ، فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤٦) . قال الامام الواحدى : اصطفوا للقتال فنزلت الآيات :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ

أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ»

الى قوله تعالى :

«كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»

فجاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفيين فقرأهن ورفع صوته فلما سمعوا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنصتوا له وجعلوا يستمعون له فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبيكون (٤٧) » ..

واشتد الجدل بينهم وبين الرسول والمسلمين ، ونزلت آيات القرآن المتتالية تبين عنت اليهود وكفرهم وبعدهم عن جادة الطريق ، بل كان في هذا الجدل اعتداء على ذات الاله وهجوم على كتاب الله ، مما أثار المسلمين حتى من اشتهر منهم بالحلم والأناة . هذا هو أبو بكر رضى الله عنه يذهب الى يهود بنى قينقاع حاملا رسالة من الرسول وفيها دعوتهم الى الاسلام ، واقام الصلاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا ، فرد فنحاص بقوله : والله يا أبا بكر ما بنا الى الله من فقر وانه الينا لفقير وما تتضرع اليه كما يتضرع الينا وانا عنه أغنياء ، وما هو عنا بغنى ولو كان غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنيا ما أعطانا فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا وقال : والذي نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله ، وشكا فنحاص أمره الى النبي صلى الله عليه وسلم وأنكر ما قاله لأبى بكر فى الله ، فنزل قوله تعالى :

« لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » (٤٨)

(٤٧) تفسير ابى السعود ح ١ ص ٢٥٦ والآيات من سورة آل عمران ١٠٠/٣ - ١٠٣

(٤٨) حياة محمد : لهيكل ص ٢٣٦ ، تفسير ابى السعود ح ١ ص ٢٩٨ ، الكشف للزمخشري ح ١ ص ٣٦٥ والآية من آل عمران ١٨١/٣

ووصل الأمر منتهاه حين حاولوا فتنه الرسول نفسه • فعن ابن اسحق قال ابن عباس : اجتمع قوم من الأخبار منهم ابن سوريا وكعب ابن أسد وابن صلوبا وشاس بن عدي ، وقالوا : اذهبوا بنا الى محمد فلعنا فتنه عن دينه فانما هو بشر • فأتوه فقالوا : قد عرفت يا محمد أننا أخبار اليهود وان اتبعناك لم يخالفنا أحد من اليهود ، وان بيننا وبين قوم خصومة فنحاكمهم اليك فاقض لنا عليهم حتى نؤمن بك فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت هذه الآية :

« وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ  
وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ  
تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ  
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ \* أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ  
وَمَنْ أَحْسَنُ مِّنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّلْقَوْمِ يُوْقِنُونَ » (٤٩)

ولما وجدوه ثابتا لا يتزحزح أرادوا أن يمكروا به وأن يقنعوه بالجلء عن المدينة فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعا الى بيت المقدس ، وكان به مقامهم ، وأنه ان يكن رسولا حقا فجدير به أن يصنع صنيعهم ، وأن يعتبر المدينة وسطا في هجرته بين مكة ومدينة المسجد الأقصى ، لكنه ما كانت تنطلي عليه تلك الخدعة اذ كان دائم التوجه الى الله أن يجعل قبلته بيت الله الحرام ، فاستجاب الله رجاءه وتحول الى الكعبة على رأس سبعة عشر شهرا من مقامه بالمدينة ، وفي ذلك يقول



« قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » .

فثارت ثائرة اليهود وانتهزوها فرصة لتضليل الرأي العام وإشاعة حالة السوء ، فنزل القرآن يرد عليهم افتراءهم وضلالهم اذ يقول :

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

الى قوله تعالى :

« وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِي عَيْنُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (٥٠)

وكان انتصار المسلمين في بدر في رمضان من العام الثاني للهجرة دليلا على قوة الدولة الناشئة ، وضربة لكل من تحدته نفسه أن يعتدى على هؤلاء المؤمنين . وكان هذا الانتصار على دولة الشرك جديرا أن يشرح

صدر اليهود ويفرحهم ، فهم أهل كتاب منزل كما فرح المسلمون في مكة لا تتصار الروم على الفرس لا شيء الا لأن الروم أهل كتاب وشركاء في الايمان ، لكن هذا النصر قبول بالتهوين من شأنه وبالحزن العميق من اليهود حتى قال كعب بن أشرف : هؤلاء أشرف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ، وذهب الى مكة يحرض على محمد وينشد الأشعار ويكي أصحاب القلب ورجع الى المدينة فجعل يشبب بنساء المسلمين وكان لابد من قتل كعب فقتله المسلمون (٥١) . . ومن قبله قتل أبو عفك اليهودي وكان يرسل الأشعار يطعن بها على محمد والمسلمين ، ويحرض بها قومه على الخروج عليهم ، وظل كذلك بعد بدر يغري بهم الناس فقتله سالم بن عمير ، كما قتلت عصماء بنت عمران ، وقد كانت تعيب الاسلام وتؤذى النبي وتحرض عليه . ومع ذلك فلم يكف اليهود ولم يحفظوا عهدهم ، فقد قدمت امرأة من المسلمين الى سوق اليهود من بني قينقاع ومعها حلية جلست الى صائغ منهم بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهي تأبى فجاء يهودي من خلفها في سر منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة الى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهوديا فقتله وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، ولما طلب اليهم الرسول أن يكفوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد المودعة أو ينزل بهم ما نزل بقريش ، استخفوا بوعيده وأجابوه : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة انا والله لئن حاربناك لتعلمين انا نحن الناس (٥٢) » . .

وكان لابد لمن تقضوا العهد أن يلقوا جزاء غدرهم فحاصرهم الرسول والمؤمنون معه خمسة عشر يوما فاضطروا الى التسليم والخروج

(٥١) ابن هشام ج ٢ ص ١٤١ ، ١٤٢

(٥٢) حياة محمد : لهيكل ص ٢٧٨ ، ٢٧٩

من المدينة الى وادى القرى ، ومنها ساروا صوب الشمال حتى بلغوا « أذرعات » على حدود الشام ، وبها أقاموا بعد أن تركوا بالمدينة سلاحهم وكثيرا من أمتعتهم ودورهم ..

وكانت هزيمة المسلمين فى أحد فرصة لمن بقى من اليهود ليتشفوا من المسلمين وليطلقوا لألسنتهم العنان ، وكان أصحاب الرجيع الستة الذين قتلهم هذيل ، وأصحاب « بئر معونة » الأربعون الذين أجارهم أبو براء وقتلهم عامر بن الطفيل ومن معه ، ولم ينج الا كعب بن زيد وعمرو بن أمية .. ولقى عمرو فى الطريق رجلين فحسبهما من القوم الذين عدوا على أصحابه فأمهلهما حتى تأما وعدا عليهما فقتلها وتابع سيره حتى بلغ المدينة ، فأخبر الرسول بذلك فاذا الرجلان عامريان من قوم أبى براء ، واذا معهما عقد جوار من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ذلك كله بابا لاستهتار اليهود بالقوة الاسلامية ، ولما كان بنو النضير حلفاء لبنى عامر ، فقد ذهب الرسول عليه السلام اليهم فى عشرة من أصحابه ، وطلب اليهم معاونة المسلمين فى دية القتيلين اللذين قتلها عمرو ابن أمية خطأ - فأظهروا السرور لمقدم الرسول وصحبه ، ولكنهم كانوا يتآمرون على قتله ، ودخل عمرو بن جحاش بن كعب البيت الذى كان محمد عليه السلام مستندا الى جواره ليرمى عليه حجرا يقتله به ، وأعلم الله رسوله بغدر هؤلاء ، فانسحب من مكانه تاركا أصحابه يظنون أنه قام لبعض أمره ، وبعث النبى الى محمد بن مسلمة وقال له : اذهب الى يهود بنى النضير وقل لهم : ان رسول الله أرسلني اليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد تقضتم العهد الذى جعلته لكم بما همتم به من الغدر بى ، لقد أجلتكم عشرا من رثى بعد ذلك ضربت عنقه ... وعقدوا أمرهم على الخروج لولا رسل عبد الله بن أبى الذى وعدهم بالنصرة والمعونة ، فتحصنوا بحصونهم وعزموا على القتال فحاصرهم المسلمون عشرين ليلة اضطروا الى التسليم وخرجوا على رأسهم حبي بن أخطب فنزل خيبر

منهم من نزل وسار آخرون الى أذرعات بالشام وتركوا وراءهم للمسلمين  
مغانم كثيرة من غلال وسلاح وأرض قسمها الرسول على المهاجرين  
خاصة ، ولم يشترك في القسمة من الأنصار الا أبو دجانة وسهيل بن  
حنيف لفقرهما ..

وما كان لليهود أن يسكتوا على هذه الهزائم المنكرة وهذا النصر  
المؤزر الذى حققه رسول الاسلام ، وما كان لهم - أيضا - أن يلتقوا  
بالمسلمين فى معركة وهم ضعاف لا يستطيعون ذلك ، واذن فلا بد من وسيلة  
أخرى للقضاء على هذا الذى أخرجهم وشتتهم . لذلك انطلق رؤسائهم  
ومنهم حبي بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وكنانة بن أبسى الحقيق  
وغيرهم ، لتأليب من يستطيعون واستثارة أصحاب الثارات والعداوات  
فى أنحاء الجزيرة على محمد وأصحابه ، وفى سبيل ذلك كذبوا على الله  
وكفروا بالله كفرا صريحا فسجدوا للأصنام وادعوا أن ما عليه المشركون  
خير مما جاء به محمد . قالت قريش ، أأنتم أهل كتاب وأنتم أقرب الى  
محمد منا ، فلا نأمن مكرهم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن اليكم ففعلوا .  
وقال أبو سفيان لكعب انك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم  
فأينا أهدي طريقا نحن أم محمد ؟ فقال : ماذا يقول محمد ؟ قال : يأمر  
بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك قال : وما دينكم ؟ قالوا : نحن ولاة  
البيت نسقى الحجاج ونقرى الضيف ونفك العاني ، وذكروا أفعالهم .  
فقال : أنتم أهدي سبيلا . ولقد أنكر عليهم القرآن هذا الموقف المخزى  
فقال :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ

بِالْجِبْتِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ  
 مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا \* أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن  
 يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۝ (٥٣)

وخرج هذا الوفد الذى استولى عليه الشيطان الى غطفان والى  
 بنى مرة وبنى فزارة وأشجع وسليم وبنى سعد وأسد وغيرهم ، وما  
 زالوا بهم يحرضونهم ويفضلون لهم وثبتهم على الحق الذى جاء به  
 محمد ويعدونهم النصر لا محالة ، حتى اجتمع أكثر من عشرة آلاف مقاتل  
 تحت امرة أبى سفيان قاصدين جميعا المدينة ليضربوا الضربة الأخيرة فى  
 قلب أمة الاسلام ، ولولا الخندق الذى حفره المسلمون حول المدينة  
 باستشارة سلمان الفارسى لأتاهم الأحزاب من كل جانب وقضوا على من  
 فيها .

وحاول رؤساء اليهود أن يضربوا المسلمين من الخلف وكان يهود  
 بنى قريظة مازالوا بالمدينة فاتصل بهم حى بن أخطب وأقنعهم بنقض العهد  
 مع رسول الله فنقضوه يقول القرآن :

« هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا » (٥٤)

ولولا أن أوقع نعيم بن مسعود بين بنى قريظة والأحزاب وأرسل  
 الله على الأحزاب ريحا بالليل قلعت خيامهم وكفأت قدورهم فولوا هاربين  
 لوصل اليهود الى غايتهم ولم يبق الا أن يواصل الرسول طريقه فى تصفية  
 هؤلاء الغادرين ، فما كاد يرجع من حول الخندق حتى أمر مناديه فأذن

(٥٣) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٣٥٠ الكشف للزمخشري ج ١  
 ص ٤٠٢ - والآيتان من سورة النساء ٥١/٤ ، ٥٢

(٥٤) سورة الأحزاب ١١/٣٣

في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر الا بينى قريظة ، واتجهت  
 جموع المقاتلين الى بنى قريظة فاذا بهم ومعهم حبي بن أخطب النضيري  
 يقعون في محمد بأقبح مقالة ، يكذبونه ويطعنون عليه وينالون من أعراض  
 نسائه ، وحاصروهم الرسول خمسا وعشرين ليلة فلم يجدوا بدا من التسليم  
 ورضوا بحكم سعد بن معاذ ، وكان حليفهم في الجاهلية فحكم سعد أن  
 تقتل المقاتلة وتقسم الأموال وتسبى الذرية والنساء ، فلما سمع الرسول  
 هذا الحكم قال : لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة •• وأمر  
 فحفر الخنادق بسوق المدينة ، ثم جىء باليهود فضربت أعناقهم ، وفي  
 هذه الخنادق دفنوا وفي ذلك يقول القرآن :

« وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ  
 صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ  
 وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا \* وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ  
 وَأَرْضاً لَمْ تَطُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » (٥٥)

وتظهرت المدينة من رجسهم لكن بقي خطرهم يتهدد المسلمين في  
 خيبر • وماذا يمنعهم أن يؤلبوا الأحزاب على المؤمنين كما فعلوا من قبل ،  
 اذن فكسر سلطانهم هو الوسيلة التي تضمن أمن الجماعة المسلمة ، لذلك  
 أمر الرسول عليه السلام من حضرو الحديبية أن يتوجهوا الى خيبر  
 لتصفية آخر معقل لليهود في الجزيرة ••

وفوجىء اليهود بجيش المسلمين فذعروا وتحصنوا في حصونهم  
 واستماتوا في الدفاع عنها ، وأصر المسلمون على الفتح حتى سقطت  
 حصون اليهود عن آخرها ، فسلموا وصالحوا الرسول على أن يقيموا

بأرضهم ولهم نصف ثمارها مقابل عملهم . « وقد كان من احسان النبي  
معاملة يهود خيبر أنه كان بين ماغنم المسلمين حين غزوها عدة صحائف  
من التوراة فطلب اليهود ردها فأمر النبي بتسليمها اليهم (٥٦) » ..

سلمت « فدك » دون قتال وكذلك فعلت يهود تيماء اذ قبلوا الجزية  
دون حرب ، أما يهود وادي القرى فقد قاتلوا لكنهم اضطروا الى الاذعان  
والصلح ..

وبذلك سقط سلطان اليهود السياسى وان بقوا أفرادا تمتلئ  
قلوبهم غلا وحقدا وغيظا ، الى أن أجلاهم عمر جميعا عن شبه الجزيرة  
وانتهى أمرهم فى تلك البلاد ، لكنهم ما قفوا برغم تشريدهم وهزيمتهم  
يكيدون للاسلام وأهله ، فالذى أشعل وزر الوضع فى حديث رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : يهود ، والذى أشعل الفتنة على عثمان فاتته بقتله :  
يهود ، والذى أشاع الفوضى وأسال الدماء فى المواقع التى دارت بين  
المسلمين بعد مقتل عثمان يهود ، والذى ينشر الالحاد والكفر والنظريات  
الهدامة فى أنحاء العالم يهود ، والذى يقود الحملة المنظمة للقضاء على  
دين الاسلام فى ربوع الأرض : يهود لأن الاسلام هو القوة العظيمة والعقبة  
الكثود التى تقف فى طريقهم ويوم تنهار أركانه وتضيع معالمه يوم يفرح  
اليهود ويصلون الى ماتمنوه ، ولكن هيهات ..

فالله حافظ دينه ولن يتركه نهبا مشاعا : لن يتركه لليهود بعثون به  
ولم يتركه لمن فرطوا فى حمل أمانته ..

وقد هدد خير الناس وأفضلهم : صحابة رسول الله اذ قال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ

فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى  
 الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ  
 وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٧)

نعم سوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه يعتزون بايمانهم ويواجهون  
 بهذا الايمان فسق أهل الكتاب وكفرهم وحقدهم وهم يقولون :

« قُلْ يَسَاءَ هَلْ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ  
 وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ » (٥٨)

ويدركون سر قول الله تعالى :

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ  
 وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا » (٥٩)

فهم أخطر عدو وأول عدو يأتي قبل المشركين في عداوته على ما في  
 الشرك من ضلال وفساد ، واذا كانت معركة الاسلام مع الشرك قد  
 انتهت بسقوط وثنية جزيرة العرب - وان بقيت آثارها في أماكن مختلفة  
 من العالم - فانها مع اليهود لم تنته بعد وما تزيدها الأيام الا ضراوة وقوة  
 وما اعتدائهم على أرض الرسالات في فلسطين وهدمهم للمقدسات

(٥٧) سورة المائدة ٥/٥٤

(٥٨) سورة المائدة ٥/٥٩

(٥٩) سورة المائدة ٥/٨٢



الاسلامية واحراقهم للمسجد الأقصى وتشريدهم لملايين من العرب الا جزء من المعركة التي بدأها اليهود ضد الاسلام وأهله من يوم أن أصبح للاسلام وأهله وجود دولي على أرض المدينة ، وما معركتنا مع الصهيونية العالمية الا مرحلة من المراحل التي كتبت على أمة الاسلام حلقاتها ، وانتصار هذه الأمة حق لا مرأ فيه ، كلما أخذت بمنهج القرآن في حياتها فهو سلاحها الذي به انتصرت على كل الحاقدين وبه تنتصر - دائما - على من أشعلوها فتنة ودمارا وهلاكاً ، وجند الله غالب لا محالة ..

قال تعالى :

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ \* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ \* وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » (٦٠)

٤ - أهل الكتاب في المجتمع الاسلامي - حقوقهم وواجباتهم :

هذا العداء الذي قابل به أهل الكتاب سماحة الاسلام وأدى الى اصطدام عنيف مبكر مع اليهود في الجزيرة العربية ، ومع النصارى من يوم تبوك « واليرموك » الى الحروب الصليبية الى يومنا هذا الذي مازال فيه تحالف أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، قائما من أجل القضاء على الاسلام وحرب المسلمين ..

هذا العداء قابله الاسلام بمنهجه في اقرار الحق وازالة طواغيت الأرض ، واقامة النظام الانساني الذي يحسى المبادئ والقيم ، وزال ظل الكفر وتقلص نفوذ أهل الكتاب في كثير من بلاد العالم ، وبقي حكم القرآن مهيمنا على الحياة موجهها لها نحو اسعاد الانسان ، وسواء كانوا أفرادا قلائل يشكلون مجتمعا مستقلا لكنه دان للاسلام بالطاعة والولاء

وسواء كانت هذه الطاعة عن طريق الحرب حتى ألقوا سلاحهم ، أم عن طريق الصلح دون قتال ، فإن المنهج القرآنى فى تنظيم علاقة المسلمين بهذه المجتمعات بعد استسلامها يجعلهم فى ذمة المسلمين وحمايتهم ، ويسمىهم « أهل الذمة » ويفرض لهم من الحقوق ما يعجز أى نظام بشرى فى تاريخ الانسان أن يلحق بسمو ما شرعه الله لهؤلاء ، حتى ذابوا فى المجتمع الاسلامى وأصبحوا شركاء فى بنائه واسعاذه ، كما حدد ما عليهم من واجبات للمجتمع الذى حماهم ودافع عنهم وهياً لهم الاستقرار والأمان .

وخلاصة هذه الحقوق تلك القاعدة العامة : « لهم مالنا وعليهم ما علينا » وتفصيل هذه الحقوق أوضحها شريعة القرآن وفاضت بها بحوث الفقهاء والعلماء ، وكل ما فيها ضمان لحياة أفضل فى ظل عدالة الاسلام ورحمته ، وليس لذلك مقابل الا الجزية يدفعها أهل الكتاب دليل التسليم والرضا بحكم القرآن ، ومقاديرها سهلة ميسرة لا ظلم فيها ولا اجحاف ، ويعفى منها غير القادرين والعجزة والنساء والأطفال ، ولا يدفعها الا كل من يستطيع حمل السلاح ، وهى تتناسب مع قدرة الفرد المالية ، بل توضع عنه اذا لم يستطع دفعها ويفرض له عطاء من بيت مال المسلمين ان كان فقيراً ، وفى نظير هذه الجزية يستمتع أهل الذمة بكثير من الحقوق التى لا يميزون بها عن المسلمين الا فيما يختص بهم وما يتعلق بنظام الدولة العام وتوجيه سياستها فذلك من حق المسلمين وحدهم ..

فأهل الذمة حفظ أنفسهم ، ودم الذمى كدم المسلم ، روى عمر ابن الحسن عن ابراهيم رحمهما الله تعالى : أن رجلاً من المسلمين قتل رجلاً من أهل الذمة فرفع ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنا أحق من وفى بذمته ، ثم أمر به فقتل . وقد روى الدارقطنى هذا الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما ولفظه : أنا أكرم من وفى بذمته (٦١) ..

أخرج الطبراني ، أن علياً أتى برجل من المسلمين قتل رجلاً من أهل  
الذمة فقامت عليه البيعة فأمر بقتله • فجاء أخوه فقال : اني قد عفوت •  
قال : فلعلهم هددوك وفرقوك وقرعوك : قال : لا ، ولكن قتله لا يرد  
على أخى وعرضوا لى ورضيت • قال : أنت أعلم ، من كان له ذمتنا قدمه  
كدمنا ودينه كديننا • وقتل المسلم بالذمي هو ما رآه الشعبي والنخعي  
وأبو حنيفة وأصحابه والجمهور بخلافه (٦٢) ••

وهم كالمسلمين أمام القانون الجنائي والمدني فحد السرقة والتدفع  
والزنى تقام على الذمي كما تقام على المسلم ما عدا حد الخمر ، فان أهل  
الذمة قد استثنوا من حدها في الاسلام — والربا والنظام الاقتصادي  
يتساوون فيه مع المسلمين ، كما لا يجوز ايداؤهم ولا شتمهم ولا ضربهم  
ولا الاعتداء على أعراضهم ، ولا التدخل في أمورهم الشخصية ، فلم  
قانونهم الذي ينظم علاقتهم ببعضهم في زواجهم وميراثهم وأحوالهم  
الخاصة • « كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز الى الامام الحسن البصري  
مستفتياً ما بال خلفاء الراشدين تركوا أهل الذمة وما هم عليه من نكاح  
المحارم واقتناء الخمر والخنازير ؟ فأجابه الحسن : انما بذلوا الجزية  
ليتركوا وما يعتقدون ، وانما أنت متبع لا مبتدع والسلام (٦٣) » ••

فاذا طلب أهل الذمة قضاء شريعة الاسلام في أحوالهم الشخصية  
أجبناهم لذلك وقضينا بينهم بحكم القرآن • ولهم شعائرهم الدينية  
يؤدونها في معابدهم ولا يمنعون من ذلك • قال في البدائع : « لا يمنعون  
من اظهار شيء مما ذكرنا من بيع الخمر والخنزير والصليب وضرب  
الناقوس في قرية أو موضع ليس من أمصار المسلمين ، ولو كان فيه

(٦٢) نيل الأوطار ح ٦ ص ٣٨٤

(٦٣) حقوق أهل الذمة في الدولة الاسلامية لأبي الأعلى المودودي

عدد كبير من أهل الاسلام وانما يكره ذلك في أمصار المسلمين  
وهي التي يقام فيها الجمع والأعياد والحدود ، وأما اظهار الفسق الذي  
يعتقدون حرمة كالزنى وسائر الفواحش المحرمة في دينهم ، فانهم  
يمنعون منه سواء كانوا في أمصار المسلمين أم في أمصارهم (٦٤)  
ولمعايدهم حريتها ووقارها فلا يجوز الاعتداء عليها ولا  
ازالتها . وقد بقيت دور العبادة لأهل الذمة على امتداد الرقعة الاسلامية  
محفوظة على مر الأجيال ، وبقي الخلق الاسلامي حاميا تلك المعابد من  
التشويه أو الازالة . ولهم حرية الكتابة والخطابة وايداء الرأي ومناقشة  
الحاكم والاعتراض عليه فيما يمس نظام الحياة ..

وفي مجال التعليم لا يجبرون على نظام التعليم الديني الاسلامي ،  
فلهم الحق في دراسة دينهم ، وتنظيم هذه الدراسة في المعاهد العامة للدولة  
أو في معاهدهم الخاصة ، ولهم حق تولي الوظائف والمناصب والكفاءة  
في أداء العمل ، هي المقياس الحقيقي لا فرق بين مسلم وغيره ، وان كان  
للمسلمين وحدهم حق توجيه نظام الدولة العام ورسم الخطط بما يتلاءم  
مع مبادئ الاسلام ، ويبقى ماعدا ذلك من الوظائف الهامة فلهم حق  
توليها وتصل الى درجة الوزير لكن بشرط أن يكون من وزراء التنفيذ  
لا من وزراء التفويض (٦٥) .. ولقد كان من الذميين من تولي قيادة  
الجيش ابان الحكم الاسلامي في الأندلس — وفي عهد هارون الرشيد  
وضعت جميع المدارس تحت مراقبة أحد الذميين وهو « حنامينة » ، وبقي  
أهل الذمة في أعمالهم في البلاد المفتوحة لم يحرمهم الفاتحون المنتصرون  
ذلك لاختلاف في الدين ..

(٦٤) بدائع الصنائع ح ٧ ص ١١١

(٦٥) وزير التنفيذ بمثابة سكرتير لرئيس الدولة مهمته تنفيذ ارادة  
الرئيس وسياسته ووزير التفويض يشترك مع رئيس الدولة في الحكم .

قال الدكتور « ترتون » : « كانت عادة الحكومة قد جرت على استعمال النصارى الذين قلما خلا منهم ديوان من دواوين الدولة، وثلاحظ في سنة ٢٥٣ هـ وجود ايصال ضريبة باللغة العربية واليونانية ، وقد استعملت اللغة العربية لأول مرة في أعمال الحكومة بأصفهان زمن أبسى مسلم ، كما أننا نرى رجلا مسيحيا يتولى ادارة السجن قريبا من الكوفة سنة ٣٦ هـ وقت أن كان الوليد بن عقبة عاملا عليها . ولما تم للعرب فتح مصر أبقوا من فيها من العمال البيزنطيين (٦٦) » ..

وقد أسرف الحكام المسلمون في استخدام أبناء الديانات الأخرى، فاستغل هؤلاء سماحة الاسلام في معاملته لأهل الذمة استغلالا سيئا جعل أحد الشعراء يقول منددا بعلو المنزلة التي وصل اليها اليهود :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا  
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك  
يا أهل مصر قد نصحت لكم تهودوا فقد تهود الفلك (٦٧)

ولأهل الذمة مع ذلك الاعفاء من الخدمة العسكرية ، فدولة الاسلام تقوم على المبادئ المنبثقة من كتاب الله ، ولا يدافع عن تلك المبادئ الا من آمن بها ، وكأن الجزية بدل عن هذه الخدمة العسكرية فوق أنها عنوان الخضوع والاستسلام ، وقد سبق أن بينا أنه اذا اشترك أحد من أهل الذمة في القتال مع المسلمين سقطت عنه الجزية ..

هذه أهم الحقوق التي خولها منهج القرآن لأهل الكتاب ولم يجعلها أمانى مكذوبة يستقطب بها الجماهير ، وانما أقامها حقيقة واقعة وأقر الفرق بين المسلم وغيره ليحدد لكل فريق واجباته وحقوقه وليعطى كل من استظل ببرايته حظه من العدالة والاستقرار : فالدولة الاسلامية

(٦٦) أهل الذمة في الاسلام د. ترتون ترجمة د. حسن حبشي ص ١٤

(٦٧) التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام للشيخ محمد

الغزالي ص ٤٦

مضطرة - باعتبار نوعيتها - الى أن تميز بين المسلمين وغير المسلمين تمييزا واضحا ، وتحدد بالصراحة الحقوق التي تستطيع أن تخولها غير المسلمين ، والتي لا تستطيع أن تخولها اياهم ، والدولة القومية يتبها لها أن تسلك خطة النفاق فتقرر من حيث نظريتها أن جميع سكانها أمة واحدة وتجعل لهم على صفحة القرطاس حقوقا متساوية ، ولكن تميز بين الأغلبية والأقلية ولا تخول الأقليات شيئا من الحقوق على صفحة الأرض . ان المشكلة التي تواجه الدولة الاسلامية لوجود العناصر غير المسلمة فى نظامها تحلها هذه الدولة بأن تقنع تلك العناصر بما تعطيهم من الضمان بحقوق معينة ، وتمنع تدخلهم فى حل الأمور وعقدتها فى نظامها المبدئى على أنها تفتح لهم باب الدخول فى الجماعة الحاكمة اذا رضوا بمبادئ الاسلام وقبلوها . أما الدولة القومية فتحل هذه المشكلة الناشئة من وجود العناصر الأجنبية فى نظامها بتدابير ثلاثة مختلفة : أولا أن تقضى على فردية هذه العناصر بالتدرج حتى تذوب فى الأغلبية ، والثانى : أن تستعمل الطرق الظالمة من القتل والسلب والنفى لمحو وجودهم من بلادها والثالث : أن تنزلهم فى حدودها منزلة المنبوذين - هذه هى التدابير الثلاثة التى كثيرا ما تستخدمها الدول القومية الديمقراطية فى العالم ، ولا تزال تستخدمها حتى فى هذه الآونة (٦٨) ..

وما أجدر هذا النظام الذى أقره رب العزة لاقامة مجتمع الاسلام أن يسود ويرتقى ، وأن يسعد به الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأديانهم ، فهو مجتمع محدد المعالم واضح السمات يعرف كيف يتعامل كل فرد فيه مع الآخرين ويعطيهم ما لهم من حقوق ويطلبهم بما عليهم من واجبات ، وبهذا التناسب والتناسق بين الحقوق والواجبات يشعر الجميع بأنهم يستمتعون بأنوار القرآن ووحى السماء بما يحمل من خير زاخر للانسانية جمعاء » ..

(٦٨) حقوق أهل الذمة فى الدولة الاسلامية لأبى الأعلى المودودى.

## الفصل الثالث

### القرآن وأهل الشرك

١ - المشركون والاسلام

٢ - علاقة المسلمين بهم





## القرآن وأهل الشرك

### ١ - المشركون والاسلام :

في مكان قفر موحش ودع ابراهيم عليه السلام ابنه اسماعيل وزوجته هاجر وتوجه الى الله بكل قلبه يدعوهُ :

« رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ \* رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ \* الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ \* رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ » (١)

وما ان شب اسماعيل وترعرع حتى جاءه أبوه ينفذ أمر الله ويرفع مع اسماعيل القواعد من البيت وقد غمرهما قيض الهى واشراق نورانى فتوجها الى الله بهذا العمل المبارك :

« رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا

مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ \* رَبَّنَا  
وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ  
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)

ذلك المكان هو « مكة » وهذا بيئتها الطاهر المبارك :

قال تعالى :

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا  
وَهَدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ - مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ  
وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » (٣)

وجدير بمن عاش حول البيت أن يحمل راية التوحيد وأن يتبعد  
عن الانحراف في العقيدة ، وأن يتجنب عثرات الشرك وتفاهاته وما فيه  
من قتل للمواهب البشرية والمزايا الانسانية ، لكن الأمر كان على عكس  
ما تتصور فسرعان ما دب ديب الفساد الى العقول والقلوب ، وسرعان  
ما نصبت الأنصاب وأقيمت الأحجار حول هذا البيت العظيم ، وسرعان  
ما سجدت الجباه وتمرغت أمام تلك الحجارة الصماء ، وشاعت عبادة  
الأصنام في أنحاء الجزيرة ، فاتخذت كل قبيلة لها صنما تطوف حوله  
وتسجد له ، بل اتخذ كل من أراد سفرا وبعد عن الحرم من حجارة الحرم  
ما ينصبه أمامه ليطوف به ويتقرب اليه ..

ولم تنجح اليهودية أو النصرانية في اجتذاب العرب اليها برغم ما  
يبدل في سبيل نشرهما من مجهودات ضخمة الا في أماكن متفرقة من الجزيرة

(٢) سورة البقرة ١٢٧/٢ - ١٢٩

(٣) سورة آل عمران ٩٦/٣ ، ٩٧

العربية ، وبقيت عبادة الأصنام دينا عاما يستقسم العرب عندها بالأزلام ويقدمون لها النذور ويتوجهون لها بالحاجات ، هذا مع اعتقادهم في وجود اله خالق رازق لكنهم عبدوها — كما قالوا — لتقربهم الى الله زلفى .

« وفي هذا الجو الملبد بالشرك وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يرد الناس الى التوحيد الخالص ، ويدعوهم الى دين الله الواحد ، فهل فرط المشركون في مواريث الجاهلية ؟ واستجابوا لرسول انتظروه ؟ : «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم» ، فقد بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الكتاب كذبوا رسلكم فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن آتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم اليهود والنصارى وغيرهم (٤) » ..

وهل سالموا هذا الداعي وتركوه ومن تبعه يدعون الناس الى الهدى ويرشدونهم الى الخير ؟!

لقد وجدوا في هذه الدعوة خطرا على كل معتقداتهم وأوضاعهم ونظام حياتهم . وجدوها ثورة على الظلم الاجتماعي والتخلف العقلي .. وهما لكل ما ورثوه من تقديس لآلهتهم وتعظيم لأصنامهم ، وكان من الممكن أن يترك محمد وصحبه لو اقتصر أمرهم على أنفسهم : فقد شاع من قبل بزوغ فجر الاسلام التخلف والحنفاء الذين هجروا الشرك وراحوا يبحثون عن الدين الحق ، فمنهم من تنصر ، ومنهم من بقى حائرا الى أن أدركه الاسلام . ومع ذلك لم يلحق هؤلاء الحنفاء أذى ولم يقربهم أحد بسوء ، وانطلقوا يتعبدون كما يشاءون دون خوف أو تضيق أو تشكيل أو تعذيب أو تشريد . لكن القرآن كان غير ذلك ، لقد

اختطف أنواره القلوب وسيطرت على الأرواح ، وما ان انساب الرسول وأصحابه بهذا القرآن حتى وردت اليه الظماء ترقوى من نبعه المصفى ، فرجعت قوية في ايمانها متينة في عزيمتها، تهون الجبال ولا تهون، وتضعف الأبطال أمام جبروت الباطل وما تضعف قوى هؤلاء ..

وأرادها المشركون حربا على هذا الخير وقضاء على دعائه ورساله ، وما نجح الاقتناع العقلي في هداية المشركين ، لأن الأمر لم يكن أمر اقتناع أو غير اقتناع ، انما كان جحودا ونكرانا وكبرا على حق واضح مستقيم كما قال القرآن :

« قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » (٥)

« روى أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد : أصادق هو أم كاذب ؟ فانه ليس عندنا أحد غيرنا ؟ فقال له : والله ان محمدا لصادق وما كذب قط ، ولكن اذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابه والنبوة فماذا يكون لسائر قريش (٦) » ..

«وروى ابن هشام أن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رأيكم بعض سفهاءكم لأوقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا وتكرر هذا منهم في الليلة الثانية

(٥) سورة الأنعام ٣٣/٦

(٦) تفسير الكشف للزمخشري ح ١ ص ٥٠٢

والليلة الثالثة ، وفي كل مرة يتعاهدون على عدم العودة ، وفي الصباح أخذ الأخنس عصاه ثم خرج حتى جاء أبا سفيان في بيته فقال له : أخبرني يا أبا حنظلة ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها • وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها • قال الأخنس : وأنا والله حلفت به كذلك • ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف في الشرف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تعاذينا ( جثونا ) على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟! والله لا نؤمن له أبدا ولا نصدقه • فقام عنه الأخنس وتركه (٧) » ••

ويوضح هذه الحقيقة ما رواه ابن كثير بسنده أنه « قيل لمعاوية أيكم كان أشرف أتم أم بنو هاشم ؟ قال : كنا أكثر أشرافا ، وكانوا هم أشرف فيهم واحد لم يكن في بني عبد مناف مثل هاشم ، فلما هلك كنا أكثر عددا وأكثر أشرافا ، وكان فيهم عبد المطلب لم يكن فينا مثله ، فلما مات صرنا أكثر عددا وأكثر أشرافا ، ولم يكن فيهم واحد كواحدنا ، فلم يكن الا قرار العين حتى قالوا منا نبي فجاء نبي لم يسمع الأولون والآخرون بمثله : محمد صلى الله عليه وسلم •• فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف (٨) ؟؟ » ••

والرسول عليه السلام يسأل أبا سفيان : أقاتلتني وأنت تعلم أني رسول الله ؟ قال : علمت أنك صدوق لا تكذب وانما قاتلناك لأنك تعلم

(٧) ابن هشام ج ١ ص ٣٣٧ ، ٣٢٨

(٨) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٣٨

حالي في قريش وجئت أمرا لا يبقى معه شرف فقاتلناك حمية وكراهة أن  
يذهب شرفي ..

لقد حسبوها ملكا وجاها يطلبه محمد لنفسه وقيمها دنيا - يستمتع  
بها بنو هاشم - وحال الحقد والجهل والتعصب بينهم وبين الهداية ،  
وحجبهم عن نور القرآن • ومضت السنوات تلو السنوات والرسول  
يجادلهم ويبين ضلالهم وما في عبادتهم من وأد للعقول ، وقتل لانسانية  
الانسان ، فلم يردهم ذلك الا اعتوا وضلالا ، ولم يدخل في دين الله على  
مدى ثلاثة عشر عاما في مكة الا أفراد قلائل تحملوا من صنوف  
الاضطهاد وألوان التعذيب مافاق قدرة البشر وطاقاتهم ..

ولقد حاول المشركون أن يغروا محمدا بالمال والجاه فما استجاب  
لهم ، وما كان له أن يستجيب ! ..

بعثوا له عتبة بن ربيعة فقال : « يا ابن أخى انك منا حيث قد علمت  
من المكان في النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فسرقت به جماعتهم  
فاسمع منى أعرض عليك أمورا لعلك تقبل بعضها ، ان كنت تريد بهذا  
الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد  
تشريفا سـودناك علينا فلا تقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد  
ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رعبا ( تابعا من الجن ) تراه  
لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ •  
فلما فرغ من قوله تلا محمد عليه السلام عليه سورة « السجدة » وعقبه  
منصت يستمع الى أحسن القول ويرى أمامه رجلا لا مطمع له في مال ولا  
في تشریف ولا في ملك ولا هو بالمريض (٩) » ..

وحاولوا أن يطعنوا في دعوته فما وجدوا مطعنا الا أن قالوا انه ساحر مجنون وان ما بين يديه من كتاب الله أساطير الأولين • هذا هو الوليد بن المغيرة حين سمع من محمد القرآن انطلق الى مجلس قومه بنى مخزوم ليقول : والله لقد سمعت من محمد آتفا كلاما ما هو من كلام البشر ولا من كلام الجن ، وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى عليه • ثم انصرف الى منزله فقالت قريش : صبا - والله - الوليد • والله لتصبأن قريش كلها فقام أبو جهل وقال : أنا أكفيكموه فانطلق فقعده الى جنب الوليد حزينا فقال له الوليد : مالي أراك حزينا يا بن أخي • قال : وما يميني ألا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وأنت داخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة تسأل من فضل طعامهم • فغضب الوليد وقال: ألم تعلم أني أكثرهم مالا وولدا، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل ؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يحنق قط ؟ قالوا : اللهم لا • قال : تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن ؟ فقالوا : اللهم لا • قال : تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ؟ قالوا ، اللهم لا • قال : تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟ قالوا : اللهم لا • فقالت قريش للوليد فما هو ؟ فتفكر في نفسه وقدر ما أسر وقال :

« إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤَثِّرُ \* إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ  
الْبَشَرِ » (١٠)

وأرادوا اغتائه واخراجهم فطالبوه بالمعجزات ••

« وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ  
يَنْبُوعًا \* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ  
الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا \* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ  
عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِلَآلِهِ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا \* أَوْ يَكُونَ  
لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ  
لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ  
هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » (١١)

وما هكذا يكون من أراد الحقيقة وتشوق الى معرفتها ، انما هو  
التحدى لهذه الدعوة وحامل لوائها « فان الله تعالى قد أعطى النبي صلى  
الله عليه وسلم من الآيات والمعجزات ما يغنى عن هذا كله مثل القسـرآن  
وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه وما أشبهها من الآيات وليست  
بدون ما اقترحوه ، بل هو أعظم مما اقترحوه والقوم عامتهم كانوا  
متعنتين ، ولم يكن قصدهم طلب الدليل ليؤمنوا فـرد الله عليهم  
سؤالهم » (١٢) ..

ولما لم تجد هذه الحملة الكاذبة وما تبعها من الأذى والتخويف ،  
وما فيها من اغراء تارة واضطهاد تارة أخرى اتفقوا على مقاطعة بنى هاشم  
وبنى المطلب فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئا ولا  
يبتاعون منهم ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة وانحاز بنو  
هاشم وبنو المطلب وأتباع محمد في شعب أبي طالب ثلاث سنين يعانون

(١١) سورة الاسراء ٩٠/١٧ - ٩٣

(١٢) الفتوحات الالهية ج ٢ ص ٦٤٩ .



الجوع والألم ، الى أن ثارت على هذه الصحيفة قلوب رحمة أزعتها هذا الجور فهبت تطالب بتمزيقها فوجدوها قد أكلتها الأرضة ولم يسبق الا فاتحتها : « باسمك اللهم » ، فخرج الرسول وصحبه من هذا الحصار ولم يزد هم ذلك الا استمساكا بالحق وتقديسا له ، وما حال هذا دون انتشار الدعوة بين العرب وقبائلها ، وقد خرج اليها رسول الله في أثناء الحصار وبعده يدعوها الى الله • وبرغم ما بذلته قريش في مواسم الحج من دعاية قصد بها تشويه جمال الرسالة واطهار الرسول بمظهر المفرق للجماعات ، الداعي للعداوات فانها لم تغلح في ذلك ••

قدم الطفيل بن عمرو الدوسي الى مكة وكان رجلا شريفا ليبياً ، فمشت اليه قريش تحذره محمداً وأن قوله كالسحر يفرق بين المرء وأهله بل بين المرء ونفسه وأنهم يخشون عليه وعلى قومه مثل ما أصابهم بمكة ، وأن الخير في ألا يكلمه ولا يستمع اليه • وذهب الطفيل يوما الى الكعبة وكان محمد هناك فسمع بعض قوله فاذا هو كلام حسن فقال في نفسه : « وائكل أمي ! والله اني لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعي أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فان كان حسنا قبلته وان كان قبيحا تركته ، واتبعت محمداً الى بيته وأظهره على أمره وما دار بنفسه فعرض محمد عليه الاسلام وتلا عليه القرآن فأسلم وشهد شهادة الحق ورجع الى قومه يدعوهم الى الاسلام ، فلبى بعضهم وأبطل بعض وما زال الطفيل بهم يدعوهم سنين متعاقبة حتى أسلم أكثرهم وانضموا الى النبي بعد فتح مكة (١٣) » ••

وما مر يوم الا زاد هذا الدين انتشارا وزاد المشركون له عنادا حتى كانت آخر مؤامرتهم التي لم يجدوا أمامهم غيرها ، وذلك حين اجتمعوا

يريدون قتل رسول الله مما اضطره الى ترك هذه البيئة الموبوءة والأرض التي لم تنبت فيها شجرة الدعوة ، وخرج مهاجرا الى يثرب يقيم فيها مع أنصار الله دولة الايمان ، ويبنى مجتمع الاسلام بعيدا عن أحقاد المشركين وسلطانهم ..

## ٢ - علاقة المسلمين بهم :

وفي المدينة كان للمسلمين مجتمعهم وكيانهم .. ومن حول المدينة في أنحاء الجزيرة يسيطر الشرك نفوذه ويمد سلطانه ، والمسلمون في مدينتهم قلة أمام قوى الكفر والطغيان . الا أن هذه القلة أكسبتها المحن والأيام قوة وزادها الايمان زادا وأعطاهم القرآن نورا تبسّد به ظلمات الشدائد وتستعين به على عقبات الطريق . وهذه القلة تزيد في كل يوم ويرتفع ذكرها في كل مكان ، وليس من المنتظر أن يهادنها المشركون ويتركونها تنمو وتزيد ، ولذا كانت موقعة بدر في العام الثاني من الهجرة وبدا فيها أنه لا مهادنة بين القوتين ، وظهر أن المشركين مصممون على إبادة هذه الجماعة المؤمنة ، لقد وقف أبو جهل بعد أن علم أن تجارة قريش نجت - متحديا قوة القدر ومستهترا بتدبير الله ، فقد قال : والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم ثلاثا نحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا ، فدارت عليه الدائرة ونزلت بجيشه الهزيمة وحقق نصر الله للمؤمنين .

قال تعالى :

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ \* إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ \*

بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ  
 رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ \* وَمَا جَعَلَهُ  
 اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ  
 عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ \* لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
 أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ <sup>(١٤)</sup>

وكانت موقعة أحد .. وفيها تلقى المسلمون درسا لم ينسوه حين  
 ترك الرماة مواقعهم ، فباغتهم المشركون وهاقت بالمسلمين الهزيمة ، وقتل  
 منهم من قتل ومحض الله الصف الاسلامى بهذه الموقعة ، فظهر أهل الايمان  
 بايمانهم وأهل النفاق والكفر بنفاقهم وكفرهم ..

وغزوة « الأحزاب » وما فيها من شدة المكيدة والحقد على المؤمنين  
 دليل على هذا العداء ، فقد خرجت الجموع من كل قبيلة بتدبير اليهود  
 وتحريضهم — كما مر في موقف اليهود من الاسلام — ولولا أن حمى الله  
 عباده وحفظ رسوله لأطبق هؤلاء الحاقدون على الاسلام وأهله ولضاعت  
 رسالة الاسلام ..

وهكذا « كانت العداوة سافرة بين المسلمين ومشركي قريش لا  
 يكتنها المشركون ولا يوارون فيها ولا يخفون أنهم عقدوا النية على الايقاع  
 بمحمد وأصحابه ، وفض العرب من حوله وايداء كل من يدخل منهم دينه ،  
 فلم تكن بين المسلمين والمشركين حالة غير حالة الحرب الا في أيام صلح  
 « الحديبية » ثم عادت الحرب سجالا بين الفريقين حتى تم فتح مكة

وأتقلت الحرب من قتال سافر بين المشركين والمسلمين الى قتال بالدس والمكيدة بين هؤلاء وزمرة المنافقين (١٥) » .

أما سائر العرب فقد وقفوا ينتظرون ما تكون النتيجة بين محمد وقومه . وفي هذا الانتظار كان الرسول يهادن منهم من مال الى المسالمة، ويفاجيء بالاغارة من حدثته نفسه أن يعتدى على المسلمين ولم يخرج عن هذه الحدود الواضحة ولم يترك فرصة لعدوه يستعد فيها ، إنما كان يباغته بالهجوم لا ليجبره على اعتناق الاسلام ، وإنما ليكسر فيه سلاح العداوة والبغضاء ، وينزع منه القوة فيضطر الى المهادنة والقاء السلاح .

وهذا تاريخ الغزوات شاهد بذلك . يلخص الأستاذ أحمد زكى حروب المسلمين بعد بدر واخراج بنى قينقاع ، فيبدأ ببني غطفان ، ولم يخرج المسلمون لقتالهم الا بعد أن علموا أن بنى ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برئاسة دعثور المحاربى للاغارة على المدينة ، ثم سرية عاصم بن ثابت الأنصارى وكانوا مع رهط عضل والقارة الذين خانوهم ودلوا عليهم هذيل قوم سفيان بن خالد الهذلى الذى قتله عبد الله بن أنيس ثم سرية المنذر بن عمرو وهم سبعون رجلا يسمون القراء أخذهم عامر بن مالك ملاعب الأسنة لطمعه فى هداية قومه وإيمانهم ، فلم يرع قومه جواره وقتلوا القراء ، ثم غزوة بنى النضير من يهود المدينة وذلك لنقضهم العهد والقائم صخرة على النبی صلى الله عليه وسلم لما كان فى ديارهم (١٦) ، ثم غزوة دومة الجندل ولم يخرج المسلمون لقتالهم الا لما علموا أن فى ذلك المكان أعرابا يقطعون الطريق على المارة ويريدون الاغارة على المدينة ، ثم غزوة بنى المصطلق وهؤلاء ممن ساعدوا المشركين فى

(١٥) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه العقاد ص ٢١٢ ، ٢١٣  
(١٦) الأولى أن يقال : وهمهم بالقاء صخرة على النبی صلى الله عليه

أحد ولم يكنفوا بذلك ، بل أرادوا جمع الجموع للاغارة على المدينة ، ثم غزوة الخندق الذين حاصروا المدينة ، ثم غزوة بنى قريظة من يهود المدينة لنتقضهم العهد واجتماعهم مع الأحزاب ، ثم غزوة بنى لحيان لقتلهم عاصم ابن ثابت واخوانهم الذين حزن عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم غزوة الغابة لاغارة عيينة بن حصن في الأربعين راكبا على لقاح للنبي صلى الله عليه وسلم كانت ترعى الغابة ، ثم سرية محمد بن مسلمة الى « القصة » لما بلغ المسلمين أن بذلك الموضع ناسا يريدون الاغارة على نعم المسلمين التي ترعى بالهيفاء ، ثم سرية زيد بن حارثة لمعاكسة بنى سليم الذين كانوا من الأحزاب يوم الخندق ، ثم سرية زيد — كذلك — للاغارة على بنى فزارة الذين تعرضوا له ، ثم سرية عمر بن الخطاب لما بلغ المسلمين من أن جمع هوزان يظهرون العداوة للمسلمين ، ثم سرية بشير بن سعد لما بلغهم من أن عيينة بن حصن واعد جماعة من غطفان مقيمين بقرب خير للاغارة على المدينة ، ثم سرية غالب الليثي ليقترض من بنى مرة — بفدك — لأنهم أصابوا سرية بشير بن سعد ، ثم غزوة مؤتة وكانت لتعرض شرحبيل بن عمرو الفسائي للحارث بن عمير الأزدي رسول النبي — صلى الله عليه وسلم — الى أمير بصرى بحمل كتابا وقتله اياه ، ولم يقتل للنبي صلى الله عليه وسلم رسول غيره حتى وجد لذلك وجدا شديدا ، ثم سرية عمرو بن العاص لما بلغه من أن جماعة من قضاة يتجمعون في ديارهم وراء وادي القرى للاغارة على المدينة ، ثم سرية على ابن أبي طالب لما بلغهم من أن بنى سعد بن بكر يجمعون الجموع لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين ، ثم غزوة خيبر لأن أهلها كانوا أعظم معرض للأحزاب ، ثم سرية عبد الله بن رواحة لما بلغهم من أن «باين رزام» رئيس اليهود يسعى في تحريض العرب على قتال المسلمين ، ثم سرية عمرو

ابن أمية الضمري لقتل أبي سفيان جزاء ارساله من يقتل النبي عليه الصلاة والسلام غدرا (١٧) ..

ولقد كان لسقوط معقل الوثنية وتسليم أهل مكة للجيش المنتصر ودخولها في دين الله أثره في تلك القبائل التي وقفت متحفزة للم هجوم ، مستعدة للانتفاض والتي جربت قوة الاسلام وثبات المسلمين ، فاذا بالمسلمين صخرة صلبة لا تلين لذا سارعت أكثر القبائل بالطاعة وانضوت تحت لواء الدين الحنيف وخاصة بعد هزيمة هوزان وثقيف ، وبعد أن أربه المسلمون جيوش الروم في تبوك وأظهروا قوة الاسلام في كل مكان ، وجاء العام التاسع وخرج أبو بكر يحج بالناس وحول البيت الذي تحطمت الأصنام من حوله اجتمع المؤمنون والمشركون : للمؤمنين شعائرهم وللمشركين عاداتهم وقبائحهم وضلالهم • ومثل هذا التناقض يأباه الاسلام ولا بد أن يضع له حدا بعد أن علت راية الايمان ، لذلك كان لا بد أن يمنع المشركين من دخول بيت الله الحرام ، وأن يعلن عليهم الحرب الدائمة حتى يستسلموا لأمر الله ، اذ لا يؤمن لهم جانب ولا يبقى لهم عهد • «فلقد ثابر الرسول على الوفاء في جميع عهوده وثابر أهل الجزيرة من المشركين واليهود على الغدر بكل عهد من تلك العهود وعقدوا النية سرا وجها على اعنات المسلمين واخراجهم من ديارهم لا يحرمون حراما في مهادنتهم ولا في مسالمتهم ، ولا يزالون يؤلبون عليهم الأعداء من داخل الجزيرة وخارجها ، وأصروا على ذلك مرة بعد مرة حتى أصبحت معاهدتهم عبثا لا يفيد ولا يغني عن القتال فترة الا ردهم اليه بعد قليل ، ووضع من تشدد القوم واصرارهم عليه أنهم لا يهادنون الا ليتوفروا على جمع العدة وتأليب العدو من الخصوم والأحلاف ، فبطلت حكمة الدعوة الى العهد ولم يبق للمسلمين من سبيل الى الأمان معهم الا أن يخرجوهم من حيث أرادوا أن يخرجوا

المسلمين ولا يبقوا أحدا غير مسلم في تلك الجزيرة التي أبت أن تكون وطنا  
للمشركين وأحلافهم دون سواهم ، فاتته حكمة التخيير بين المعاهدة  
والقتال ، ووجب الخيار بين أمرين لا ثالث لهما وهما الجوار على الاسلام  
أو على الخضوع لحكمه ، فلا جوار في الجزيرة لأحد من المشركين وأحلافهم  
من اليهود الا أن يدين بالاسلام أو الطاعة (١٨) » ..

ولهذا أرسل النبي عليه السلام على بن أبي طالب ليلحق بأبي بكر  
في موسم الحج ويبلغ الناس بما أنزل الله على رسوله من سورة « التوبة »  
— فلما اجتمع الناس « بمنى » يؤدون مناسك الحج وقف على والى جانبه  
أبو هريرة فنادى على في الناس يتلو قول الله تعالى :

« بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ  
الْمُشْرِكِينَ \* فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا  
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ \* وَأَذِّنْ  
مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ  
مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ  
تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ  
كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

واستمر يتلو الى قوله تعالى :

« وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً  
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » (١٩)

(١٨) حقائق الاسلام وأبا طيل خصومه للعقاد ص ٢٢٧

(١٩) سورة براءة ٩ / الآيات من أول السورة — الى الآية ٣٦ .

فلما أتم تلاوتها وقف هنيئة ثم صاح بالناس : أيها الناس انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو الى مدته • وبسورة « براءة » تحدد الموقف الأخير والنهائي في صلات المسلمين بالمشركين ، وهو موقف يتفق مع منهج القرآن في مسيرته لطبيعة المجتمع الناشئ وتحديد له علاقة هذا المجتمع بغيره من المجتمعات ، وبعد أن ثبتت أركانه واستقرت دعائمه وأخذ وضعه اللائق به في الحياة ••

وعلاقة المسلمين بمشركي الجزيرة - كما قالت سورة التوبة : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » • فهي المعاملة بالمثل ، وحرب دائمة بدأها المشركون وأعلنوها على الاسلام في كل مكان ، ولا بد من اطفائها واجبارهم على التسليم • ولما علم المشركون ذلك لم يبق هناك مجال للتباطؤ ، فاذا بهم يتوافدون على المدينة تعلن وفودهم انضمامها الى دين الله • وما أتى العام العاشر من الهجرة حتى خرج النبي عليه السلام بجمع زاخر بلغ تسعين ألفا وقيل أربعة عشر ومائة ألف الى مكة يؤدي فريضة الحج ويعلم الناس مناسكهم ويعلم على الملأ المبادئ الرئيسية التي جاء بها هذا الدين ، وهناك أعلن ما أوحى به الله من اكمال الدين واتمام النعمة وتبليغ الرسالة :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا »<sup>(٢٠)</sup>

فهل معنى ذلك أن المشركين لا تقبل منهم الجزية ، وأن علاقة المسلمين بهم هي الحرب الدائمة لاجبارهم على الاسلام ؟ وهل في ذلك



أكره على الدين ؟ ألا يتنافى ذلك مع مبدأ الاسلام فى اعطاء الانسان حرية التدين ؟

لقد اختلف الفقهاء فى المشركين : هل تقبل منهم الجزية أولا ؟

« فقال قوم تؤخذ الجزية من كل مشرك ، وبه قال مالك ، وقوم استثنوا من ذلك مشركى العرب • وقال الشافعى وأبو ثور لا تؤخذ الا من أهل الكتاب والمجوس • والسبب فى اختلافهم معارضة العموم للخصوص ، أما العموم فقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » وقوله عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » • وأما الخصوص فقوله لأمرء السرايا الذين كان يبعثهم الى مشركى العرب ومعلوم أنهم كانوا غير أهل الكتاب : فاذا لقيت عدوك فادعهم الى ثلاث خصال • فذكر الجزية فيها • • فمن رأى أن العموم اذا تأخر عن الخصوص فهو ناسخ له قال : لا تقبل الجزية من مشرك ما عدا أهل الكتاب لأن الآية الآمرة بقتالهم على العموم هى متأخرة عن ذلك الحديث ، وذلك أن الأمر بقتال المشركين عامة هو فى سورة « براءة » وذلك عام الفتح ، وذلك الحديث انما هو قبل الفتح بدليل دعائهم فيه للهجرة (٢١) » ومن رأى أن العموم يبنى على الخصوص تقدم

(٢١) ذكر ابن رشد هذا الحديث فى الفصل الرابع : فى شرط الحرب ص ٣٩٧ ونصه : كان صلى الله عليه وسلم اذا بعث سرية قال لأمرئها : اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال أو خلال فأيتن ما أجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم : ادعهم الى الاسلام فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين وأعلمهم أنهم ان فعلوا ذلك ان لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين فان أبو واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الفىء والغنيمة نصيب الا أن يجاهدوا مع المسلمين فان هم أبو فادعهم الى اعطاء الجزية فان أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم فان أبو فاستغن بالله وقاتلهم • •

أو تأخر أو جهل التقدم والتأخر بينهما قال: تقبل الجزية من جميع المشركين وأما تخصيص أهل الكتاب بين سائر المشركين فخرج من ذلك العموم باتفاق بخصوص قوله تعالى: « من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (٢٢) » ..

ومن رأى أن الجزية تؤخذ من كل كافر مشرك أو غير مشرك لا فرق في ذلك بين الجزيرة العربية وغيرها قال: « انه — عليه السلام — لم يأخذها من مشركى العرب لأنها إنما نزل فرضها بعد أن أسلمت دارة العرب ولم يبق فيها مشرك فانها نزلت بعد فتح مكة ودخول العرب في دين الله أفواجا فلم يبق بأرض العرب مشرك ، ولهذا غزا بعد الفتح تبوك ، وكانوا نصارى ، ولو كان بأرض العرب مشركون لكانوا يلبونه وكانوا أولى بالغزو من الأبعدين . ومن تأمل السير وأيام الاسلام علم أن الأمر كذلك فلم تؤخذ منهم الجزية لعدم من يؤخذ منه ، لا لأنهم ليسوا من أهلها قالوا : وقد أخذها من المجوس وليسوا بأهل كتاب ولا يصح أنه كان لهم كتاب ورفع وهو حديث لا يثبت مثله ولا يصح سنده ولا فرق بين عباد النار وعباد الأصنام ، بل أهل الأوثان أقرب حالا من عباد النار وكان فيهم من التمسك بدين ابراهيم ما لم يكن في عباد النار ، بل عباد النار أعداء ابراهيم الخليل فاذا أخذت منهم الجزية فأخذها من عباد الأصنام أولى ، وعلى ذلك تدل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت عنه في صحيح مسلم أنه قال : اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى احدى خلال ثلاث فأيتنهن أجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم أمره أن يدعوهم الى الاسلام أو الجزية أو يقاتلهم . وقال المغيرة لعامل كسرى : أمرنا نبينا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله أو تؤدوا الجزية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقريش : هل لكم في كلمة

تدين لكم بها العرب وتؤدى العجم اليكم بها الجزية ؟ قالوا : ما هي :  
قال : لا اله الا الله (٣٣) ..

فاذا ما رجعنا الى حقيقة هذا الخلاف في أخذ الجزية من المشركين وهل تؤخذ منهم جميعا أو ترفض من كل مشرك أو لا تقبل من مشركي العرب دون العجم - كما قال أبو حنيفة - لوجدنا أن الرأي الأخير أقرب الى الصواب وأن الاسلام حين أعلن حربه للشرك في الجزيرة لم يكن متجنبا على المشركين ، فالشرك الذي كان موجودا حين قام محمد عليه السلام بالدعوة الى دين الحق لم يكن يمثل عبادة الأصنام وكفى ، ولو أنه كان كذلك لوجب محاربته : فمن الازدراء للعقل الانساني وللكرامة الانسانية أن يعبد الانسان حجرا لكن هذا الشرك كان يمثل مجموعة من التقاليد والعقائد والعادات ، بل كان يمثل نظاما اجتماعيا هو شر من الرق وشر من البلشفية وشر من أكل ما يتصور العقل في هذا القرن المتسم للعشرين . كان يمثل وأد البنات وتعدد الزوجات الى غير حد حتى يحل للرجل أنه يتزوج ثلاثين أو أربعين ومائة وثلاثمائة امرأة أو أكثر من ذلك ، وكان يمثل الربا في أفحش ما يستطيع الانسان أن يتصور الربا ، وكان يمثل الاباحة الخلقية في أسفل صورها ، وكانت جماعة الوثنيين العرب شر جماعة أخرجت للناس . ونود من كل منصف أن يجيب عن هذا السؤال : لو أن جماعة من الناس وضعت لنفسها اليوم نظاما فيه من العقائد والعادات : وأد البنات وتعدد الزوجات واباحة الرق لسبب أو لغير سبب ، واستغلال الأموال استغلالا فاحشا ، ثم قامت ثورة على ذلك كله تحاول تحطيمه والقضاء عليه أتتهم هذه الثورة بالتعصب وبالعامل ضد حرية الرأي ؟؟ واذا افترضنا أن أمة اطمأنت الى هذا النظام المنحط ، وأوشكت العدوى أن تنتقل منها الى غيرها من الدول فأذنتها هذه الدول بحرب أتكون هذه الحرب مسوغة أم غير

مسوغة ?? وهناك حقيقة تاريخية أخرى مستمدة من حياة الرسول ، فهو قد أنفق منذ بعثه الله برسالاته ثلاث عشرة سنة حسوما يدعو الناس فيها الى دين الله بالحجة ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ، وهو فيما قام به من غزوات لم يكن معتديا قط ، وانما كان مدافعا عن المسلمين دائما مدافعا عن حريتهم فى الدعوة الى دينهم الذى يؤمنون به ويضحون بحياتهم فى سبيله ، وهذه الدعوة القوية غاية القوة الى قتال المشركين على أنهم نجس وأنهم لا عهد لهم ولا ميثاق ، وأنهم لا يراعون فى مؤمن الا ولا ذمة ، انما نزلت بعد آخر غزوة غزاها النبى « غزوة تبوك » ، فاذا حل الاسلام ببلاد تفتى فيها الشرك وحاول أن يقيم فيها هذا النظام الاجتماعى والاقتصادى الهدام الذى كان قائما فى شبه الجزيرة ، حين بعث انبى فدعا المسلمون أهلها الى ترك هذا النظام والى الأخذ بما أحل الله وتحريم ما حرم الله فلم يذعنوا — فليس من منصف الا أن يقول بالثورة عليهم ويقاتلهم حتى تتم كلمة الحق وحتى يكون الدين كله لله (٢٤) » •

وإذا كان هذا شأن مشركى العرب وأن الجزية لا تقبل منهم أبدا ، وأن ليس لهم الا الاسلام أو القتال ، فان لغيرهم البقاء على دينهم اذا ما أدوا الجزية ، وأنه لا يمكن للاسلام أن يحارب فريقا لأنه من أهل الشرك ويترك آخر لأنه من أهل الكتاب أو المجوس فهذا مالا يتصوره العقل ، انما يهاجم الاسلام معاقل الكفر على اختلاف مللها ونحلها ، فان طلبت الأمان ودانت بالدين الحق قبل منها ذلك ، وان أبت طالبها بالجزية لا فرق فى ذلك بين مشرك وكتابى والا فهى الحرب الدائمة حتى يهدم تلك المعاقل وحتى يستطيع المنهج القرآنى أن يقر أسلوبه الربانى فى واقع

البشرية ، كما أراد الله لها في ظلال السلام .. ومنهج القرآن في تحديد علاقته على هذا الوجه مع المشركين داخل الجزيرة وخارجها ، انما يمثل طبيعة هذا المنهج في نظرتة الى واقع الانسانية وتعامله مع هذا الواقع بما يناسبه من حرية الحركة ومرونة التطبيق وقوة التنفيذ ، فهو ليس نظرية تدرس انما هو منهج تقوم به الحياة فتسعد تلك الحياة وترقى ..



# خاتمة

مقارنة بين :

منهج القرآن في تربية المجتمع والنظريات التربوية الحديثة  
مع العناية بابرار أهم النتائج التي وصل إليها البحث

١ - ماذا نقصد بالنظريات التربوية الحديثة ؟

٢ - مقارنات :

أولا : العقيدة

ثانيا : التربية الأخلاقية

ثالثا : البناء الاجتماعي

١ - نظام الأسرة      ٢ - التكافل الاجتماعي

٣ - المعاملات المالية      ٤ - الحرية

٥ - المساواة      ٦ - نظام الحكم

رابعا : علاقة المجتمع الاسلامي بغيره من المجتمعات ...





## ١ - ماذا نقصد بالنظريات التربوية الحديثة ؟؟

لكل تجمع بشري أساس يقوم عليه وفكر يحرك أفرادَه ، وما وجدت جماعة بشرية دون ايمان : حقا أو باطلا ، بشريا أو الهيا ، وعلى هذا الايمان الذى تدين به تلك الجماعة يكون حظها من الحياة السعيدة ونظرتها الى الطريقة التى تنظم بها أمور معاشها وتسوس بها أفراد مجتمعها - كما يكون هذا الايمان أساسا للعلاقات الدولية التى تتعامل بها مع غيرها من أمم الأرض ..

والفلاسفة والمصلحون فى كل عصر وجيل يزعمهم فساد النظام البشرى وما يترتب عليه من تعاسة الفرد وهلاك المجتمع ، فيحاولون انقاذ الانسانية المعذبة بما يقدمونه لها من وسائل الاصلاح وطرق العلاج ، وأملا فى تأمينها من الخطر وردها الى الطريق الصحيح ..

ولقد اختلفت هذه الوسائل وتباينت تلك الطرق ، ولكن هدفها واحد هو ضمان الحياة الرغدة للانسان ..

فيرى البعض أن الحياة السعيدة تتم فى أحضان الدين ، وقد نادى بهذا الغزالي وكومنيوس . ويترك البعض الآخر الدين وشأنه ، فالحياة السعيدة عند الرومان - مثلا - تتمثل فى القدرة على الخطابة والبيان . ويهتم « روسو » بالفرد فى جميع مراحل نموه ويهدف فى تربيته الى أن يستشعر الفرد هدوءا وسلاما داخليين . ويطلع عدد من المربين بآراء قوامها أن الاهتمام بالفرد ضرورى ، ولكن هذا الفرد يحيا وسط جماعة ولذلك ترى « لوك » يضع سعادة وهناء الجماعة هدفا لكل تربية ، ويفهم السعادة على ضوء ما يحسه الأفراد من لذة فى طاعتهم للقوانين الطبيعية والوضعية . ويجد الفرد راحة وسعادة فى كنف مجتمع فيه قوانين تحميه وتمنحه الحرية والعدالة ..

ويرى « ديوى » اهتماما بالفردية فى مجتمع - يتيح لكل الأفراد  
فرصا للنمو السليم المثمر ، مجتمع يتميز بأنه ديمقراطى لا طبقى ..  
وفى مثل هذا المجتمع يمكن للفردية أن تزدهر ..

وثمة مجموعة أخرى من الفلاسفة يترعما أفلاطون تؤمن : بأن  
التربية تهدف الى تكوين أفراد يصنعون المجتمع العادل ، ولذلك فيعامل  
كل فرد على حسب امكانياته وبحيث تستغل قدرات كل لتكوين النظام  
الاجتماعى المثالى . وقد ارتبطت أهداف التربية بأراء الفلاسفة عن الطبيعة  
البشرية فمن الفلاسفة من يؤمن بالطبيعة الشريرة المتأصلة عند الفرد ، وقد  
يستطيع أن يتخلص منها بالمعرفة والعبادة وممارسة الفضائل ، ومنهم من  
يرى الخير فى طبيعة الانسان وأن الشر يأتيه من العالم الخارجى ، وثمة  
فريق ثالث يؤمن بأن الفرد يولد ولديه الاستعداد للخير وللشر حسبما  
تعرض له من مشيرات تأتية من حوله (١) ..

ولقد اتجهت أوروبا بعد انتشار وازدهار التجارة فيما بعد القرن  
العاشر لاكتشاف مباحج الحياة الدنيوية ، وأطلقوا على هذا الاتجاه الذى  
حرر طاقاتهم اسم «الانسانية» وكان الداعية له « ايرازمس » الذى قال :  
أن الوظيفة الأولى للتربية هى أن تتشرب الروح بالتقوى والورع ، الوظيفة  
الثانية أن يجب الفرد ويتعلم الدراسات الحرة ، والثالثة أن يعرف  
واجبات الحياة ، أما الوظيفة الرابعة فهى تعويد الفرد منذ طفولته العادات  
الخلقية السليمة ويظهر من رأى « ايرازمس » تراوجا بين الأهداف  
الأغريقية والرومانية والمسيحية واستمرارا لشرعية الفرسان ..

ثم كانت محاولات كثيرة لصنع الاتجاه الانسانى بالواقعية ، ودعا  
« مونتين » الى الاكثار من الترحال والاتصالات الاجتماعية . أما

الانجليزى « سيكون » والمورافى « كومنيوس » فقد بثا حيوية واقعية فى الأهداف التربوية باهتمامهما الشديد بدراسة العلوم كمرشد عملى للحياة ، بل انهما قادا الدعوة بأن يكون هدف التربية تمكين الفرد من المعرفة والحكمة ، وفى رأيهما أن العلم لن يقدم المعرفة مبسطة فقط ولكنه العصا السحرية التى ستيسر المعرفة لكل فرد (٢) ..

ويلخص « كوندورسيه » هدف التربية بأنه تنمية للقوى الجسمية والعقلية والخلقية بما يسهم فى التقدم العام والتدريجى للجنس البشرى . ولم يؤمن « روسو » بأن الدولة قادرة على تحقيق هذه الأهداف ، وآمن بأنه اذا كان الاصلاح الاجتماعى هدف التربية فيجب أن يتم ذلك على أساس فردى لا اجتماعى . ونظم « سينسر » الأهداف التربوية حول الحياة الكاملة على حسب قيمتها الحيوية بالنسبة للفرد والمجتمع ، ورأى أن تهدف التربية أولا الى تعليم الفرد كيف يحفظ نفسه ، وثانيا كيف يحصل على معاشه ، وثالثا كيف يربى صغاره ، ورابعا كيف يعيش اجتماعيا ومؤديا واجباته السياسية ، وخامسا كيف يستمتع بالأدب والفن وما الى ذلك (٣) ..

وهذه النظريات التربوية تهدف الى ايجاد الوسيلة التى تنشئ بها الانسان المثالى وان اختلفت الأساليب والطرق وهذا - بلا شك - جزء من بحثنا الذى يهدف الى بيان منهج القرآن فى تربية المجتمع ، وما المجتمع الا لبنات ان صلحت صلح البناء كله وان فسدت هدم البناء كله . لكننا لا نستطيع أن نعرض هذه النظريات عرضا تفصيليا لنقارنها بالمنهج القرآنى فهذا - وحده - يحتاج الى عدة بحوث ، ومع ذلك فلن نعدم الفائدة اذ سوف نقارن بين منهجنا الالهى وأقصى ما وصلت اليه

(٢) المرجع السابق ص ٥٥٨ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣

(٣) المرجع السابق ص ٥٥٨ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣

النظريات التربوية الحديثة في اقامة المجتمعات وتربيتها ، وذلك بما تمخضت عنه من ايجاد نظامين عالميين : الرأسمالي في الغرب ، والشيوعي في الشرق ، وما تدين به هذه المجتمعات من نظريات في عالم العقيدة والأخلاق ، وما يسودها من فكر يحكم حياتها في نظام الأسرة والتكافل الاجتماعي والنظم الاقتصادية وفهما للحرية والمساواة ونظام الحكم والعلاقات الدولية ..

ومثل هذه المقارنة على جانب كبير من الأهمية وذلك لما اواكب هذه المجتمعات من تقدم علمي باهر وسبق مادي وترف حضاري خلب الأبصار واستولى على الألباب مما جعل كثيرا من المجتمعات تبادر الى تقليدها دون تمييز بين الغث والسمين والحق والباطل ، وظنت المجتمعات المتخلفة علميا وثقافيا أن التقدم العلمي والمادي وحده كفيل باسعاد الانسان ، ولت هذه المجتمعات أخذت هذا التقدم العلمي عن دول الغرب أو الشرق ، انما تأخرت في هذا المجال وقلدت هذه الدول بل سبقتها في اشباع الشهوات وارواء النفس من المتاع الحسى ، وقلدتها في فصل الدين عن واقع الحياة ، فكان لابد من هذه المقارنة لنستبين الحق فنؤمن به وندافع عنه ونعرف الباطل فنرفضه ونبتعد عنه . وأبادر فأقرر بأننا لا نبحث لنهج القرآن عن نظام عالمي أو تربوي نلصقه به ونرفع عليه لواءه . فحسب منهج القرآن أنه من صنع رب هذا الوجود ومن نفعاته وبركاته على خلقه . لكننا نقارن بين منهجين ليرى العالم أن ما بين يديه من مبادئ انما هي مبادئ هدامة قد أذهبت أمنه وسلامه وهو في حاجة اذن الى دواء القرآن وعلاجه لأمراض المجتمعات ، ولذلك سوف نعرض لكلا النظامين الرأسمالي والشيوعي وهما قمة ما وصلت اليه النظريات التربوية الحديثة في تربية المجتمع ، وفي كل جانب من جوانب التربية : العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والدولية سوف نتقف لتقول للانسانية الضالة : هذا هو طريق الله طريق الحق ، ونستنتج بذلك أهم ما وصل اليه البحث من نتائج تضاف الى ما فيه من نتائج رأيناها خلال الأبواب

والفصول ، وسأقت إليها حاجتنا الى بعض المقارنات بين منهج القرآن وغيره من النظم العالمية ..

والأمر بعد ذلك وبعد أن استوى هذا البحث نظرية متكاملة فى طريقة القرآن فى تربية المجتمع يحتاج الى عزمة الرجال وصدق ايمانهم لتصبح النظرية واقعا ملموسا فى عالم حائر مضطرب لم يبق له بعد أن يئس من اصلاح حاله وبعد أن طبق ما شاء له هواه من نظريات سياسية واقتصادية واجتماعية ، فلم يجد فيها بغيته ولم يحقق بها رغبته وأمله . لم يبق - حينئذ - الا أن يجرب نظام الاسلام ومنهج القرآن فى تربية المجتمع الانسانى ، ففساه أن يسعد ، وهو أمل جدير بالنجاح وطريق راشد سديد فيه خير البشرية فى كل زمان ومكان .. سارت فيه الانسانية ردحا من الزمان فهدأت وسعدت وآن لها أن تهدأ وتسعد وما ذلك على الله ببعيد !!

## ٢ - مقارنات :

### أولا - العقيدة :

لا تؤمن الشيوعية بما وراء الحس ، ويرى زعيمها «ماركس» أن العقل متوقف على المادة فى وجوده - ولا يمكن أن يوجد منفصلا عنها ، ولذلك فإن العقل أو الروح بعد فناء الجسم لا وجود لهما ، وفكرة الايمان بالله خرافة ووهم لأن الله - فى نظرم وراء المادة والايمان بوجوده وما يتبع هذا الايمان من بعث وحساب وجنة ونار وما فى عالم الغيب كله خرافة وتخدير للشعوب ، وان الاقطاع والاحتكار والاستغلال نبت كله فى ظل عقيدة الايمان بالله ، ولقد سرقت حرية الشعوب وأقواتها تحت وطأة الدين ..

ومنهج الشيوعية في تربية مجتمعها يقوم - اذن - على العداة المطلق للدين كله ولرسالات السماء جملة وتفصيلا ، وأفراد المجتمع يربون على قطع صلتههم بالسماء ليرتبطوا بالأرض ، فالحياة لا هدف لها ولا غاية الا سد شهوة البطن والفرج ، وفي سبيل ذلك يحيا الانسان ومن أجله يقاتل ، أما ما وراء ذلك من وحي السماء وتعاليمها فهو عبث وبهتان لا يعرفه دعاة الشيوعية •

ولما كان الانسان بفطرته عابدا فلا بد له من معبود يجعله ويقدسه ، كانت نظرية التعويض في المذهب الشيوعي هي البديل للايمان بالله ، فالولاء والعبادة والطاعة والتقديس تتجه في التربية الشيوعية الى الدولة ، والجزاء الذى يلقاه المؤمنون عند ربهم هو هنا من الدولة والتقرب الى الله الذى يندفع له أهل الايمان تجعله الشيوعية في انكار الفردية والتفانى في خدمة الدولة ••

واذا كان هذا حال العقيدة في المعسكر الشرقى فان المعسكر الغربى وما وراءه من الأمم التى تدين بالمسيحية قد وصل الى حد من القوضى العقائدية أدت الى عزل الدين بعيدا عن الحياة والانطلاق فى تيار الشهوات الى الحد الذى أفسد الحياة ، وجعلها مرتعا للفساد والضياع والقلق والدمار ••

والمتتبع لخط عزل الدين عن الحياة فى تلك البلاد يجد جذوره فى تلك المهزلة التى ابتدعها قسطنطين الامبراطور الرومانى حين فرض المسيحية على امبراطوريته ومزجها بالعناصر الوثنية • يقول « دربير » الأمريكى فى كتابه : النزاع بين الدين والعلم : « دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية فى الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يخفون بأمر

الدين ولم يخلصوا له يوما من الأيام وكذلك كان قسطنطين فقد قضى عمره في الظلم والفجور ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية الا قليلا في آخر عمره سنة ٣٣٧ م ..

« وان هذا الامبراطور الذى كان عبدا للعالم والذى لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئا رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين - النصراني والوثني - أن يوحد ويؤلف بينهما ، حتى ان النصراني الراسخين أيضا لم ينكروا عليه هذه الخطة ، ولعلمهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر اذا طعمت بالعقائد الوثنية ، وأن الدين النصراني سيخلص في عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها (٤) »

وهكذا اختلعت المسيحية السمحاء بالشرك والوثنية ، ولم تستطع الجماهير أن تتذوقها أو تدرك أسرارها ، فوقت الكنيسة تدعى معرفة هذه الأسرار وفرضت - بذلك - سلطانها على القلوب والمشاعر ، ونادت الناس الى الرهبانية والنسك ورفض الحياة بكل ما فيها من متع ، في حين أنها حازت الأموال والاقطاعات وفرضت الاتاوات ، واتخذت الجيوش وأصبحت صاحبة السلطان ، ولم يتورع دعاة النسك والرهبانية عن ارتكاب الموبقات داخل الأديرة وبيوت العبادة ، مما هز ثقة الناس في الدين ورجاله ، وكانت صكوك الغفران مهزلة من مهازل الكنيسة لم يقبلها عقل على الاطلاق . وأخيرا حين استيقظت أوروبا على صوت البعث الاسلامي وانطلق العلماء يصنعون الحياة وقتت الكنيسة تحرقهم وتعذبهم باسم الدين ، والدين من ذلك براء ..

وجاء أوجست كونت .. صاحب الفلسفة الوضعية ومن تبعه يرفض

(٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - لابی الحسن الندوى

دين الكنيسة وينادى الى عبادة الانسانية ويقطع الصلة بالله والحياة والآخرة ، وأصحاب هذه الفلسفة يقولون : « اذا انقطع ايماننا وتصديقنا بحياة أفضل في الآخرة ، وأردنا مع ذلك في غير تفرق ايجاد حياة أفضل فسنخلق حياة أفضل ، ولكن نريد هذا ونريد أن نحققه يجب أن نضع مكان محبة الله محبة الانسان كدين وحيد حق ، وأن نضع مكان الايمان بالله الايمان بالانسان نفسه وبامكانياته الخاصة وبعظمته ، الايمان بأن تقرير المصير للانسانية ليس من طبيعة خارجية عنها أو فوقها ، وانما يرتبط بها نفسها تمام الارتباط (٥) ..

وفي عالم النظريات التي أملاها الهوى وأوحى بها الشيطان ، تاه العالم الغربى والشعوب التابعة له . وأصبحت العقيدة شيئا لا يذكر في حياته وان كانت بقاياها مازالت في الوجدان تدفعه الى حرب الاسلام والمسلمين ، وهنا يأتى المنهج القرآنى هاديا ومرشدا للانسانية منذ أربعة عشر قرنا - يدلها على طريق الله الحق ، و يأخذ بيدها الى الحقيقة التي ضل عنها عقل الانسان حين اتخذ الهه هواه ..

فالكون في بدهة العقل - لا بد له من مكون هو الله جل جلاله المتصف بصفات الجلال والكمال ، والقرآن في تربيته للانسان وللمجتمع يسمو على كل مناهج التربية في القديم والحديث . اذ يحرر الانسان من عبادة غير الله ، يحرره من عبادة نفسه حتى لا يطغى ويفجر ، ويحرره من عبادة الأرض والتراب حتى لا يذل ويخضع ، ويربطه بمصدر القوة التي تحرك هذا الوجود في غيبه وشهوده ، ويمتد هذا الايمان في أعماق النفس فيفسح فيها مجالا عظيما يشد المؤمن الى الماضى والحاضر والمستقبل ، فاذا بصاحبه يؤمن بما وراء هذا العالم من الملائكة والبعث والحساب وما في

(٥) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى د. محمد البهى ص ٣٥١ ، ٣٥٢



اليوم الآخر كله ، كان يؤمن بمن سبق من الأنبياء والمرسلين وما جاءوا به من وحى الله على امتداد عمر التاريخ حتى أدى كل رسول وكل رسالة دورها في إرشاد العقل الانساني الى أن كانت خاتمة الرسالات وجماعها ، وخاتم المرسلين وامامهم ، وخاتم الكتب والمهيمن عليها وتلك رسالة الاسلام وحامل لوائها محمد بن عبد الله ، وهذا كتابها الخالد على مر الزمن والى أن تقوم الساعة كتاب الله الذى ..

« لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ  
مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »<sup>(٦)</sup>

والوحدانية ، تلك التى أقام عليها منهج القرآن دلائله فى كل مايقع تحت سمع الانسان وبصره هو الركيزة الأولى فى هذا البحث ، وهى التى أقام عليها هذا المنهج بناءه الأخلاقى والاجتماعى والدولى ، وحسبنا أننا لمسنا قوة هذه البراهين ومسايرتها للقطرة ، وبعدها عن التعقيد ، وأن كتاب الله اذ يعرضها لا يحتاج فى ذلك الى تفلسف والتواء ، انما يسوقها سهلة سلسلة تحيط بالنفس البشرية من كل أقطارها ، فاذا بها ترى اشراقاً الله فى ذاتها وفيما حولها من مخلوقات الله فى عالم الانسان والحيوان والنبات والكواكب والرياح والأرض ، وفى كل ذلك يناقش المنكرين للوجود الالهى والمشركين مع الله آلهة أخرى ، ويقود الجميع بالحجة القاطعة والبرهان الناصع الى توحيد الله والاعتراف بما له من عظيم الصفات . ولا يمل المنهج الالهى تكرار هذه الدعوة فيقف عليها من عمر الرسالة ثلاثة عشر عاماً فى مكة لا يحدث الناس عن شئ سوى هذه العقيدة فى ذات الله ، حتى استقرت جذورها فى أغوار النفس وتشعبت فى الكيان الانسانى ، فاذا به يعيش حياته كلها راسخة الجذور عميقة البعد :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ \* تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »<sup>(٧)</sup>

### ثانيا - التربية الأخلاقية :

إذا ما انتقلنا إلى مجال الأخلاق - وهي مقياس انسانية الانسان وامتيازه على الحيوان ، وهي المحك الرئيسى لسعادة البشر وأمنهم وسلامتهم - راعنا فساد الأخلاق وخبثها في الشرق والغرب ، وأزعجنا تدهورها بتلك الصورة المزرية التى لم تصل إليها في تاريخ الانسان من يوم أن خلقه الله ..

ومن العجب أن هذا الفساد وذلك التدهور يحميه العلم وتأييده النظريات ، ويقوم على فلسفة خطيرة لم ينفع في الوقوف في وجهها صيحات المخلصين ونداءات المؤمنين لأنها فلسفات ونظريات مدعومة بالمال والقوة والسلطان ، وتمتلك من وسائل النشر والاعلام ما لم يتح لغيرها على الاطلاق ، وتتقف حامية لها مدافعة عنها قوى سياسية ترى مصلحتها في هذا الفساد الذى بسط جناحيه على العالم كله فلم يفلت منه أحد .

فالشيوعية تؤمن بمبدأ « النقيض » ، ومعناه أن كل شئ يحمل نقيضه فهو في تطور مستمر لا ينتهى أبدا ، ولا تفرق الشيوعية بين عالم الأحياء وعالم المثل والقيم ، فما هو فضيلة اليوم رذيلة غدا وما يذمه مجتمع يملحه آخر ، واذن فلا ثبات للأخلاق على حال انما تنقض نفسها بنفسها

فتقاليد الأسرة في نظر الشيوعية وفضائل الجنس وحرية الفرد - كما تريد أن تنظر إليها - ليس لها اعتبار ثابت : قيمتها اليوم تتغير عن ذى قبل ، ويجب أن تتغير ويجب أن يكون الجديد أفضل من القديم في الوقت نفسه ، والدعوة إلى الحيوانية في علاقة الجنسين بعضهما ببعض قد تكون مبدأ أخلاقيا ، ونظام تبني الدولة للأولاد الشرعيين على السواء قد يكون نظاما أخلاقيا بعد أن يعتبر نظاما اجتماعيا ، ورق الفرد قد يكون مبدأ أخلاقيا كذلك . فإذا تم ووقع في المجتمع أحد هذه الأمور فهو أفضل ، لأن الحال الجديدة التي ينتقل إليها الشيء - بحكم مبدأ النقيض - أدخل في القيمة والأفضلية ، والتقدمية التي تطلبها الماركسية دائما هي الحال التي تلي الحال القائم لشيء ما وهي التي تنطوي على الاعتبار الأكثر والقيمة الفضلى ، « ومثل هذه النظرة الفاسدة » دعوى إلى انتكاس البشرية وليس إلى تقدم الإنسانية ، وهي عود بالإنسان إلى الرق وعود بالفكر والإيمان إلى الجبر وعود بالإنسانية إلى الحيوانية وبالأخلاق والقيم إلى الانطلاق في الحيوانية (٨) .

وهذه الأخلاق الفاسدة التي ليس لها ثبات في المجتمع الشيوعي يؤازرها في المعسكر الغربي والمجتمع الأمريكي شيوع نظريات «فرويد» في الجنس والكبت ، وأن الإنسان يجب أن ينطلق دون قيود أو حدود لاشباع غريزة الجنس فيه والا أدى ذلك إلى العقد والأمراض النفسية .

وعلى أساس هذه النظرة كان الاختلاط والعري والخلاعة والمجون ودور الملاهي والتمشيلات والقصص الداعرة لارواء غريزة الجنس ، ووصل بذلك الإنسان إلى مرتبة الانحطاط والتدهور وغرق في حمأة الرذيلة وسعارها وما ارتوى أبدا .

(٨) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي د. محمد البهي ص ٣٧٦ ، ٣٧٧

ولقد استغلت الصهيونية العالمية ذلك كله لتدمر البشرية وتستولي عليها من أقرب طريق بعد أن نجح زعماءها في محو عقيدة الايمان من النفوس وغرسوا فيها أن الدين مخدر للشعوب ، وأن الانسان ليس انسانا انسا هو حيوان كما قال «دارون» وأن غرائزه كما زعم « فرويد » تنصب كلها في الغريزة الجنسية التي يجب أن تنطلق دون أن يقف في طريقها عائق من دين أو خلق .. تقول « بروتوكولات حكماء صهيون » : « يجب أن نعمل لتنهيار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا . أن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكيلا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو اراء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » .. وتقول البروتوكولات : « لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم وأن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد » ..

ولعل هذا التآمر الصهيوني على الوجود الانساني واستغلاله للفكر في تحطيم كيان البشرية ، لعل هذا أن يكون مقنعا لمن اغتر بها في هذه المجتمعات الفاسدة من مظاهر الأخلاق الفاضلة : كالصدق والأمانة والاخلاص في العمل مما هو جدير بالاعجاب والتقدير . وأبأدر فأقول : انه لا يمكن لمجتمع ما أن يخلص للشر كله ، فلا بد أن تبقى فيه بقايا من الخير ، ومع ذلك فتللك الأخلاق فقدت عنصرها الانساني وانحصرت في حدود قومية ، بل في حدود فردية فالصدق جميل اذا ما أدى الى نفع صاحبه والا فلا مكان له بين الناس ، والأمانة والاخلاص في العمل صفات عالية اذا ما جلبت الخير والا فالخيانة والغش والخداع وقص المواثيق أفضل وأجمل .

وما يمكن لسلوك انفصل عن الايمان بالله أن يعتدل ، وماذا تنتظر من قوم جعلوا دين الله وراء ظهورهم ، وانطلقوا يعبدون أهواءهم وشياطينهم

ويقومون على تلك العبادة صرح الأخلاق الذى لابد أن يهاوى مهما  
بدا براقا جذابا؟؟

ولقد أقامت هذه المجتمعات على تلك الأسس برامجها فى التعليم  
والثقافة ، فالمدرسة المختلطة بين الذكور والاناث والرحلات والمعسكرات  
والشواطىء والحانات والمراقص والسينما والتلفزيون ، ونداءات الهوى  
والمجون وما يمد ذلك كله من فن القصص والنحت والتمثيل والتصوير ،  
وعشرات الرسائل التى تلتقى كلها فى النهاية لتملاء حياة الناس بهذا  
اللون الفاسد من التحلل والانطلاق والارواء الجنىسى الميسر ، ولتصنع  
منه هذا الانسان المستهتر بالقيم الأخلاقية الرفيعة وما جاء به الدين من  
مبادئ الطهر والعفاف ..

وحين نتحدث عن منهج القرآن فى التربية الأخلاقية لا نجد مجالا  
للمقارنة بينه وبين هذا الدمار الذى أصاب حياة الانسان ..

ويكفى من البداية وقبل المقارنة أن هذا المنهج أخرج خير أمة  
أخرجت للناس على امتداد التاريخ الانسانى .

وما زالت مبادئه خالدة على مر الزمن ..

هذه هى الشيوعية التى ترى أن الأخلاق لا ثبات لها ، وأنها تهدم  
نفسها بنفسها ، ومن العار أن يدين مجتمع بفضيلة لأنها ستكون رذيلة ،  
وعلى أساس من هذه النظرة الفاسدة التى فلسفها « ماركس » وتبنتها  
الصهيونية العالمية وأصبحت شعار المجتمع الشيوعى يكون سلوك  
الانسان تجاه نفسه وتجاه من حوله ، وهى نظرة المجتمع الشيوعى الى من  
عداه من المجتمعات ..

فهل هكذا يكون الانسان الذى كرمه الله ?? أو أن هذا هو الضياع والشقاء حين لا يجد المرء أساسا ثابتا يقوم عليه بناء الحياة .. لذلك أقام منهج القرآن أخلاق الانسان المسلم والمجتمع المسلم على أساس ثابت من عقيدة الايمان ، وهى من الثبات والقوة ما يدفع بالانسانية عبر الأجيال الى التراحم والترابط والمودة والاخاء ، وما يشعر معها صاحبها بأن ما جاءت به الرسائل وما كافح من أجله المرسلون من الأخلاق العالية كالصدق والوفاء والعدل والاخاء والشجاعة والمروءة والأمانة وعفة النفس والرحمة والرضا ، وغير ذلك من الصفات النفسية النبيلة كلها لا تتغير ولا تتبدل مهما توالى الأزمان وتعاقبت الأجيال .

وهذه نظريات الجنس والانطلاق فى الحيوانية التى أشاعها «فرويد» ونظريات التحلل من الدين ومثله وقيمه ، وأنه ليس فطرة وإنما هو شيء عارض فى حياة الانسان كما زعم «دوركايم» تدعو من جانب آخر لفتح الباب على مصراعيه لاشباع الشهوات لئلا يحدث الكبت وتتولد العقد ، ولماذا الكبت ولماذا العقد والدين ليس أصيلا فى فطرة الانسان وطبعه حتى يقف حاميا وحاجزا وحارسا ??

ويتعاون علماء اليهود جميعا لهدم انسانية هذا الانسان والقضاء عليه بتلك النظريات الهدامة التى روجت لها الدعاية العالمية تساندها القوى السياسية حتى أصبحت طريق الحياة للأمم الأرض على اختلاف أديانها ومذاهبها ، ووصلت بتيارها الآسن الى المجتمعات التى تعلن أنها تدين بدين الاسلام ، ووقف التطور شعارا يرفعه كل داع للفساد والتخلف والرجعية ، وسلاحا يشهره فى وجه من نادى بالتوقف والتريث ، والنظر الصادق الصحيح من أجل انقاذ مستقبل البشرية مما يهددها من الهلاك والضياع .

أما كتاب الله ومنهجه في التربية الأخلاقية ، فلا يكفي أن نقول انه المنهج المتكامل الكفيل باسعاد الانسانية ، لأننا نؤمن به ولهذا نتعصب له وندافع عنه ، بل ان النظر الصحيح لكل صاحب عقل ناضج يحتم الرجوع لهذا المنهج والأخذ به بعد أن جربت الدنيا كلها ما شاء لها الهوى ، فلم تجد فيه بغيتها وراحتها .. انما تجد هذه الراحة في منهج يربط الأخلاق بالايمان بالله ويشرع من العبادات ما يسمو بحس المؤمن ويرده دائما الى ربه ويدربه على التطبيق العملي لأخلاق الاسلام ، ويضع هذا المنهج من أسس التربية ما لم تصل اليه أرقم النظريات التربوية سواء على مستوى الفرد أو المجتمع : اذ يجعل من القيادة قدوة تحتذى ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للانسان الكامل بفعله وعمله وسلوكه قبل قوله ، كما كان الخوف والرجاء احدى وسائل التربية الالهية التي استطاع بها أن يشد المؤمن الى طريق الله ، وأن يدفعه الى التمسك بأهداب المبادئ الفاضلة . كذلك قدر ضعف الانسان عن مقاومة اغراء الفتنة ودواعيها فخلق له البيئة المناسبة ، وسد عليه كل طريق للفساد ، وأشاع في المجتمع العفة والطهارة ، وسرله طريق الاستمتاع الحلال الطيب كما تعهد هذا الانسان من يوم طفولته ، فرباه على كريم الأخلاق وفاضلها وغرس فيه معاني النبيل والاحساس الجميل بمن حوله من الناس ، كما وجه اهتماما عظيما لاهياء انسانية الانسان والارتفاع بها الى أقصى مايمكن لها أن تصله من السمو والرفعة ..

وعلى حذاء القرآن والصورة المشرقة المضيئة لمن كان خلقه القرآن انطلق أهل الايمان يحاولون ادراك تلك العظمة والوصول الى هذه الغاية حتى أصبح مجتمع الاسلام صورة فذة في تاريخ البشرية وضرب أعلى مثل فيما يمكن أن يتصف به الانسان باعتباره انسانا ، وهذه النتيجة التي وصل اليها البحث من اعطاء صورة صادقة لمنهج القرآن في

التربية الأخلاقية في حاجة الى حسن التطبيق كما طبقها المجتمع الاسلامى الأول ، لنضمن الحماية من الفوضى الأخلاقية التى شاعت فى أنحاء العالم، وانتقلت عدواها الى مجتمعنا الاسلامى حتى تعود له روح الحياة مشرقة بالأمل عطرة بالإيمان ، بعيدة عن التحلل مرتفعة عن الاتكاس والضعف والمهانة التى أفهمت الانسان بأنه حيوان فعاش بهذه الصفة حيوانا منطلقا فى حيوانيته دون رقيب أو حسيب !!

نعم اننا فى شوق الى حماية مجتمعنا من نظرة «الحيوانات» والارتفاع بهذا المجتمع الى المنزلة العالية فى الانسانية ، وتأكد أن كل فرد فيه انسان ويجب أن يحيا انسانا كريما فاضلا متصفا بصفات الكمال الخلقى والرفعة فوق الأهواء والشهوات ، حتى لا يشقى ولا يضل ، وحتى يشعر بالأمان والراحة والسعادة • وكلها — وأكثر منها — جلية واضحة ميسرة فى المنهج الذى رسمه كتاب الله للتربية الأخلاقية ••

### ثالثا - البناء الاجتماعى :

#### ١ - نظام الأسرة :

فى البناء الاجتماعى يقف نظام الأسرة عنوانا لقوة هذا البناء ومئاته، ومع نظام الأسرة تكافل المجتمع ودقة معاملاته وما يستمتع به الأفراد من حرية ومساواة ، وما يطبقونه فى نظام الحكم من عدالة ومشورة، وبذلك يبدو البناء شامخا قويا لا تزلزله العواصف ولا تؤثر فيه الأهواء ••

ولقد فهم المعرضون أن الأسرة هى اللبنة التى يشيد بها كل بناء فوجهوا معاولهم اليها حتى هدموها وذلك أن الأساس الذى تقوم عليه قد انهار ، فلم تعد العقيدة وما يتبعها من أخلاق فاضلة تحكم الحياة وتوجهها • ولهذا وصل حال الأسرة فى الشرق والغرب الى أسوأ نتيجة من التفكك والضياع ، وانفصم الرباط الذى يحميها من الفساد ، وانطلق



الزوجان يعبان من بحر الشهوات المتاحة لكل راغب ، وبقي الكيان الأسمى شيئاً عارضا في حياة تلك الشعوب ..

يقول «ول ديورانت» في كتابه مباهج الفلسفة : «ولما كان زواجهما ( الرجل والمرأة في المجتمع الحديث ) ليس زواجا بالمعنى الصحيح ، لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة ، فانه يفسد لفقدانه الأساس الذي يقوم عليه وهو مقومات الحياة ، فيموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع ، وينكمش الزوجان في نفسيهما وحينئذ كانهما قطعتان منفصلتان ، وتنتهي الغيرة الموجودة في الحب الى فردية يبعثها حياة المساخر وتعود للرجل رغبته الطبيعية في التنوع حين تؤدي الألفة الى الاستخفاف ، فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته ..

« لندع غيرنا من الذين يعرفون ، يخبرونا عن نتائج تجاربنا ، أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده ، فنحن غارقون في تيار من التغيير سيحملنا بلا ريب الى نهايات محتومة لا حيلة في اختيارها ، وأى شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم . فالآن وقد أخذ البيت في مدتنا الكبرى في الاختفاء فقد فقد الزواج القاصر ( المقصور ) على واحدة جاذبيته الهامة ، ولا ريب أن زواج المتعة سيقطر بتأييد أكثر فأكثر ، حيث لا يكون النسل مقصودا وسيزداد الزواج الحر مباحا كان أم غير مباح ، ومع أن حريتهما الى جانب الرجل أميل فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شرا من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لا يغازلها أحد ، سينهار المستوى « المزدوج » وستتح المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج ، سينمو الطلاق وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطية ثم يصاغ نظام الزواج بأسره في صور جديدة أكثر سماحة

وعندما يتم تصنيع المرأة يصبح ضبط الحمل سرا شائعا في كل طبقة يضحى الحمل أمرا عارضا في حياة المرأة ، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت .. وهذا كل شيء <sup>(٩)</sup> » ..

هذه الحقيقة التي يقرها هذا الكتاب من عام ١٩٢٩م مر عليها أكثر من اثنين وخمسين عاما وصلت فيها الأسرة الى حد من القوضى لم تقف عند حد ، وما زالت المرأة تطالب برفع الحواجز والعوائق .. بحيث لا يبقى اعتبار للتفريق بين ما يسمى علاقة شرعية وما ليس بشرعى في صلة المرأة بالرجل وفي النظرة اليها في ممارسة ما تنادى به طبيعتها كفرد وما تنتجه للدولة كعضو في المجتمع <sup>(١٠)</sup> ..

والتطور وتغير القيم دعوات عريضة ومعاول هدم قوية هزت كيان تلك المجتمعات يقول بعض من خلبهم بريق تلك الأفكار : « هل صحيح أن الغيرة علمي الفضيلة والتقاليد هي التي تحفزنا الى مقاومة التطور والكيد للمرأة ؟ ان يكن ذلك فما أحوجنا - اذن - الى تحديد معنى الفضيلة والزذيلة ، ومعرفة مدى ما يجب على الأمم أن تقدمه للتقاليد من طاعة وولاء ، ان الفضائل الاجتماعية والقيم العليا التي تنتظم حولها حياة المجتمع وتناط بها وجهته ليست التي يرتضيها فرد أو جماعة من الناس وتلائم تفكيرهم واحساسهم ، بل هي التي تنسجم مع القاعدة وتسمو عن الشذوذ ، والقاعدة هنا هي التطور ، والشذوذ هو الرجعية والانتكاس ، فكل زحف الى الوراء مهما اتسم بحسن النية وسذاجة القصد ليس سوى زذيلة في ثوب تنكري خداع ، وليس هناك اثم أشد ولا خطيئة أفحش من مقاومة التطور واخضاع مستقبل الأمم لجهلها القديم <sup>(١١)</sup> » ..

(٩) مباهج الفلسفة : ول ديورانت ص ٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦

(١٠) الفكر الاسلامي الحديث د. البهي ص ٤٠٠

(١١) من هنا نبدا : خالد محمد خالد ص ١٩٦ ، ١٩٧

ويقول آخر : « والخير والشر خضعا لناموس التطور فتغيرت معاني الرذيلة ومعاني الفضيلة ، كانت المرأة رمزا للشيطان ، وكانت الغريزة الجنسية خطيئة تحمل أوزارها المرأة وحدها ، فأصبحت المرأة نصفاً مكملًا للرجل ، وأصبحت الغريزة الجنسية حالة فسيولوجية تنظم لصالح المجتمع ومصرة أفرادها (١٢) » ..

ولا شك أن هذه النظريات الهدامة التي اجتاحت الشرق والغرب وأودت بحياة الأسر وحطمت هذه المجتمعات ، وانتقلت الى بلاد الاسلام تحاول جرها الى هذه الهوة السحيقة ، لا يمكن قياسها بنظام الأسرة الاسلامي الذي ثبتت جذوره في حياة المجتمع الاسلامي ، وبقي نبراسا يهدي الى الحياة الآمنة المستقرة ، فقد جعلها المنهج القرآني أساس البناء الاجتماعي ، وعد الزواج رحمة وآية من آيات الله ، ووثقه بالميثاق الالهي والعهد الرباني ، وجعلها عشرة خالدة تأكيداً لأهمية الحياة الزوجية ، ورسم خطاً واضحاً ضماناً لسعادة هذه الأسرة : فسن لها الخطبة والعقد والشهود والمهر ، ودعا الزوجين الى التسامح والرضا ، فان كان هناك خلاف أدى الى نشوز أحد الزوجين فانما هو التأديب بالوعظ أو الهجر أو الضرب غير المبرح للزوجة ، والتنازل عن بعض الحقوق للزوج اذا نشز ضماناً لحياة هذه الأسرة ، فان اشتد الخلاف فالطلاق حيلة من لا حيلة له وهو توقف للحياة الزوجية لا قطع لها ، ونظام الطلاق في شريعة القرآن أسمى من كل ما وصل اليه الفكر الانساني في نظام الأسرة كما شهد بذلك الباحثون في كل مكان ..

ومكرمة أخرى للمنهج القرآني في نظام الأسرة ذلك هو ما سنه في تعدد الزوجات حيث لم يتركه مطلقاً كما كان الحال قبل الاسلام ، ولم

يمنعه نهائيا مراعاة للظروف والأحوال ، فحدده بأربع واشترط لذلك العدل والقدرة على الاتفاق • وأخيرا جمع هذا النظام الخير من أطرافه وهو يوسع دائرة الأسرة : فاذا بها تشمل الأصول والفروع ولكل منهم حقوق وواجبات ، ويتقدم المنهج القرآنى بهذا النظام الالهى الى الانسانية فتطبقه أمة الاسلام فتسعد وترقى فى أسرها ، وترى الهدوء والسكينة والاستقرار فى حياتها ، وما زال هذا النظام طريقا راشدا واضحا لم تصل اليه أمة من أمم الأرض ، وكيف تصل اليه بتفكيرها الأرضى البشرى ؟ وكيف تقارن هذا النظام الأرضى بنظام السماء ??

## ٢ - التكافل الاجتماعى :

الصراع بين الطبقات الى أن يصل الأمر الى طبقة العمال وحكم الحزب الواحد الذى يفرض قوته ووجوده على سائر أفراد الشعب من أبرز سمات المجتمع الشيوعى ••

والتكافل بمعناه الواسع أو الضيق - اذن - لا وجود له فى هذا المجتمع ، فالدولة هى كل شئ فى حياة الفرد توفر له متطلبات الحياة المادية والمعنوية وما هو الا آلة مسيرة يؤدى ما يطلب منه فحسب ••

والأمر قريب من ذلك فى المجتمعات الرأسمالية : فقد تلاشى التكافل الاجتماعى وانحصر فى لون واحد هو التكافل المعيشى ، بمعنى توفير الغذاء والكساء والدواء لكل محتاج • ونظرة الى الواقع ترينا أن الدولة فى المجتمع الشيوعى ما استطاعت ولن تستطيع أن توفر كل حاجيات الانسان ، وأن صورا من البؤس والشقاء ما زالت فى هذا المجتمع ، كذلك مثلت البطالة والحرمان جزءا عظيما فى الدول الرأسمالية ، وفات كل هذه المجتمعات أن الانسان فى حاجة الى أكثر من الطعام والشراب •

وهنا يبرز منهج القرآن وضاء مشرقا يحمل السعادة والأمان لكل الناس ، فيخطط للتكافل المعيشى فى موارده ومصارفه بصورة فذة لا تغادر ثغرة الا وأتت بما يناسبها من التشريع المحكم العادل ، ومع هذا التكافل الذى تنشده المجتمعات على اختلاف نظمها بين شيوعية ورأسمالية ، وما وصلت اليه ، ألوان عدة من التكافل الأدبى والسياسى والدفاعى والجنائى والأخلاقى والاقتصادى والعلمى والحضارى والعائلى مما هو مفصل فى موضعه ..

وكل هذه الألوان تتناسق لتعطى - أخيرا - أجمل مظهر لمجتمع الاسلام فى تكافل أفرادهم وتعاونهم وانسجام كل فرد فى هذا المجتمع ، حاكم أو محكوم - مع من حوله واحساسه بأنه يحيا فى ظل عدالة اجتماعية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الانسان ، وحين يضع المنهج القرآنى هذه الألوان للتكافل لا يجعلها مجرد أسطورة فى الخيال ، انما يحققها واقعا عمليا يدفع اليه المجتمع بطريقته فى التربية وذلك بغرس احساس الاخاء الانسانى فى القلوب ، وجعل رابطة الايمان أساسا لمجتمع الاسلام ، ولا يزال يعمق هذا الشعور فى النفوس حتى يصل الي الغرض الأسمى ، فاذا بالانسان مندفعاً الى بذل أقصى ما يستطيع فى سبيل اسعاد اخوته فى الانسانية واخوته فى الايمان ، والسعادة ليست فى توفير الغذاء والكساء فحسب انما تشمل أشياء كثيرة أدبية وسياسية وعلمية وحضارية ، وكلها مما جعله القرآن سبيلا للمجتمع الذى رباه على أكرم مبدأ وأعظم منهج .

### ٣ - المعاملات المالية :

يقف النظام الشيوعى والرأسمالى دون عتبة السمو الربانى وهو يخطط للحياة ويوصل لها فى معاملاتها المالية ، فلا يترك خيطا فى النفس البشرية يؤدى الى دفع عجلة الانتاج من أجل اسعاد البشرية الا وشده

وأحكم رباطه ، ولا يترك دربا يفيض منه الخير على الناس الا ومهده  
وفتح له الأبواب •

لقد ربط تعامل الانسان بعقيدته كما هو شأن المنهج القرآني في  
التربية ، فبدت من أول لحظة طهارة المنبع الذي استقى منه المجتمع فكره  
ووجدانه وبين أن المال عصب الحياة فلا بد للمؤمن من تحصيله ، لكنه -  
وهو يسعى لتحصيله - يدرك أن هذا المال مال الله أولا ، وما هو الا  
مستخلف فيه • ثانيا وما يجوز لخليفة الله أن ينسى ربه في حال سعيه وكده،  
فليلق على تعبه برد الأمان والنقاء والطهر بذكره لربه وسيده ••

كما لا يصح لمن هذا حاله أن يغش أمته أو يقبل رشوة أو يختكر  
أقوات الناس ويضيق عليهم أو يعاملهم بالربا ، وهنا نجد الأحكام  
والتفصيل الدقيق للوسائل النظيفة في جمع المال كما نجدها - أيضا -  
في اتفاقه : فلا يجوز لمؤمن أن يكنز أو يقتري على نفسه وأولاده •• كما  
أنه ليس حرا في بعثرة ماله والاسراف فيه انما هو الاعتدال الذي هو شأن  
أمة الاسلام في كل حالاتها •

ولقد ضلت الرأسمالية الطريق ففهمت أن الحرية تعنى أن يفعل  
الانسان ما يشاء ، وأن يجمع ما يشاء وينفق ما يشاء ، فأدى ذلك الى  
انحرافات خطيرة في نظام المجتمع ، ويكفى أن هذا كان وسيلة لتكوين  
الاحتكارات العالمية والتحكم في حياة الملايين من سكان العالم •• وقد  
استطاع أقطاب المال أن يوجهوا الحياة لمصلحتهم على حساب الطبقات  
الكادحة بعد أن زيفوا كل الحقائق ، وطمسوا كل المعالم وظهروا أمام  
العالم بأنهم دعاة الحرية والعدالة •• لقد سيطروا على كل شيء وتدخلوا  
في كل شيء ، يقول « ويليام هيرست » الكاتب الأمريكي :

« فنحن ما زلنا تحتفظ بشكل حكومتنا الجمهورى ولكن من الذى يسيطر على اللجان التى تختار المرشحين ؟ الشركات . من الذى يسيطر على المؤتمرات الانتخابية ؟ الشركات . من الذى يسيطر على السذين يفوزون فى الانتخابات ؟ الشركات !! أحقا يصير فوائنا ممثلين للشعب أم هم ممثلون للشركات ؟ ليجب أى امرىء اجابة صادقة عن هذا السؤال . . . أحكومتنا ما زالت حكومة للشعب وبواسطة الشعب أم هى حكومة لطبقة خاصة تقبض على زمام الحكم وتدير دقته ؟؟

وهذا أحد أقطاب المال فى أمريكا « توسند مارتن » يباهى بسيطرتهم الشاملة على هذا النحو فيقول : « نحن لا نبالى من من الأحزاب يتولى الحكم ، ولا من من الرؤساء يتولى منصب الرئاسة . . . نحن لسنا رجال سياسة أو رجال فكر انما نحن رجال مال نمتلك أمريكا ولا ندرى كيف امتلكنها ، ولكننا نحرص على الاحتفاظ بما امتلكناه ، وسبيلنا الى ذلك هو القاء تأييدنا الضخم ونفوذنا الشامل ، واتصالاتنا السياسية ، ومن اشتريناهم من أعضاء مجلس الشيوخ ، ومجلس النواب ، ومن نستأجرهم من خطباء شعبيين نلقى كل هذا فى كفة الميزان ضد كل حركة تشريعية أو وثبة اصلاحية أو حملة انتخابية رىاسية تهدد سلامة ما نملك (١٣) » . .

وعلى الطريق المقابل ولدت الشيوعية فألغت الملكية الفردية وادعى زعيمها « ماركس وانجلز » أن التملك ليس غريزة فى الانسان ، وأن الشر بدأ حين استقر هذا الانسان وبدأ حياة الزراعة وعرف الملكية ، لذلك يجب أن تكون الملكية عامة وأن يأخذ كل منها بقدر حاجته .

وأقامت الشيوعية نظامها كله على هذا الأساس فما سارت فيه

(١٣) التنظيم الحديث للدولة الاسلامية بين الشريعة والقانون : محاضرة للدكتور محمد عبد الله العربى بدار الثقافة بالخرطوم فى ١٩٦٩/٢/١١ ص ٣٥ .

قليلا حتى أباحت الملكية الشخصية ، وسمحت للشعب بالكماليات ووضعت نظام الحوافز بين العمال ، وتراجعت عن كثير من الأسس التي قامت عليها النظرية الشيوعية ، وسمحت بالهبوط ولم تسمح بالصعود « وقد فعلت مدبرة الطبيعة فعلها في جميع نوازع الحياة وفي مقدمتها عبقرية الأمة وملكات الانسانية ، وهو أول ما يصاب بمدبرة الطبيعة وكره العقول والقرائح على نحو من الأنحاء ، فإن مدبرة الطبيعة شر على عبقرية الأمة من الطغيان والاستبداد لأن عبقرية الأمة الروسية لم تحرم في عهد القاصرة أفذاذا من نوابغ الأدب مثل دوستيفسكى وتولستوى وترجنيف وشيخوف وأرتزياشف وجوركى ونخبة من الموسيقيين والدعاة ولكنها عقت فلم تخرج واحدا من طبقة هؤلاء في عهد النظام الشيوعى على وفرة الكتب المطبوعة وكثرة القراء بين جميع الطبقات ، ومن بلغ من أدباء الروس نصيبا من النبوغ يقارب تلك المنزلة كان مآله الى الخمول أو الاتحار ، وكان هذا ما استفادته الأمة الروسية من هذه التجربة الدامية التي كلقتها نيفا وعشرين مليونا من النفوس البشرية بين قتلى الثورة وفرائس الاضطهاد وصرعى المجاعة والوباء عدا خسارة الأمة فى الحرية واستقلال الفكر والشعور (١٤) » ..

وكلا النظامين موصوم بالبعد عن الله ، وما يمكن لنظام ابتعد عن هدى الله أن يسعد البشر ، لذلك شقيت به المجتمعات التي يقوم فيها وشقيت معها الانسانية كلها ، وأصابها ما أصابها من حروب ودمار ، وشاع فى أرجائها البؤس والشقاء والخوف والانهيار ، ومثل هذا العصر صورة للقلق والتعاسة برغم ما يمتلكه الانسان من تسييرات مادية سهلت له حياته وجملتها بألوان لم تكن تخطر له على بال ..



فهل يمكن لهذا الضلال الذى يتبناه العالم فى شرقه وغربه وماجنى منه غير الشوك والألم والدموع أن يتساوى بمنهج الله العظيم وهدية الكريم ، وبما أرساه من قواعد العدل الالهى المرتبط بعقيدة ثابتة لا تتغير توجه الحياة فى اطار الايمان بالله ربا وبكتابه دليلا وبرسوله مرشدا وموجها فتبعد بذلك عن تفاهات العقول وعجزها وتسمو الى ما تتطلع اليه الانسانية على اختلاف منازعها ومشاربها ؟؟

#### ٤ - الحرية :

والحرية دعوة عريضة يتمسح بها القادة والزعماء ويزعمونها كل نظام فى أنحاء الأرض ، ويفرق بين الزعم والحقيقة والواقع والخيال ..

فالديمقراطية الغربية تقوم على الحرية المطلقة للفرد متأثرة فى ذلك بالثورة الفرنسية واعلان حقوق الانسان الصادر عام ١٧٨٩م الذى يجعل للانسان حقوقا طبيعية أو حقوقا فردية هى ، الحرية والمساواة والملكية وحق الأمن وحق مقاومة الظلم ، وهذه كلها تعرف بالحریات العامة .. وبرغم الجمال الظاهرى لتلك الحرية ، فانه ثبت فشلها فقد أثبتت التجربة :

١ - عجز هذا المذهب عن تحديد وتقييد سلطان الدولة قالواقع أنه ينتهى بها اما الى الفوضى واما الى الاستبداد والسلطان المطلق ..

٢ - لا يفرض التزامات ايجابية على الأفراد ..

٣ - ولا على الدولة فليس عليها تعليم ولا مساعدات أو اعانات أو توفير العمل للعاطلين (١٥) ..

وليت ما تدعيه أبواق الدعاية الغربية والأمريكية يصبح واقعا والضياع على أيدي هؤلاء ، وما وصلت أمم الأرض الى حريتها وما في حياة الانسان .. الا أن الأمر قد اختلف فاذا بهذه الدعاوى العريضة في تبني الحرية كلمات جوفاء ، واذا بالشعوب تذوق المذلة والهوان تخلصت من ظلمهم وجورهم الا من عهد قريب ، وما زالت كثرة من شعوب الأرض تعاني الحرمان والكبت والضييق من جراء احتلال أراضيها ، بل ما زال الاستعمار المقتنع في أجزاء كثيرة من العالم .

وماذا عن حياة هذه الأمم التي تدعى الحضارة والحرية ، هل تحرر فيها الفرد أم كبته الأهواء والشهوات وأصبح عبدا للملذاته لأنه محروم من هداية الساء ؟ وهل شعر الانسان هناك بأدميته ، وأحس المجتمع برابطة الاخاء تجمع الناس على بساط المودة والرحمة أو أن التمزق أصاب هذه المجتمعات فاذا باللون يلعب دورا خطيرا في حياتها فتصبح التفرقة العنصرية لعنة تفتت رباطها وتشتت شملها وتصل في ذلك الى مستوى خطير حرمت به الرجل الأسود من حق الحياة : أبسط الحقوق التي ينالها انسان عاش على ظهر الأرض .

واذا تبين فساد دعوة الحرية التي يعتنقها الغرب وأن الفرد في هذه الأمم لم يشعر بها ولم يتذوقها كما أن الشعوب التي اتصلت بهذه الأمم ذاقت الاستعباد والظلم فانه لا يجوز لعامل أن يفاخر بما يراه من الفتات المتساقط على موائد القوم ، وذلك اذ يرى كيف يستطيع كل انسان أن يناقش رئيس دولته وأن يختار من يمثله في المجالس النيابية وأن ينتقد ما يراه مخالفا للمصلحة العامة فكل ذلك لا يقاس بما ران على النفوس من مذلة للأوضاع الفاسدة وما شاع في هذه الشعوب من عبودية بعضهم لبعض ومن تفرقة بغيضة بين الطبقات ومن سيطرة رأس المال وتحكمه في الرقاب .

أما الشيوعية فإنها أرادت الحرية من طريق مسدود : فقد تبنت نظام امتلاك الدولة لكل وسائل الإنتاج أملا في تحرير العمال من أصحاب رءوس الأموال ، ولكنها في الوقت الذي منعت فيه استغلال أصحاب الأموال فرضت عبودية الدولة وسلطان الحزب الشيوعي على مقدرات الناس وحياتهم ، وقضت بذلك على الحرية الشخصية ورسمت طريقا للسلوك لا يجوز للفرد أن يخرج عنه والا كان مصيره الهلاك .

« فجميع الأفراد في النظام الشيوعي أجراء ، ولكن لا حرية لهم في قبول العمل أو في اختياره ، هم جنود محاربون ولكن لا في سبيل الوطن أو في سبيل الله أو بدافع التضحية لذات التضحية ، إنما هم مساقون بالدفع من الخلف والسوط في هذا الدفع الخلفى هو الذى ينطق دون التذكير بمعانى المجد والحرص على سلامة الوطن ، وجميعهم فى ظل هذا النظام أيضا منتجون ولكن انتاجهم انتاج « كم » أكثر منه انتاج « كيف » اذ تنقصهم الرغبة فى العمل ويدفعهم الى قبوله خلاء المعدة والرغبة فى ملئها فقط ، وهذه هى الماركسية عدوة الحياة الانسانية وعدوة الدين والايمان بالله وعدوة الملكية الفردية وعدوة الحرية فى الرأى وفى التعبير وفى العمل وفى نظام الحياة وفى بناء الأسرة ، التملك الجماعى خداع ، والدولة ذات الطبقة الواحدة خداع ، الكل مسوقون والسائق حفنة من القادة ، واتجاه السير فى الحياة الى المعدة ، المعدة ، وبدل أن تعين أتباعها على أن يرفعوا رءوسهم لينظر بعضهم بعضا تحملهم على أن يخفوا وجوههم حتى لا يرى الواحد منهم الآخر على حقيقته ، ثم عليهم ولهم أيضا أن يتحسسوا بطونهم ويسمعوا نداءها وحده الافراد الشيوعيون مقضى عليهم بالقضاء فى صورة ما ، والدولة هى الباقية ، فأى مجتمع يحيا اذا ماتت أفرادها فى حياتهم وفى قبورهم على السواء؟! أهو مجتمع العبيد أم مجتمع الانسان الحر الكريم؟ مع الأسف انها لا تؤمن بالحرية ولا بالكرامة ولا بأمثال هذه المثاليات ، انها لا

تؤمن الا بالجسد وحيوانية الجسد ، وتكفر بانسانية الانسان وبخالق  
الانسان معا وهو الله جل شأنه (١٦) » ..

واذن : فالعالم بأسره لم يعرف الحرية الا في ظل منهج القرآن الذي  
رسمه لتربية المجتمعات ، وقد جعلها شعورا واحساسا ينطلق بهما الانسان  
الى الآفاق السامية النبيلة دون أن يضغط على أعصابه خوف على  
منصب أو مكانة أو يهزه تملق كاذب أو يجرفه أمل في سعة الرزق أو  
ضيقة أو نفع أو ضرر أو متعة زائلة ، فهو حر من داخله بإيمانه بمصدر  
القوة والرزق والنفع والضرر والسعادة والشقاء ، وذلك كله عند الله  
ربه الذي خلقه ورزقه ..

ولم تعرف الحرية بكل ألوانها وأشكالها الا في ظلال هذا المنهج :  
حرية الدين والتعليم والعمل والتملك وحرية الفرد السياسية والمدنية  
والاجتماعية والأدبية الى غير ذلك مما جعله القرآن واقعا حيا نابضا  
بالقوة والحركة ، وذلك بما رسمه من مبادئ تحفظ للانسان كرامته  
وحقه في حياة آمنة مستقرة ، وما ربي عليه انسانيته من الثورة على الظلم  
والتمرد على الظالمين ، ورفض كل أشكال الطغيان وصوره .

وهذا طريقه لتصفية الرق وتحرير الانسان واضح : فقد أقصر  
الرق واعترف به ولكنه وضع خطته للقضاء عليه ، ورفع الرقيق فـى  
فترة الانتقال هذه الى مرتبة لم تحلم بها الانسانية في تاريخها كله ، بل  
انه أعطاهم من الحقوق ما لم تحصل عليه كثير من المجتمعات في العصر  
الحديث ..

ومثل هذا المنهج الالهى الذى حرر الانسان وأطلق طاقاته وفتح

أمامه كل الأهواب ولم يمنعه الا مما يتنافى مع انسانيته وكرامته ، أو ما فيه ضرر بنفسه أو مجتمعه ، مثل هذا المنهج لا يلتقى بمنهج البشر ولا يقارن بها أبدا بعد أن تبين خبثها وفسادها واشقاؤها للإنسان الذى لم يبق أمامه الا اشراق كتاب الله يلتمس فيه الرؤية الواضحة الى الطريق المستقيم ..

#### ٥ - المساواة :

ما أجدرنا نحن المسلمين أن نفاخر بما أتاحه منهجنا القرآنى للبشرية من مساواة حقة نابعة من الوجدان الذى ملاء هذا المنهج بالثقة فى الجنس البشرى ، وأنه كيان واحد انبثق من أصل واحد ليس فيه الا ما يوجه هذا الرباط من أخوة ومودة ومحبة ، وكل من ادعى ميزة على غيره بحكم الجنس أو اللون أو الأرض أو غير ذلك من الأمور العارضة فدعوته باطل وزور وبهتان ..

وعلى هذا الطريق سار منهج القرآن : فأقر التفاوت فى المواهب والملكات وما يتبع ذلك من تفاوت فى حظوظ الرزق ومناصب الحياة العلمية والأدبية ، ولكنه لم يجعل هذا التفاوت وسيلة لاستعلاء جنس على جنس أو طبقة على طبقة ، انما دعا الخاملين الى بذل الجهد بغية الوصول الى القمة ، ودعا الممتازين الى التواضع وجعل ما فى يدهم من مواهب تفضلا من ربهم وعطاء يستحق الشكر ، وما شكر هذه النعم الا ببذلها فى اسعاد الناس ..

وبهذا التقى الجميع على بساط الوثام والصفاء وذابت طبقات المجتمع وفئاته فى وحدة جامعة ولم يبق هناك مجال لصراع الطبقات أو استعلاء فريق على فريق ..

وذهبت المساواة مذهبها فاذا بها دستور الحياة في مجتمع الاسلام:  
تشمل جميع أوجه النشاط فيه من سياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية،  
فقد نالت المرأة - تحت ظل هذا المنهج - حقها كاملا وتساوت بالرجال  
فيما يستحق المساواة ، وتساوى الأغنياء بالفقراء والسادة بالعبيد والموالي  
وأهل الذمة بالمسلمين .. ولم يسع الفقر أو العبودية أو الموالة أو الدين  
أو غير ذلك مما تعارفت عليه المجتمعات في تاريخها الطويل أسبابا تفرق  
بين الناس .. ولم يمنع ذلك كله أى فرد أن ينال حقه كاملا في الاستمتاع  
بمتع الحياة والوصول الى ما يجب ويرجو وتحمل مسؤوليته وجزائه  
في غير ظلم ولا اجحاف ..

وهذه المساواة الكاملة لم تعرفها الرأسمالية أبدا : انما اندفع  
فلاسفتها يطالبون بلون واحد من المساواة هي المساواة أمام القانون ،  
وذلك لما كان لطبقة الأشراف ورجال الكنيسة من امتيازات على غيرهم،  
فاذا هدمت تلك الامتيازات وتساوى الناس في الحقوق المدنية فقد  
تحققت المساواة في نظرهم أما في غير ذلك فلا مساواة ، بل ان هذه  
المساواة أمام القانون لم تحصل عليها الشعوب الا من عهد قريب بعد  
الثورة الفرنسية وبقيت - الى وقتنا هذا - جوانب المجتمع يفتتها  
الفهم الضيق للحياة وقيمتها ومثلهاذ يفرض اللون والجنس والدين سلطانه  
على كل مظاهر تلك الحياة ..

ومع ذلك ينخدع بعض الناس بمظهر ما تتمتع به تلك الأمم من  
تسييرات مادية فيظن ذلك هو التحضر والرقى ، ومادرى أن الحضارة  
ليست في امتلاك طائرة أو باخرة أو نوع من أنواع المتع والراحة والترفيه  
فحسب ، انما هي أولا وقبل كل شيء في امتلاك المبادئ التي تسكب  
السعادة في القلوب وتتيح الحياة الكريمة للبشر ..

وأغرب مساواة هي التي توهمها — ماركس — وطبقها لينين في البلاد  
 السوفيتية بعد نجاح الثورة الشيوعية ، فقد توهم — ماركس — أن  
 المادة « هي كل شيء » ، وأن التفاوت الاقتصادي أدى الى الاستغلال  
 والظلم ، والتاريخ كله يدور في فلك المادة والاقتصاد ، والوسيلة  
 — اذن — هي ازالة هذا التفاوت واستيلاء الدولة على كل شيء والقضاء  
 على الملكية واعطاء كل فرد بقدر حاجته المعيشية بعد أن يبذل كل طاقته  
 والمساواة في الأجور هي المساواة الكاملة في نظر ماركس . . وما أضيق  
 هذه النظرة الى مجرى التاريخ ودوافع الحياة فان التاريخ لا تتقيد  
 خطاه بتنظيم الأجور على نحو من الأنحاء ، لأن دوافع الحياة أعمق  
 من ذلك وأعظم « ولن يمتنع تفاوت الأرزاق ولو منعت جميع القوانين  
 التي في طاقة الحكومات أو الجماعات ، على أنه لو امتنع يوما بحيلة من  
 الحيل الحكومية لبقى التفاوت الذي لا حيلة فيه لحكومة قط ولا تعدله  
 في قيم الحياة قيمة تتعلق بالأرزاق أو بالأموال لأنه هو التفاوت الذي  
 يسعد ويشقى ويرفع ويضع وتناط به الآمال والجهود والغبطة والرجاء ،  
 فقد يولد الانسان بوجه جميل يفتح له القلوب ويسخر له اللذات وتبتمناه  
 الألوف فلا هو قادر على أن ينزل عنه ولا هم قادرون على أن يأخذوه  
 وقد يمتاز الانسان بالقوة التي تقاوم العلل وتستغنى بالقليل من الطعام  
 والكساء عن الكثير الذي لا ينفع الآخرين . وقد يمتاز بالذرية التي  
 تعز على غيره ، أو يساوى غيره بالذرية ويمتاز عليهم بنجاة الأبناء ،  
 وقد يمتاز بالعبقرية والنبوغ ، وقد يمتاز بالفصاحة وذكراة اللسان وقد  
 يمتاز بالظرف والفكاهة والايناس ، وقد يمتاز بطول الأجل والرضا عن  
 العيش واعتدال المزاج وقد يمتاز بالهبة ووجاهة المحضر وبروز الشخصية  
 بين الأنداد والأقران (١٧) » . .

ولقد فعلت هذه المواهب فعلها برغم كل نظام وما استطاعت القوة والارهاب أن تجبر الطبيعة على غير ما خلقت له . فظهر التفاوت بين أناس يرغبون جميعا في منعه وأنشأوا الطبقات باليمين وهم يحاربونها باليسار ..

وهكذا تشقى الانسانية وتتعذب حين تختار لنفسها غير ما اختاره لها خالقها ، وما كان بها من حاجة الى هذا الضلال ومنهج الله بين أيديها من أربعة عشر قرنا من الزمان يحقق لها الحرية والمساواة والعدالة على أكرم ما أرادت وعلى أعظم ما تمتت ..

#### ٦ - نظام الحكم :

ويأتي نظام الحكم في المنهج الالهى محققا لآمال الانسان في الحياة الحرة الكريمة ، اذ يقوم على أساس من الشورى والعدل وقيام الحاكم فيه بمسئوليته في حراسة دين الله ، وتنفيذ شريعته وأداء الرعية لحق الطاعة لأمرها وقائدها .

والمقارنة بين طريقة الحكم الاسلامى وغيره من النظم العالمية قديما وحديثا قد سبق الحديث عنها (١٨) ، ومنها يتضح أن نظام الحكم الاسلامى فريد لم يضارعه نظام سابق أو لاحق وليس تقليدا لأى نظام بشرى ، وأن التقاء بعض النظم به في جزئيات منها ليس كفيلا أن يجعل هذه النظم اسلامية ، ولا أن يجعل النظام الاسلامى مندرجا تحت واحدة منها ، وما يقال انه اشتراكى أو ديمقراطى أو غير ذلك لا يعطى الصورة الصادقة لهذا النظام ، فحسبه أنه نظام اسلامى وكفى ، ولن يشرفه أن

(١٨) في الباب الثالث - الفصل السادس : نظام الحكم من ص ٢٤٥

وما بعدها



يكون قريبا من هذه النظم ولا ينقص من قدره أن يكون بعيدا عنها فلها مناهجها الخاصة ومجتمعاتها وظروفها وملابساتها التي طبقت فيها ، وللحكم الاسلامى منهجه الذى أصلح به فساد أمة جاهلة ، كما أن له طريقته فى اصلاح كل فاسد وتقويم كل معوج فى كل زمان ومكان وذلك بما فيه من عناصر القوة والصلاحية ، وبما اشتمل من مرونة فى التطبيق مما يدفع بالتقدم الانسانى الى الأمام فى ظل عدالة الهية تضمن لكل صاحب حق حقه ..

وما تدعيه الديمقراطية الحديثة من أنها أرقى نظام للحكم وصل اليه الانسان فى تاريخه كله محض ادعاء كاذب . فان العدالة - وهى مطلب كل جماعة انسانية - ليس لها وجود فى تلك النظم اذ لا تشترط فى الحاكم ولا فى سياسة الحكم ، كما هو نظام الحكم الاسلامى الذى يهدف الى اقامة السياسة العادلة وهى التى تعنى باسعاد الأمة وتعمل على تحقيق مصالحها ، ولا ينفذ هذه السياسة الا حاكم عادل فى مجتمع عادل ..

وأبرز ما فى الديمقراطية نظام التمثيل الشعبى وهو : ذلك النظام الانتخابى الذى يهدف الى تمثيل الأحزاب السياسية تمثيلا فى البرلمان يتناسب مع قوتها أى مع عدد أتباعها من الناخبين « وقد أدى هذا النظام فى كثير من البلاد الى اضطراب سير أداة الحكم والى عدم الاستقرار الوزارى وخلق وزارات ائتلافية ( أى مكونة من عدة أحزاب مختلفة ) يسود أعضاؤها النزاع والخصام لا الوئام والانسجام » (١٩) .

وفى التطبيق الشيوعى يقوم الحزب الشيوعى بفرض سلطانه على حياة الشعب وينال من المزايا والمناصب والمتع ما لا يتاح لغير أعضائه .

ويمثل هذا النظام في الحكم أسوأ ما عرفت المجتمعات من القسر والارهاب بما يمتلك من جهاز المخابرات السرية بدرجاته المتعددة ، والذي ييسر يده على كل مرافق الحياة ، وبما يمتلك - أيضا - من وسائل القوة المادية المسلوقة من كل طبقات الشعب والمركزة في يد فئة قليلة منه ..

ومن البداية يعلن هذا النظام أنه قائم على صراع الطبقات وديكتاتورية الطبقة العاملة ( البيروليتاريا ) مما يدفع الحكم الشيوعي بالفساد والضياع ..

والنظام الديمقراطي والشيوعي في الحكم لا يمثلان حياة الشعوب ولا يشرعان من أجلها ، انما يحكمان لصالح طبقة معينة هي الطبقة الحاكمة فيسود الظلم وتضيع الحقوق . يقول الدكتور محمد عبد الله العربي : « ان المتتبع للتشريعات الحكومية الوضعية منذ أقدم العصور الى اليوم لا يلبث أن تصدمه ظاهرة مستمرة وممتدة طوال عصور التاريخ . هذه الظاهرة هي أن بعض البشر سواء كان هذا البعض حاكما فردا أو طبقة مهيمنة أو هيئة نيابية مفروض فيها أنها تمثل الشعب تمثيلا صحيحا في أقله وزائفا في أكثره - أقول بأن بعض البشر حين يستأثرون بالتشريع لا بد أن يصوغوا تشريعهم لصالح أنفسهم .. ذلك طبع بشري لا معدى عنه ولا محيص ، انه لا ينبع من رغبة شريرة أو نية مبيتة لظلم الناس ، انما ينشأ عن طبيعة الانسان ذاتها قال الله تعالى في وصف طبيعة الانسان ..

(٢٠) « وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ »

والخير هنا هو : المال وقال الله تعالى :

« زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ  
وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ  
وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ  
حُسْنُ الْمَأْبِ » (٢١)

ومن ثم يقرر علماء السياسة أن الطبقة الحاكمة تحكم لصالح نفسها على حساب بقية الطبقات . في مصر القديمة كان فرعون يقول : أنا ربكم الأعلى ، فكان تشريعه يلتزم تشييت حكمه على حساب مصلحة الشعب كله : في اليونان القديمة ، في امبراطورية الرومان ، في امبراطورية الفرس ، كانت كل الحقوق مقصورة على طبقة معينة دون سائر الطبقات حتى قال روسو : « ان الحرية في العصور القديمة انما قامت على أكتاف العبودية ، في العصر الاقطاعي — في القرون الوسطى — كانت طبقة الاقطاعيين هي الحاكمة وتحكم لصالح نفسها على حساب بقية الطبقات الأخرى ، وكانت تشريع لحماية مصالح الاقطاع ضد الفلاحين فتعطى الاقطاعي حقوقا وامتيازات تحرم منها الفلاح وتخفف من الواجبات على كاهلها ، في حين تثقل بها كاهل الفلاح . في الوثيقة الشهيرة في بريطانيا في القرن الثالث عشر ، وثيقة «الماجنا كارتا» انما انتزعتها الأشراف من الملك بغير تفكير في مصلحة الشعب بل لمصلحة الأشراف أنفسهم وللحد من سلطان الملك عليهم ، في فرنسا — قبل الثورة الفرنسية — كان التشريع بأيدي طبقة الأشراف ورجال الدين فأعفوا أنفسهم من الضرائب ومن

الخدمة العسكرية الاجبارية وفرضوها على سائر طبقات الشعب ، في  
الرأسمالية المعاصرة تحكم طبقة الرأسمالين فتشرع لحماية مصالح  
الرأسمالية ضد العمال وحتى ان وضعت في التشريع خصوصا نظرية تبرق  
بألفاظ المساواة أمام القانون فالذى يحدث عمليا أن استطاعة تنفيذ القانون  
هى دائما الى صف الرأسمالى أقرب منها الى صف العامل الصغير ،  
ويستطيع الرأسمالى أن يحشد من القوى الى جانبه ما لا يستطيع العامل ،  
ويستطيع أن يوجه رأى العام بوسائل الاعلام المختلفة التى يملكها الى  
ما ينتفع به هو أكثر من العامل .

فاذا ما انتقلنا من الدول الرأسمالية الى الدول الشيوعية فنجد  
تشريعها يقرر فى صراحة وبغير تمويه أنه قائم على استعلاء طبقة العمال  
وتحطيم الطبقة البورجوازية ومهما تكن طبقة العمال هى الأغلبية فهناك  
فريق آخر ليس التشريع فى صفه بل هو ضده بصراحة وعن عمد  
واصرار .. (٢٢) » .

وما هكذا الاسلام الذى جعل الحاكم حاميا لشريعة الله وقائما على  
حدودها وجعل المجتمع حارسا لهذا الدين يتعاون مع حاكمه وينفذ ارادته  
مادامت من أجل الحفاظ على وحى الله وليس لأحد فى مجتمع الاسلام حق  
التشريع لأن ذلك كله مرده لله وحده الذى خلق الخلق وهو أعلم بمن  
خلق وهو اللطيف الخبير ..

وبذلك ضمن نظام الحكم الاسلامى الأمن والاستقرار والعدالة  
لكل من استظل بظله مهما يكن دينه أو لونه أو جنسه ، وفى التطبيق

(٢٢) التنظيم الحديث للدولة الاسلامية بين الشريعة والقانون —  
محاضرة للدكتور/محمد عبد الله العربى .. بالخرطوم ص ٣٣ .

العملى الواقعى أصدق برهان وأقوم دليل وشهادة حق على أن منهج القرآن فى نظام الحكم لم يلحق به ولم يسبقه نظام سابق أو لاحق ..

#### رابعا - علاقة المجتمع الإسلامى بغيره من المجتمعات :

جرى العرف الدولى - فى القديم والحديث على أن الحياة للأقوى وتجلت هذه الظاهرة فيما يفرضه الأقوياء من ظلم واستغلال واحتقار للضعفاء .. وبرغم ثورة الضمير الإنسانى على هذا الامتهان للكرامة الإنسانية فإن الواقع كان أعمق من هذا الشعور ، فبقى الزمن يضيف الى هذه الحقيقة : حقيقة التظالم بين الأمم تأكيدا يتحدى به ماتجيش به الصدور من الآمال العذاب فى حياة أفضل لبنى الإنسان ..

وجاءت المواثيق الدولية والمنظمات العالمية وأمم الأرض جميعها تدعى لنفسها تحقيق حلم الإنسان فى عدالة الأقوياء للضعفاء وفى تحديد الحقوق والواجبات لشعوب الأرض واعطاء كل ذى حق حقه .. فهل تحقق هذا الحلم أو مازالت شريعة الغاب تحكم الحياة وتوجهها ومازال عالمنا يموج بالفتن والقلق ??

ولعل تناحر العالم فى حريين عالميتين فى أقل من ربع قرن ووقوفه على حافة حرب عالمية ثالثة تطيح بكل التقدم البشرى شاهد صدق على أن العلاقات الدولية وصلت الى حد الامتهان والفوضى والاستهتار بقيمة الحياة الإنسانية . وما تدعيه ديمقراطية الغرب والأمريكان من عظمة علاقاتها بغيرها ووفائها بعهودها ودعوتها العريضة للسلام يدحضه الواقع الذى يقول لهؤلاء : أنتم كاذبون فهذه الحروب التى أشعلتموها وهؤلاء الضحايا الأبرياء الذين أزهقتم أرواحهم وشردتم أطفالهم وأيتم نساءهم بل قتلتم أطفالهم ونساءهم ، وتلك الثروات التى نهبتموها . كل ذلك وأكثر من ذلك يكشف زيف هذه الديمقراطية وعدالتها المدعاة ..

أما المجتمع الشيوعي فحسبه أنه يحاول التسلل للشعوب في خبث من أجل تحويلها الى الشيوعية واثارة الطبقات ونشر الالحاد ، وحسبه أن غير الشيوعي ليس له مكان في هذا المجتمع ، وأن الحرية والمساواة والعدالة بين الناس ليس لها وجود في تلك المجتمعات ..

وحين يقارن هذا كله بمنهج القرآن في تحديد علاقة مجتمع الاسلام بغيره من المجتمعات يبدو هذا المنهج سامقا عظيما لا يطاول سواء في بواعث هذه العلاقات أو في واقعها الذي سعدت به الدنيا ، وما أحوجها أن تسعد به من جديد فأمة القرآن التي أخذت وضعها الدولي على أرض المدينة انطلقت تجاهد العالم وترده الى منهاج الله فمن قبل منها هذا المنهج سالمته وتركته وما يدين به ومن وقف في طريقها حاربه حتى يحكم الله بينهما وبينه ، وكان لابد لهذه الأمة من سياسة واضحة المعالم تحدد موقفها من كل الأجناس والشعوب، فكان كتاب الله يمدّها بالبيان الواضح الجلي ويرسم لها الطريق في دقة وإحكام ..

ولقد رأت الشعوب جمال الوفاء بالعهود والحفاظ على كل عهد وميثاق ورأت قوما يتحركون باسم الله فلا يخونون ولا يغدرون ، يدعون الى السلام بقولهم وقعلهم • ومن احتّمى بحماهم من أهل الأديان الأخرى له من الحقوق بما للمسلمين وليس عليه الا الجزية أو الخراج وأن يحفظ عهد المسلمين فلا يعتدى عليهم ولا يحالف عدوهم •

ولقد عاش اليهود والنصارى وغيرهم في ظل دولة الاسلام فاستمتعوا بما أتاحه هذا الدين لكل من استظل بظله من الأمان والسلام، كما جاور هذا الدين كثير من أمم الأرض فما وجدت من مجتمع الاسلام غير العدالة والوفاء ، وفاء تابع من عقيدة المسلمين وإيمانهم

بخالفهم ، وهى العدالة التى تحمىها القوة والوفاء الذى يحرسه الرجال .  
والحقوق المصونة المحفوظة لكل انسان ..

هذا فوق ما عرف لهذا المنهج من دعوته السلمية لأهل الكتاب  
وغيرهم من أهل الأديان الأخرى وكيف أقام الحجة الواضحة على خطأ  
ما يعتقدون وبين لهم الطريق الواضح المستقيم وبرغم ما يمتلكه من  
وسائل القوة التى يستطيع بها أن يجبر هؤلاء على الايمان بمبادئه فانه  
لم يفعل ذلك انما كانت سياسته :

كما قال تعالى :

« أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ  
وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ  
عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »<sup>(٢٣)</sup>

وكما قال :

« قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا  
وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ  
بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا  
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ »<sup>(٢٤)</sup>

(٢٣) سورة النحل ١٦/١٢٥ .

(٢٤) سورة آل عمران ٣/٦٤ .

فهل وصلت مناهج البشر بما لديها من منظمات عالمية وبما تمتلك من وسائل الذبوع والانتشار وبما يساندها من قوى مادية لم تتيسر لجيل من أجيال الانسانية .. هل وصلت الى هذا الشمول وتلك الاحاطة في تحديد العلاقات الدولية ، وهل بلغت حد الاحكام في تنفيذ القانون الدولي واثاحة الفرصة أمام الشعوب لتحيا آمنة مستقرة كما فعل منهج القرآن ??

انه اذا كان لأتباع كل أمة أن يفاخروا بما لديهم فان أتباع أمة الاسلام لا يدانيهم أحد ، وكيفهم فخرا أن منهجهم القرآنى وصل الى القمة وهو يقرر من ألف وأربعمائة عام كيف يكون وضع المجتمع المسلم حامل رسالة السلام ، وكيف تقوم علاقاته مع شعوب العالم على أساس متين من رعاية مبادئ الاسلام وحفظ حقوق الأخوة الانسانية دون خلط بين هذه وتلك ..

كما وصل هذا المنهج الى القمة وهو يجعل من أبناء الاسلام حماة الحق ، وذادة العدالة ، وأنصار الشعوب المستضعفة فحملوا سلاحهم الذى هدموا به معازل الظلم والطاغوت حتى أشرق نور السلام من حد سيوفهم ، ورأت الأمم المغلوبة فيهم بر النجاة الذى ألقى عنده قلاعها، وما هى الا لحظات من عمر الدهر حتى دانت تلك الأمم بدين الاسلام وتحدثت بلغة القرآن ومن بقى على دينه عاش كريما حرا فى ظل منهج القرآن العظيم وفى ذمة حماته من المسلمين ..

« وبعد »

فلعلنا أن نكون قد وصلنا الى بعض النتائج من خلال هذه الخاتمة ونحن نقارن بين منهج القرآن فى تربية المجتمع والنظم العالمية وعلى



رأسها النظام الرأسمالي والشيوعي .. وأقول بعض النتائج لأن النتائج كلها بدت من خلال البحث ونحن نستعرض منهج القرآن في كل أمر وكل شأن له علاقة بتربية المجتمع ، سواء في الجانب العقائدي أو الأخلاقي أو التنظيم الاجتماعي أو الدولي ، وفي أثناء ذلك تكون المقارنة بين المنهج القرآني وما عداه من مناهج البشر ..

ولقد تبينت عدة حقائق هامة أكدناها في كل موقف ونؤكد هنا هي :

أولاً : أن المنهج القرآني في تربية المجتمع لا يضارعه منهج قديم أو حديث ، وذلك لأنه تخطيط الهى ومنهج ربانى ، ويستحيل أن يتساوى فكر الانسان العاجز القاصر بمنهج الله العليم بما فى الكون ومن فيه والمحيط بالزمن فى أزله وأبده ..

وثانياً : أن الانسانية شقيت وتعذبت كثيراً قبل أن ترى هذا المنهج الالهى فلما سعدت به استراحت وأمنت فترة طويلة من عمرها ..

وثالثاً : غاب هذا المنهج عن الحياة فعاد لها شقاؤها وعذابها ، ولقد وصلت فى هذا العصر الى قمة هذا الشقاء برغم ما تمتلكه من وسائل الراحة وما تفرضه من سلطان على مظاهر الطبيعة وتوجيهها لخير الانسان ..

ورابعاً : أن دول العالم المتقدمة مادياً غرها ما أتاحه لها العلم المادى من سلطان وقوة فتاهت كبرا وافتخرت زوراً بما لديها من فلسفات أقامت على أساسها نظام مجتمعاتها وفاتها أن الشقاء والتعاسة والبؤس نذير خطر فى تلك الأمم مما يبين فساد ما ادعت وبطلان ما قالت ..

وخامسا : أن أمة الاسلام ليس عندها ما تقدمه لهذا العالم المكثود  
 إلا ما قدمته أولا ومن واجبها الذي يفرضه عليها دينها أن تقدمه اليوم ،  
 وذلك هو هذا المنهج العظيم ، اذ بذلك تنال عز الدنيا وسعادة الآخرة  
 وتنقذ البشرية من الدمار الخطير والكارثة المحققة ان استمرت في طريقها  
 المنحرف عن منهج الله ..

وسادسا : هذا المنهج المتكامل لبناء الفرد وبناء الجماعة لا يجوز  
 على الفرد فيجعله آلة صماء ليس لها حق الحياة ولا يعتدى على حق  
 الجماعة فيترك الفرد يطغى ويظلم انما هو الاعتدال الذي اتسم به هذا  
 المنهج وبه كانت أمتنا أمة وسطا تحقق الخير والعدل والسلام لكل من  
 عاش في ظلها ..

وما أحوجنا الى هذا المنهج الرباني في زمن تعالي فيه الباطل وضاعت  
 فيه الحقوق وسلبت الشعوب أرزاقها وأمنها ..

ما أحوجنا الى هذا المنهج الرباني نخوض به معركة الحياة ضد  
 أنصار الظلم ودعاة الفتنة .. وانا ان شاء الله لمنتصرون ..

« وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ \* بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ  
 يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ \* وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ  
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »<sup>(٢٥)</sup>

وحينذاك نسبح بحمد الله كما سبج لهذا النصر من أرسى قواعد  
 المنهج العظيم صلوات الله وسلامه عليه وذلك اذ قال ربه :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ \* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ  
 فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا \* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ  
 كَانَ تَوَّابًا » (٢٦)

• وصدق الله العظيم •

• وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين •

• وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين •

## أهم المراجع

المراجع المذكورة هنا هي التي وردت في هوامش البحث وأسهمت فيه اسهاما مباشرا وقد رتبها ترتيبا هجائيا بعد اسقاط حرف التعريف « ال » اما التي اعتمد عليها البحث اعتمادا غير مباشر فلم تذكر ..

١ - أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الاسلام : للأستاذ عبد الحليم الجندى - طبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

٢ - اجمال الكلام في العرب والاسلام : للأستاذ مصطفى الديماطي - طبعة المطبعة الجامعة ١٣١٣ هـ .

٣ - أحكام الأسرة في الاسلام ، د. محمد سلام مذكور - طبعة دار النهضة العربية ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

٤ - احياء علوم الدين : لحجة الاسلام أبي حامد الغزالي طبعة المطبعة العثمانية المصرية ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م . الطبعة الأولى .

٥ - الأخلاق : للأستاذ أحمد أمين . الطبعة الثالثة . دار الكتب ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م .

٦ - الأخلاق : لصول سميلز . تعريب الأستاذ محمد الصادق حسين . مطبعة الاعتماد . ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م .

٧ - أدب الدنيا والدين : لأبي الحسن علي بن حبيب المصري الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ الطبعة السادسة . بالمطبعة الأميرية بالقاهرة . ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٥ م .

٨ - أركان الاسلام الخمسة وأثرها في حياة الأفراد والجماعات :  
للدكتور يحيى أحمد الدرديرى • الطبعة الثانية بالمطبعة السلفية ١٣٧١هـ  
- ١٩٥١ م •

٩ - الاسلام دين المستوى الفاضل في الانسانية : محاضرة للدكتور  
محمد البهى بجامعة الأزهر ٢٧ شوال ١٣٧٨هـ - ١٥ مايو ١٩٥٩ م •  
١٠ - الاسلام عقيدة وشريعة : للأستاذ الأكبر الشيخ محمود  
شلتوت • طبعة دار القلم بالقاهرة •

١١ - الاسلام في حياة المسلم : للدكتور محمد البهى طبعة دار  
الفكر ببيروت •

١٢ - الاسلام في عصر العلم : محمد فريد وجدى • مطبعة التركى  
سنة ١٣٢٠هـ •

١٣ - الاسلام والتعاون : للأستاذ عبد المنعم حمادة • اصـدار  
المجلس الأعلى للشئون الاسلامية - لجنة التعريف بالاسلام • • الكتاب  
٤١ فى سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨ م •

١٤ - الاسلام والوجود الدولى للمسلمين ، للشيخ محمود شلتوت  
- سلسلة الثقافة الاسلامية العدد الثالث - نوفمبر ١٩٥٨ م •

١٥ - اشتراكية الاسلام : دكتور مصطفى السباعى • الطبعة  
الثانية بمطابع الدار القومية للطباعة والنشر سلسلة اخترت لك العدد  
١١٣ •

١٦ - الشفاء : لأبى الفضل القاضى عياض بن موسى الأندلسى من  
علماء القرن السادس الهجرى الطبعة الأخيرة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠ م •

- ١٧ - الأغاني : لأبى الفرج الأصفهاني • الطبعة الأولى بمطبعة الجمهور بمصر سنة ١٣٢٣ هـ •
- ١٨ - الانسان في القرآن : للأستاذ عباس محمود العقاد • طبعة دار الهلال •
- ١٩ - أهل الذمة في الاسلام : تأليف دكتور : أ.س. • ترتون الأستاذ بجامعة لندن • ترجمة وتعليق دكتور حسن حبشي • الطبعة الثانية ١٩٦٧ • دار المعارف - مطبعة الشاعر •
- ٢٠ - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع : لأبى بكر بن مسعود الكاساني الحنفى المتوفى سنة ٥٨٧ هـ • الطبعة الأولى ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م • مطبعة الجمالية بمصر •
- ٢١ - بداية المجتهد ونهاية المقتصد : للشيخ أبى الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي • نشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م •
- ٢٢ - البداية والنهاية : لابن كثير • اسماعيل بن عمر القرشي • دمشق المتوفى سنة ٧٧٤ هـ • مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٨ م •
- ٢٣ - البناء الاجتماعى : مدخل لدراسة المجتمع : د. أحمد أبوزيد • مطبعة الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ م •
- ٢٤ - بروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم التلمود : لشوقي عبد الناصر • الطبعة الثانية ١٩٦٧ • دار التعاون للطباعة والنشر بالقاهرة •
- ٢٥ - تاريخ آداب اللغة العربية : لجرحى زيدان • طبعة دارالهلال • ١٩٥٧ م •

- ٢٦ - تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى : د. حسن ابراهيم حسن الطبعة الثانية ١٩٤٨ م .
- ٢٧ - تاريخ الأمم والملوك : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ٢٢٤ - ٣١٠ هـ . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .
- ٢٨ - تاريخ التمدن الاسلامى : لجرى زيدان . الطبعة الثانية دار الهلال .
- ٢٩ - تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية : للمستشرق الألماني : يوليوس فلهوزن - ترجمة د. عبد الهادى أبو ريده . الطبعة الثانية ١٩٦٨ م .
- ٣٠ - تاريخ الفتح الاسلامى فى عهد الرسول وعصر الراشدين وبنى أمية : للأستاذ محمد فخر الدين . طبعة مطبعة الطلبة بمصر .
- ٣١ - الترغيب والترهيب : للإمام عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ . الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م . مطبعة الحلبي بمصر .
- ٣٢ - تطور الفكر التربوى : د. سعد مرسى أحمد - نشر عالم الكتب بالقاهرة . طبعة دار الثقافة العربية . مارس ١٩٦٦ م .
- ٣٣ - التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام : للشيخ محمد الغزالى - نشر دار الكتاب العربى بمصر .
- ٣٤ - تفسير ابن كثير : المسمى تفسير القرآن العظيم : لأبى الفداء اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ . طبعة دار احياء الكتب العربية بمصر .

- ٣٥ - تفسير أبي السعود : المسمى : ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم : لأبى السعود محمد بن محمد العمادى المولود سنة ٨٩٦هـ والمتوفى ٩٥١هـ - مطبعة صبيح ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م .
- ٣٦ - تفسير البيضاوى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، لأبى الخير عبد الله بن عمر البيضاوى المتوفى ٧٩١هـ . وبالهامش تفسير الجلالين : السيوطى والمحلى الطبعة الأولى ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م . بمطبعة الحلبي بمصر .
- ٣٧ - تفسير الرازى : مفاتيح الغيب : للفخر الرازى - الطبعة الأولى ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م . بالمطبعة البهية المصرية .
- ٣٨ - تفسير سورة الانفال : عرض وتفسير : للدكتور مصطفى أبو زيد - الطبعة الثالثة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م . طبعة دار الفكر العربى بمصر .
- ٣٩ - تفسير سورة النور : لأبى الأعلى المودودى . تعريب محمد عاصم حداد - طبعة دار الفكر بيروت .
- ٤٠ - تفسير الطبرى : جامع البيان عن تأويل القرآن . لأبى جعفر محمد ابن جرير الطبرى . المطبعة الأميرية ١٣٢٧ هـ .
- ٤١ - تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، لأبى عبد الله محمد ابن أحمد الأنصارى القرطبى . طبعة دار الشعب .
- ٤٢ - تفسير الكشف : حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل . لأبى القاسم جاد الله ، محمود بن عمر الزمخشري ٤٦٧ - ٥٣٨ مطبعة الحلبي بمصر ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨م .
- ٤٣ - تفسير المنار : المسمى تفسير القرآن الكريم : للسيد رشيد رضا - الطبعة الأولى بدار المنار سنة ١٣٢٥هـ .



- ٤٤ - تفسير النسفى : مدارك التنزيل وحقائق التأويل : لأبى عبد الله أحمد بن محمود النسفى - طبعة الحلبي بمصر .
- ٤٥ - تنظيم الاسلام للمجتمع : للشيخ محمد أبو زهرة - طبعة دار الفكر العربى بمصر ١٩٦٥ م .
- ٤٦ - التنظيم الحديث للدولة الاسلامية بين الشريعة والقانون : محاضرة للدكتور محمد عبد الله العربى - بدار الثقافة . بالخرطوم فى يوم الثلاثاء ٢٤ ذو العقدة ١٣٨٨ هـ ١١ فبراير ١٩٦٩ م .
- ٤٧ - جامع بيان العلم وفضله : للامام أبى عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي المتوفى ٤٦٣ هـ صححه وراجع أصوله د. عبد الرحمن محمد عثمان . الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م - مطبعة العاصمة بالقاهرة .
- ٤٨ - الجامع الصحيح ، سنن الترمذى . لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة ٢٠٩ - ٢٩٧ تخريج محمد فؤاد عبد الباقي . طبعة الحلبي الأولى ١٩٣٧ م .
- ٤٩ - الجهاد فى سبيل الله : لأبى الأعلى المودودى . طبعة دار الفكر ببيروت .
- ٥٠ - حاشية الجمل على الجلالين : الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية : تأليف سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ . وبالهامش كتابان : تفسير الجلالين واملأ ما من به الرحمن من وجوه الأعراب والقراءات فى جميع القرآن للعكبرى . مطبعة حجازى بالقاهرة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م .
- ٥١ - الحرية فى الاسلام : للدكتور على عبد الواحد وافي . طبعة دار المعارف بمصر فى أبريل ١٩٦٨ م . سلسلة أقرأ العدد ٣٠٤ .

- ٥٢ - حقائق الاسلام وأباطيل خصومه : عباس محمود العقاد  
الطبعة الثالثة دار القلم ١٩٦٦ •
- ٥٣ - حقوق أهل الذمة في الدولة الاسلامية: لأبي الأعلى المودودي  
طبعة دار الفكر « بيروت » •
- ٥٤ - حقوق المرأة في التشريع الاسلامي والدولي والمقارن : حسنى  
نصار • الطبعة الثانية دار نشر الثقافة بالاسكندرية •
- ٥٥ - حياة محمد : للأستاذ محمد حسين هيكل • الطبعة الرابعة  
١٩٤٧م • مطبعة مصر •
- ٥٦ - الخراج في الدولة الاسلامية حتى منتصف القرن الثالث  
الهجرى ، د. محمد ضياء الدين الرئيس • الطبعة الأولى ١٩٥٧ مكتبة  
نهضة مصر بالقاهرة •
- ٥٧ - خلاصة تاريخ العرب : لسيدى • الطبعة الأولى ١٣٠٩هـ  
مطبعة محمد أفندى مصطفى بمصر •
- ٥٨ - دراسات موضوعية تحت ضوء القرآن والسنة : دكتور  
عبد الغنى الراجحى • مطبعة المعرفة بمصر •
- ٥٩ - دراسات في تاريخ الشرق القديم : للأستاذ أحمد فخرى •  
نشر مكتبة الانجلو المصرية - دار ميفيس للطباعة • ديسمبر ١٩٥٨م •
- ٦٠ - دعوة التوحيد • حقيقتها • الأدوار التى مرت ، مشاهير  
دعاتها : للأستاذ محمد خليل هراس • مطبعة الامام بمصر •
- ٦١ - الدعوة الاسلامية دعوة عالمية : للأستاذ محمد الراوى •  
طبعة الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥م •

- ٦٢ - الدعوة الى الاسلام : سير توماس أرنولد • ترجمة د. حسن ابراهيم حسن وآخرين الطبعة الثانية للجنة البيان العربى سنة ١٩٥٧ م •
- ٦٣ - دلائل التوحيد : للشيخ محمد جمال الدين القاسمى - الطبعة الثانية - لجمعية النشر والتأليف الأزهرية •
- ٦٤ - الربا : لأبى الأعلى المودودى تعريب محمد عاصم حداد مطبعة دار الفكر : بيروت •
- ٦٥ - الربا : للدكتور عيسى عبده ابراهيم • محاضرة بملحق مجلة لواء الاسلام العدد ١١ السنة ١٤ - رجب ١٣٨٠ هـ •
- ٦٦ - رسالة التوحيد : للامام الشيخ محمد عبده • الطبعة الثانية - اصدار دار المنار بمصر سنة ١٣٨٦ هـ •
- ٦٧ - الرسالة المحمدية : للسيد سليمان الندوى - المطبعة السلفية ١٣٧٢ هـ •
- ٦٨ - روح الدين الاسلامى : لعفيف عبد الفتاح طباره - الطبعة السادسة فى ٢١ جمادى الثانية ١٣٨٤ هـ طبعة دار الكتب • بيروت •
- ٦٩ - زاد المعاد فى هدى خير العباد : للامام ابن قيم الجوزية المتوفى فى ١٣ رجب سنة ٧٥١ هـ - المطبعة المصرية فى رمضان ١٣٧٩ هـ •
- ٧٠ - سبل السلام : لمحمد بن اسماعيل الكحلانى ثم الصنعانى ١٠٥٩ - ١١٨٢ هـ • شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام لأحمد ابن على العسقلانى ٧٧٣ هـ - ٨٥٢ هـ • طبعة الحلبي الرابعة ١٩٦٠ م •
- ٧١ - سنن أبى داود بشرح الخطابى : الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م • المطبعة العلمية بحلب •

- ٧٢ - سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية الامام السندي -  
المطبعة المصرية . الطبعة الأولى ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م .
- ٧٣ - السياسة الشرعية في اصلاح الراعى والرعية : لأبى العباس  
أحمد بن تيمية ٦٦١ - ٧٢٨ هـ تحقيق محمد ابراهيم البنا ، محمد أحمد  
عاشور . طبعة دار الشعب بالقاهرة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م .
- ٧٤ - السياسة الشرعية أو نظام الدولة الاسلامية فى الشئون  
الدستورية الخارجية والمالية : للأستاذ عبد الوهاب خلاف . طبعة  
المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٥٠ هـ .
- ٧٥ - سيرة ابن هشام : للإمام عبد الملك بن هشام البصرى المتوفى سنة  
٢١٣ هـ وهى هامش كتاب الروض الأنف للإمام السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ هـ  
طبعة مطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م .
- ٧٦ - سيرة عمر بن عبد العزيز : لأبى محمد عبد الله بن الحكم  
المتوفى سنة ٢١٤ هـ الطبعة الثانية فى جمادى الآخرة ١٣٧٣ هـ - فبراير  
١٩٥٤ م مطبعة الاعتماد بمصر .
- ٧٧ - شرح المقاصد : لسعد الدين التفتازانى الطبعة الأولى بالمطبعة  
الخيرية بمصر .
- ٧٨ - الشورى فى الاسلام : تشريعا وتطبيقا : مقال للأستاذ  
عبد الكريم الخطيب بمجلة الوعى الاسلامى السنة السادسة العدد ٦٩  
رمضان ١٣٩٠ هـ .
- ٧٩ - صحيح البخارى بشرح ابن حجر مطبعة الخليلي ١٣٧٨ هـ -  
١٩٥٩ م .

- ٨٠ - صحيح مسلم بشرح النووي : الطبعة الأولى ١٣٤٧ هـ -  
١٩١٩ م المطبعة المصرية بالأزهر .
- ٨١ - صيد البشر : مقال للدكتور حسين مؤنس بجريدة الأهرام  
في ١٩/٢/١٩٧١ م .
- ٨٢ - الطاقة الانسانية للأستاذ أحمد حسين مطبعة مصر ١٩٦٢ م .
- ٨٣ - عبقرية محمد للأستاذ عباس محمود العقاد طبعة دار الهلال  
١٩٦٩ م .
- ٨٤ - العرب وأطوارهم : للأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي  
الطبعة الأولى بمطبعة الجمالية .
- ٨٥ - العقد الفريد : لأبي عمر : أحمد بن محمد بن عبد ربه  
الأندلسي طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م .
- ٨٦ - العناية في شرح الهداية : للإمام محمد بن محمود البابرسي  
المتوفى سنة ٧٨٦ هـ وهو هامش شرح فتح القدير لابن الهمام الطبعة الأولى  
بالمطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٥ هـ .
- ٨٧ - فتح البيان في مقاصد القرآن ، لصديق حسن خان المتوفى  
سنة ١٣٠٧ هـ مطبعة العاصمة بالقاهرة ١٩٦٥ م .
- ٨٨ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير :  
للشوكاني : محمد بن علي بن محمد الشوكاني الصنعاني المتوفى في جمادى  
الآخرة ١٢٥٠ هـ طبعة الحلبي الأولى في شوال ١٣٤٩ هـ .
- ٨٩ - فتوح البلدان : للبلاذري أحمد بن يحيى بن جابر - طبعة  
أولى ١٣١٩ هـ ، ١٩٠١ م شركة طبع الكتب العربية بمصر .

- ٩٠ - فجر الاسلام للأستاذ أحمد أمين الطبعة الثانية ١٩٣٣م -  
 مطبعة الاعتماد .
- ٩١ - الفصل في الملل والاهواء والنحل للإمام أبي محمد علي  
 ابن أحمد بن حزم الظاهري المتوفى سنة ٤٥٦ طبعة المطبعة الأميرية الأولى  
 سنة ١٣١٧هـ .
- ٩٢ - الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور  
 محمد البهي الطبعة الخامسة ١٩٧٠م - دار الفكر بيروت .
- ٩٣ - الفكر الاسلامي والتطور : للأستاذ فتحي عثمان طبعة  
 دار القلم بالقاهرة .
- ٩٤ - الفلسفة الأخلاقية في الفكر الاسلامي : د. أحمد محمود  
 صبحي طبعة دار المعارف بمصر .
- ٩٥ - الفلسفة القرآنية : للعقاد . كتاب الهلال العدد ٢٢٩ ذو  
 الحجة ١٣٨٩هـ مارس ١٩٧٠م .
- ٩٦ - الفلسفة اليونانية : أصولها وتطوراتها : للبير ريفو .  
 ترجمة د. عبد الحليم محمود وأبو بكر ذكرى - مكتبة دار العروبة .
- ٩٧ - في الدين والأخلاق والقومية : د. محمد عبد الله دراز -  
 جمعها وقدم لها السيد محمد البدوي أستاذ الاجتماع بجامعة الاسكندرية
- ٩٨ - القاموس المحيط ، للفيروزابادي الطبعة الأولى ١٣٣٠هـ  
 بالمطبعة الحسينية المصرية .
- ٩٩ - قيام الدولة العربية الاسلامية في حياة محمد صلى الله عليه  
 وسلم د. محمد جمال الدين سرور - الطبعة الثانية ١٩٥٦ - مطبعة  
 الاعتماد .

١٠٠ - كتاب الأضنام : لابن المنذر هشام بن السائب الكليمي  
 - تحقيق احمد زكى باشا - المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م  
 ١٠١ - كتاب الأموال : لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة  
 ٢٢٤هـ تحقيق محمد خليل هراس . طبعة ثانية ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م دار  
 الفكر بالقاهرة .

١٠٢ - كتاب الخراج : للقاضى ابى يوسف : يعقوب بن ابراهيم  
 صاحب أبى حنيفة المطبعة السلفية ١٣٥٢هـ .

١٠٣ - الكتاب المقدس : « كتب العهد القديم والعهد الجديد »  
 طبعة دار حلمى للطباعة . نشر دار الكتاب المقدس بالقاهرة .

١٠٤ - الله : لعباس محمود العقاد كتاب الهلال العدد ٢٠٧ - ربيع  
 الأول ١٣٨٨هـ - يونيو ١٩٦٨م .

١٠٥ - الله والانسان : د. مصطفى محمود . طبعة دار الجمهورية  
 بالقاهرة ١٩٥٧م العدد ١١٣ من سلسلة كتب للجميع .

١٠٦ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : للسيد أبى الحسن  
 على الحسنى الندوى الطبعة الثالثة مطبعة المدنى - المؤسسة السعودية  
 بصر سنة ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م .

١٠٧ - مبادئ نظام الحكم فى الاسلام مع المقارنة بالمبادئ  
 الدستورية الحديثة : د. عبد الحميد متولى الطبعة الأولى - دار  
 المعارف ..

١٠٨ - مباهج الفلسفة ، ول ديورانت تقديم د. ابراهيم مذكور  
 ترجمة د. احمد فؤاد الأهوانى مطبعة مصر ١٩٥٧م طبعة الثانية .

- ١٠٩ - المجتمع الاسلامى : د. أحمد شلبى الطبعة الثانية ١٩٦٧م  
ط. دار الاعتماد العربى للطباعة نشر النهضة المصرية \*
- ١١٠ - محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية : للشيخ محمد  
الخضرى بك طبعة الرابعة ١٣٥٤هـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة \*
- ١١١ - المحلى : لابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ الطبعة الأولى ١٣٤٧  
إدارة الطباعة المثيرة \* تحقيق الأستاذ أحمد شاکر \*
- ١١٢ - المرأة فى القرآن والسنة ومركزها فى الدولة والمجتمع  
وحياتها الزوجية المتنوعة وواجباتها وآدابها : للأستاذ محمد عزة دروزه  
ط الثانية ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر -  
صيدا - بيروت \*
- ١١٣ - مروج الذهب ومعادن الجوهر : للسعودى أبى الحسن  
على الحسين بن على السعودى المتوفى عام ٣٤٦هـ \* تحقيق محمد محيى  
الدين عبد الحميد ط الرابعة فى ١٣٨٤هـ مايو ١٩٦٤م مطبعة السعادة \*
- ١١٤ - المساواة فى الاسلام : د. على عبد الواحد وفى ط الثالثة  
ديسمبر ١٩٦٥م طبعة دار المعارف بمصر سلسلة اقرأ العدد ٢٣٥ \*
- ١١٥ - المستدرک للحاکم : أبى عبد الله / محمد بن عبد الله  
المعروف بالحاکم النيسابورى المتوفى فى صفر ١٤٥هـ ط مطابع النصر  
الحديثة \*
- ١١٦ - المسند : للإمام أحمد بن حنبل ١٦٤ - ٢٤١هـ شرحه  
ووضع فهارسه احمد شاکر \* دار المعارف بمصر سنة ١٣٦٩ - ١٩٤٩م \*



١١٧ - مشكاة المصابيح : للعلامة الخطيب التبريزي وبهاشه  
شرح مشكاة المصابيح لعلی القاری طبعة الخطیب الأولى - شوال سنة  
١٣٠٦ •

١١٨ - مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول لأحمد ابراهيم  
الشریف - مطبعة مخیر نشر دار الفكر العربی •

١١٩ - الملل والنحل ، للشهرستاني : محمد بن عبد الكريم  
٤٧٩ - ٥٤٨ هـ تحقيق محمد سيد الكيلاني - ط الحلبي بمصر ١٣٨٧ هـ  
١٩٦٧ م •

١٢٠ - منهاج الانقلاب الاسلامی : لأبي الأعلى المودودي ط دار  
الفكر بیروت •

١٢١ - منهج القرآن في بناء المجتمع : للشيخ محمود شلتوت -  
اصدار وزارة الأوقاف في شوال ١٣٧٥ هـ - الرسالة الخامسة •

١٢٢ - من هنا نبدأ : لخالد محمد خالد : ط العاشرة مارس  
١٩٦٣ م مكتبة المثني ببغداد نشر وتوزيع مؤسسة الخانجي بالقاهرة •

١٢٣ - المواهب اللدنية : للعلامة القسطلاني شرح الزرقاني ط  
الأولى بالمطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٥ هـ •

١٢٤ - موجز تاريخ العالم : ه.ج. ويلز ترجمة عبد العزيز  
توفيق ومراجعة محمد مأمون ط دار النهضة المصرية •

١٢٥ - نشأة الدولة الاسلامية : للأستاذ أمين سعيد ط ١٩٣٤ م •

١٢٦ - نظام الأسرة وحل مشكلاتها في ضوء الاسلام  
د. عبد الرحمن الصابوني طبعة دار الفكر بیروت •

- ١٢٧ - نظام الحكم في الاسلام : د. محمد يوسف موسى ط الثانية  
١٩٦٤م دار المعرفة بمصر .
- ١٢٨ - نظام الحياة في الاسلام : لأبي الأعلى المودودي ط دار  
الفكر - بيروت .
- ١٢٩ - نظرية الاسلام السياسية ، لأبي الأعلى المودودي ط دار  
الفكر - بيروت .
- ١٣٠ - النظريات السياسية الاسلامية : د. محمد ضياء الدين  
الريس ط الرابعة ١٩٦٦ - دار المعارف بمصر .
- ١٣١ - النفحة الملوكية في أحوال الأمة العربية الجاهلية للسيد  
عمر نور الدين القلوصي الأزهرى . ط الأولى ١٨٩٤م مطبعة جريدة  
المهندس بمصر .
- ١٣٢ - النهاية في غريب الحديث والأثر : لابن الأثير ومعه الدر  
النشير تلخيص ابن الأثير للسيوطي وبالهامش : مفردات .
- الراغب الأصفهاني في غريب القرآن وتصنيفات المحدثين  
في غريب الحديث للحسن العكبرى . ط الأولى ١٣٣٣هـ - المطبعة  
الخيرية بمصر .
- ١٣٣ - نيل الأوطار : لمحمد بن علي الشوكاني ط الأولى بمطبعة  
بولاق في رمضان ١٢٩٧هـ .
- ١٣٤ - هذا ديننا : للشيخ محمد الغزالي ط الثانية ١٣٨٥هـ -  
١٩٦٥م مطبعة السعادة .

## محتويات الكتاب

صفحة	الموضوع
٥	تقديم
١٣	تمهيد : دراسة موجزة - للمجتمع العربى والعالمى قبيل نزول القرآن
١٥	الحاجة الى التغيير
١٦	أولاً - المجتمع العربى :
١٦	( أ ) أحواله الاجتماعية
٢٤	( ب ) الوضع السياسى
٣٠	( ج ) الوضع الاقتصادى
٣٣	( د ) حالتهم الدينية والفكرية
٤٧	( هـ ) مؤهلات العرب لحمل الرسالة
	ثانياً - المجتمع العالمى
٥٣	( أ ) بنو اسرائيل
٥٩	( ب ) المسيحية والامبراطورية الرومانية
٦٧	( ج ) بلاد فارس
٧١	( د ) الهند
٧٥	( هـ ) الصين
٧٧	( و ) نظرة عامة
٨١	ثالثاً - استنتاج

## الموضوع

## الباب الأول

## القرآن والعقيدة

## الفصل الأول :

٨٥	وجود الله ووحدانيته
٨٧	دين الهداية
٩١	أولا - دلائل وجود الله ووحدانيته :
٩١	١ - الانسان
٩٥	٢ - عالم الحيوان
٩٨	٣ - عالم النبات
١٠١	٤ - عالم الكواكب
١٠٥	٥ - الرياح
١٠٨	٦ - من دلائل الوحدانية : الأرض
١١٣	ثانيا - وقفة مع الملحدين
١١٨	ثالثا - وقفة مع المشركين :
١١٨	( أ ) التوحيد دعوة الأنبياء
١٢٢	( ب ) خطاب للمشركين
١٢٩	( ج ) تهديد لهم
١٣٣	( د ) مفارقة ضخمة
١٣٥	( هـ ) هل يمكن أن يكون لله شريك ؟
١٣٩	وهذا هو الطريق

## الفصل الثاني :

١٤٥	ثلاثة عشر عاما في مكة لإقرار العقيدة
-----	--------------------------------------

## الموضوع

## الباب الثاني

## القرآن والتربية الأخلاقية

## الفصل الأول :

- الارتباط الأخلاق بالعقيدة : ١٥٥
- ١ - العقيدة وأثرها في النفس ١٥٧
- ٢ - العقيدة الصحيحة يتبعها السلوك الصحيح ١٥٩
- ٣ - أخلاق - وأخلاق ١٦٤
- ٤ - الترابط بين الأخلاق والعقيدة ١٨٠

## الفصل الثاني :

- العبادات أسلوب للتربية ١٨٧
- ١ - المقصود بالعبادات ١٨٩
- ٢ - الصلاة .. والتربية الأخلاقية ١٩١
- ٣ - الزكاة وتطهيرها للنفس ٢٠٤
- ٤ - الصوم منهج أخلاقي ٢١٥
- ٥ - الحج .. والتربية الأخلاقية ٢٢٠
- ٦ - العبادات : هدف .. ووسيلة ٢٢٨

## الفصل الثالث :

- أخلاق الاسلام وكيف غرسها في النفوس ٢٣٥
- ١ - الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٣٧
- ٢ - بين الترغيب والترهيب ٢٤٩
- ٣ - البيئة ٢٦٤

صفحة

## الموضوع

٢٧٢

٤ - الطفولة

٢٧٧

٥ - احياء انسانية الانسان

## الباب الثالث

## القرآن والبناء الاجتماعي

٢٨٩

مدخل

## الفصل الأول :

## نظام الأسرة

٢٩٣

١ - أساس البناء

٢٩٥

٢ - الزواج رحمة

٢٩٧

٣ - الزواج ميثاق وعهد

٣٠٠

٤ - عشرة خالدة

٣٠٥

٥ - دعائم السعادة

٣١٢

٦ - تباغض موهوم

٣٢٢

٧ - النشوز ..

٣٢٤

٨ - الطلاق ..

٣٣٠

٩ - تعدد الزوجات

٣٣٥

(أ) الحرائر

٣٣٥

(ب) ملك اليمين والرقيق

٣٣٨

١٠ - الأصول والفروع

٣٤٢

## الفصل الثاني :

## التكافل الاجتماعي

٣٥١

١ - منابع التكافل وآفاقه

٣٥٣

٢ - ألوان التكافل و ضماناته :

٣٥٨

صفحة

الموضوع

٣٥٨	أولا - التكافل الأدبي
٣٥٩	اثنيا - التكافل السياسى
٣٦٠	ثالثا - التكافل الدفاعى
٣٦٢	رابعا - التكافل الجنائى
٣٦٥	خامسا - التكافل الأخلاقى
٣٦٨	سادسا - التكافل الاقتصادى
٣٧١	سابعا - التكافل العبادى
٣٧٢	ثامنا - التكافل العلمى
٣٧٤	تاسعا - التكافل الحضارى
٣٧٨	عاشرا - التكافل العائلى
٣٨١	الحادى عشر - التكافل المعيشى
٣٨٢	تشريعات التكافل المعيشى

### الفصل الثالث :

#### المعاملات المالية :

٣٩٧	١ - صلة الدين بالمعاملات
٣٩٩	٢ - المال :
٤٠٤	(أ) مكاتته
٤٠٤	(ب) تحصيله
٤٠٨	(ج) تنميته
٤١٥	(د) انفاقه
٤٢٧	٣ - البيع والشراء
٤٣٣	٤ - مكانة المعاملات من الحياة
٤٣٧	

## الفصل الرابع :

## الحرية :

٤٣٩

٤٤١

٤٤٧

٤٥١

٤٦٠

٤٦٠

٤٦٢

٤٦٥

٤٦٧

١ - أساس الحريات

٢ - حرية الانسان

٣ - في سبيل الحرية

٤ - الرق :

(أ) ظروفه وروافده

(ب) منافذ الحرية

(ج) معاملة كريمة

(د) معاملة .. ومعاملة

## الفصل الخامس :

## المساواة :

٤٧٣

٤٧٥

٤٧٨

١ - وحدة الجنس البشرى

٢ - مساواة عادلة

## الفصل السادس :

## نظام الحكم :

٤٩١

٤٩٣

٤٩٥

٥٠٣

٥٠٦

٥١٣

٥٢٣

١ - قواعد ثابتة

(أ) العدل

(ب) الشورى

(ج) مسئولية الحاكم وطاعة المحكومين

٢ - بين النظرية والتطبيق

٣ - نظام الهى فريد



## الباب الرابع

تنظيم القرآن لعلاقة المجتمع الاسلامى بالمجتمعات الأخرى

## الفصل الأول :

العلاقات الدولية في القرآن :

٥٣١

٥٣٣

٥٣٧

٥٤٦

٥٥٠

٥٥٥

٥٦٠

٥٦٨

١٠ - كيان دولى لأمة القرآن :

٢ - الجهاد في سبيل الله

٣ - علاقة حرب أم علاقة سلام ؟

٤ - الجزية .. والخراج

٥ - المعاهدات

٦ - الوفاء بالعهود في العلاقات الدولية

٧ - الاسلام دين السلام

## الفصل الثانى :

القرآن .. وأهل الكتاب

٥٧٧

٥٧٩

٥٩٠

٦٠١

١ - دعوة أهل الكتاب الى الاسلام

٢ - موقف النصارى

٣ - موقف اليهود

٤ - أهل الكتاب في المجتمع الاسلامى :

حقوقهم وواجباتهم

٦١٩

## الفصل الثالث :

القرآن .. وأهل الشرك :

٦٢٥

٦٢٧

٦٣٦

١ - المشركون .. والاسلام

٢ - علاقة المسلمين بهم

الصواب	الخطأ	الصفحة	السطر	الصواب	الخطأ	الصفحة	السطر
قَتَنِينَ	فَنَتِينِ	٢٣١	٨	كَذِبًا	كَذِبًا	١٢٧	١٤
عَلَيْكُمْ	عَلَيْكُمْ	٢٣١	١٠	مِّنْ	مِّنْ	١٢٩	١٥
مِنْكُمْ	مِنْكُمْ	٢٣١	١٣	مِّنْ	مِّنْ	١٣١	١٧
الْآخِرِ	الْآخِرِ	٢٥٣	٩	عَلَّمْ	عَلَّمْ	١٣٢	٥
لَكُمْ	لَكُمْ	٢٥٤	١٣	إِنْ	إِنْ	١٣٢	١٠
مُقِيمٍ	مُقِيمٍ	٢٦١	٧	الرَّحْمَنِ	الرَّحْمَنِ	١٣٤	٢
فَتَيِّتِكُمْ	فَتَيِّتِكُمْ	٢٦٩	٤	يَبْلُوكُمْ	يَبْلُوكُمْ	١٧٥	٥
الْمُحْصَنَاتِ	الْمُحْصَنَاتِ	٢٦٩	٨	النحل ١٦/٩٢٠٩	النحل ١٦/٩٢٠٩	١٧٥	١٧
يُغْنِيهِمْ	يُغْنِيهِمْ	٢٦٩	١٢	الْآخِرِ	الْآخِرِ	١٩٣	٤
غِلَاطٌ	غِلَاطٌ	٢٧٣	١٥	يُمَسِّكُونَ	يُمَسِّكُونَ	١٩٣	١٥
خَلِيقٌ	خَلِيقٌ	٢٨٤	١٤	مِّنْ	مِّنْ	١٩٩	١
يَنْقُضُونَ	يَنْقُضُونَ	٣٠٣	١٦	الصَّلَاةِ	الصَّلَاةِ	٢٠١	١٤
وَزَوْجَتِهِمْ	وَزَوْجَتِهِمْ	٣١٠	١٢	الْمُنْزِلُونَ	الْمُنْزِلُونَ	٢٠٨	٥
صَدَقْتِهِنَّ	صَدَقْتِهِنَّ	٣١٥	١٥	سَخَّرْنَاهَا	سَخَّرْنَاهَا	٢١١	١٣
كَالْمُعَلَّقَةِ	كَالْمُعَلَّقَةِ	٣٣٦	١٥	مِّنْ	مِّنْ	٢١٦	١٩
مِّنْ فَتَيِّتِكُمْ	مِّنْ فَتَيِّتِكُمْ	٣٤٠	٨	إِنْ	إِنْ	٢٢٥	٢
الْإِنْسَنِ	الْإِنْسَنِ	٣٤٣	١٣	لِّلْعَالَمِينَ	لِّلْعَالَمِينَ	٢٢٦	١٧

الصواب	الخطأ	١٢٣٤	١٢٣٤	الصواب	الخطأ	١٢٣٤	١٢٣٤
الْمُقَنْطَرَةِ	الْمُقَنْطَرَةِ	٩	٤٤٥	الْإِنْسَنَ	الْإِنْسَنَ	٢	٣٤٤
بِالطَّغُوتِ	بِالطَّغُوتِ	٧	٤٤٨	الَّذِينَ	الَّذِينَ	١٥	٣٤٥
الْإِنْسَنُ	الْإِنْسَنُ	١٢	٤٧٦	بِالْإِيْمَانِ	بِالْإِيْمَانِ	٥	٣٥٤
وَالَّذِينَ	وَالَّذِينَ	١٣	٤٧٩	مَنْ	مَنْ	١٥	٣٦٢
خَبِيرٌ	خَبِيرٌ	١	٥٠٠	الزَّكَاةَ	الزَّكَاةَ	١٣	٣٦٦
لِنتَ	لِنتَ	١٨	٥٠٣	مِنْكُمْ	مِنْكُمْ	١	٣٦٨
تَأْوِيلًا	تَأْوِيلًا	١٢	٥١٢	تَقْتُلُوا	تَقْتُلُوا	٩	٣٧٠
وَاتَّبِعُوهُ	وَاتَّبِعُوهُ	١١	٥٣٣	حَتَّى	حَتَّى	٩	٣٧٥
الَّذِينَ	الَّذِينَ	١٣	٥٣٨	فَلَکُمْ	فَلَکُمْ	١٦	٣٧٨
يَبْلُوكُمْ	يَبْلُوكُمْ	٦	٥٦٣	مَنْ	مَنْ	٥	٣٧٩
الْبَيْتِ	الْبَيْتِ	١٣	٥٦٤	وَهِيَ	وَهِيَ	١٠	٣٨٩
وَإِنْ	وَإِنْ	١٠	٥٦٦	بِالْغَيْبِ	بِالْغَيْبِ	٨	٤١٠
إِلَيْكُمْ	إِلَيْكُمْ	١٣	٥٧١	إِلَيْهِمْ	إِلَيْهِمْ	١	٤١٢
بِإِلَهِ	بِإِلَهِ	١٩	٦٠٣	الْإِنْسَنُ	الْإِنْسَنُ	١١	٤١٣
تَهْوَى	تَهْوَى	٧	٦٢٧	وَفَكِهَةً	وَفَكِهَةً	١٣	٤١٣
الَّذِينَ	الَّذِينَ	١٥	٦٤١	نَتَوَكَّلْ	نَتَوَكَّلْ	١١	٤٤١

اليداع رقم ٧٩/٤٢٦٦ دولى رقم ٨ - ٢٥ - ١٧٧/٧٣.٢

دار الجيد للطباعة  
٤٠٥٢٩٦ ، شيفون ، اقصير اللؤلؤة - الفجالة  
جمهورية مصر العربية